جيفري أرشير

JEFFREY ARCHER

خطايا الأب

THE SINS OF THE FATHER

مذكرات آل كليفتون

الجزء الثاني

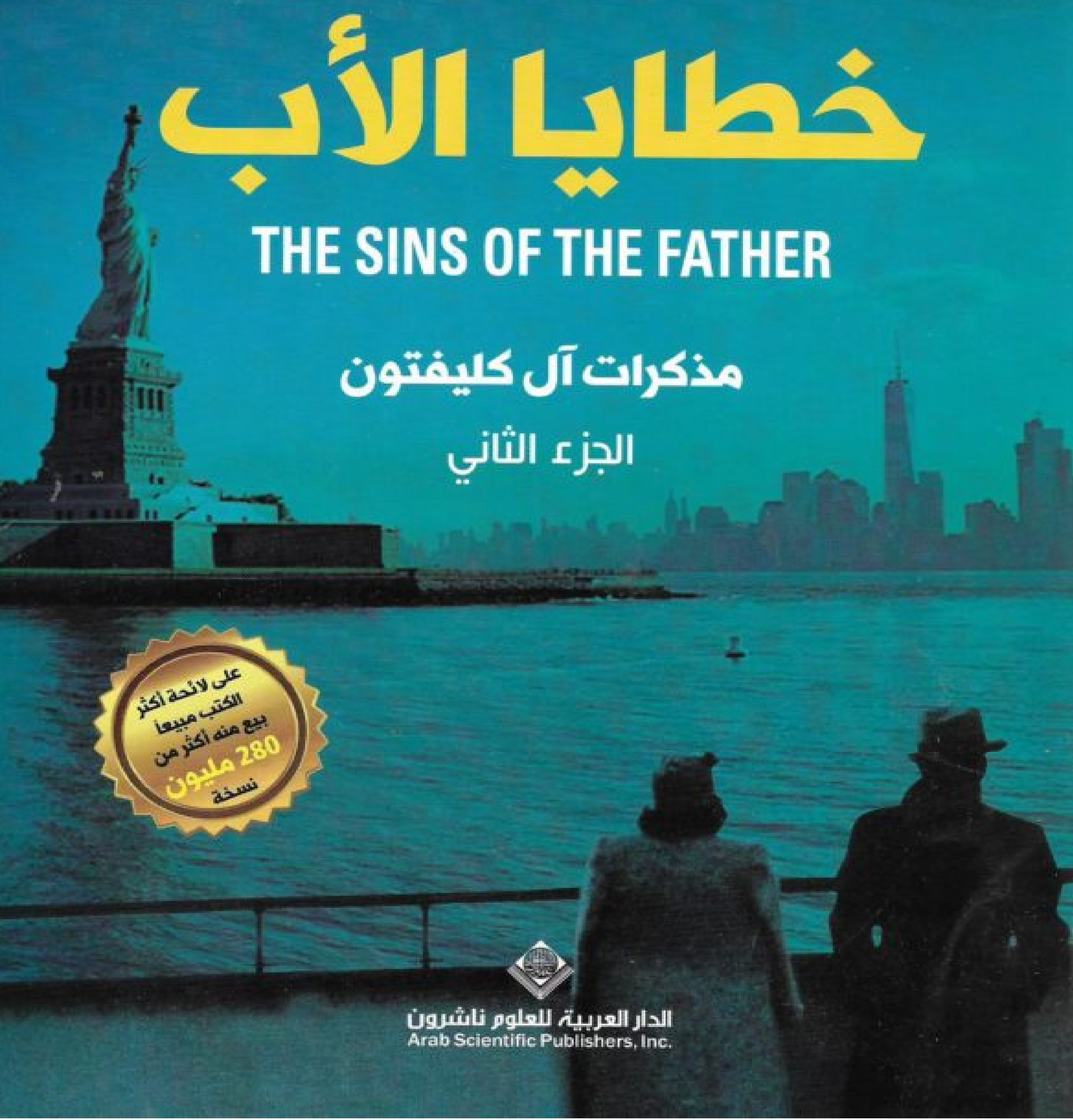

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

خطايا الأب

مذكرات آل كليفتون الجزء الثاني

جيفري أرشير

ترجمة

خليل مجذوب

الطبعة الأولى: حزيران/يونيو 2017م - 1438 هـ

ردمك 978-614-01-2261-1

مكتبة الرمحي أحمد

مكتبة الكندل العربية

آل بارينغتون

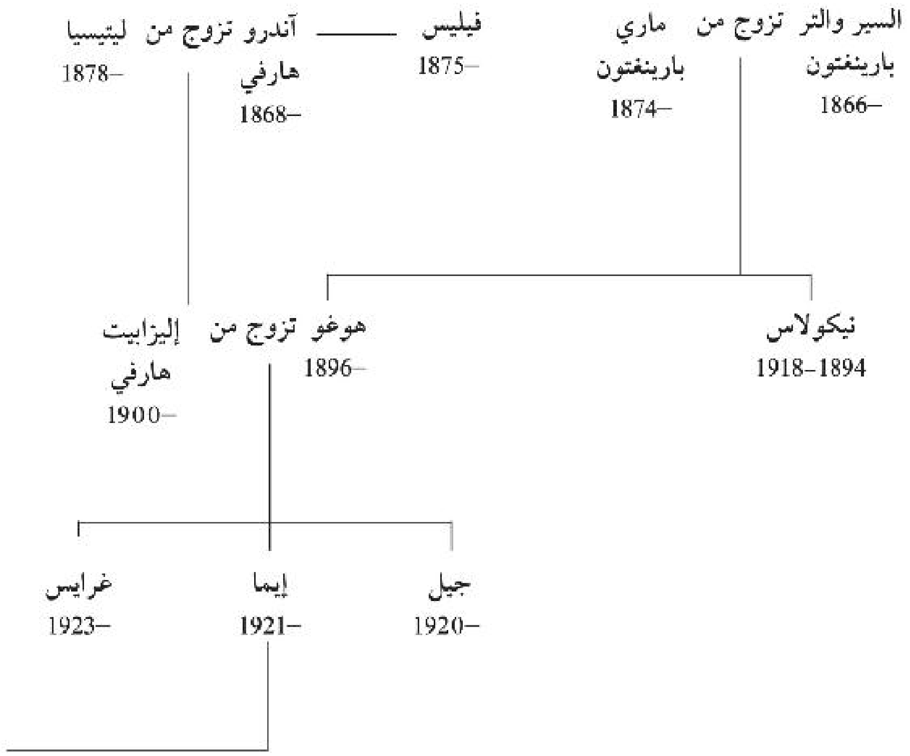

آل كليفتون

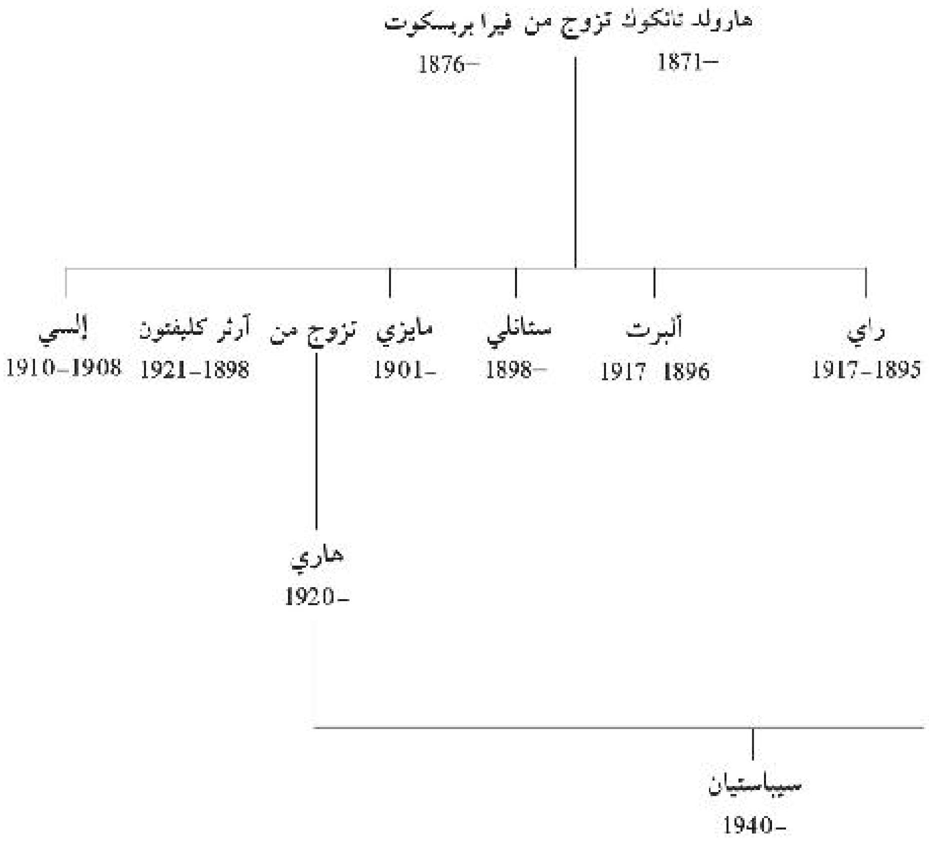
هارولد تانكوك تزوج من فيرا بريسكوت
1871–
1876–
راي
1917-1895
ألبرت
1917 1896
ستانلي
1898–
مايزي
1901–
تزوج من
آرثر كليفتون
1921-1898
إلسي
1910-1908
هاري
1920-
سيباستيان
1940-

هاري كليفتون1939-1941

1

«اسمي هاري كليفتون».

فقال التحري كولوسكي فيما أشعل سيجارته: «طبعاً، وأنا بابيب روث».

عندها، قال هاري: «لا، أنت لم تفهم ما قصدته. ثمة خطأ رهيب. أنا هاري كليفتون، رجل إنكليزي من بريستول. وقد خدمت في السفينة نفسها مع توم برادشو».

فما كان من التحري إلا أن قال: «قل ذلك لمحاميك». ثم زفر الدخان من أنفه، فملأت سحابة من الدخان الزنزانة الصغيرة.

اعترض هاري: «لا أملك محامياً».

«لو كنت مكانك في الورطة نفسها يا عزيزي، لكنت قد فكرت في طلب سيفتون جيلكس ليكون إلى جانبي، فهو حينها سيكون أملي الوحيد».

«ومن هو سيفتون جيلكس؟».

فأجاب التحري فيما نفخ سحابة أخرى من الدخان: «أنت ربما لم تسمع بأهم محامٍ في نيويورك، ولكنّ لديه موعداً لرؤيتك في تمام الساعة التاسعة من صباح الغد. وجيلكس لا يغادر مكتبه إلا إذا تم الدفع له مسبقاً».

عندها، بدأ هاري بالقول: «لكن...»، غير أنّ كولوسكي لم يسمح له بمتابعة كلامه، وضرب براحة يده على باب الزنزانة.

ثم تابع كولوسكي كلامه متجاهلاً مقاطعة هاري له: «إذاً، حين يأتي جيلكس لرؤيتك صباح غد، فمن الأفضل أن تكون قد توصلت إلى رواية مقنعة أكثر من قولك إننا قد اعتقلنا الشخص الخطأ لتبرّئ نفسك. فقد أخبرت موظف الهجرة أنك توم برادشو. وإذا كان هذا الأمر كافياً له، فسيكون كافياً للقاضي أيضاً».

ثم فَتح التحري باب الزنزانة وغادر، ولكن ليس قبل أن يزفر سحابة أخرى من الدخان جعلت هاري يسعل. خرج كولوسكي إلى الرواق من دون أن يضيف أية كلمة، وأغلق الباب خلفه بقوة. عندها، انهار هاري فوق سرير خشبي ملتصق بالجدار، ووضع رأسه على وسادة قاسية مثل الحجر، وراح ينظر إلى السقف ويفكّر في كيفية انتهاء الأمر به في زنزانة الشرطة في الجهة الأخرى من العالم بسبب تهمة قتل.

وقبل وقت طويل من انبلاج نور الصباح وتسلّله عبر قضبان النافذة إلى داخل الزنزانة، فُتِح الباب. ورغم أن الوقت كان مبكّراً، كان هاري مستيقظاً.

دخل حارس السجن الزنزانة حاملاً صينية طعام لن يفكر اتحاد الرعاية الاجتماعية في تقديمه إلى متشرد مفلس. وبعد أن وضع الصينية على الطاولة الخشبية الصغيرة، غادر من دون التفوه بكلمة.

ألقى هاري نظرة على الطعام، ثمّ بدأ يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً. ومع كل خطوة خطاها، ازداد ثقةً بأنه حين يشرح للسيد جيلكس سبب انتحاله هوية توم برادشو، فسيتم حلّ المسألة بسرعة. ولا شك في أن أسوأ عقاب يمكن أن يصدر في حقه هو الترحيل. وبما أنه يرغب أصلاً في

العودة إلى إنكلترا والانضمام إلى القوات البحرية، فلا بد أن يتناسب هذا الحكم مع خطته الأصلية تماماً.

عند الساعة 8:55 صباحاً، كان هاري جالساً على طرف السرير الخشبي، منتظراً ظهور السيد جيلكس بفارغ الصبر. إلا أن الباب الحديدي الضخم لم يفتح إلا عند الساعة التاسعة وعشرين دقيقة. عندها، انتصب هاري واقفاً ما إن فتح حارس السجن الباب وسمح بدخول رجل طويل وأنيق، وذي شعر أشيب. أدرك هاري أنه في مثل عمر جده تقريباً. وكان السيد جيلكس يرتدي بذلة كحلية مخططة، عليها صفّان من الأزرار، مع قميص أبيض وربطة عنق مخططة. وأوحت تعابير وجهه المرهقة أن لا شيء يفاجئه.

قال المحامي وهو يوجّه ابتسامة صغيرة إلى هاري: «صباح الخير، اسمي سيفتون جيلكس. وأنا الشريك الرئيس في شركة جيلكس ومايرز وأبيرناثي للمحاماة. وقد طلب مني زبوناي، السيد والسيدة برادشو، تمثيلك في محاكمتك المقبلة».

عرض هاري على جيلكس الجلوس على الكرسي الوحيد الموجود في زنزانته؛ كما لو أنه صديق قديم زاره في مكتبه في أوكسفورد لتناول كوب من الشاي. ثم جلس هاري على السرير الخشبي، وراقب المحامي الذي فتح حقيبته، وأخرج منها دفتراً أصفر وضعه على الطاولة.

أخرج جيلكس قلماً من جيب سترته الداخلي وقال: «يجدر بك ربما الشروع في إخباري عمن تكون، لأننا كلينا نعرف أنك لست الملازم برادشو».

وإذا كان المحامي قد تفاجأ لدى سماعه قصة هاري، فهو لم يظهر ذلك قط. فقد اكتفى بأن أحنى رأسه، وسجّل الكثير من الملاحظات على دفتره الأصفر، فيما كان هاري يشرح له كيف انتهى به الأمر بقضاء ليلته في السجن. وبعد أن أنهى هاري كلامه، افترض أن مشاكله ستنتهي حتماً؛ نظراً إلى وجود محامٍ مهم إلى جانبه... إلى أن سمع أول سؤال من جيلكس.

«قلت إنك قد كتبت رسالة إلى أمك أثناء وجودك على متن السفينة كنساس ستار، وشرحت لها فيها سبب انتحالك هوية توم برادشو، أليس كذلك؟».

«هذا صحيح يا سيدي. فأنا لم أشأ أن تعاني أمي من دون سبب، غير أنني أردت في الوقت نفسه أن تفهم سبب اتخاذي هذا القرار المهم».

قال جيلكس: «نعم، أفهم أنك فكرت في تبديل هويتك بهدف حلّ كل مشاكلك؛ من دون أن تفكر في أن تصرّفك هذا يمكنه أن يورطك في سلسلة من المشاكل الأخرى الأكثر تعقيداً». ثم جاء سؤاله التالي ليفاجئ هاري أكثر. «هل تذكر مضمون تلك الرسالة؟».

«طبعاً. فقد أعدت كتابتها مراراً وتكراراً؛ حيث صار بإمكاني قولها لك عن ظهر قلب».

عندها، قال جيلكس: «إذاً، اسمح لي باختبار قوة ذاكرتك». ومن دون التفوّه بأية كلمة أخرى، مزّق ورقة من دفتره الأصفر وقدّمها مع قدم إلى هاري.

أمضى هاري بعض الوقت وهو يحاول تذكّر الكلمات بالضبط، وذلك قبل أن يباشر في إعادة كتابة الرسالة:

أمي العزيزة،

لقد فعلتُ كل ما بوسعي للتأكد من وصول هذه الرسالة إليك قبل أن يخبرك أحد ما بأنني قتلت في البحر.

مثلما يُظهر التاريخ في هذه الرسالة، لم أمت قطّ عندما غرقت سفينة ديفونيان في البحر يوم الرابع من سبتمبر. فقد تم انتشالي من البحر بمساعدة بحار من سفينة أميركية، ولا أزال على قيد الحياة بفضله تحديداً. لكن أتيحت لي فرصة انتحال هوية رجل آخر، وقد فعلت ذلك على أمل أن يحرر ذلك إيما من المشاكل العديدة التي سببتها لها ولعائلتها من غير قصد على مرّ الأعوام.

من المهم أن تدركي أن حبي لإيما لم يتضاءل قط، بل على العكس. ولا أعتقد أنني سأعرف مثل هذا الحب مجدداً. لكنني لا أشعر أنني أملك الحق لكي أتوقع منها أن تُمضي بقية حياتها متشبثة بأمل أن أتمكن في مرحلة ما من المستقبل من الإثبات لها أن هوغو بارينغتون ليس والدي، وأنني في الواقع ابن آرثر كليفتون. وبهذه الطريقة، إنها تستطيع على الأقل التفكير في مستقبلها مع شخص آخر. أحسد ذلك الرجل.

أنوي العودة إلى إنكلترا على متن أول سفينة متوافرة. إذا وصلتك أية رسالة من توم برادشو، فاعرفي أنها مني.

سأتصل بك لحظة تطأ قدماي أرض إنكلترا. لكن في غضون ذلك، أتوسل إليك لتبقي سري دفيناً مثلما أبقيت سرّك دفيناً لأعوام طويلة.

ابنك الحبيب هاري

عندما أنهى جيلكس قراءة الرسالة، فاجَأ هاري مجدداً حين سأله: «هل أرسلتَ الرسالة بنفسك أم كلّفت شخصاً آخر للقيام بهذه المهمّة؟».

عندها، أحسّ هاري بالريبة من تلك الأسئلة للمرة الأولى، وقرّر عدم البوح بأنه طلب من الدكتور والاس تسليم الرسالة لأمه عندما يعود إلى بريستول بعد أسبوعين. فقد خشي أن يتمكن جيلكس من إقناع الدكتور والاس بتسليمه الرسالة، وعندها لن تعرف أمه أن ابنها لا يزال على قيد الحياة.

لذا، أجاب قائلاً: «أرسلت الرسالة بنفسي عندما وصلت إلى اليابسة».

أخذ المحامي العجوز وقته قبل يطرح سؤاله التالي: «وهل تملك أي دليل يثبت أنك هاري كليفتون، ولست توماس برداشو».

فأجاب هاري من دون تردد: «لا، يا سيدي. لا أملك دليلاً». وأدرك متألماً أنه ما من أحد على متن كنساس ستار لديه أي سبب للاعتقاد أنه ليس توم برادشو، وأنّ الأشخاص الوحيدين الذين يستطيعون تأكيد قصته موجودون في الجهة الأخرى من المحيط؛ على مسافة أكثر من ثلاث آلاف ميل. ولن يمضي وقت طويل قبل أن يتم إبلاغهم جميعاً أن هاري كليفتون قد مات في البحر.

عندها، قال جيلكس وقد ارتسمت ابتسامة غير صادقة على وجهه: «إذاً، قد أتمكن من مساعدتك يا سيد كليفتون؛ هذا إن كنتَ لا تزال راغباً في أن تعتقد الآنسة إيما بارينغتون أنك ميت. فإذا كان هذا قرارك، فقد أتمكن من تقديم حلّ لمشكلتك».

فقال هاري وقد شعر بالتفاؤل للمرة الأولى: «ألديك حل لمشكلتي!؟».

«شرط أن تحتفظ بهوية توماس برادشو».

عندها، التزم هاري الصمت.

«وافق مكتب المدعي العام على اعتبار التهمة الموجّهة ضد برادشو ظرفية. والدليل الحقيقي الوحيد الذي يتشبثون به هو أنه غادر البلاد بعد يوم واحد من ارتكاب الجريمة. ولكن، بعد أن أدركوا ضعف قضيتهم، وافقوا على التنازل عن تهمة القتل إذا وافقتَ على القبول بتهمة أقل أهمية؛ وهي تهمة الفرار من الخدمة في القوى المسلحة».

فما كان من هاري إلا أن سأل: «لكن، لمَ تجدر بي الموافقة على هذا الاقتراح؟».

أجاب جيلكس: «أستطيع التفكير في ثلاثة أسباب جيدة. أولاً، إذا لم توافق فمن المحتمل أن تمضي ستة أعوام في السجن بسبب دخولك الولايات المتحدة بناء على ادعاءات كاذبة. ثانياً، ستتمكن من إخفاء هويتك الحقيقية؛ وبالتالي لن تملك عائلة بارينغتون أي سبب للاعتقاد بأنك ما زلت على قيد الحياة. ثالثاً، إن آل برادشو مستعدون ليدفعوا لك عشرة آلاف دولار إذا حللتَ مكان ابنهم».

وعلى الفور، أدرك هاري أن الموافقة على هذا الاقتراح ستمنحه الفرصة ليقدّم لأمه الحياة الكريمة التي تستحقّها بعد كل التضحيات التي بذلتها من أجله على مرّ الأعوام. فبإمكان هذا المبلغ الكبير أن يغيّر حياتها بالكامل، ويساعدها في الهرب من الفقر في ستيل هاوس لاين، ومن الطّرق الأسبوعي لجابي الإيجار. حتّى إنّها قد تفكر في التخلي عن

عملها كنادلة في فندق غراند، وستبدأ بعيش حياة أكثر سهولة؛ رغم اعتقاده أن هذا الأمر غير وارد. ولكن، قبل أن يوافق على خطط جيلكس، أراد طرح بعض الأسئلة عليه.

«لماذا يبدي آل برادشو استعدادهم للمضي قدماً في هذه القضية، في الوقت الذي يعرفون فيه أن ابنهم قد مات في البحر؟».

«لأن السيدة برادشو ترغب في تنظيف سجل توماس. فهي لن تقبل أبداً بأن يكون أحد أبنائها قد قتل الآخر».

«إذاً، هل أفهم ممّا قلته أنّ توم متهم بقتل أخيه!؟».

«أجل. ولكن مثلما قلت، الدليل ضعيف وظرفي، ولن يصمد حتماً في المحكمة، ولهذا السبب يرغب مكتب المدعي العام في التخلي عن التهمة؛ شرط أن نوافق على القبول بتهمة الهروب من الخدمة».

«وكم ستكون فترة سجني إذا وافقت على ذلك؟».

«وافق مكتب المدعي العام على توصية القاضي بأن يتم الحكم عليك بالسجن لمدة عام واحد. ولكن، إذا كان سلوكك جيداً، فمن الممكن إطلاق سراحك خلال ستة أشهر؛ وهذا أمر ممتاز مقارنة مع الأعوام الستة التي يمكنك أن تقضيها في السجن إذا أصررت على أنك هاري كليفتون».

«ولكنّ هناك أمراً مهمّاً قد غفلتم عنه، فلحظة أدخل قاعة المحكمة، قد يدرك أحد ما أنني لست برادشو».

عندها، أجاب جيلكس مطمئناً: «هذا غير محتمل. فآل برادشو يتحدرون من سياتل، في الساحل الغربي. ورغم أنهم ميسورو الحال، إلا

أنهم نادراً ما يزورون نيويورك. وقد التحق توماس بالأسطول البحري عندما كان في السابعة عشرة من عمره. ومثلما أصبحت تعرف، لم تطأ قدماه أميركا طوال الأعوام الأربعة الماضية. وإذا اعترفت بالتهمة، فلن تبقى في قاعة المحكمة أكثر من عشرين دقيقة».

«ولكن، ألن يعرف الجميع أنني لست أميركياً ما إن أفتح فمي!؟».

«لهذا السبب، لن تفتح فمك يا سيد كليفتون». وبدا المحامي المتمرس وكأنه يملك جواباً عن كلّ سؤال، فجرّب هاري خطة أخرى.

«في إنكلترا، تكون محاكمات الجرائم مكتظة بالصحافيين دوماً، فيما يقف عامة الناس خارج قاعة المحكمة منذ ساعات الصباح الأولى؛ على أمل أن يلمحوا المُدعى عليه».

«سيد كليفتون، تجري حالياً في مدينة نيويورك أربع عشرة محاكمة تتعلّق بالجرائم، ومن بينها محاكمة «طاعن المقص» الشهير. لذا، أشك في أن يتم تعيين مراسل واحد لتغطية هذه القضية».

«أحتاج إلى بعض الوقت للتفكير في الأمر».

عندها، نظر جيلكس إلى ساعته وقال: «يفترض بنا أن نكون أمام القاضي أتكينز عند الظهر. لذا، لديك حوالي ساعة واحدة لتحسم رأيك يا سيد كليفتون». ثم نادى الحارس ليفتح له باب الزنزانة، وأضاف قبل أن يغادر: «إذا قررت عدم الاستفادة من خدماتي، فأنا أتمنى لك حظاً جيداً؛ لأننا قد لا نلتقي مجدداً».

جلس هاري على حافة السرير الخشبي، وراح يفكّر في عرض سيفتون جيلكس. لم يكن يشك في أن المحامي الأشيب لديه حساباته

الخاصة، ولكنّ فكرة قضاء ستة أشهر في السجن تبدو حتماً أفضل من قضاء ستة أعوام. وممن يستطيع طلب المساعدة ما لم يطلبها من ذلك المحامي المخضرم؟! تمنّى هاري لو كان بإمكانه الوصول إلى مكتب السير والتر بارينغتون لبضع لحظات لطلب نصيحته.

بعد ساعة، ارتدى هاري بذلة كحلية وقميصاً قشدياً ذا ياقة منتصبة، ووضع ربطة عنق مقلمة، ثم خرج من زنزانته إلى عربة السجن مكبّل اليدين، وتم اقتياده إلى المحكمة تحت حراسة مسلحة.

وفي وقت سابق، قال له جيلكس: «لا يجب أن يظن أحد أنك قادر على ارتكاب جريمة». وكان قد جاء إلى زنزانة هاري برفقة خيّاط، وأحضرا معهما نصف دزينة من البذلات والقمصان، ومجموعة من ربطات العنق ليختار من بينها.

فأجاب هاري: «في الواقع، أنا لم أرتكب أصلاً أية جريمة».

التقى هاري جيلكس مجدداً في الرواق، فوجّه إليه المحامي تلك الابتسامة نفسها قبل أن يشق طريقه عبر الباب الدوار، ويمشي في الرواق الوسطي. ولم يتوقف إلا حين وصل إلى المقعدين الفارغين أمام طاولة المحامي.

وبعد أن جلس هاري في مكانه وتمت إزالة الأغلال الموضوعة حول معصميه، نظر حوله في أرجاء قاعة المحكمة الفارغة تقريباً. كان جيلكس محقاً في هذا الأمر؛ إذ كان هناك عدد قليل جداً من الناس العاديين الذين بدوا مهتمين بالقضية، ولا وجود للصحافة طبعاً. فبالنسبة إليهم، إنها مجرد جريمة أخرى؛ حيث يُفترَض أن تتم إدانة المدّعى عليه. فليست

هناك عناوين مماثلة «لقابيل وهابيل»، ولا احتمال بأن يتم استعمال الكرسي الكهربائي في قاعة المحكمة رقم أربعة.

عندما رنّت الساعة معلنة انتصاف النهار، فُتِح باب في الجهة البعيدة من الغرفة، وظهر القاضي أتكينز. مشى القاضي في قاعة المحكمة ببطء، ثم صعد الدرج، واتخذ مجلسه خلف مكتب على المنصة المرتفعة. وبعد ذلك، أومأ برأسه في اتجاه المدعي العام، كما لو أنه يعرف بالضبط ما يريد هذا الأخير قوله.

عندها، نهض محامٍ شاب من خلف مكتب المدعي العام، وشرح أن القرار بإسقاط دعوى القتل قد اتخذ، ولكن ستتم مقاضاة توماس برادشو بتهمة الهروب من الخدمة في الأسطول البحري الأميركي. فما كان من القاضي إلا أن أومأ برأسه، ووجّه انتباهه إلى السيد جيلكس الذي وقف.

«وبالنسبة إلى التهمة الثانية؛ أي الهروب من الخدمة العسكرية، ما الذي يقوله موكلك؟».

فأجاب جيلكس: «إنه يعترف بذنبه. أتمنى أن تكون متساهلاً مع موكلي في هذه القضية، ولا داعي لكي أذكرك يا سيدي أن هذه تهمته الأولى. فقبل ارتكابه هذه الهفوة، كان سجله نظيفاً تماماً».

عندها، عبس القاضي أتكينز وقال: «سيد جيلكس، قد يعتبر البعض أن تهرّب الجندي من وظيفته في خدمة بلده جريمة فظيعة بقدر القتل. وأنا واثق من أنه لا داعي لتذكيرك بأن مثل هذه التهمة كانت ستفضي حتماً إلى مواجهة موكلك عقوبة الإعدام».

وعلى الفور، أحس هاري بالغثيان، ونظر إلى جيلكس الذي لم يُبعِد عينيه عن القاضي.

وتابع أتكينز كلامه قائلاً: «ونظراً إلى هذه الاعتبارات، أحكم على الملازم توماس برادشو بالسجن لمدة ستة أعوام». ثم ضرب بمطرقته وقال: «القضية التالية»، قبل أن تتاح لهاري فرصة الاحتجاج.

بدأ هاري بالقول: «ولكنك قلت لي...»، غير أن جيلكس أدار ظهره لموكله ومشى مبتعداً عنه. عندها، أراد هاري اللحاق به، ولكنّ حارسين أمسكا بذراعيه وثبتاهما خلف ظهره وكبلاه سريعاً قبل أن يرافقاه إلى خارج قاعة المحكمة باتجاه باب لم يلاحظه هاري من قبل.

وحين نظر هاري إلى الوراء، رأى سيفتون جيلكس يصافح رجلاً في خريف العمر هنّأه على حسن عمله. فتساءل هاري عن المكان الذي رأى فيه هذا الوجه من قبل! ثم أدرك أنه والد توم برادشو على الأرجح.

2

مشى هاري في رواق طويل مضاء بنور خافت، وخرج من الباب إلى فناء قاحل.

وفي وسط الفناء، رأى حافلة صفراء لا تحمل أي رقم أو لافتة تدل على مقصدها. وكان ثمة رجل مفتول العضلات يمسك ببندقية ويقف قرب الباب، وما إن رآه الرجل حتّى أومأ له برأسه مشيراً إلى ضرورة الصعود إلى متن الحافلة. فساعده على الصعود الحارسان اللذان رافقاه للحؤول دون هربه في حال فكر في ذلك.

جلس هاري في الحافلة، وراح يحدق إلى خارج النافذة، فيما تم اقتياد سجناء آخرين محكومين إليها. بعضهم أخفضوا رؤوسهم، فيما مشى بعضهم الآخر مرفوعي الرؤوس وغير مبالين؛ كما لو أنه سبق لهم السير في الطريق نفسه من قبل. وافترض هاري أنه لن يمضي وقت طويل قبل أن تصل الحافلة إلى مقصدها أينما كان. ولكنه كان على وشك تعلم أول درس مؤلم له كسجين: فبعد صدور الحكم، لن يبقى هناك أحد على عجلة من أمره.

فكّر هاري في سؤال أحد الحراس عن وجهتهم، لكن أياً منهم لم يبدُ له مثل مرشد مفيد. واستدار شاعراً بالقلق عندما جلس شخص على المقعد قربه. لم يشأ هاري التحديق إلى رفيقه الجديد، ولكن حين عرّف الرجل عن نفسه فوراً، نظر إليه هاري عن كثب.

قال الرجل بلكنة إيرلندية خفيفة: «اسمي بات كوين».

فقال هاري: «توم برادشو». ولو لم يكن مكبّل اليدين لكان قد صافح جاره الجديد.

لم يكن كوين يبدو مجرماً. فبالكاد لامست قدماه الأرض، وبالتالي لا يمكن أن يكون طوله أكثر من خمس أقدام. وفيما كان معظم السجناء الآخرين في الحافلة مفتولي العضلات، أو من أصحاب الوزن الزائد، بدا كوين كما لو أن هبّة رياح واحدة كفيلة بجعله يطير بعيداً. كان شعره الأحمر الرقيق يميل إلى الشيب؛ رغم أنه لم يتجاوز الأربعين من عمره حتماً.

قال كوين بنبرة واثقة: «أنت تسجن للمرة الأولى، أليس كذلك؟».

فسأله هاري: «هل الأمر جليّ إلى هذا الحد؟».

«كل شيء واضح على وجهك».

«وما هو الواضح على وجهي؟».

«أنت لا تعرف أبداً ما سيحصل لاحقاً».

«إذاً، يتضح أنه لم يتم الحكم عليك للمرة الأولى».

«إنها المرة الحادية عشرة التي أركب فيها هذه الحافلة، أو ربما هي الثانية عشرة».

فضحك هاري للمرة الأولى منذ أيام.

سأله كوين: «ما هي تهمتك؟».

فأجاب هاري: «التهرب من الواجب». من دون أن يذكر أي تفاصيل.

عندها قال كوين: «لم أسمع بهذه التهمة من قبل قط. فقد تخلّيت عن ثلاث نساء وتهرّبت منهنّ، ولكن لم تتم مقاضاتي لهذا السبب قط».

فقال هاري: «لم أتخلَّ عن زوجة». وصمت قليلاً مفكراً في إيما قبل أن يتابع: «بل تهرّبت من واجبي في الخدمة في البحرية الملكية- أقصد الأسطول البحري».

«وما هي فترة حكمك؟».

«ست سنوات».

عندها، صفر كوين من بين السنين الباقيتين في فمه وقال: «تبدو فترة طويلة قليلاً. من القاضي؟».

فأجاب هاري حزيناً: «أتكينز».

«أرني أتكينز! لقد حصلت على القاضي غير المناسب. إذا تمت محاكمتك مجدداً، فاحرص على اختيار القاضي الصحيح».

«لم أكن أعرف أنه بوسعي اختيار القاضي».

أجاب كوين: «لا، لا يمكنك فعل ذلك. لكن، ثمة طرائق لتفادي القضاة السيئين». فما كان من هاري إلا أن نظر إلى رفيقه عن كثب، ولكن من دون أن يقاطعه. «هناك سبعة قضاة مسؤولون عن المحاكمات، وعليك تفادي اثنين منهم مهما كلف الأمر. أحدهما هو أرني أتكينز. إنه سيئ المزاج، ويصدر عقوبات طويلة».

فسأل هاري: «لكن، كيف كان بوسعي تفاديه؟!».

«لقد ترأس أتكينز المحكمة خلال الأعوام الأحد عشر الماضية. وكنت إذا وجدت نفسي متجهاً نحوه، أصاب بنوبة صرع مفاجئة فيأخذني الحراس إلى طبيب المحكمة».

«هل أنت مصاب بالصرع؟».

فأجاب كوين: «لا، أنت لم تفهم ما قصدته». وبدا يائساً، فيما صمت هاري، فتابع كوين شرحه: «وعندما كنت أتعافى من نوبة الصرع، كانوا يُحيلون قضيتي إلى محكمة أخرى».

فضحك هاري للمرة الثانية وسأله: «وهل كنت تنجح في تحقيق غايتك؟».

«لا، ليس دوماً. لكن، إذا رافقني حارسان جديدان، فقد تتاح لي الفرصة للقيام بذلك؛ رغم أنه يصعب اعتماد الحيلة نفسها مراراً وتكراراً. غير أنني لم أحتج إلى التظاهر بنوبة الصرع هذه المرة؛ فقد تم اقتيادي مباشرة إلى قاعة المحكمة رقم اثنين التي يترأسها القاضي ريغان. إنه إيرلندي مثلي. وبالتالي، فهو يميل إلى تخفيف فترة الحكم عليّ لكوني من بلده».

سأله هاري: «ما كانت تهمتك؟».

فأعلن كوين: «أنا نشال». كما لو أنه مهندس معماري أو طبيب، ثم تابع: «أنا متخصص في اجتماعات السباقات خلال الصيف، وفي قاعات الملاكمة خلال الشتاء. فالأمر يكون أسهل دوماً إذا كان الأشخاص واقفين. لكن الحظ لم يعد يحالفني في الآونة الأخيرة؛ لأن العديد من المسؤولين باتوا يعرفونني، ولذلك صرت أضطر إلى العمل في محطات القطار

والحافلات، حيث تكون المسروقات قليلة، واحتمال إلقاء القبض عليّ أكبر».

أراد هاري طرح الكثير من الأسئلة على صديقه الجديد، ومثل التلميذ المتحمس، ركز على طرح الأسئلة التي تساعده في اجتياز امتحان الدخول، وكان مسروراً لأن كوين لم يسأله عن لكنته.

سأله: «هل تعرف إلى أين سنذهب؟».

أجاب كوين: «لافنهام أو بيربوينت. الأمر مرتبط بما إذا كنّا سننعطف عن الطريق السريع في المخرج رقم اثني عشر أو أربعة عشر».

«هل سبق لك أن ذهبت إلى كلا المكانين؟».

فأجاب كوين بطريقة بدهية: «نعم، مرات عديدة. وقبل أن تسألني، لو كان هناك تقييم للسجون، لحظي لافنهام بنجمة واحدة ولتم إغلاق بيربوينت».

قال هاري: «لماذا لا نسأل الحارس عن المكان الذي سيأخذوننا إليه؟!». فقد أراد معرفة الجواب فوراً.

«لأنه سيخبرنا بالشيء الخطأ لمجرد إغاظتنا. إذا كنا ذاهبين إلى لافنهام، فعليك أن تقلق فقط بشأن المبنى الذي سيتم وضعك فيه. وبما أنك محكوم للمرة الأولى، فثمة احتمال بأن ينتهي بك الأمر في المبنى «أ»، حيث الحياة أكثر سهولة. أما المحكومون القدامى، مثلي، فيتم إرسالهم عادة إلى المبنى «د» حيث لا يوجد شخص تحت الثلاثين، ولا يملك أحد سجلاً بأعمال العنف. وبالتالي، إنه مكان مثالي إذا أردت إبقاء

رأسك منخفضاً وإنهاء فترة حكمك. حاول تجنّب المبنيين «ب» و«ت» لأنهما مليئان بالمدمنين على المخدرات والمجانين.

«وماذا يجب أن أفعل لأتأكد من ذهابي إلى المبنى أ؟».

«أخبر موظف الاستقبال أنك رجل تقيّ، وأنك لا تدخن ولا تتناول الشراب».

فقال هاري: «لم أكن أعرف أن تناول الشراب مسموح في السجن».

فما كان من كوين إلا أن قال: «ليس مسموحاً أيها الأحمق. ولكن، إذا استطعت تأمين المال...» وفرك طرف إبهامه بسبّابته ثم تابع: «عندها، سيصبح الحراس فجأة مثل الندل. حتى إن قرار الحظر لن يردعهم».

«ما أهم شيء يجدر بي توخي الحذر منه في يومي الأول؟».

«التأكد من حصولك على الوظيفة الصحيحة».

«وما الخيارات المتاحة لي؟».

«تنظيف المطبخ، والمستشفى، والمصبغة، والمكتبة، والاعتناء بالحديقة، والكنيسة».

«ماذا يجب عليّ أن أفعل لأذهب إلى المكتبة؟».

«أخبرهم أنك تقرأ».

سأله هاري: «وأنت ماذا تقول لهم؟».

«إنني تدربت على الطهو».

«لا بد أن هذا ممتع».

قال كوين: «لم تفهم بعد، أليس كذلك. لم أتدرب على الطهو قط، ولكنّ هذا يعني اصطحابي إلى المطبخ دوماً؛ وهذه أفضل وظيفة في السجن».

«لماذا؟».

«يتم إخراجك من زنزانتك قبل الفطور، ولا تعود إليها إلا بعد العشاء. فضلاً عن أن المكان دافئ، ولديك أفضل خيارات الأطعمة». ثم أضاف كوين، بعدما انعطفت الحافلة عن الطريق السريع عند المخرج رقم 12: «أوه، نحن ذاهبون إلى لافنهام. هذا جيد؛ لأنني الآن لن أكون مضطراً للإجابة عن أسئلة سخيفة بشأن بيربوينت».

فسأل هاري من دون أن يتأثر بسخرية كوين: «هل من شيء آخر تجدر بي معرفته بشأن لافنهام؟». إذ عرف أن السجين المتمرس يستمتع بسرد الأخبار على مسمعَي تلميذ قنوع.

فتنهد كوين قائلاً: «هناك الكثير من الأخبار التي يجب عليك أن تعرفها. لكن، تذكر أن تبقى بالقرب مني عندما نسجّل اسمينا».

«لكن، ألن يتم إرسالك تلقائياً إلى المبنى «د»؟».

فأجاب كوين من دون أن يشرح أكثر: «لن يحصل ذلك إذا كان السيد مايسون هو المسؤول».

طرح هاري بعض الأسئلة الإضافية قبل أن تتوقف الحافلة أخيراً أمام السجن. في الواقع، لقد تعلم من كوين خلال ساعتين فقط أكثر مما تعلم في الكثير من المواد التعليمية في أوكسفورد.

كرّر كوين كلامه قائلاً له: «ابق قربي». فيما فُتحت البوابات الكبيرة، وتقدّمت الحافلة ببطء إلى الأمام، ووصل إلى أرض مهجورة لم يرَها بستاني يوماً. توقّفت الحافلة أمام مبنى قرميدي كبير، فيه صفوف من النوافذ الصغيرة المتسخة التي أطلّت منها بعض العيون.

راقب هاري دزينة من الحراس المصطفين على شكل ممر على طوال الطريق المؤدي إلى مدخل السجن، فيما وقف حارسان مسلحان على جانبَي باب الحافلة.

قال أحدهما بطريقة فظة: «اخرجا من الحافلة اثنين اثنين؛ على أن تفصل فترة خمس دقائق بين ثنائي وآخر. لا يتحرك أي منكم إنشاً واحداً إلا حين أقول له ذلك».

بقي هاري وكوين في الحافلة لمدة ساعة إضافية. وعندما نزلا أخيراً، نظر هاري إلى الجدران الشاهقة التي يعلوها سلك شائك وتحيط بكل السجن، وفكّر في أن صاحب الرقم القياسي في العالم في القفز من فوق الحواجز لن يتمكن حتماً من الفرار من لافنهام.

تبع هاري كوين إلى داخل المبنى، حيث توقّفا أمام شرطي جالس خلف طاولة، ويرتدي بذلة زرقاء لامعة مع أزرار غير لامعة. بدا وكأنه محكوم عليه بالسجن المؤبد فيما راح يتأمل لائحة الأسماء على دفتره. غير أنه ابتسم حين رأى السجين التالي وقال: «أهلاً بك مجدداً يا كوين. سوف تلاحظ أن أموراً كثيرة لم تتغير منذ آخر مرة كنت فيها هنا».

فابتسم كوين ابتسامة عريضة أيضاً وقال: «سررت برؤيتك أيضاً يا سيد مايسون. هل يمكنك من فضلك الطلب من أحد العمال نقل أمتعتي إلى غرفتي الاعتيادية؟».

عندها، قال مايسون: «لا تضغطِ عليّ كثيراً يا كوين، وإلا فقد أميل إلى إخبار الطبيب الجديد بأنك لا تعاني من الصرع».

«لكنّني يا سيد مايسون أملك تقريراً طبياً يثبت ذلك».

فأجاب مايسون: «من المصدر نفسه الذي أعطاك شهادة الخبرة في الطهو، أليس كذلك؟». ثم حوّل انتباهه إلى هاري، وسأله: «ومن أنت؟».

فقال كوين قبل أن تتاح لهاري فرصة التكلم: «إنه صديقي توم برادشو. وهو لا يدخن ولا يشرب ولا يشتم ولا يبصق».

قال مايسون: «أهلاً بك في لافنهام يا برادشو».

عندها قال كوين: «في الواقع، إنه القبطان برادشو».

وعلى الفور قال هاري: «كنت ملازماً، ولم أكن يوماً قبطاناً». فبدا كوين خائب الأمل من صديقه.

سأل مايسون: «هل أنت محكوم للمرة الأولى؟». ونظر إلى هاري بدقة أكثر.

«نعم سيدي».

«سأضعك في المبنى «أ». بعد أن تستحم وتأخذ ملابس السجن من المتجر، سوف يأخذك السيد هيسلر إلى الزنزانة رقم 327». وتحقّق مايسون من دفتره قبل أن يلتفت إلى شرطي شاب يقف وراءه، ويحمل بيده اليمنى سوطاً كبيراً.

سأل كوين بعدما وقّع هاري على السجل: «هل يمكنني أن أنضم إلى صديقي. ففي النهاية، يحتاج الملازم برادشو إلى مرافق».

فأجاب مايسون: «أنت آخر شخص يحتاج إليه». وكان هاري على وشك التكلم حين انحنى النشال وأخرج ورقة خمسة دولارات من جيبه ووضعها في جيب مايسون العلوي بلمح البصر. فقال مايسون للشرطي الصغير: «سيكون كوين في الزنزانة رقم 327 أيضاً». وإذا كان هيسلر قد رأى ما حصل، فهو لم يعلق على ذلك قط، بل اكتفى بالقول: «اتبعاني كلاكما».

وعلى الفور، لحق كوين بهاري قبل أن يغيّر مايسون رأيه.

تمت مرافقة السجينين الجديدين في رواق قرميدي طويل، إلى أن توقّف هيسلر أمام غرفة استحمام صغيرة، فيها مقعدان خشبيان مثبتان على الجدار، وهي مليئة بالمناشف المرمية أرضاً.

قال هيسلر: «تعرّيا واستحما».

نزع هاري ببطء البذلة الأنيقة، والقميص القشدي المرتب، والياقة المنتصبة، وربطة العنق المخططة التي طلب منه السيد جيلكس وضعها في المحكمة للتأثير في القاضي. لكنّ المشكلة كانت في أنه اختار القاضي الخطأ.

بات كوين تحت الدش قبل أن يخلع هاري حذاءه؛ إذ فتح الصنبور، وراح الماء يتقطر على رأسه قليل الشعر، ثم أخذ علبة الصابون عن الأرض وبدأ يغتسل. أما هاري فقد وقف تحت الماء البارد، وبعد هنيهة، أعطاه كوين ما بقي من الصابون.

بعد قليل، قال كوين فيما كان يرفع منشفة رطبة ليست أكبر من فوطة الصحون بكثير: «ذكّرني بضرورة التكلم مع الإدارة بشأن الخدمات الأساسية». وحاول تجفيف نفسه باستعمال تلك المنشفة.

أبقى هيسلر شفتيه مزمومتين وقال: «ارتديا ثيابكما والحقا بي». ولم يكن هاري قد أنهى استحمامه بعد.

ومجدداً، مشى هيسلر في الرواق بسرعة، ولحق به هاري الذي كان لا يزال رطباً وقد ارتدى فقط نصف ملابسه. ولم يتوقفوا إلا حين أصبحوا أمام باب مزدوج كُتِبت عليه كلمة «متجر». عندها، طرق هيسلر على الباب بصرامة. وبعد قليل، فُتِح الباب كاشفاً عن شرطي محبط يضع مرفقيه على المكتب ويدخن سيجارة ملفوفة.

ابتسم الشرطي حين رأى كوين وقال: «لا أعرف إذا تمّت إعادة ملابسك الأخيرة من المصبغة».

فأجاب كوين: «إذاً، أحتاج إلى طقم جديد من كل شيء يا سيد نيوبولد». ثم انحنى وأخرج شيئاً من داخل جوربه وأضاف: «حاجاتي بسيطة. فأنا أريد بطانية واحدة، ملاءتين قطنيتين، وسادة واحدة مع غطائها...» اختار الشرطي الأغراض من الرف خلفه، ثم وضعها في كومة مرتبة على المكتب. وتابع كوين كلامه: «... قميصين، ثلاثة جوارب، ستة سراويل، منشفتين، وعاء واحداً، طبقاً واحداً، سكيناً واحدة، شوكة وملعقة، شفرة حلاقة، فرشاة أسنان وأنبوب معجون أسنان- أفضل ماركة كولجايت».

لم يتفوّه نيوبولد بأية كلمة، فيما تراكمت أغراض كوين فوق بعضها. وفي النهاية سأل: «هل من شيء آخر؟». كما لو أن كوين زبون مهم ويحتمل أن يعود مجدداً.

«نعم، يحتاج صديقي الملازم برادشو إلى الأغراض نفسها. وبما أنه ملازم ومحترم، احرص على منحه الأفضل فقط».

فتفاجأ هاري حين بدأ نيوبولد بتحضير كومة أغراض جديدة، وأخذ وقته في انتقاء كل غرض. كل ذلك بسبب السجين الذي جلس قربه في الحافلة.

وبعدما أنهى نيوبولد مهمته، قال لهما هيسلر: «اتبعاني». أمسك هاري وكوين كومتَي أغراضهما وانطلقا في الرواق. توقفا في محطات عدة؛ إذ توجّب على الشرطي المشرف أن يفتح البوابات ويقفلها لدى اقترابهم من الزنزانات. وعندما وصلوا أخيراً إلى الجناح، سمعوا ضجيج ألف سجين.

قال كوين: «أرى أننا في الطابق العلوي يا سيد هيسلر، لكنني لن أستقل المصعد لأنني بحاجة إلى بعض النشاط الجسدي». غير أنّ الشرطي تجاهله وتابع طريقه أمام السجناء الآخرين.

قال هاري: «قلت لي إن هذا الجناح هادئ».

فهمس كوين: «يبدو جلياً أن السيد هيسلر ليس من ضمن رجال الشرطة المحبوبين». ثم وصل الثلاثة إلى الزنزانة رقم 327. عندها، فتح هيسلر قفل الباب الحديدي الثقيل، ثم فتح الباب للسماح للمحكوم الجديد والمحكوم القديم بدخول المكان الذي سيمكث فيه هاري طوال السنوات الست القادمة.

سمع هاري الباب يغلق خلفه، فنظر حوله في أرجاء الزنزانة، ولاحظ أنه لا يوجد مقبض في الجهة الداخلية للباب، وإنما هناك سريران خشبيان، فوق بعضهما بعضاً، ومغسلة فولاذية معلقة على الجدار، وطاولة خشبية مثبتة أيضاً بالجدار، وكرسي خشبي. وأخيراً، استقرت عيناه على وعاء فولاذي تحت السرير السفلي، فأحسّ بشيء من الغثيان.

قال كوين مقاطعاً أفكاره: «ستأخذ السرير العلوي على اعتبار أنك محكوم للمرة الأولى. وإذا خرجتُ قبلك، فستنتقل إلى السرير السفلي، وسيأخذ رفيقك الجديد السرير العلوي. هذه هي قواعد السجن».

وقف هاري قرب السرير السفلي وراح يرتب سريره ببطء، ثم صعد إليه ووضع رأسه على الوسادة الرقيقة والقاسية؛ مدركاً تماماً أنه قد يمرّ بعض الوقت قبل أن يتمكن من النوم خلال الليل. ثم قال لكوين: «هل يمكنني أن أطرح عليك سؤالاً آخر؟».

«نعم، لكن لا تتحدث مجدداً إلا قبل إنارة المصابيح في صباح الغد». فتذكر هاري فيشر عندما قال له الكلمات نفسها تقريباً في أول ليلة أمضاها في سانت بيد.

«يبدو جلياً أنك استطعت إدخال كمية كبيرة من المال النقدي. لكن، لماذا لم يصادره الحراس منك عندما نزلت من الحافلة؟».

فأجاب كوين: «لأنهم لو فعلوا ذلك، لما أحضر أي سجين آخر المال معه مجدداً. وعندها، سينهار النظام كله».

3

استلقى هاري على السرير العلوي، وراح يحدق إلى السقف المطلي بالأبيض الذي يستطيع لمسه بمجرّد مدّه أصابعه. كان الفراش غير مريح إطلاقاً، والوسادة قاسية جداً؛ حيث استطاع النوم لدقائق قليلة فقط في كل مرة.

عادت أفكاره إلى سيفتون جيلكس، وراح يفكّر في كيفية تمكّن المحامي العجوز من خداعه بسهولة. واستطاع هاري سماع والد توم براداشو يقول لجيلكس: أبعد تهمة القتل عن ابني. هذا كل ما أريده. حاول هاري عدم التفكير في السنوات الست التالية التي لا يأبه لها السيد براداشو. هل يستحق ذلك مبلغ 10000 دولار؟

أبعد أفكاره عن محاميه، وراح يفكّر في إيما؛ فقد اشتاق إليها كثيراً، ورغب في الكتابة لها ليخبرها أنه لا يزال على قيد الحياة. غير أنه عرف أنه لا يستطيع فعل ذلك، وتساءل عمّا تفعله في يوم خريفي في أوكسفورد. ترى، كيف يتقدم عملها مع بداية سنتها الجامعية؟ وهل يغازلها رجل آخر؟

وماذا عن أخيها جيل؛ صديقه المقرّب؟ بعد أن دخلت بريطانيا الحرب، هل ترك جيل جامعة أوكسفورد وتطوّع لمحاربة الألمان؟ ماذا لو فعل ذلك؟! وراح هاري يتضرّع ليكون صديقه على قيد الحياة، ثم ضرب جانب السرير بقبضة يده وهو يحسّ بالغضب لأنه لم يُسمَح له بأداء

دوره في الحرب. غير أن كوين لم يتحدث أو يعلّق على سلوك هاري؛ على افتراض أن هذا الأخير يعاني من اضطراب الليلة الأولى.

وماذا عن هوغو بارينغتون؟! هل رآه أحد منذ اختفائه يوم كان يفترض بهاري أن يتزوج ابنته؟ وهل وجد طريقة للعودة بعدما علم الجميع أن هاري قد مات؟! أبعد هاري آل بارينغتون عن فكره، وهو لا يزال غير راغب في قبول احتمال أن يكون ذلك الرجل والده.

وعندما عادت أفكاره إلى أمه، ابتسم وهو يأمل أن تستفيد جيداً من مبلغ عشرة آلاف دولار الذي وعده جيلكس بإرساله إليها بعدما وافق على انتحال هوية توم برادشو. ومع وجود أكثر من 2000 دولار في المصرف، أمل هاري أن تتخلى أمه عن عملها كنادلة في غراند أوتيل وتشتري ذلك المنزل الصغير في الريف الذي لطالما تحدثت عنه. فهذا هو الشيء الإيجابي الوحيد في كل هذه المتاهة.

وماذا عن السير والتر بارينغتون الذي عامله دوماً مثل حفيده؟! إذا كان هوغو والد هاري فعلاً، فإن السير والتر جده. وإذا تبيّن أن الأمر صحيح، فهذا يعني أن هاري سيرث أملاك آل بارينغتون ولقب العائلة. وبالتالي، سيصبح مع الوقت السير هاري بارينغتون. لكنّ هاري لم يشأ فقط أن يرث صديقه جيل- الابن الشرعي لهوغو بارينغتون- اللقب، بل أراد أيضاً أن يُثبِت أن آرثر كليفتون والده الحقيقي. فذلك سيمنحه الفرصة للزواج من حبيبته إيما. وحاول هاري أن يتناسى المكان الذي سيُمضي فيه السنوات الست التالية.

عند الساعة السابعة صباحاً، رُنَّ جرس لإيقاظ السجناء الذين تمّ الحكم عليهم بالسجن لوقت طويل؛ حيث استطاعوا الاستمتاع بليلة نوم هانئة. حين تنام لن تشعر بأنك في السجن؛ كانت تلك آخر كلمات تمتمها كوين قبل أن يغط في نوم عميق، ومن ثم يشخر. لم يزعج شخيره ذاك هاري؛ فبالنسبة إليه، كان خاله ستان في فئة مختلفة.

حسم هاري أمره بشأن العديد من المواضيع خلال ليلته الطويلة التي لم يعرف فيها النوم. وللعمل على تمرير الوقت الطويل في السجن بسرعة، قرر هاري أن يكون «توم» سجيناً نموذجياً؛ على أمل أن يخفف ذلك من فترة سجنه بسبب سلوكه الجيد. وسيحصل على وظيفة في المكتبة، وسيكتب يومياته حول ما حصل معه قبل أن يصدر الحكم عليه، بالإضافة إلى كل ما سيحصل وهو خلف القضبان. كما سيحافظ على لياقته البدنية، حيث يكون مستعداً للانخراط في الجيش لحظة إطلاق سراحه؛ في حال بقيت الحرب مستعرة في أوروبا.

كان كوين قد ارتدى ملابسه عندما نزل هاري عن السرير العلوي.

سأل هاري: «ماذا سنفعل الآن؟». وبدا مثل صبي جديد في أول يوم من الفصل الدراسي.

فأجاب كوين: «الفطور. ارتدِ ملابسك، وأحضر طبقك وكوبك، وتأكّد من أن تكون جاهزاً ومستعداً عندما يفتح الشرطي الباب. فإذا تأخّرت ولو لبضع ثوانٍ، فقد يُغلق بعض الشرطيين الباب في وجهك». وعلى الفور، بدأ هاري يرتدي سرواله. فأضاف كوين: «ولا تتكلم وأنت في طريقك إلى قاعة الطعام. فالكلام يلفت الانتباه إليك، الأمر الذي يزعج

المحكومين القدامى. في الواقع، لا تتكلم مع أي شخص لا تعرفه قبل سنتك الثانية».

شعر هاري بالرغبة في الضحك، ولكنه لم يعرف ما إذا كان كوين يمزح أم لا. وبعد لحظات، سمع مفتاحاً يدور في القفل، ثم فُتح باب الزنزانة. خرج كوين من الزنزانة بسرعة مثل كلب صيد، ولحق به صديقه. انضمّا إلى رتل طويل من السجناء الصامتين الذين شقوا طريقهم عبر المنبسط وراء الأبواب المفتوحة للزنزانات الفارغة، قبل النزول على سلم حلزوني يؤدي إلى الطابق الأرضي، حيث انضما إلى رفاقهم السجناء لتناول الفطور.

امتد الرتل مسافة طويلة جداً بعيداً عن المقصف. وراقب هاري الندل الذين كانوا يرتدون معاطف بيضاء قصيرة ويقفون خلف أوعية الطعام الساخنة. وكان ثمة حارس يحمل سوطاً ويرتدي معطفاً أبيض طويلاً يراقبهم للتأكد من عدم حصول أي كان على حصة إضافية.

وعندما وصلا إلى مقدمة الرتل، قال بات كوين للحارس بهدوء: «كم سررتُ برؤيتك مجدداً يا سيد سيدل». وتصافح الرجلان كما لو أنهما صديقان قديمان. هذه المرة، لم يرَ هاري صديقه يقدّم المال للحارس، لكنّ إيماءة خفيفة من السيد سيدل أشارت إلى عقد صفقة بينهما.

مشى كوين بعد أن امتلأ طبقه المعدني ببيضة مقلية ذات صفار جامد، وكومة من البطاطا المائلة إلى اللون الأسود، وشريحتين من الخبز. ولحق به هاري فيما كان يسكب لنفسه نصف كوب من القهوة. بدا الندل مذهولين عندما شكرهم هاري فرداً فرداً؛ كما لو أنه ضيف في حفلة شاي.

وفجأة، عندما عرض عليه النادل القهوة قال: «اللعنة، تركت كوبي في الزنزانة».

عندها، ملأ النادل كوب كوين حتى الشفة، فقال له رفيقه في الزنزانة: «لا تنسَهُ في المرة التالية».

وعلى الفور، صرخ هيسلر: «ممنوع الكلام». فيما ضرب بالسوط على يده المغلفة بقفاز. رافق كوين هاري إلى طرف طاولة طويلة، وجلس على المقعد قبالته. كان هاري جائعاً جداً، لذا التهم كل ما في طبقه؛ بما في ذلك أسوأ بيض تذوقه في حياته. حتّى إنه فكّر أيضاً في لعق طبقه، فتذكر صديقه جيل في يومه الدراسي الأول.

وعندما أنهى هاري وبات فطورهما الذي استمرّ لمدة خمس دقائق، تمت إعادتهما إلى الطابق العلوي عبر السلم الحلزوني. وبعد أن تمّ إغلاق باب زنزانتهما، غسل كوين طبقه وكوبه، ووضعهما بترتيب تحت سريره.

ثم شرح لهاري قائلاً: «عندما تعيش في غرفة حجمها ثمانية أمتار بأربعة لعدة سنوات متتالية، فستتعلّم حتماً الاستفادة من كل إنش في تلك المساحة». وهكذا، حذا هاري حذو رفيقه، وراح يتساءل عن مقدار الوقت الذي سيمضي قبل أن يتمكن من تعليم كوين شيئاً ما.

سأل هاري: «ما التالي؟».

فأجاب كوين: «حصص العمل. أنا سأنضم إلى سيديل في المطبخ، ولكن علينا التأكد من نقلك إلى المكتبة؛ وهذا مرتبط باسم الشرطي المسؤول حالياً. غير أن المشكلة هي أنني لم أعد أملك المال». وما إن أنهى كوين لفظ كلماته حتى فُتِح الباب مجدداً، وظهر هيسلر عند الباب حاملاً السوط في يده المغلّفة بقفاز.

قال: «كوين، اذهب إلى المطبخ فوراً. أما أنت يا برادشو فاذهب إلى القسم التاسع، وانضم إلى عمال التنظيف الموجودين في ذلك الجناح».

«كنت آمل أن أذهب إلى المكتبة يا سيد...»

غير أنّ هيسلر قاطعه قائلاً: «لا أبالي بما كنت تأمل تحقيقه يا برداشو. فأنا المسؤول عن الجناح، وأنا من يتخذ القرارات هنا. يمكنك الذهاب إلى المكتبة أيام الثلاثاء والخميس والأحد بين الساعة السادسة والسابعة؛ تماماً مثل أي سجين آخر. هل هذا واضح بالنسبة إليك؟». فأومأ هاري برأسه، فيما تابع هيسلر كلامه قائلاً: «لم تعد ملازماً هنا يا برادشو، بل أنت مجرد سجين آخر مثل الجميع. ولا تبدِّد وقتك في التفكير في إمكانية رشوتي». ثم انتقل إلى الزنزانة التالية.

عندها، همس كوين قائلاً لهاري: «هيسلر واحد من بين قلة من رجال الشرطة الذين لا يمكنك رشوتهم. إنّ أملك الوحيد الآن هو السيد سوانسون، آمر السجن. تذكّر فقط أنه يعتبر نفسه مثقفاً قليلاً؛ وهذا يعني ربما أنه يستطيع الكتابة. كما أنه أيضاً إنسان متديّن وملتزم».

فسأل هاري: «ومتى ستتاح لي فرصة رؤيته؟».

«يحتمل أن يحصل ذلك في أي وقت. لذا، عندما تلتقيه، احرص على إبلاغه بأنك تريد العمل في المكتبة؛ لأن كل سجين جديد يحصل فقط على خمس دقائق من وقته».

عندها، جلس هاري على الكرسي الخشبي، ووضع رأسه بين يديه. فلولا المبلغ البالغ عشرة آلاف دولار الذي وعده جيلكس بأن يرسله إلى أمه، لاستفاد حتماً من الدقائق الخمس تلك لإبلاغ آمر السجن بحقيقة وصوله إلى سجن لافنهام.

وأضاف كوين: «في غضون ذلك، سأبذل ما بوسعي لنقلك إلى المطبخ. قد لا يكون هذا ما تريده، ولكنه حتماً أفضل من تنظيف أجنحة السجن».

فقال هاري: «شكراً». أسرع كوين صوب المطبخ من دون الحاجة إلى أي تعليمات، فيما نزل هاري السلالم المؤدية إلى الطابق الأرضي، وبدأ يبحث عن القسم التاسع.

وهناك، رأى اثني عشر رجلاً متحلقين على شكل دائرة بانتظار التعليمات؛ وجميعهم محكومون للمرة الأولى. كانت المبادرة إلى القيام بأي مهمة قبل توجيه المسؤولين للسجناء ممنوعة في سجن لافنهام؛ إذ تعتبر تمرداً أو إيحاء بأن السجين أذكى من الشرطي.

قال هيسلر: «ارفع دلواً واملأه بالماء وأحضر ممسحة». ثم ابتسم لهاري وهو يضع خطاً صغيراً قرب اسمه على دفتر آخر ويتابع: «بما أنك آخر سجين نزل يا برادشو، فسوف تعمل هنا طوال الشهر التالي».

عندها، احتج هاري قائلاً: «ولكنني لم أكن آخر من نزل».

فأجاب هيسلر من دون أن تفارق الابتسامة شفتيه: «هذا رأيي».

فما كان من هاري إلا أن ملأ دلوه بالماء البارد وأمسك ممسحة. لم يكن هناك أي داعٍ لإخباره بالاتجاه الواجب الذهاب إليه؛ لأنه استطاع شمّ الرائحة المنبعثة من الحمامات من مسافة بعيدة. شعر هاري بالغثيان قبل أن يدخل إلى القاعة المربعة الكبيرة المشتملة على ثلاثين فجوة في الأرض، فسدّ أنفه، غير أنّه اضطر إلى مغادرة الغرفة مراراً لتنشق الهواء. عندها، وقف هيسلر على مسافة منه، وراح يضحك عليه.

ثم قال له: «سوف تعتاد على ذلك يا برادشو مع مرور الوقت».

وما هي إلا دقائق حتّى ندم هاري على تناوله وجبة الفطور الكبيرة التي سرعان ما تقيأها بعد لحظات من دخوله. وهكذا، مرّت ساعة كاملة تقريباً قبل أن يسمع شرطياً آخر ينادي اسمه: «برادشو!».

وعلى الفور، خرج هاري من الحمامات شاحباً مثل الورقة وقال: «هذا أنا».

«آمر السجن يريد رؤيتك، فلنذهب».

استطاع هاري التنفس بعمق أكبر مع كل خطوة خطاها. وحين وصل إلى مكتب آمر السجن، كان قد عاد إلى حالته الطبيعية تقريباً.

قال الشرطي: «انتظر هنا إلى أن يُنادى اسمك».

جلس هاري على مقعد بين سجينين آخريْن، فأدارا وجهيهما بسرعة بعيداً عنه. لا يمكنه لومهما. وحاول استجماع أفكاره أثناء دخول السجناء الآخرين مكتب آمر السجن وخروجهم منه. كان كوين محقاً، إذ استمرت المقابلات خمس دقائق تقريباً، لا بل أقل أحياناً. وأدرك هاري أنه لا يمكنه تبديد أي ثانية من الوقت المخصص له.

قال الشرطي: «برادشو». ثم فتح الباب، ووقف جانباً فيما دخل برادشو مكتب آمر السجن. قرر هاري عدم الاقتراب كثيراً من السيد سوانسون، وبقي على مسافة خطوات عدة من مكتبه الكبير المكسو بالجلد. وعلى الرغم من بقاء آمر السجن جالساً، لاحظ هاري أنه عجز عن إغلاق الزر الأوسط في سترته الرياضية. كان شعره مصبوغاً باللون

الأسود في محاولة ليبدو أكثر شباباً، لكنّ هذا جعله أكثر عرضة للسخرية. ماذا قال بروتوس عن تفاهة يوليوس قيصر؟!

فتح سوانسون ملف برادشو، وتأمّله بضع لحظات قبل أن ينظر إلى هاري ويقول له: «ألاحظ أنه حُكِم عليك بالسجن لست سنوات. لم أصادف مثل هذا الحكم من قبل».

فأجاب هاري: «نعم سيدي». ولم يشأ تبديد وقته النفيس.

وتابع سوانسون كلامه: «لا تزعج نفسك بإخباري أنك بريء؛ لأن واحداً فقط من بين ألف سجين يكون بريئاً. وبالتالي، إن الاحتمالات ضدك». عندها، ابتسم هاري ملتزماً الصمت، فيما تابع سوانسون: «لكنك إذا أبقيت أنفك نظيفاً»- ففكر هاري في الحمامات- «ولم تسبب أي مشاكل، فلا أرى سبباً لبقائك هنا ست سنوات».

«شكراً سيدي».

سأل سوانسون: «هل لديك اهتمامات خاصة؟». رغم أنه بدا غير مهتم أبداً في ذلك.

«القراءة، وتقدير الفنون، والإنشاد في جوقة دار العبادة يا سيدي».

وعلى الفور، نظر آمر السجن إلى هاري نظرة ذهول، ولم يعرف ما إذا كان يحاول استفزازه. ثم أشار إلى لافتة معلقة على الجدار خلف مكتبه وسأله: «هل يمكنك أن تشرح لي السطر التالي يا برادشو؟».

تأمّل هاري ما كُتب على اللوحة المطرزة: سأرفع عينيّ إلى الهضاب. ثمّ وجّه في سرّه شكراً صامتاً إلى الآنسة إليونور مانداي، وقدّر كثيراً الساعات التي أمضاها في تمرينات جوقة دار العبادة. وحين شرح لآمر

السجن ما كُتب على اللوحة، ابتسم هذا الأخير ثم قال: «أخبرني يا برادشو، من هم المؤلفون المفضلون لديك؟».

«شكسبير، وديكنز، وأوستن، وترولوب، وتوماس هاردي».

«لكنهم جميعاً ليسوا من جنسيتك».

أراد هاري أن يشتم بصوت عالٍ بسبب ارتكابه هذه الحماقة، غير أنه نظر بسرعة إلى الرف المليء بالكتب في مكتب آمر السجن ثم قال: «وبالطبع أنا أحب أيضاً ف. سكوت فيتزجيرالد، وهمنغواي وو. هنري، وأعتقد أن ستاينبك أفضل مؤلف عصري في أميركا». وأمل أن يكون قد لفظ الاسم بشكل صحيح. سيحرص على قراءة الفئران والرجال قبل مقابلة آمر السجن مجدداً.

وهكذا، ارتسمت الابتسامة مجدداً على شفتَي سوانسون. «ما هي المهمة التي أعطاك إياها هيسلر؟».

«تنظيف الجناح؛ رغم أنني أحب العمل في المكتبة يا سيدي».

عندها، قال آمر السجن: «حقاً! سأرى إذا كان هناك عمل شاغر». ثمّ دوّن ملاحظة على الدفتر أمامه.

«شكراً لك يا سيدي».

فقال آمر السجن وهو يُغلق الملف: «إذا كان هناك مكان، فسيتم إبلاغك في وقت لاحق اليوم».

كرّر هاري شكره قائلاً: «شكراً لك يا سيدي». ثم غادر المكتب بسرعة؛ مدركاً أنه بقي لوقت أطول من الدقائق الخمس المخصصة له.

وعندما أصبح في الرواق، رافقه الشرطي إلى الجناح. شكر هاري ربه لأنه لم يرَ هيسلر، ولأن عمال التنظيف كانوا قد انتقلوا إلى الطابق الثاني عندما انضم إليهم.

وقبل وقت طويل من رنّ الجرس إيذاناً بموعد الغداء، كان هاري يشعر بالإرهاق. انضمّ إلى الرتل المصطفّ أمام مقصف الطعام، فوجد كوين واقفاً خلف الأوعية المليئة بالطعام، وهو يسكب وجبات الغداء لرفاقه السجناء. تم وضع حصص كبيرة من البطاطا واللحم المطهو بإفراط في طبق هاري الذي ما إن مُلئ طبقه حتى جلس بمفرده إلى الطاولة الطويلة وتناول طعامه. وكان طيلة الوقت يخشى أن يظهر هيسلر أمامه مجدداً بعد الظهر، ويأمره بالعودة إلى الحمامات؛ فحينها سيتقيأ غداءه.

لم يكن هيسلر في الخدمة عندما عاد هاري إلى العمل، وطلب الشرطي الذي حلّ مكانه من محكوم آخر للمرة الأولى تنظيف الحمامات. وهكذا، أمضى هاري فترة بعد الظهر وهو يمسح الأروقة ويفرغ سلات المهملات. وانحصر تفكيره في ما إذا كان آمر السجن قد أعطى التعليمات بنقله إلى المكتبة أم لا. إذا لم يكن آمر السجن قد فعل ذلك، أمل هاري في الحصول على وظيفة في المطبخ.

وعندما عاد كوين إلى الزنزانة بعد العشاء، عرف هاري من التعبير الذي بدا على وجه صديقه أنه سينضم إليه.

«ثمة مكان واحد شاغر؛ وهو لوظيفة غسل الأطباق».

فقال هاري فوراً: «سآخذه».

«لكن حين طرح السيد سيدل اسمك رفض هيسلر اقتراحه، وقال إنه عليك أن تُمضي ثلاثة أشهر على الأقل في تنظيف الأجنحة قبل أن يفكر في نقلك إلى المطبخ».

عندها، تساءل هاري بتعاسة: «ما مشكلة هذا الرجل معي!؟».

«تقول الإشاعات إنه أراد أن يكون جندياً في الأسطول البحري، ولكنه أخفق في الامتحان، ولهذا اضطر إلى الاكتفاء بخدمة السجن. لذا، يتوجب على الملازم برادشو تحمل النتائج».

4

أمضى هاري الأيام التسعة والعشرين التالية في تنظيف الحمامات في المبنى «أ». وبعد أن جاء محكوم آخر للمرة الأولى إلى الجناح، أعفاه هيسلر أخيراً من واجباته، وحوّل حياة شخص آخر إلى جحيم.

قال كوين: «اللعنة، هذا الرجل مجنون! إذ لا يزال سيدل مستعداً لمنحك وظيفة في المطبخ، ولكن هيسلر رفض الأمر». فلم يعلّق هاري على ذلك، فيما أضاف كوين: «لكن الأخبار ليست كلها سيئة، لأنني سمعت أن آندي سافاتوري، وهو نائب المسؤول عن المكتبة، قد حصل على إعفاء. كان يُفترَض أن يتم إطلاق سراحه في الشهر القادم، والأفضل من ذلك أنه ما من أحد يريد وظيفته».

عندها، فكّر هاري في قرارة نفسه: «ديكنز سيقبل حتماً». ثم أضاف بصوت عالٍ: «وماذا عليّ أن أفعل للتأكد من حصولي على تلك الوظيفة؟».

«لا شيء. في الواقع، حاول أن تترك انطباعاً بأنك غير مكترث كثيراً، وابقَ بعيداً عن هيسلر؛ لأننا نعرف أن آمر السجن يقف إلى جانبك».

مرّ الشهر التالي ببطء، وبدا كل يوم أطول من الذي سبقه. زار هاري المكتبة كل ثلاثاء وخميس وأحد بين الساعة السادسة والسابعة، ولكن ماكس لويد- المسؤول عن المكتبة- لم يعطِه أي سبب يجعله واثقاً من إمكانية ترشيحه للمنصب. أما نائبه سافاتوري فقد بقي صامتاً تماماً؛ رغم علمه بشيء ما.

ذات ليلة، قال هاري بعد إطفاء المصابيح: «لا أعتقد أن لويد يريدني أن أكون نائبه».

فأجاب كوين: «لا يستطيع لويد أن يقرر أي شيء. فالقرار يعود إلى آمر السجن».

غير أن هاري لم يقتنع، وقال: «أعتقد أن هيسلر ولويد يعملان معاً لضمان عدم حصولي على الوظيفة».

عندها، قال كوين: «أصبحت تعاني من الرهـ...، ما هي تلك الكلمة؟».

«الرهاب».

«نعم، هذا ما أصبحت عليه؛ رغم أنني لست واثقاً مما تعنيه تلك الكلمة».

فقال هاري شارحاً: «إنها تعني المعاناة نتيجة شكوك لا أساس لها».

«هذا ما أردت قوله».

رغم ذلك، لم يقتنع هاري بأن شكوكه في غير محلها. وبعد أسبوع واحد، أخذه سافاتوري جانباً وأكّد له مخاوفه.

«رشّح هيسلر ثلاثة أسماء أمام آمر السجن، ولم يكن اسمك في اللائحة».

فقال هاري، وهو يضرب فخذه بيده: «هكذا إذاً! سأعمل في التنظيفات في ما تبقى من أيامي التي سأمضيها هنا!».

عندها، قال سافاتوري: «ليس بالضرورة. تعال لرؤيتي قبل يوم واحد من إطلاق سراحي».

«سيكون الوقت قد تأخر جداً حينها».

فقال سافاتوري من دون أي شرح إضافي: «لا أعتقد. وفي غضون ذلك، تمعّن جيداً في كل صفحة من هذه الصفحات». ثم أعطى هاري كتاباً ضخماً ذا غلاف جلدي نادراً ما يغادر المكتبة.

جلس هاري على السرير العلوي، وفتح دليل السجن المؤلف من 273 صفحة. وقبل وصوله إلى الصفحة 6، بدأ بتدوين الملاحظات. ثم قبل وقت من شروعه في قراءة الكتاب للمرة الثانية، بدأت خطة تتكون في رأسه.

عرف أن توقيته سيكون حاسماً، وأنه عليه التمرن على كلا الفصلين؛ لاسيما وأنه سيكون واقفاً على خشبة المسرح عندما ترفع الستارة. وافق على عدم المباشرة في خطته ما لم يتم إطلاق سراح سافاتوري؛ بالرغم من تعيين نائب جديد للمسؤول عن المكتبة.

عندما أنجز هاري التمرين في خصوصية زنزانته، أخبره كوين أنه ليس مصاباً بالرهاب فقط، وإنما بالجنون أيضاً، وأكد له أن أداءه الثاني سيكون في السجن الانفرادي.

كان آمر السجن يجري جولاته الشهرية على كل قسم صباح يوم اثنين، وعرف هاري أنه عليه الانتظار ثلاثة أسابيع بعد إطلاق سراح

سافاتوري قبل أن يعاود الظهور في المبنى «أ». كان سوانسون يعتمد دوماً المسار نفسه. وقد عرف السجناء أنهم إذا أرادوا حماية أنفسهم فعليهم الاختفاء عن نظره لحظة وصوله.

وهكذا، عندما وصل سوانسون إلى الطابق العلوي في المبنى «أ» صباح يوم الاثنين، كان هاري في انتظاره لإلقاء التحية عليه وتقبيل يده. كان هيسلر يقف مباشرة خلف آمر السجن، وحين رآه لوّح بسوطه مشيراً إلى برادشو بالابتعاد عن الطريق إذا كان يقدّر حياته. لكن هاري لم يتزحزح؛ ما جعل آمر السجن مجبراً على التوقف في مكانه.

قال هاري: «صباح الخير يا حضرة آمر السجن». كما لو أنهما يريان بعضهما بانتظام.

تفاجأ سوانسون بأن يلتقي أحد السجناء وجهاً لوجه، بل تفاجأ أكثر بأن يتحدث إليه ذلك السجين. لذا، حدّق إلى هاري بتمعن ثم قال: «برادشو، أليس كذلك؟».

«لديك ذاكرة جيدة يا سيدي».

«أذكر أيضاً أنك مهتم بالأدب. لذا، تفاجأت حين رفضت مهمة العمل كنائب للمسؤول عن المكتبة».

فما كان من هاري إلا أن أجاب: «لم تُعرض عليّ هذه المهمة قطّ. ولو عُرِضت عليّ، لقبلتها بسرور».

عندها، تفاجأ آمر السجن كثيراً، واستدار صوب هيسلر وقال له: «أخبرتني أن برادشو قد رفض المهمة».

وعلى الفور، تدخل هاري قبل أن يجيب هيسلر: «إنها غلطتي ربما يا سيدي. فأنا لم أدرك أنه عليّ التقدم بطلب للمهمة».

فأجاب آمر السجن: «حسناً، هذا يمكن أن يبرر الأمر. وأؤكد لك يا برادشو أن الرجل الجديد لا يعرف الفرق بين بلاتو وبلوتو». فانفجر هاري ضاحكاً، فيما بقي هيسلر صامتاً تماماً.

قال هاري: «تشبيه جيد يا سيدي». وحاول آمر السجن المضي قدماً، لكنّ هاري لم يكن قد أنهى ما نوى القيام به بعد. وعندما أخرج هاري مغلفاً من سترته وسلّمه لآمر السجن، أحس بأن هيسلر سينفجر.

سأله سوانسون بريبة: «ما هذا؟».

«إنه طلب رسمي أرغب في عرضه أمام هيئة إدارة السجن عند قيامهم بزيارتهم الأسبوعية إلى السجن يوم الخميس المقبل. وهذا حق لي وفقاً للفقرة الثانية والثلاثين من قانون العقوبات. وقد أرسلت أيضاً نسخة إلى محاميّ، السيد سيفتون جيلكس». وللمرة الأولى، بدا آمر السجن قلقاً. فيما بالكاد استطاع هيسلر السيطرة على نفسه.

سأل آمر السجن بحذر: «هل تتقدم بشكوى؟».

فحدّق هاري إلى هيسلر مباشرة قبل أن يجيب: «وفقاً للمادة مئة وست عشرة، يحق لي عدم الكشف أمام أي من موظفي السجن عن سبب توجيهي رسالة إلى هيئة إدارة السجن. وأنا على يقين من أنك تعلم ذلك يا حضرة آمر السجن».

فقال آمر السجن: «نعم، طبعاً يا برادشو». وبدا مرتبكاً.

«لكنني أنوي إبلاغ هيئة إدارة السجن عن الأهمية التي توليها للأدب والدين، وحرصك على جعلهما ضمن حياتنا اليومية». ثم وقف هاري جانباً للسماح لآمر السجن بمتابعة طريقه.

فقال له آمر السجن: «شكراً لك يا برادشو. هذا لطف منك».

فيما قال هيسلر بصوت منخفض: «أراك لاحقاً يا برادشو».

فأجاب هاري بصوت عالٍ بما يكفي ليسمعه السيد سوانسون: «أتطلع إلى ذلك».

كان لقاء هاري مع آمر السجن هو الموضوع الرئيس للمحادثات بين السجناء الواقفين في الرتل مساء في انتظار وجبة العشاء. وعندما عاد كوين من المطبخ في وقت لاحق من ذلك المساء، حذّر هاري من أن الإشاعات تسري في المبنى حول احتمال قيام هيسلر بقتله فور إطفاء المصابيح.

عندها، أجاب هاري بهدوء: «لا أعتقد ذلك. المشكلة في التنمر هي أن الوجه الآخر للشخص المتنمر يكون جباناً كبيراً».

غير أن كوين لم يقتنع بهذا الكلام.

لم يضطر هاري إلى الانتظار لوقت طويل لإثبات رأيه. ففور إطفاء المصابيح، فُتِح باب الزنزانة، ودخل هيسلر مسرعاً وهو يحمل السوط في يده.

ثم قال من دون أن يُبعد عينيه عن هاري: «اخرج يا كوين». وبعد أن خرج الرجل الإيرلندي من الزنزانة، أغلق هيسلر الباب وقال لهاري:

«كنت متشوّقاً إلى هذا اللقاء طوال اليوم يا برادشو. أنت على وشك أن تكتشف عدد العظام الموجودة في جسمك».

فأجاب هاري من دون أن يرفّ له جفن: «لا أعتقد ذلك يا سيد هيسلر».

عندها، سأله هيسلر: «من الذي سينقذك برأيك؟ آمر السجن ليس هنا هذه المرة لإنقاذك».

فأجاب هاري: «لا أحتاج إلى آمر السجن؛ ليس حين تتم دراسة ترقيتك». ثم نظر إلى هيسلر مباشرة وتابع: «تم إبلاغي أنك ستمثل أمام هيئة إدارة السجن يوم الثلاثاء المقبل، في تمام الساعة الثانية من بعد الظهر».

فقال هيسلر من دون أن يتراجع عمّا ينوي القيام به: «وما الذي سيُغيّره هذا؟».

«يبدو أنك نسيت أنني سأمثل شخصياً أمام هيئة إدارة السجن في تمام الساعة العاشرة من ذلك الصباح. وسيرغب حتماً واحد أو اثنان منهم في معرفة سبب تعرضي لهذا الكمّ من الكسور بعد تحدثي إلى آمر السجن».

عندها، ضرب هيسلر سوطه على جانب السرير، على مسافة إنشات قليلة فقط من وجه هاري، لكن هاري لم يجفل، بل تابع كلامه قائلاً: «يحتمل طبعاً أنك تريد أن تبقى مسؤولاً عن جناح السجن طوال حياتك، لكنني أشك نوعاً ما في الأمر؛ إذ ليس من الممكن أن تكون غبياً جداً لدرجة أن تطيح باحتمال ترقيتك». رفع هيسلر سوطه مجدداً، ولكنه تردد عندما أخرج هاري كتاباً سميكاً من تحت وسادته.

«أعددت لائحة شاملة بالقوانين التي خرقتها خلال الشهر الماضي يا سيد هيسلر. وقد فعلت ذلك مرات عدة في بعض الأحيان. أنا واثق من أن هيئة إدارة السجن ستجد متعة في قراءة اللائحة. وسوف أضيف هذا المساء أمرين جديدين: تواجدك بمفردك مع أحد السجناء في الزنزانة فيما الباب مغلق، حسب الفقرة 491، وتوجيه تهديدات جسدية للسجين فيما لا يملك هذا الأخير أية وسيلة للدفاع عن نفسه، حسب الفقرة 512». على الفور، تراجع هيسلر إلى الخلف، بينما تابع هاري كلامه: «لكنني واثق من أن أكثر ما سيؤثر في هيئة إدارة السجن عندما تنظر في أمر ترقيتك هو سبب اضطرارك إلى مغادرة أسطول البحرية في مثل تلك الفترة القصيرة». اختفى الدم تماماً من وجه هيسلر حين سمع ما قاله هاري الذي تابع: «ليس السبب حتماً إخفاقك في الامتحان الذي تقدمت إليه لتصبح ملازماً».

عندها، قال هيسلر بصوت هامس بالكاد يُسمع: «من أخبرك؟!».

«أحد رفاقك السابقين على متن السفينة الذي أصبح لسوء الحظ هنا. والذي حرصت على إبقاء فمه مغلقاً من خلال منحه وظيفة نائب المسؤول عن المكتبة. لم أتوقع شيئاً أقل».

قدم هاري لهيسلر خلاصة عمله طوال الشهر الماضي، ثم صمت قليلاً للسماح لهيسلر باستيعاب آخر معلومة قبل أن يضيف: «سأبقي فمي مغلقاً إلى أن يتم إطلاق سراحي، أو إذا أعطيتني طبعاً سبباً كي لا أفعل ذلك. وإذا تجرأت على لمسي، فسأرميك خارج خدمة السجن بسرعة أكبر من تلك التي تم طردك فيها من الأسطول البحري. هل كنت واضحاً؟». فأومأ هيسلر برأسه من دون أن يتفوّه بكلمة. «إذا قررت

التنمر على محكومين للمرة الأولى، فلن يحالفك الحظ دوماً. والآن، اخرج من زنزانتي».

5

عندما وقف لويد لإلقاء التحية عليه عند الساعة التاسعة من أول صباح له في عمله كنائب للمسؤول عن المكتبة، أدرك هاري أنه رأى الرجل من قبل جالساً فقط. كان لويد أطول مما توقع؛ إذ تعدى طوله ست أقدام. وبالرغم من الطعام غير الصحي الذي يتم تقديمه في السجن، كشف الرجل عن قامة رشيقة، وقد كان أيضاً واحداً من بين عدد قليل من السجناء الذين يحلقون لحيتهم كل صباح. وبدا بشعره الأسود الحالك الممشط إلى الخلف مثل نجم سينمائي متقدم في العمر، وليس كرجل مسجون منذ خمسة أعوام بسبب عملية احتيال. لم يكن كوين يعرف تفاصيل جريمته، ما يعني أنه لا يوجد أحد غير آمر السجن يعرف القصة الكاملة. والعرف السائد في السجن بسيط: إذا لم يتطوع السجين للكشف عن سبب سجنه، فليس بإمكانك سؤاله.

أطلع لويد هاري على الروتين اليومي السائد في المكتبة. وحين نزلا لتناول العشاء في تلك الليلة، كان النائب الجديد للمسؤول عن المكتبة قد صار ضليعاً بمهامه. وخلال الأيام القليلة التالية، استمر هاري في طرح الأسئلة على لويد في ما يتعلق بمسائل متعددة؛ مثل جمع الكتب التي يتم إرجاعها، وكلفة المخالفات... كما عرض عليه فكرة دعوة السجناء للتبرع بكتبهم الخاصة للمكتبة عندما يتم إطلاق سراحهم؛ الأمر الذي لم يكن قد خطر في بال لويد قط. كانت معظم أجوبة لويد مقتضبة جداً. لذا، سمح له هاري أخيراً بالعودة إلى مكتبه، والاختباء خلف نسخة من نيويورك تايمز.

على الرغم من وجود ما يقارب ألف سجين في لافنهام، كان أقل من عشرة في المئة منهم فقط يجيدون القراءة والكتابة، ولم يزعج كل هؤلاء أنفسهم في زيارة المكتبة أيام الثلاثاء والخميس والأحد.

ومع مرور الوقت، اكتشف هاري سريعاً أن ماكس لويد كسول ومراوغ. فقد بدا غير مبالٍ بالمبادرات العديدة التي أطلقها نائبه الجديد؛ كما لو أنه لا يريد الانخراط في أي عمل إضافي.

وبدا لهاري أن مهمة لويد الأساسية هي إبقاء إبريق القهوة على النار في حال مرّ أحد المسؤولين. وبعد تسليم نسخة آمر السجن من عدد اليوم السابق لجريدة نيويورك تايمز إلى المكتبة، كان لويد يجلس أمام مكتبه طوال فترة الصباح، ويطالع أولاً قسم ملخصات عن الكتب. وعندما يُنهي قراءتها، كان ينتقل إلى الإعلانات المبوبة، ومن ثم إلى الأخبار، وأخيراً إلى الرياضة. وبعد الغداء، كان يبدأ بحلّ الكلمات المتقاطعة التي يكملها هاري في صباح اليوم التالي.

وهكذا، عندما يحصل هاري على الجريدة، يكون يومان قد مضيا على صدورها. كان دوماً يبدأ بقراءة صفحات الأخبار الدولية؛ لأنه يريد أن يعرف أخبار الحرب في أوروبا. وبهذه الطريقة علم بسقوط فرنسا. وبعد أشهر قليلة، علم باستقالة نيفيل تشامبرلاين من منصبه كرئيس للوزراء، وحلول وينستون تشرشل مكانه. لم يكن تشرشل الخيار المفضل عند الجميع؛ رغم أن هاري لن ينسى أبداً الخطاب الذي ألقاه عندما قدّم الجوائز في مدرسة بريستول للقواعد. ولم يشك قط في أن بريطانيا باتت بقيادة الرجل الصحيح. ومع مرور الوقت، لعن هاري حظه مراراً وتكراراً؛ لأنه بات نائب المسؤول عن المكتبة في سجن أميركي، وليس جندياً في الأسطول البحري الملكي.

وخلال الساعة الأخيرة من اليوم، عندما لا يجد هاري أي شيء للقيام به، كان يعمل على تحديث دفتر يومياته.

احتاج هاري إلى أكثر من شهر لإعادة تنظيم كل الكتب ضمن فئاتها الصحيحة: أولاً الكتب الخيالية، ومن ثم الكتب غير الخيالية.

وخلال الشهر التالي، باشر في تقسيم الكتب إلى فئات فرعية؛ كي لا يُبدّد السجناء وقتهم في البحث عن الكتب الثلاثة الوحيدة حول الأعمال الخشبية. وشرح للويد أنه في ما يتعلق بالكتب غير الخيالية، تعتبر الفئة أكثر أهمية من اسم المؤلف. غير أن لويد هزّ كتفه غير مبالٍ.

وفي صباح أيام الآحاد، كان هاري يجرّ عربة المكتبة متنقلاً في أرجاء المباني الأربعة في السجن لجمع الكتب من السجناء؛ والتي لم تتم إعادة بعضها منذ أكثر من عام. توقع أن يمتعض بعض المحكومين القدامى في المبنى «د»، أو حتى أن يغضبوا من التطفل عليهم، ولكنهم جميعاً كانوا يرغبون في لقاء الرجل الذي تسبب بنقل هيسلر إلى بياربوينت.

فبعد مقابلته مع هيئة إدارة السجن، حصل هيسلر على منصب مهم في بياربوينت، وقبل بالترقية لأنها أقرب إلى بلدته. لم يعترف هاري قط بأن له علاقة بنقل هيسلر، لكنّ قصة كوين انتقلت من أذن إلى أخرى وصارت أسطورة. مكتبة الرمحي أحمد

وخلال جولاته في أرجاء المباني بحثاً عن الكتب الناقصة، سمع هاري الكثير من الدعابات، وكان يدوّنها على دفتر يومياته خلال المساء.

جاء آمر السجن إلى المكتبة أحياناً؛ لأنه عندما مثل هاري أمام هيئة إدارة السجن، وصف موقف السيد سوانسون تجاه تعليم السجناء بالجريء والمبدع وبعيد الرؤية. لم يصدّق هاري كم كان آمر السجن غير الجدير بالإطراء مسروراً بذلك.

وخلال أشهره الثلاثة الأولى في المكتبة، ارتفع معدل استعارة الكتب بنسبة 14 في المئة. لذا، سأل هاري آمر السجن عمّا إذا كان بوسعه استهلال صف قراءة في المساء، فتردد سوانسون هنيهة، ثم وافق أخيراً عندما كرر هاري كلمات جريء ومبدع وبعيد الرؤية على مسمعيه.

حضر ثلاثة سجناء فقط الصف الأول لهاري، وكان بات كوين واحداً منهم؛ رغم أنه يستطيع أصلاً القراءة والكتابة. وفي نهاية الشهر الثاني، ازداد عدد الحاضرين في الصف حتى بلغ ستة عشر سجيناً؛ علماً أن عدداً منهم قد فعلوا ذلك لمجرد الخروج من زنزاناتهم لمدة ساعة واحدة خلال المساء. إلا أن هاري نجح في لفت انتباه السجناء الشباب، وتمّ تذكيره دوماً بأنه إذا لم يذهب المرء إلى المدرسة «الصحيحة»، أو لم يذهب إلى المدرسة على الإطلاق، فهذا لا يعني أنه غبي، أو العكس؛ مثلما ذكّره كوين.

ورغم كل النشاطات الإضافية التي استهلها هاري، وجد متسعاً من الوقت لديه. لذا، قرر قراءة كتابين جديدين في الأسبوع. وبعد أن أنهى قراءة الكتب الكلاسيكية الأميركية القليلة الموجودة في المكتبة، انتقل إلى قراءة كتب الجرائم الأكثر شعبية بالنسبة إلى رفاقه السجناء، والتي كانت تملأ سبعة من بين الرفوف التسعة عشر في المكتبة.

لطالما استمتع هاري بقراءة مؤلفات كونان دويل، غير أنه أراد نقل اهتمامه إلى منافسيه الأميركيين. لذا، بدأ بقراءة أصبحوا أكبر للمؤلف إيرل ستانلي غاردنر، قبل أن ينتقل إلى قراءة كتاب النوم الكبير للمؤلف رايمون تشاندلر. وشعر بالقليل من الذنب لأنه أحب ذينك الكتابين كثيراً. ترى، ماذا سيكون رأي السيد هولكومب بذلك؟

وخلال الساعة الأخيرة التي تسبق إغلاق المكتبة، كان هاري يواظب على تحديث دفتر يومياته. وذات ليلة، تفاجأ عندما سأله لويد عمّا إذا كان يستطيع قراءة ما كتبه. عرف هاري أن لويد كان وكيلاً أدبياً في نيويورك، ولهذا السبب استلم الآن هذه الوظيفة في المكتبة. وقد ذكر أحياناً أسماء مؤلفين مثّلهم، لكن هاري لم يكن قد سمع بمعظمهم. تحدث لويد مرة واحدة فقط عن سبب وصوله إلى سجن لافنهام، وراقب الباب باستمرار للتأكد من أن أحداً آخر لا يسمع.

قال لويد: «القليل من سوء الحظ. فقد استثمرت بنية طيبة مال بعض زبائني في البورصة، وعندما لم تجرِ الأمور وفق الخطة المعدّة، تحملت المسؤولية وحدي».

وعندما كرر هاري الرواية على مسمعَي كوين في تلك الليلة، رفع هذا الأخير عينيه إلى الأعلى، ثم قال:

«الاحتمال الأكبر هو أنه أنفق المال على لنساء».

عندها، سأل هاري صديقه: «ولِمَ سيودّ إخباري بمثل هذه التفاصيل في الوقت الذي لم يذكر فيه السبب قط أمام أي كان هنا؟».

فأجاب كوين: «أنت ساذج جداً أحياناً! لقد فعل ذلك بصفتك ناقل الخبر؛ إذ يعرف لويد جيداً أنك إن نقلت هذا الخبر فثمة احتمال أكبر

بأن يصدق الآخرون قصته. تأكّد فقط من عدم عقد أية صفقة مع ذلك الرجل؛ لأنه يملك ست أصابع في كل يد». وهذا تعبير للنشالين سجّله هاري في دفتر يومياته تلك الليلة. إلا أنه لم يكترث كثيراً لنصيحة كوين؛ لأنه لم يتخيل أصلاً أية ظروف قد تدفعه إلى عقد صفقة مع ماكس لويد، باستثناء تحديد من سيسكب القهوة عندما يمرّ آمر السجن.

وفي نهاية العام الأول على وجوده في لافنهام، ملأ هاري ثلاثة دفاتر بملاحظاته حول حياة السجن، وتساءل عن عدد الصفحات التي سيملأها في دفاتر يومياته قبل أن تنتهي فترة سجنه.

وتفاجأ هاري كثيراً من شدة الحماسة التي أبداها لويد ومن رغبته في قراءة ما كتبه هاري. حتى إنه اقترح أن يسمح له بعرض أعماله على ناشر. عندها، ضحك هاري قائلاً:

«لا أتوقع أن يكون أي كان مهتماً بخربشاتي».

فقال لويد: «سوف تتفاجأ».

إيما بارينغتون

1941–1939

6

قالت إيما: «سيباستيان آرثر كليفتون». فيما أعطت الطفل النائم إلى جدته.

ابتسمت مايزي ابتسامة عريضة وهي تحمل حفيدها بين ذراعيها للمرة الأولى.

وتابعت إيما كلامها قائلة: «لم يسمحوا لي بالمجيء لرؤيتك قبل المغادرة إلى اسكوتلندا». ولم تحاول إخفاء غضبها. «لهذا السبب اتصلت بك لحظة وصولي إلى بريستول».

فقالت مايزي: «هذا لطف منك». فيما حدّقت ملياً إلى الصبي الصغير؛ محاولة إقناع نفسها بأن سيباستيان ورث الشعر الأشقر والعينين الزرقاوين من زوجها.

جلست إيما إلى طاولة المطبخ، وابتسمت وهي ترتشف شاي إيرل غراي؛ كم هو رائع أن تتذكر مايزي ذلك. كما كانت قد حضّرت شطائر السلمون والخيار؛ المفضلة عند هاري، والتي ربما استنفدت كل حصصها الغذائية. وفيما كانت إيما تجول بناظريها في أرجاء الغرفة، وقعت عيناها على المدفأة، حيث لمحت صورة قديمة لجندي من الحرب الأولى. كم تمنت إيما لو كان بإمكانها رؤية شعره المخبأ تحت الخوذة، أو حتى لون عينيه. هل هما زرقاوا اللون مثل عيني هاري، أو بنّيتا اللون مثل عينيها؟ كشف آرثر كليفتون عن قامة مهيبة في بذلته العسكرية تلك. كما أنّ فكه المربع والنظرة الصارمة في عينيه أكدا لإيما أنه كان فخوراً بخدمة

بلده. بعد ذلك، انتقل نظرها إلى صورة أكثر حداثة لهاري وهو في جوقة مدرسة سانت بيد- مباشرة قبل أن يتغير صوته- ورأت قربها مغلفاً يظهر عليه خط هاري. افترضت أنها الرسالة الأخيرة التي كتبها لأمه قبل أن يموت، وتساءلت عمّا إذا كانت مايزي تسمح لها بقراءتها. وقفت ومشت باتجاه المدفأة، وتفاجأت حين لاحظت أن المغلف لم يفتح بعد.

قالت مايزي حين رأت إيما تحدق إلى المغلف: «أسفت حين سمعت أنك اضطررت إلى مغادرة أوكسفورد».

غير أنّ إيما أجابت وعيناها مسمّرتان على الرسالة: «لم يكن هناك أي مجال للحيرة بين إمكانية متابعتي تعليمي أو إنجابي ابن هاري».

«وقد أخبرني السير والتر أن أخاك جيل قد انضم إلى فرقة ويسيكس، ولكنه لسوء الحظ...»

غير أن إيما قاطعتها بعد أن عجزت عن السيطرة على نفسها: «أرى أنك تلقيت رسالة من هاري».

فأجابت مايزي: «لا، ليست من هاري. إنها من ملازم يدعى توماس برادشو خدم معه على متن السفينة أس أس ديفونيان».

فسألتها إيما: «وما الذي يريد الملازم برادشو قوله؟». مدركة أنه لم يتم فتح الرسالة بعد.

فردّت مايزي قائلة: «لا أعرف. سلّمني إياها الدكتور والاس، وقال لي إنها رسالة تعزية. وقد شعرت أنني لا أحتاج إلى المزيد من التذكير بموت هاري، لذا لم أفتحها قط».

«لكنها قد تلقي بعض الضوء على ما حصل في السفينة ديفونيان».

فأجابت مايزي: «أشك في ذلك. ففي النهاية، هما لم يعرفا بعضهما إلا لأيام قليلة».

عندها، سألت إيما: «هل تريدين أن أقرأ لك الرسالة يا سيدة كليفتون؟». مدركة أن مايزي ربما تشعر بالإحراج من الاعتراف بأنها تعجز عن القراءة.

غير أن مايزي أجابتها: «لا، شكراً يا عزيزتي. ففي النهاية، لن تعيد الرسالة إليّ هاري، أليس كذلك؟».

فقالت إيما: «أوافقك الرأي. لكن، هلّا سمحت لي بقراءتها لأشعر براحة البال».

فما كان من مايزي إلا أن غيّرت الموضوع قائلة: «مع قصف الألمان لأحواض السفن ليلاً، أتمنى ألا تكون شركة بارينغتون قد تأذت كثيراً».

أجابت إيما: «نجونا من إصابة مباشرة». ورفضت القبول بعدم السماح لها بقراءة الرسالة، وتابعت: «أشك أصلاً في أن يجرؤ الألمان على إسقاط قنبلة على جدي».

عندها، ضحكت مايزي. ولهنيهة، فكرت إيما في رفع المغلف عن المدفأة وفتحه قبل أن تمنعها مايزي. لكنّ هاري ما كان ليوافق على ذلك. إذا غادرت مايزي الغرفة، ولو قليلاً، فسوف تستخدم إيما البخار المنبعث من إبريق الشاي لفتح المغلف والتحقق من التوقيع، ثم ستعيده إلى مكانه قبل عودتها.

لكن، يبدو كما لو أن مايزي استطاعت قراءة أفكارها، فقد بقيت قرب المدفأة ولم تتحرك.

قالت إيما رافضة الاستسلام: «يقول لي جدي إن التهاني في الانتظار».

فتورّدت مايزي خجلاً، وبدأت تتحدث عن موعدها الجديد في فندق غراند، فيما بقيت عينا إيما شاخصتين على المغلّف. تحقّقت ملياً من الأحرف المكتوبة في العنوان، وعرفت أنه عليها حفظ صورة أشكال تلك الأحرف في عقلها، مثل الصورة الفوتوغرافية، إلى حين عودتها إلى مانور هاوس. وعندما أعادت إليها مايزي الصغير سيباستيان، شارحة لها أنه عليها العودة إلى العمل، نهضت إيما على مضض، ولكن ليس قبل أن ترمق المغلف بنظرة أخيرة.

وفي طريق العودة إلى مانور هاوس، حاولت إيما إبقاء صورة الخط اليدوي في عقلها، وشعرت بالامتنان لأن الصغير سيباستيان غطّ في نوم عميق. وما إن توقفت السيارة على الحصى أمام الدرج الأمامي، حتى فتح هادسون الباب الخلفي للسيارة للسماح لإيما بالخروج وحمل ابنها إلى المنزل. أخذته مباشرة إلى غرفة الحضانة في الطابق العلوي، حيث كانت ناني بارينغتون في انتظارهما. لكن ناني تفاجأت حين قبّلت إيما طفلها من جبينه وغادرت من دون التفوه بكلمة.

وحين أصبحت في غرفتها، فتحت إيما قفل الدرج الأوسط في مكتبها، وأخرجت كدسة من الرسائل التي كتبها لها هاري على مرّ الأعوام.

أول ما تحققت منه كان الحرف «هـ» في توقيع هاري، الواضح والجريء، فبدا لها تماماً مثل الحرف «هـ» في عبارة ستيل هاوس لاين المكتوبة على المغلف غير المفتوح عند مايزي. ومنحها ذلك الثقة لمتابعة البحث. بعد ذلك، بحثت عن الحرف «ك» ووجدت واحداً في النهاية على بطاقة تهنئة، بالإضافة إلى الحرف «س» الذي ورد في اسم «السيدة

كليفتون» على المغلف. لا بد أن هاري على قيد الحياة، قالت لنفسها بصوت عالٍ. كان إيجاد كلمة «بريستول» سهلاً، ولكن إيجاد كلمة «إنكلترا» كان أكثر صعوبة؛ إلى أن وجدت أخيراً رسالة كتبها لها من إيطاليا عندما كانا لا يزالان في المدرسة. احتاجت إلى أكثر من ساعة لتقطيع الأحرف والرقمين قبل أن تتمكن من محاكاة العنوان المكتوب على المغلف:

السيدة م. كليفتون

27 ستيل هاوس لاين

بريستول

إنكلترا

انهارت إيما على سريرها مرهقة. لم تكن تعرف من هو توماس برادشو، ولكن ثمة أمر كانت متأكدة منه. الرسالة غير المفتوحة الموضوعة على رف مدفأة مايزي كتبها هاري نفسه. ولسبب ما، يعرفه وحده، لا يريدها أن تعرف أنه ما زال على قيد الحياة. وتساءلت عمّا إذا كان سيتصرف بطريقة مختلفة لو عرف أنها كانت حامل بطفله، قبل أن ينطلق في تلك الرحلة المشؤومة.

رغبت إيما بشدة في مشاركة خبر عدم موت هاري مع أمها، وجدها، وغرايس، وطبعاً مايزي، ولكنها أدركت أنه عليها البقاء صامتة إلى أن تتوصل إلى دليل حاسم أكثر من الرسالة غير المفتوحة. ثمة خطة بدأت تتكون في رأسها.

تلك الليلة، لم تنزل إيما لتناول العشاء وإنما بقيت في غرفتها، وحاولت اكتشاف السبب الذي دفع هاري إلى جعل الجميع- باستثناء أمه- يعتقدون أنه مات في تلك الليلة.

وعندما استلقت على سريرها مباشرة قبل منتصف الليل، افترضت أنه فعل ذلك من أجل ما اعتبره مسألة شرف. فلا بد أن الرجل الأحمق والمسكين والمتوهم قد تخيّل أن هذا سيحررها من أي واجب قد تشعر به تجاهه. ألم يدرك أنه منذ اللحظة التي رأته فيها- خلال حفلة ذكرى ميلاد أخيها- عندما كانت في العاشرة من عمرها فقط، أقسمت على ألا يكون هناك أي رجل آخر في حياتها؟!

فرحت عائلة إيما عندما تمت خطوبتها من هاري بعد ثمانية أعوام، باستثناء والدها الذي كان يعيش كذبة منذ زمن طويل؛ كذبة لم تُكشَف إلا يوم زفافهما. فقد كانا كلاهما واقفين أمام المذبح، وعلى وشك قول كلمة «نعم» التي ستربطهما إلى الأبد، حين أنهى العجوز جاك الحفل بطريقة غير متوقعة البتة. غير أن الكشف عن احتمال أن يكون والد إيما والد هاري أيضاً لم يمنعها من عشق هاري، ولن يفعل أبداً. لم يتفاجأ أحد حين تصرف هاري برقي، فيما بقي والد إيما وفياً لشخصيته، وتصرف مثل الجبان. فالأول وقف وواجه الحاضرين، فيما انسحب الثاني من الباب الخلفي لدار العبادة ولم يره أحد منذ ذلك الحين.

كان هاري قد أوضح، قبل فترة طويلة من طلبه يد إيما للزواج، أنه في حال إعلان الحرب، لن يتردد في ترك أوكسفورد والانضمام إلى الأسطول البحري الملكي. كان رجلاً عنيداً في أفضل الأحوال، وهذه هي أسوأ

الأحوال. أدركت إيما أنه لا جدوى أبداً من محاولة ثنيه عن رأيه؛ لأنها مهما قالت أو فعلت، فلن يبدّل رأيه. وكان قد حذّرها أيضاً من أنه لن يفكر في العودة إلى أوكسفورد قبل استسلام الألمان.

تركت إيما أوكسفورد في وقت مبكر أيضاً. ولكنها على عكس هاري، إذ لم يكن لديها خيار آخر. فبالنسبة إليها، لا مجال للعودة أبداً. فالحمل محظور في سومرفيل، وخصوصاً إذا لم تكن المرأة الحامل متزوجة من الأب. لا بد أن هذا القرار قد حطم قلب أمها. فقد أرادت إليزابيت بارينغتون أن تنال ابنتها شهادة علمية حُرمت هي منها فقط لمجرد كونها امرأة. لكنّ نوراً ضئيلاً لُمِح في الأفق بعد عام واحد؛ عندما فازت غرايس- أخت إيما الصغرى- بمنحة مفتوحة إلى كلية غيرتون في جامعة كامبريدج. ومنذ وصولها إلى هناك، تفوّقت على أذكى الرجال.

حين بات جلياً أن إيما حامل، اختبأت في قصر جدها في اسكوتلندا حتى تتجنب طفل هاري. فآل بارينغتون لا ينجبون أطفالاً غير شرعيين، وخصوصاً في بريستول. بدأ سيباستيان يزحف في القصر قبل أن يُسمح لها بالعودة إلى مانور هاوس. أرادت إليزابيت أن يبقيا في مولغيلري إلى حين انتهاء الحرب، لكن إيما كانت قد سئمت من الاختباء في قصر اسكوتلندي بعيد.

كان جدها- السير والتر بارينغتون- من أول الأشخاص الذين زارتهم بعد عودتها إلى المنطقة الغربية. وهو الذي أخبرها أن هاري قد انضم إلى طاقم السفينة أس أس ديفونيان، وأراد العودة إلى بريستول بعد شهر واحد ليصبح بحاراً عادياً في السفينة ريزوليوشن. لكنّ هاري لم يعد قطّ، ومرّت ستة أسابيع قبل أن تعلم أن حبيبها قد دفن في البحر.

أخذ السير والتر على عاتقه مهمة زيارة كل فرد من أفراد العائلة لإطلاعهم على الخبر المأساوي. بدأ بالسيدة كليفتون؛ رغم معرفته بأنها قد سمعت بما حصل من الدكتور والاس الذي أوصل إليها رسالة توماس برادشو. ثم سافر إلى اسكوتلندا لنقل الخبر إلى إيما، وتفاجأ حين لم تذرف حفيدته دمعة واحدة، لكنّ إيما كانت قد رفضت ببساطة تصديق أن هاري مات.

وعندما عاد السير والتر إلى بريستول، زار جيل وأطلعه على الخبر. عندها، غرق الصديق المقرب من هاري في صمت عميق، ولم يستطع أحد من أفراد العائلة مواساته. وعندما عرف اللورد واللايدي هارفي بخبر موت هاري، أصيبا بالصدمة. وبعد أسبوع واحد، عندما حضرت العائلة حفل تأبين الكابتن جاك تارانت في مدرسة بريستول للقواعد، أشار اللورد هارفي إلى أنه مسرور لأن العجوز جاك لم يعرف قط ما حصل للشخص المفضل لديه.

الشخص الوحيد في العائلة الذي رفض السير والتر زيارته هو ابنه، هوغو. وقد تذرّع بعدم معرفته كيفية الاتصال به. لكن عندما عادت إيما إلى بريستول، اعترف لها بأنه حتى لو كان يعلم، لما كان قد فعل ذلك. وأضاف قائلاً إن والدها هو الشخص الوحيد ربما الذي سيفرح بموت هاري. عندها، لم تقل إيما أي شيء، ولكنها لم تشك قطّ في صحة كلام جدها.

بعد أيام عديدة من زيارتها مايزي في ستيل هاوس لاين، أمضت إيما ساعات طويلة في غرفتها وهي تفكر في ما يجدر بها فعله بالمعلومات الجديدة التي عرفتها. واستنتجت أنه لا مجال أبداً لاكتشاف محتويات الرسالة الموضوعة على مدفأة مايزي منذ أكثر من عام، من دون أن

تتأذى علاقتها بمايزي. لكنّ إيما أرادت أن تثبت للعالم أجمع أن هاري لا يزال على قيد الحياة، كما أرادت العثور عليه أينما كان. وأخيراً، قررت أخذ موعد آخر لرؤية جدها. ففي النهاية، كان السير والتر بارينغتون هو الشخص الوحيد باستثناء مايزي الذي قابل الدكتور والاس، ويحتمل أن يكون فرصتها المثالية لكشف الغموض عن هوية توماس برادشو.

7

ثمة شيء تعلمته إيما من جدها منذ سن مبكرة؛ وهو ضرورة عدم الوصول إلى موعد في وقت متأخر. فهذا يولّد انطباعاً سيئاً، على حد قوله. هذا طبعاً، إذا أرادت أن يتم أخذها على محمل الجدّ.

ولهذا السبب، غادرت إيما مانور هاوس عند الساعة 9:25 من ذلك الصباح، ودخلت عبر بوابات شركة بارينغتون للشحن قبل ثماني دقائق من الساعة العاشرة. توقفت السيارة أمام شركة بارينغتون عند العاشرة إلا ست دقائق. وعندما خرجت من المصعد في الطابق الخامس ومشت في الرواق متّجهة إلى مكتب رئيس مجلس الإدارة، كانت الساعة العاشرة إلا دقيقتين.

فتحت الآنسة بيال، سكرتيرة السير والتر، باب مكتبه فيما بدأت الساعة فوق مدفأته ترنّ إيذاناً بالعاشرة. ابتسم رئيس مجلس الإدارة، ونهض من خلف مكتبه، واجتاز الغرفة للترحيب بإيما بقبلتين على الوجنتين.

سألها فيما رافقها إلى كرسي مريح قرب المدفأة: «كيف حال حفيدتي المفضلة؟».

قالت إيما: «غرايس بخير يا جدي. إنها لامعة في جامعة كامبريدج- حسب ما قيل لي- وهي ترسل لها تحياتها».

فقال مبتسماً لها: «لا تكوني مخادعة معي. وكيف حال سيباستيان، ابن حفيدتي المفضل؟».

قالت له إيما: «ابن حفيدتك الوحيد». فيما استقرت على كرسي جلدي عميق.

«بما أنك لم تحضريه معك، فسأفترض أنك تريدين مناقشة أمر جدي».

انتهى وقت المجاملات. عرفت إيما أن السير والتر قد خصّص وقتاً معيناً للقاء. وسبق أن أخبرتها الآنسة بيال ذات مرة أن الزوار يحظون بخمس عشرة دقيقة، أو ثلاثين دقيقة، أو ساعة من وقته؛ حسب أهميتهم بالنسبة إليه. ولا تستثنى العائلة من هذه القاعدة، إلا أيام الآحاد. كان لدى إيما عدد من الأسئلة التي تريد أجوبة عليها، ولذلك أملت أن يكون قد خصص لها نصف ساعة على الأقل.

جلست على كرسيها وحاولت الاسترخاء؛ لأنها لم تشأ أن يعرف جدها السبب الحقيقي وراء رغبتها في رؤيته.

بدأت كلامها بالقول: «هل تذكر عندما سافرتَ إلى اسكوتلندا لإبلاغي أن هاري قد قتل في البحر؟ أخشى القول إنني كنت في حالة صدمة كبيرة حيث لم أستوعب الأمر قط. ولذلك، أتمنى أن تخبرني قليلاً أكثر عن آخر أيام حياته».

فقال السير والتر بتعاطف: «طبعاً يا حبيبتي. فلنأمل ألا تخونني ذاكرتي. هل من شيء محدد تريدين معرفته؟».

«أخبرتني أن هاري قد تطوع للعمل في سفينة ديفونيان بعد خروجه من أوكسفورد».

«هذا صحيح. كان ذلك ممكناً بفضل صديقي القديم القبطان هيفنز الذي كان من بين عدد قليل من الناجين من المأساة. وعندما زرته في الآونة الأخيرة، تحدث بحنان كبير عن هاري. وصفه بالشاب الشجاع الذي لم ينقذ حياته فقط بعد تعرض السفينة لطربيد، وإنما ضحّى بحياته أيضاً عندما حاول إنقاذ المهندس المسؤول».

«هل تم إنقاذ القبطان هيفنز أيضاً بواسطة السفينة كنساس ستار؟».

«لا. أنقذته سفينة أخرى كانت في الجوار، ولذلك لم يرَ هاري قط مجدداً».

«إذاً، هو لم يشهد على دفن هاري في البحر، أليس كذلك؟».

«لا. البحار الوحيد من سفينة ديفونيان الذي كان مع هاري عندما مات أميركي، واسمه الملازم توماس برادشو».

«أخبرتني أن الدكتور والاس قد أعطى السيدة كليفتون رسالة من الملازم برداشو».

«هذا صحيح. فقد كان الدكتور والاس هو المسؤول الطبي في سفينة كنساس ستار. وقد أكد لي أنه بذل وفريقه كل ما يمكن فعله لإنقاذ حياة هاري».

«هل كتب لك برادشو رسالة أيضاً؟».

«لا. لقد كتب للوالدة فقط؛ على حدّ قول الدكتور والاس».

«إذاً، ألا تجد غرابة في أنه لم يكتب لي رسالة؟».

عندها، صمت السير والتر لبعض الوقت، ثم قال: «هل تعلمين أمراً؟ لم أفكر في الموضوع قط. ربما لم يذكرك هاري مطلقاً أمام برادشو. فكما تعلمين، لقد كان كتوماً».

لطالما فكرت إيما في الأمر، ولكنها تابعت قائلة: «هل قرأت الرسالة التي أرسلها إلى السيدة كليفتون؟».

«لا، لم أفعل. ولكنني رأيتها على المدفأة عندما زرتها في اليوم التالي».

«هل تظن أن الدكتور والاس يعرف ما كتبه برادشو في تلك الرسالة؟».

«نعم. قال لي إنها رسالة تعزية من شاب خدم مع هاري على متن السفينة ديفونيان».

قالت إيما: «ليتني أستطيع فقط أن ألتقي الملازم برادشو».

فقال السير والتر: «لا أعرف كيف ستنجحين في ذلك يا عزيزتي؛ إلا إذا كان والاس قد بقي على تواصل معه».

«هل تعرف عنوان الدكتور والاس؟».

«لدي عنوان المسؤول عن كنساس ستار».

«ولكنهم توقفوا حتماً عن الإبحار إلى بريستول بعد إعلان الحرب».

«هذا غير صحيح؛ ما دام هناك أميركيون في إنكلترا على استعداد لدفع مبالغ طائلة للعودة إلى وطنهم».

«أليست هذه مجازفة غير ضرورية، مع وجود العديد من الغواصات الألمانية في المحيط الأطلسي؟!».

فأجاب السير والتر: «ليس إذا بقيت أميركا على الحياد. فآخر ما يريده هتلر هو نشوء حرب مع الأميركيين؛ لأن إحدى غواصاته قد أغرقت سفينة ركاب أميركية».

«هل تعرف ما إذا كانت سفينة كنساس ستار ستعود إلى بريستول في القريب العاجل؟».

«لا. لكنني أستطيع معرفة الجواب بسهولة». ثم نهض الرجل العجوز عن كرسيه، ومشى ببطء صوب مكتبه، وبدأ يقلّب صفحات الجدول الشهري لأحواض السفن.

وأخيراً قال: «ها هي. يفترض أن تنطلق من نيويورك بعد أربعة أسابيع، ويتوقع أن تصل إلى بريستول في 15 نوفمبر. إذا أردت الاتصال بأي من الأشخاص الذين كانوا على متنها، فاعلمي أنها لن تبقى هنا لوقت طويل لأنها قد تتعرض للهجوم».

«وهل يسمح لي بالصعود على متنها؟».

«لا. إلا إذا كنت من أفراد الطاقم أو تبحثين عن وظيفة. وبصراحة، أنا لا أراك بحارة أو نادلة».

«وكيف أستطيع رؤية الدكتور والاس؟».

«عليك الانتظار على الرصيف على أمل أن ينزل إلى الشاطئ. فالجميع يفعلون ذلك بعد السفر لمدة أسبوع كامل. وإذا كان على متن السفينة، فأنا واثق من أنك تستطيعين لقاءه. لكن، لا تنسي يا إيما أنه قد

مضى أكثر من عام على موت هاري، وربما لم يعد والاس المسؤول الطبي عن السفينة». صمتت إيما، فتابع جدها كلامه: «لكن، إذا أردت مني أن أدبر لك لقاء خاصاً مع القبطان، فسأفرح...»

عندها، أجابت إيما بسرعة: «لا، لا. ليس الأمر بهذه الأهمية».

غير أن السير والتر بدأ يقول: «إذا بدّلت رأيك...»، مدركاً فجأة أهمية الأمر بالنسبة إلى إيما.

فقالت وهي تنهض عن كرسيها: «لا، شكراً لك يا جدي. شكراً لك على منحي هذا القدر من وقتك».

قال الرجل العجوز: «لم أمنحك الكثير. أتمنى فقط لو تأتين لزيارتي أكثر. واحرصي على جلب الصغير سيباستيان معك في المرة المقبلة». ورافقها إلى الباب.

في تلك اللحظة، لم يعد لدى السير والتر أي شك في سبب زيارة حفيدته له.

بعد ركوبها في السيارة في طريق العودة إلى مانور هاوس، بقيت عبارة واحدة عالقة في رأس إيما. كررت الكلمات مراراً وتكراراً، مثل إبرة الفونوغراف العالقة في ثلم معين.

وحين وصلت إلى المنزل، انضمت إلى سيباستيان في غرفة الحضانة. تم إنزاله عن حصانه الهزاز، ولكن ليس قبل ذرفه بعض الدموع. وبعد الغداء، استلقى قربها مثل الهرّ الشبعان، وغطّ في نوم عميق. عندها، وضعته ناني في السرير، فيما اتصلت إيما بالسائق.

«أريد العودة إلى بريستول يا هادسون».

«هل هناك مكان محدد يا آنستي؟».

«فندق غراند».

سألتها مايزي: «ماذا تريدين مني أن أفعل!؟».

«أريد منك توظيفي كنادلة؟».

«لكن، لماذا!؟».

«أفضل عدم القول لك».

«هل لديك فكرة عن مدى صعوبة العمل؟».

فاعترفت إيما: «لا. لكنني لن أخذلك».

«ومتى تريدين البدء بالعمل؟».

«غداً».

غداً!».

«نعم».

«ولكم من الوقت؟».

«لمدة شهر واحد».

فقالت مايزي: «حسناً، دعيني أفهم الأمر جيداً. تريدين مني أن أدرّبك على العمل كنادلة بدءاً من الغد، ثم ستغادرين بعد شهر واحد، ولكنك لن تخبريني بالسبب. لماذا؟».

«هذا هو السر».

«وهل تتوقعين أن يتم دفع المال لك».

فأجابت إيما: «لا».

«حسناً، الحمد لله».

«متى أبدأ؟».

«غداً، عند الساعة السادسة صباحاً».

فكررت إيما بذهول: «السادسة صباحاً!».

«قد يبدو الأمر مفاجئاً لك يا إيما. ولكن، لديّ زبائن يريدون تناول الطعام عند الساعة السابعة، للبدء بالعمل عند الثامنة. لذا، عليك أن تتواجدي في مكان عملك عند الساعة السادسة كل صباح».

«مكان عملي!».

«سأشرح لك إذا وصلت قبل السادسة».

لم تتأخر إيما على موعد عملها مرة واحدة خلال الأيام الثمانية والعشرين التالية؛ لأن جنكينز كان ينقر على بابها يومياً عند الساعة الرابعة والنصف فجراً، ثم يوصلها هادسون إلى مسافة مئة ياردة من مدخل الموظفين في فندق غراند عند الساعة 5:45.

استفادت الآنسة ديكنز- مثلما يعرفها الآن جميع الموظفين- من مهاراتها في التمثيل للتأكد من عدم فضح أمرها بأنها من آل بارينغتون.

لم تسامح السيدة كليفتون إيما إطلاقاً إذا أراقت بعض الحساء فوق زبون منتظم، أو إذا أوقعت كدسة من الأطباق وحطمتها في وسط قاعة الطعام. وكان ينبغي عادة أن يتم حسم كلفة تلك الخسارة من أجرتها؛ في حال كانت تأخذ أجرة. وهكذا، مرّ بعض الوقت قبل أن تعتاد إيما على استعمال كتفها لفتح الأبواب الدوارة المؤدية إلى المكتب من دون الارتطام بنادلة أخرى قادمة في الاتجاه المعاكس.

وبالرغم من ذلك، اكتشفت مايزي سريعاً أنها بحاجة إلى إطلاع إيما على الشيء مرة واحدة فقط، وأنها لا تنساه بعدها. كما تفاجأت أيضاً بسرعة إيما في ترتيب الطاولة؛ رغم أنه لم يسبق لها أن فعلت ذلك من قبل، ولو مرة واحدة في حياتها. وفيما يحتاج معظم المتدربين إلى أسابيع عدة للتدرب على تقديم الأواني الفضية، ولا ينجح بعضهم في ذلك أبداً، لم تحتج إيما إلى أي إشراف في نهاية أسبوعها الثاني.

وفي نهاية الأسبوع الثالث، تمنّت مايزي لو أنها لا تفارقها أبداً. وفي نهاية الأسبوع الرابع، كان هذا أيضاً رأي العديد من الزبائن المنتظمين الذين أصروا على أن تتولى الآنسة ديكنز خدمتهم.

عندها، أصبحت مايزي قلقة بشأن كيفية شرحها لمدير الفندق بأن الآنسة ديكنز تريد المغادرة بعد شهر واحد فقط.

قالت إيما وهي تطوي ملابس العمل: «يمكنك القول للسيد هورست إنني حصلت على وظيفة أفضل، بمال أكثر».

فقالت مايزي: «لن يكون مسروراً. كان الأمر سيكون أسهل لو تبيّن عدم نجاحك في العمل، أو لو تأخرت بضع مرات». عندها، ضحكت إيما، ووضعت قبعتها البيضاء الصغيرة بترتيب فوق ملابسها للمرة الأخيرة.

سألت مايزي: «هل من شيء آخر أستطيع فعله من أجلك يا آنسة ديكنز؟».

أجابت إيما: «نعم، من فضلك. أحتاج إلى إفادة عمل».

«أنت تريدين التقدم لوظيفة أخرى غير مدفوعة، أليس كذلك؟».

فأجابت إيما: «نوعاً ما». وأحست بشيء من الذنب لأنها لم تستطع الوثوق في والدة هاري.

عندها، قالت مايزي: «سأنصّ عليك الإفادة وأنت ستكتبينها، ثم سأوقعها». وأعطت إيما ورقة عليها عنوان الفندق في الأعلى. بدأت مايزي بالقول: «لمن يهمه الأمر، خلال الوقت القصير...»

فقاطعتها إيما: «هل أستطيع حذف كلمة «القصير»؟».

ابتسمت مايزي.

«خلال الوقت الذي عملت فيه الآنسة ديكنز معنا في فندق غراند»- ودوّنت إيما كلمة بارينغتون، لكنها لم تخبر مايزي- «أثبتت أنها تعمل بكدّ، ولديها شعبية كبيرة لدى الزبائن والموظفين على حد سواء. مهاراتها كنادلة مذهلة، وقدرتها على التعلم أقنعتني بأن أية مؤسسة ستكون محظوظة في حال انضمّت إلى طاقم موظفيها. نحن آسفون جداً لخسارتها، وإذا رغبت في العودة إلى هذا الفندق يوماً، فستكون محط ترحيب دائماً».

ابتسمت إيما وهي تُعيد الورقة إلى مايزي، فخربشت مايزي توقيعها فوق عبارة مديرة /*المطعم*.

قالت إيما: «شكراً لك». ثمّ طوقتها بذراعيها.

فقالت مايزي بعد أن أفلتتها إيما: «لا أعرف أبداً ما الذي تخططين له يا عزيزتي، ولكنني أتمنى لك التوفيق في كل الأحوال».

أرادت إيما أن تقول لها إنني ذاهبة للبحث عن ابنك، ولن أعود قبل أن أجده؛ غير أنها التزمت الصمت.

8

توجّب على إيما الانتظار على الرصيف لأكثر من ساعة؛ إلى أن لمحت سفينة كنساس ستار تشق طريقها إلى المرفأ. ومضت ساعة أخرى قبل أن تتوقف السفينة أخيراً.

وخلال هذا الوقت، فكّرت إيما في القرار الذي اتخذته، وبدأت تتساءل عمّا إذا كانت لديها الشجاعة للمضي قدماً. حاولت أن تُبعد عن رأسها فكرة غرق السفينة أثينيا قبل أشهر قليلة، واحتمال عدم وصولها إلى نيويورك أبداً.

كانت قد كتبت رسالة طويلة إلى أمها، وقد حاولت فيها أن تشرح لها سبب غيابها لبضعة أسابيع- ثلاثة على الأكثر- وأملت أن تتفهم الأمر. ولكنها لم تستطع أن تكتب رسالة إلى سيباستيان لإبلاغه بأنها ذاهبة للبحث عن والده، وبدأت تشتاق إليه؛ غير أنها حاولت إقناع نفسها بأنها تفعل ذلك من أجل ابنها ومن أجلها على حد سواء.

عرض عليها السير والتر مجدداً تعريفها على قبطان سفينة كنساس ستار، لكنّ إيما رفضت عرضه بتهذيب؛ لأن هذا يتعارض مع فكرة إبقائها هويتها مجهولة. وكان قد أعطاها أيضاً وصفاً غامضاً للدكتور والاس، غير أنها لم تجد أحداً يشبه ذلك الوصف عندما نزل الأشخاص من السفينة في ذلك الصباح. إلا أن السير والتر استطاع تمرير معلومتين مهمتين لها: سوف تغادر السفينة كنساس ستار هذا المساء، وعادة يمكن العثور على المسؤول عن السفينة في مكتبه بين الثانية والخامسة من بعد الظهر؛ أي

حين ينجز معاملات الركاب. والأهم من ذلك أنه هو نفسه المسؤول عن توظيف أشخاص من خارج أفراد الطاقم.

كانت إيما قد كتبت لجدها رسالة قبل يوم واحد لشكره على مساعدته، ولكنها لم تطلعه على خطتها؛ رغم إحساسها بأنه قد فهم الموضوع أصلاً.

بعد أن رنّت الساعة معلنة أنها الثانية في بارينغتون هاوس من دون أن يظهر أي أثر للدكتور والاس، حملت إيما حقيبتها الصغيرة، وقررت أن الوقت قد حان للصعود إلى متن السفينة. وفيما كانت تتقدم على الرصيف بتوتر، سألت أول شخص رأته عن الطريق المؤدي إلى مكتب المسؤول عن السفينة، فقيل لها إنه في الطابق السفلي.

في تلك اللحظة، لمحت راكبة تنزل على سلم عريض، فلحقت بها على افتراض أن السلالم تؤدي إلى الطابق السفلي، ولكنها لم تعرف أين يقع المكتب تحديداً، فانضمت إلى رتل يقف أمام مكتب الاستعلامات.

كانت هناك فتاتان تقفان خلف المكتب، وقد ارتدت كل منهما بذلة كحلية وقميصاً أبيض. وقد حاولتا الإجابة عن أسئلة كل الركاب، والابتسامة مرتسمة على وجهيهما.

سألتها إحداهما بعد أن وصلت إيما أخيراً إلى مقدمة الرتل: «كيف أستطيع مساعدتك يا آنستي؟». فعلى ما يبدو، افترضت الفتاة أنها راكبة. وكانت إيما قد فكرت فعلاً في دفع ثمن تذكرة سفرها إلى نيويورك، ولكنها أدركت أنه يحتمل أن تكتشف ما تحتاج إلى معرفته إذا تسجلت للعمل مع الموظفين.

لذا، سألت: «أين أستطيع إيجاد مكتب ضابط المحاسبة؟».

فأجابت الفتاة: «إنه ثاني باب إلى اليمين عبر هذا الدرج. ستجدينه بسهولة».

عندها، سارت إيما في الاتجاه الذي أشارت إليه إصبع الفتاة. وحين وصلت إلى باب كُتِب عليه ضابط المحاسبة، أخذت نفساً عميقاً وطرقت على الباب.

«تفضل».

فتحت إيما الباب ودخلت، فوجدت أمامها موظفاً أنيقاً جالساً خلف مكتب مليء بالأوراق. كان يرتدي قميصاً أبيض مفتوح الياقة، مع شارتين ذهبيتين على كل كتف.

سألها بلكنة لم تسمعها من قبل قط، وبالكاد استطاعت فهمها: «كيف أستطيع مساعدتك؟».

قالت إيما: «أنا أبحث عن وظيفة كنادلة يا سيدي». وأملت أن تبدو مثل واحدة من الخادمات في مانور هاوس.

فأجابها وهو ينظر إلى أوراقه: «عذراً، لم نعد بحاجة إلى نادلات. الوظيفة الواحدة الشاغرة هي في مكتب الاستعلامات».

وعلى الفور، أجابت إيما بصوتها الاعتيادي: «أنا مستعدة للعمل هناك».

عندها، نظر إليها ضابط المحاسبة بتمعّن، ثم قال بنبرة تحذيرية: «لكن الأجرة ليست جيدة، ودوام العمل أسوأ».

فقالت إيما: «أنا معتادة على ذلك».

تابع الموظف كلامه: «ولا أعدك بوظيفة دائمة؛ لأن إحدى موظفاتي في إجازة في نيويورك، وسوف تنضم إلى طاقم السفينة مجدداً بعد هذه الرحلة».

فقالت إيما من دون أن تقدّم أي شرح إضافي: «هذه ليست مشكلة».

بدا الموظف غير مقتنع كثيراً، وسألها: «هل يمكنك القراءة والكتابة؟».

أرادت إيما القول له إنها فازت بمنحة إلى جامعة أوكسفورد، ولكنها اكتفت بالقول: «نعم، سيدي».

ومن دون أن يتفوّه بأي كلمة أخرى، فتح درجاً وأخرج منه استمارة طويلة، ثم أعطاها قلم حبر وقال: «املئي هذه الاستمارة». وفيما بدأت إيما تجيب عن الأسئلة، قال لها: «أريد أيضاً رسالة توصية».

لذا، بعد أن أنهت إيما ملء الاستمارة، فتحت حقيبتها وأعطت الموظف رسالة التوصية من مايزي.

فقال: «رائع! لكن، هل أنت واثقة من أنك تستطيعين العمل كموظفة استقبال؟».

أجابت إيما: «كانت تلك وظيفتي التالية في فندق غراند. كل هذا جزء من تدريبي لأصبح مديرة».

«ولماذا تخليت عن تلك الفرصة للانضمام إلينا؟».

«لديّ عمة تعيش في نيويورك، وتريد مني أمي أن أبقى معها ريثما تنتهي الحرب».

لم يقتنع ضابط المحاسبة بكلامها هذه المرة؛ لأنها ليست المرة الأولى التي يأتي فيها شخص ما للعمل معهم بهدف الهرب من إنكلترا. غير أنه قال وهو ينهض عن كرسيه: «إذاً، فلنبدأ». وخرج من المكتب ورافقها إلى مكتب الاستعلامات.

«بيغي، وجدت شابة للحلول مكان دانا في هذه الرحلة، ومن الأفضل أن تباشر في عملها فوراً».

فقالت بيغي: «الحمد لله على ذلك». ثم رفعت حاجزاً خشبياً كي تنضم إليها إيما وراء المكتب. سألتها باللكنة الغريبة نفسها: «ما اسمك؟». وللمرة الأولى، فهمت إيما ما قصده برنارد شو عندما قال إن الإنكليز والأميركيين تفصلهم اللغة المشتركة.

«إيما بارينغتون».

«حسناً يا إيما. هذه مساعدتي ترودي. ولدينا الكثير من العمل. يمكنك الاكتفاء بالمراقبة الآن، وسنحاول تعليمك شيئاً فشيئاً».

تراجعت إيما خطوة إلى الخلف، وراحت تراقب الفتاتين وهما تعالجان كل المسائل المطلوبة منهما، فيما الابتسامة لا تفارق وجهيهما نوعاً ما.

وخلال ساعة واحدة، عرفت إيما متى وأين سيتم تدريب الركاب على استعمال قوارب النجاة، والطابق الذي تتواجد فيه غرفة المحركات، وكم سيمضي من الوقت على إبحارهم قبل أن يتمكن الركاب من طلب الشراب، وأين يستطيعون إيجاد شخص ما للقيام بجولة معه على متن السفينة بعد العشاء، وكيفية الوصول إلى الطابق العلوي في حال الرغبة في مشاهدة غروب الشمس.

طوال الساعة التالية، أصغت إيما إلى الأسئلة نفسها تقريباً وهي تُطرَح مراراً وتكراراً. وخلال الساعة الثالثة، تقدمت خطوة إلى الأمام، وبدأت تجيب بنفسها عن أسئلة الركاب، فيما احتاجت في بعض الأحيان إلى مساعدة الفتاتين الأخريين.

تأثرت بيغي بمهارتها كثيراً، وعندما تضاءل الرتل أخيراً واقتصر الأمر على بعض الواصلين في وقت متأخر، قالت لإيما: «حان الوقت لأريك مقرّ سكنك، وأعطيك طعام العشاء قبل أن يتناول الركاب الشراب قبل العشاء». ثم استدارت صوب ترودي وأضافت: «سأعود عند الساعة السابعة لأنوب عنك». ثم رفعت الحاجز الخشبي وخرجت من وراء مكتبها. أما ترودي فأومأت برأسها فيما وصل راكب آخر.

«هل علينا ارتداء ملابس رسمية خلال العشاء الليلة؟».

فجاء الرد الصارم: «ليس في الليلة الأولى يا سيدي، وإنما في كل الليالي الأخرى».

لم تتوقف بيغي عن الكلام إطلاقاً فيما رافقت إيما في رواق طويل، ووصلت إلى مكان مؤطر بحبال مع لافتة كُتِب عليها بالأحمر «للموظفين فقط».

شرحت بيغي لإيما وهي تفكّ الحبل: «هذا مدخل مقرنا». ثم أضافت فيما كانتا تنزلان على السلالم الصغيرة: «سوف تتشاركين الحجرة معي؛ لأن سرير دانا هو الوحيد المتوافر في الوقت الحاضر».

فقالت إيما: «لا بأس».

نزلتا سلالم وراء سلالم، وكانت المساحة تصبح ضيّقة أكثر كلما نزلتا طابقاً. توقفت بيغي عن الكلام فقط عندما وقف بعض الموظفين جانباً للسماح لهما بالمرور، ووجَّهت إليهم بين الحين والآخر ابتسامة دافئة. لم يسبق لإيما أن صادفت شخصاً مثل بيغي في حياتها؛ فهي مستقلة جداً، ولكنها في الوقت نفسه أنثوية المظهر؛ بشعرها الأشقر القصير، وتنورتها التي وصلت إلى الركبتين، وسترتها الضيقة جداً التي أظهرت جمال قامتها.

قالت أخيراً: «هذه حجرتنا. ستنامين هنا طوال الأسبوع المقبل. أتمنى ألا تكوني قد توقعت الحصول على شيء فخم».

دخلت إيما حجرة أصغر من أية غرفة أخرى في مانور هاوس؛ بما في ذلك خزانة المكانس.

قالت بيغي: «إنها مريعة، أليس كذلك؟ في الواقع، ثمة شيء واحد فقط جيد في هذه السفينة». لم تحتج إيما إلى السؤال؛ لأن بيغي فرحت كثيراً بالإجابة عن أسئلتها وأسئلة إيما أيضاً. فقد قالت ضاحكة: «عدد الرجال مقابل عدد النساء أفضل من أي مكان آخر على الأرض». ثم أضافت: «هذا سرير دانا، وهذا سريري. ومثلما ترين، لا يوجد متسع من المكان لتواجد شخصين هنا في الوقت نفسه؛ إلا إذا كان الشخص الآخر في السرير. سأتركك الآن لتوضيب أغراضك، وسأعود بعد نصف ساعة لاصطحابك إلى مطعم الموظفين لتناول العشاء».

تساءلت إيما عن عدد الطوابق الموجودة في الأسفل، لكنّ بيغي اختفت قبل أن تتمكن من سؤالها عن ذلك. جلست إيما على سريرها مذهولة؛ فكيف ستتمكن من جعل بيغي تجيب عن كل أسئلتها إذا كانت لا تتوقف عن الكلام؟! أو ربما سيكون هذا الأمر لصالحها؛ فربما

ستكشف لإيما كل ما أرادت معرفته. لديها أسبوع كامل لمعرفة الحقيقة، وهي مستعدة للتحلي بالصبر. بدأت تضع أغراضها الخاصة في درج لم تحاول دانا إفراغه قط.

أطلقت السفينة صفارتيها للمرة الأخيرة قبل مغادرتها، فأحست إيما برجفة صغيرة. وعلى الرغم من عدم وجود نافذة للنظر عبرها، عرفت إيما أنهم انطلقوا. جلست مجدداً على سريرها، وحاولت إقناع نفسها بأنها اتخذت الخيار الصحيح. ورغم أنها خططت للعودة إلى بريستول بعد شهر واحد فقط، إلا أنها بدأت تشتاق إلى سيباستيان.

راحت تتمعن أكثر في ما سيكون مقرّ إقامتها خلال الأسبوع المقبل. ثمة سرير خشبي ضيق مثبت إلى الجدار في كل من جانبي الحجرة، وبدا أنه مصمم لشخص طوله أقل من الطول العادي. استلقت على السرير وجرّبت الفراش الذي لم ينخفض تحتها نظراً إلى عدم وجود نوابض فيه. وضعت رأسها على وسادة مليئة بالمطاط الزبادي وليس الريش. كانت ثمة مغسلة صغيرة مع حنفيتين ينزل من كلتيهما الماء الفاتر نفسه.

ارتدت بذلة دانا، وحاولت عدم الضحك على مظهرها. وعندما عادت بيغي، ضحكت. فلا بدّ أن دانا أقصر من إيما بثلاثة إنشات على الأقل، وأضخم منها بثلاثة مقاسات. وأخيراً، قالت بيغي وهي ترافق إيما لتناول العشاء: «احمدي الله لأنك ستعملين فقط لمدة أسبوع».

نزلتا إلى أعماق السفينة أكثر فأكثر للانضمام إلى بقية أفراد الطاقم. وقام عدد من الرجال الشباب وواحد أو اثنان أكبر سناً بدعوة بيغي للانضمام إلى مائدتهم. فاختارت بيغي رجلاً شاباً طويلاً، وقالت لإيما إنه مهندس. عندها، تساءلت إيما عمّا إذا كان هذا يفسّر سبب تغطية

الزيت كل جسمه. انضم الثلاثة إلى الرتل الواقف أمام الأطباق الساخنة. ملأ المهندس طبقه بكل ما هو معروض تقريباً. فيما سكبت بيغي النصف تقريباً، أما إيما فاكتفت بتناول البسكويت والتفاح، لاسيما وأنها أحست ببعض الغثيان.

بعد العشاء، عادت بيغي وإيما إلى مكتب الاستعلامات لترتاح ترودي. وبما أن موعد عشاء الركاب عند الساعة الثامنة، جاء عدد قليل منهم فقط إلى مكتب الاستعلامات، بالإضافة إلى أولئك الذين استفسروا عن الطريق المؤدية إلى قاعة الطعام.

وخلال الساعة التالية، عرفت إيما معلومات عن بيغي أكثر بكثير من معلوماتها عن سفينة أس أس كنساس ستار. وحين انتهى دوام عملهما عند الساعة العاشرة مساء، أقفلتا المكتب، ورافقت بيغي رفيقتها الجديدة عبر السلالم إلى الطابق السفلي.

سألت: «هل تريدين الانضمام إلينا لتناول الشراب في مطعم الموظفين؟».

أجابت إيما: «لا، شكراً. فأنا مرهقة».

«هل تظنين أنه يمكنك الوصول إلى الحجرة بمفردك؟».

«الطابق السفلي السابع، الغرفة 113. إذا لم أكن في السرير لحظة تعودين إلى الحجرة، أرسلي فريقاً للبحث عني».

وما إن دخلت إيما حجرتها حتى خلعت ملابسها بسرعة، واغتسلت واستلقت تحت الملاءة. حاولت الاستلقاء بشكل مريح على السرير الخشبي، وجعلت ركبتيها تحت ذقنها تقريباً، لكن التمايل الدائم

للسفينة لم يساعدها على البقاء في الوضعية نفسها لأكثر من بضع لحظات. فكرت في سيباستيان مباشرة قبل خلودها إلى النوم.

استيقظت إيما مذهولة. كان المكان معتماً جداً، حيث لم يكن بإمكانها التحقق من الوقت في ساعتها. في البداية، افترضت أن سبب استيقاظها هو التمايل الناجم عن حركة السفينة، إلى أن ركّزت عينيها واستطاعت رؤية جسمين على السرير الخشبي في الجهة الأخرى من الحجرة، يتحركان بشكل إيقاعي صعوداً ونزولاً. امتدت ساقا أحد الجسمين أبعد من طرف السرير الخشبي والتصقتا بالحائط. لا بد أنه المهندس. أرادت إيما الضحك، ولكنها استلقت ساكنة جداً إلى أن أطلقت بيغي تنهيدة طويلة وتوقفت الحركة. بعد لحظات، نزلت القدمان المتصلتان بالساقين الطويلتين إلى الأرض، وبدأتا تتحركان داخل بذلة قديمة. بعد فترة وجيزة، فُتِح باب الحجرة ثم أغلق بهدوء. وأخيراً، غطت إيما في نوم عميق.

9

عندما استيقظت إيما في صباح اليوم التالي، كانت بيغي قد نهضت وارتدت ملابسها.

قالت لها: «أنا ذاهبة لتناول الفطور. أراك في المكتب لاحقاً. بالمناسبة، يفترض بنا بدء العمل عند الساعة الثامنة».

وما إن أُغلِق الباب حتى نزلت إيما من السرير. وبعد أن اغتسلت وارتدت ملابسها بسرعة، أدركت أنه لم يعد لديها وقت كافٍ لتناول الفطور إذا أرادت التواجد خلف مكتب الاستعلامات في الوقت المناسب.

بعد شروعها في العمل، اكتشفت إيما بسرعة أن بيغي تأخذ وظيفتها على محمل الجدّ، وتحاول مساعدة أي راكب يحتاج إلى العون. وخلال استراحة القهوة الصباحية، قالت إيما: «سألني أحد الركاب عن مواعيد عمل الطبيب».

فأجابت بيغي: «من السابعة إلى الحادية عشرة صباحاً، ومن الرابعة إلى السادسة من بعد الظهر. وفي حالات الطوارئ، يمكن الاتصال بالرقم 111 من أقرب هاتف».

«وما هو اسم الطبيب؟».

«باركنسون. الدكتور باركنسون. إنه الرجل الذي تتمناه كل شابة على متن السفينة».

«أوه، اعتقد أحد الركاب أنه الدكتور والاس».

«لا. لقد تقاعد والي قبل ستة أشهر. كم كان لطيفاً».

لم تطرح إيما أي أسئلة إضافية خلال الاستراحة، واكتفت بشرب القهوة.

بعد عودتهما إلى المكتب، اقترحت بيغي: «لماذا لا تمضين بقية الصباح في استكشاف المكان، وهكذا ستعرفين إلى أين ترسلين الجميع». ثم أعطت إيما دليلاً للسفينة، وقالت لها: «أراك في وقت الغداء».

فتحت إيما الدليل، وبدأت باستكشاف الطابق العلوي: غرف الطعام، المقهى، غرفة لعب الورق، المكتبة، غرفة رقص فيها فرقة جاز. توقفت لإلقاء نظرة إلى الدليل عن كثب، ولاحظت أن المشفى موجود في الطابق السفلي الثاني، فقصدته. فتحت الباب، وأقحمت رأسها في الداخل. ثمة سريران مرتبان وشاغران قرب الجدار في الطرف البعيد للغرفة. هل نام هاري على أحدهما والملازم برادشو على الآخر؟

فجأة، قال لها صوت: «هل أستطيع مساعدتك؟».

استدارت إيما إلى مصدر الصوت، فرأت رجلاً طويلاً يرتدي معطفاً أبيض طويلاً. وعلى الفور، فهمت إيما سبب إعجاب بيغي به.

قالت: «بدأت عملي للتو في مكتب الاستعلامات، ويفترض بي أن أعرف مكان كل شيء».

فقال لها مبتسماً بودّ: «أنا سيمون باركنسون. والآن بعد أن عرفت مكاني، يمكنك المجيء ساعة تشائين».

فأجابت إيما: «شكراً». ثم تراجعت إلى الوراء بسرعة في الرواق، وأغلقت الباب خلفها، وانطلقت مسرعة. لم تذكر متى غازلها رجل للمرة

الأخيرة، ولكنها تمنت لو أنه الدكتور والاس. أمضت بقية الصباح في استكشاف كل الطوابق؛ إلى أن شعرت بأنها باتت تعرف كل أقسام السفينة، وبوسعها إخبار أي راكب عن مكان أي شيء بثقة أكبر.

أرادت أن تمضي فترة بعد الظهر في اختبار مهاراتها الجديدة، لكن بيغي طلبت منها مراجعة ملفات الركاب بالطريقة نفسها التي تعرفت فيها على السفينة. فجلست إيما في المكتب الخلفي بمفردها، واطلعت على ملفات أشخاص لن تراهم مجدداً في حياتها.

في المساء، حاولت تناول العشاء المكوّن من الفول مع الخبز المحمص وكوب من الليموناضة، ولكنها عادت إلى حجرتها بعد فترة وجيزة؛ على أمل النوم قليلاً في حال عاد المهندس.

وعندما فتح الباب ليلاً، استيقظت إيما بسبب النور الذي تسلل من الرواق. لم تعرف إيما هوية الشخص الذي دخل الحجرة، ولكنه ليس المهندس بالتأكيد؛ لأن قدميه لم تصلا إلى الحائط. استلقت مستيقظة لأربعين دقيقة، ولم تخلد إلى النوم مجدداً إلا بعد أن فُتِح الباب وأُغلِق مجدداً.

اعتادت إيما على روتين العمل اليومي بسرعة، تليه الزيارات الليلية. ولم تتغير تلك الزيارات كثيراً، وإنما تغيّر الرجال فقط؛ رغم أن الزائر المجهول توجّه في إحدى المرات إلى سرير إيما وليس إلى سرير بيغي، فقالت له إيما بصرامة: «أخطأت في الفتاة».

فجاء الرد: «عفواً». قبل أن يغيّر الاتجاه. لا بد أن بيغي افترضت أن إيما قد خلدت إلى النوم؛ فبعد أن انتهى الثنائي من علاقتهما الحميمة، استطاعت إيما سماع كل كلمة همسا بها أثناء حديثهما.

«هل تظنين أن صديقتك متوافرة؟».

فقهقهت بيغي: «لماذا؟ هل أعجبتك؟».

«لا، ليس أنا. لكنني أعرف شخصاً يريد أن يكون أول رجل يفك أزرار بذلة دانا».

«لا أمل في ذلك، فلديها صديق في بريستول. وقد قيل لي إنها لم تُعجَب حتّى بالدكتور باركنسون».

فقال الصوت: «هذا مؤسف».

تحدّثت بيغي وترودي غالباً عن ذلك الصباح الذي دُفِن فيه تسعة بحارة من سفينة ديفونيان في البحر قبل الفطور. ومن خلال بعض الأسئلة الدقيقة، استطاعت إيما الحصول على معلومات لم يعرفها جدها أو مايزي. لكن، مع بقاء ثلاثة أيام فقط قبل وصولهم إلى نيويورك، لم تستطع أن تعرف ما إذا كان هاري أو الملازم برادشو من بقي على قيد الحياة.

وفي اليوم الخامس، استلمت إيما مهمة المكتب للمرة الأولى، ولم تحصل أي مفاجآت. لكنّ المفاجأة حصلت في الليلة الخامسة.

فعندما فُتح الباب في ساعة متأخرة من الليل، توجّه الرجل مجدداً إلى سرير إيما. ولكنها عندما قالت له هذه المرة: «أخطأت في الفتاة»،

غادر على الفور. عندها، استلقت مستيقظة، وراحت تتساءل عن هوية ذلك الشخص.

في اليوم السادس، لم تعرف إيما أي شيء جديد عن هاري أو توم برادشو، وبدأت تخشى من الوصول إلى نيويورك من دون الحصول على أي معلومات جديدة. لذا، قررت أن تسأل بيغي مباشرة عن «الشخص الذي نجا» خلال العشاء تلك الليلة.

وأجابت بيغي: «التقيت توم مرة واحدة فقط؛ عندما كان يتجول في أرجاء السفينة مع ممرضته. حسناً، لأكون دقيقة تماماً، لم يكن المسكين يتجول وإنما يتكئ على عكّازيه».

سألتها إيما: «هل تحدثت إليه؟».

«لا، بدا خجولاً جداً. على أية حال، لم تسمح له كريستين بالابتعاد عنها».

«كريستين!».

«كانت ممرضة المشفى في ذلك الحين، وقد عملت مع الدكتور والاس. لا شك في أنهما أنقذا حياة توم برادشو».

«ألم تريه مجدداً؟».

«فقط عندما وصلنا إلى نيويورك، فقد لمحته ينزل إلى اليابسة مع كريستين».

عندها، سألت إيما بقلق: «هل غادر السفينة مع كريستين؟ ألم يكن الدكتور والاس معهما؟».

«لا. فقط كريستين وصديقها ريتشارد».

فقالت إيما: «ريتشارد!». وشعرت بالارتياح.

«نعم، ريتشارد، ولكنني لا أذكر شهرته. كان المسؤول الثالث في السفينة. وبعد فترة وجيزة، تزوج من كريستين ولم نرَ أياً منهما مجدداً».

سألت إيما: «هل كان رجلاً وسيماً؟».

سألت بيغي: «أتقصدين توم أو ريتشارد؟».

في تلك اللحظة، سأل رجل شاب لم ترَه إيما من قبل: «هل أحضر لك كوباً من الشراب يا بيغ؟». وأحست إيما أنها سترى وجهه لاحقاً هذه الليلة.

وقد كانت محقة في ذلك. غير أنها تلك الليلة لم تنم قبل الزيارة أو خلالها أو بعدها؛ لأن شيئاً ما كان يشغل بالها ويقلقها.

في صباح اليوم التالي، وللمرة الأولى خلال الرحلة، كانت إيما واقفة خلف مكتب الاستعلامات في انتظار ظهور بيغي.

سألت عندما وصلت بيغي أخيراً ورفعت الحاجز الخشبي: «هل أحضر لائحة الركاب تحضيراً للنزول؟».

فأجابت بيغي: «أنت أول شخص يتطوع للقيام بهذه المهمة. لكن، اسمحي لي بذلك. إذ يتوجب على شخص ما التأكد من تحديث اللائحة في حال قررت دائرة الهجرة التأكد مجدداً من تفاصيل أي واحد من الركاب بعد وصولنا إلى نيويورك».

ذهبت إيما إلى المكتب الخلفي، ووضعت لائحة الركاب جانباً، وحوّلت انتباهها إلى ملفات أفراد الطاقم السابقين التي وجدتها في خزانة منفصلة بدت وكأنها لم تفتح منذ بعض الوقت.

استهلت بحثاً بطيئاً ودقيقاً عن اسمَي كريستين وريتشارد. وجدت كريستين بسهولة لأنه يوجد شخص وحيد بهذا الاسم، وقد عملت كممرضة مسؤولة في سفينة كنساس ستار بين عامي 1936 و1939. إلا أنها وجدت الكثير من أسماء ريتشارد وديكز وديكيز. لكنّ عنوان أحدهم- الملازم ريتشارد تيبت- تطابق مع عنوان الآنسة كريستين كارفن في مانهاتن.

دوّنت إيما العنوان.

10

«أهلاً بك في الولايات المتحدة يا آنسة بارينغتون».

قالت إيما: «شكراً».

سألها موظف الهجرة فيما تحقق من جواز سفرها: «كم تنوين البقاء في الولايات المتحدة؟».

أجابت إيما: «سأبقى أسبوعاً أو أسبوعين على الأكثر. سأزور عمتي ثم سأعود إلى إنكلترا». صحيح أن إيما لديها عمة تعيش في نيويورك، وهي شقيقة اللورد هارفي، ولكنها لم تكن تنوي زيارتها مطلقاً؛ لأنها لم تشأ أن يعرف أفراد العائلة جميعاً بما تفعله.

«وما هو عنوان عمتك؟».

«أربعة وستون وبارك».

دوّن موظف الهجرة ملاحظة، ثمّ ختم على جواز سفر إيما وأعاده إليها.

«استمتعي بإقامتك في التفاحة الكبيرة يا آنسة بارينغتون».

وبعد أن اجتازت إيما موظفي الهجرة، انضمت إلى رتل طويل من ركاب كنساس ستار. مضت عشرون دقيقة أخرى قبل أن تركب في سيارة أجرة صفراء.

قالت للسائق: «أريد فندقاً صغيراً بسعر مقبول قرب شارع مرتون في مانهاتن».

فقال سائق السيارة فيما خرجت من زاوية فمه سيجارة غير مشتعلة: «هلا تكررين ما قلته لي يا سيدتي».

ومثلما وجدت إيما صعوبة في فهم ما قاله الرجل، افترضت أنه يواجه المشكلة نفسها. لذا، قالت ببطء، مع التشديد على كل كلمة: «أبحث عن فندق صغير غير باهظ قرب شارع مرتون في جزيرة مانهاتن».

فكرر السائق: «شارع مرتون». كما لو أنه الشيء الوحيد الذي فهمه.

فقالت إيما مؤكدة: «هذا صحيح».

«لماذا لم تقولي هذا من البداية؟».

انطلق السائق في سيارته، ولم يتحدث مجدداً إلا بعد أن أوصلها إلى مبنى أحمر رُفِع عليه علم مكتوب عليه فندق مايفلاور.

قال سائق الأجرة: «أربعون سنتاً». فيما تحركت السيجارة صعوداً ونزولاً مع كل كلمة.

دفعت إيما الأجرة من المال الذي تقاضته من عملها في السفينة. وبعد أن وصلت إلى الفندق، استقلّت المصعد إلى الطابق الرابع، وتوجهت إلى غرفتها مباشرة. أول ما فعلته كان خلع ملابسها والاستحمام بالماء الساخن.

خرجت من المغطس على مضض، وجفّفت نفسها بمنشفة كبيرة، ثم ارتدت ما اعتبرته ملابس رزينة ونزلت مجدداً إلى الطابق الأرضي. وأخيراً، شعرت بأنها إنسانة مجدداً.

وجدت إيما طاولة شاغرة في زاوية هادئة في مقهى الفندق، فجلست إليها وطلبت كوباً من الشاي- لم يسمعوا قط بشاي إيرل غراي- وشطيرة كلوب التي لم تسمع بها من قبل. وفيما انتظرت وصول ما طلبته، بدأت تكتب لائحة طويلة من الأسئلة على منديل ورقي؛ على أمل أن يكون هناك شخص ما في 46 شارع ميرتون يرغب في الإجابة عن تلك الأسئلة.

وبعد أن وقّعت على استمارة دخولها، سألت إيما موظفة الاستقبال عن كيفية الوصول إلى شارع ميرتون. ثلاثة مبانٍ إلى الشمال، ثم مبنيان إلى الغرب. لم تدرك أن كل واحد من سكان نيويورك يملك بوصلة خاصة به.

استمتعت إيما بنزهتها، وتوقفت مرات عدة لتأمّل نوافذ العرض المليئة ببضاعة لم ترها من قبل قط في بريستول. وقرابة الظهر، وصلت إلى أمام مبنى شاهق، فلم تعرف ما يجدر بها فعله في حال لم تكن السيدة تيبت في المنزل.

فتح لها بواب أنيق الباب، وألقى عليها التحية ثم سألها: «كيف أساعدك؟».

فقالت إيما: «جئت لرؤية السيدة تيبت». محاولة أن تبدو وكأن لديها موعداً مسبقاً.

قال: «الشقة 31 في الطابق الثالث». ولمس حافة قبعته.

هذا صحيح، يبدو أن اللكنة الإنكليزية تفتح الأبواب.

وفيما شق المصعد طريقه ببطء إلى الطابق الثالث، تدربت إيما على بعض العبارات التي أملت في أن تفتح باباً آخر. وعندما توقف المصعد، أبعدت الحاجز الشبكي، ثم خرجت إلى الرواق، وانطلقت باحثة عن الرقم 31. كانت ثمة دائرة زجاجية صغيرة وسط باب آل تيبت، غير أنها لم تستطع أن ترى عبرها، فافترضت أن سكان المنزل يستطيعون الرؤية عبرها. كما رأت جرساً مألوفاً على الحائط قرب الباب، فضغطت عليه وانتظرت. مرّ بعض الوقت قبل أن يُفتح الباب أخيراً، وإنما بضعة إنشات فقط، كاشفاً عن سلسلة نحاسية، وحدقت إليها عينان.

سألها صوت استطاعت فهمه على الأقل: «ماذا تريدين؟».

فقالت إيما: «آسفة لإزعاجك يا سيدة تيبت، ولكنك قد تكونين فرصتي الأخيرة». بدت العينان مشككتين، فتابعت إيما شارحة: «أنا أحاول يائسة العثور على توم».

كرر الصوت: «توم!».

فقالت إيما: «توم برادشو. إنه والد طفلي».

وعلى الفور، أُغلِق الباب، وأزيلت السلسلة النحاسية، ثم فتح الباب مجدداً كاشفاً عن امرأة شابة تحمل طفلاً بين ذراعيها.

قالت: «آسفة على سلوكي هذا، لكنّ ريتشارد لا يحب أن أفتح الباب للغرباء. ادخلي أرجوك». ورافقت إيما إلى غرفة الجلوس. «اجلسي من فضلك ريثما أضع جاك في سريره».

جلست إيما ونظرت حولها في أرجاء الغرفة. كانت ثمة صور فوتوغرافية عديدة لكريستين مع ضابط بحري شاب افترضت أنه زوجها، ريتشارد.

عادت كريستين بعد دقائق قليلة حاملة صينية قهوة. «سوداء أو بيضاء؟».

فأجابت إيما: «بيضاء من فضلك». رغم أنها لم تشرب القهوة قطّ في إنكلترا. ولكنها علمت سريعاً أن الأميركيين لا يشربون الشاي، ولا حتى في الصباح.

سألتها كريستين بعد أن سكبت فنجانين من القهوة: «هل ترغبين في إضافة السكر؟».

«لا، شكراً لك».

أضافت كريستين فيما جلست قبالة إيما: «إذاً، توم زوجك، أليس كذلك؟».

«لا، أنا خطيبته. وبصراحة، لم يكن يعلم أنني حامل».

سألتها كريستين: «كيف وجدتني؟».

«ضابط المحاسبة في سفينة كنساس ستار قال إنك وريتشارد من آخر الأشخاص الذين رأوا توم».

«هذا صحيح. كنا معه إلى أن تم اعتقاله بعد لحظات من وصوله إلى اليابسة».

فقالت إيما غير مصدقة: «اعتقاله! لماذا؟ ما الذي فعله ليتم اعتقاله؟».

فقالت كريستين: «تم اتهامه بقتل أخيه. لكنك تعرفين هذا حتماً؟».

وعلى الفور، انفجرت إيما باكية؛ إذ تبددت كل آمالها بعد أن أدركت أن برادشو هو الذي بقي على قيد الحياة، وليس هاري. فلو تم اتهام هاري بقتل شقيق برادشو، لكان من السهل عليه أن يثبت لهم أنهم اعتقلوا الرجل الخطأ.

لو فتحت الرسالة الموضوعة على مدفأة مايزي، لاكتشفت الحقيقة، ولما تحمّلت كل هذا العذاب. وهكذا، بكت للمرة الأولى بعد أن تقبّلت فكرة موت هاري.

جيل بارينغتون

1941-1939

11

عندما زار السير والتر بارينغتون حفيده لينقل إليه الخبر المريع بأن هاري كليفتون قد قُتِل في البحر، أحس جيل بالخدر؛ كما لو أنه فقَدَ طرفاً من أطرافه. في الواقع، كان سيفرح بخسارة طرف من أطرافه لو كان هذا سيُعيد هاري. إذ لم ينفصل الاثنان عن بعضهما منذ الطفولة، ولطالما افترض جيل أنهما سيبقيان معاً طوال العمر. إلا أنّ الموت غير الضروري وغير المجدي لهاري جعل جيل أكثر تصميماً على عدم ارتكاب الخطأ نفسه.

كان جيل في قاعة الرسم يصغي إلى خطاب السيد تشرشل عبر الراديو عندما سألته إيما: «هل تنوي الانضمام إلى الجيش؟».

«نعم. لا أريد العودة إلى أوكسفورد. أنوي الانضمام إلى الجيش فوراً».

تفاجأت أمه لدى سماعها قراره كثيراً، ولكنها أخبرته عن تفهمها لقراره. وعانقته إيما بقوة وقالت له: «سيكون هاري فخوراً بك». فيما انفجرت غرايس في البكاء؛ علماً أنها لا تكشف عن عواطفها كثيراً.

وفي صباح اليوم التالي، ذهب جيل إلى بريستول، وركن سيارته الصفراء الفاخرة أمام الباب الأمامي لمكتب التجنيد، ثم دخل المكتب بعزيمة كبيرة. كان ثمة رقيب أول من فرقة غلاوسسترز- الفرقة السابقة للكابتن جاك تارنت- وقف فور رؤيته الشاب بارينغتون. أعطى جيل

استمارة، فملأها هذا الأخير بشكل كامل، وتمّت دعوته بعد ساعة واحدة للوقوف خلف ستارة ليتم فحصه من قبل طبيب الجيش.

وضع الطبيب علامة في كل خانة بعدما فحص بدقة أحدث متطوع في الجيش- الأذنان، الأنف، الحنجرة، الصدر والأطراف- قبل أن يختبر نظره أخيراً. وقف جيل خلف خط أبيض، وقرأ الأحرف والأرقام بناء على طلب الطبيب. ففي النهاية، إنه يستطيع صدّ كرة جلدية آتية مباشرة صوبه بسرعة تسعين ميلاً في الساعة، ورميها إلى أبعد حدود. كان واثقاً من أنه سينجح في الفحص الطبي؛ إلى أن سأله الطبيب عمّا إذا كانت هناك أمراض أو مشكلات وراثية في عائلته. فأجاب جيل بصدق: «يعاني والدي وجدي من عمى الألوان».

أنجز الطبيب سلسلة من الاختبارات الأخرى، ولاحظ جيل أن الإعجاب قد تحول إلى انزعاج.

وأخيراً، قال الطبيب بعد أن أنهى فحصه: «يؤسفني أن أقول لك يا سيد بارينغتون إنه نظراً للتاريخ الطبي في عائلتك، لا يسعني التوصية بك للخدمة الفعلية. لكن، ما من سبب طبعاً يحول دون انضمامك إلى الجيش وإنجازك عملاً مكتبياً».

قال جيل، محاولاً أن يبدو تعيساً: «ألا يمكنك وضع إشارة في الخانة المناسبة يا حضرة الطبيب، وتجاهل الموضوع الذي ذكرته لك؟».

غير أن الطبيب تجاهل اعتراضه، وفي الخانة الأخيرة من الاستمارة كتب: «غير صالح للخدمة الفعلية».

عاد جيل إلى مانور هاوس في وقت الغداء، فلم تعلّق أمه إليزابيت حين تناول قنينة كاملة من الشراب تقريباً. وقد أخبر جميع الذين سألوه،

وحتى أولئك الذين لم يسألوه، أنه تم رفضه في الجيش لأنه يعاني من عمى الألوان.

عندها، قالت له غرايس: «لكنّ هذا لم يمنع جدي من محاربة البويرز». فيما سكب حصة ثانية من البودينغ في طبقه.

أجاب جيل: «ربّما لم يكونوا على علم بهذه المشكلة في ذلك الحين». محاولاً تخفيف ضربتها.

غير أنّ إيما وجّهت إليه ضربة أخرى. فقد قالت له وهي تنظر إلى وجهه مباشرة: «أنت لم تشأ التطوع في الجيش أساساً، أليس كذلك؟». كان جيل ينظر إلى حذائه عندما وجّهت إليه الضربة القاتلة: «المؤسف أن صديقك من أحواض السفن ليس هنا لتذكيرك بأنه هو أيضاً كان مصاباً بعمى الألوان».

عندما سمعت والدة جيل الخبر، بدا جلياً أنها ارتاحت، ولكنها لم تعلّق على الأمر. لم تتحدث غرايس مع أخيها مجدداً قبل عودتها إلى كامبريدج.

عاد جيل إلى أوكسفورد في اليوم التالي؛ محاولاً إقناع نفسه بأن الجميع سيقبلون بسبب عدم تمكنه من التطوع في الجيش ورغبته في متابعة حياته في الجامعة. غير أنه عندما دخل عبر بوابة الجامعة، وجد أن المكان يشبه مركز التجنيد أكثر من الجامعة؛ لأنّ عدد الشباب الذين ارتدوا بذلات عسكرية تخطى بكثير عدد أولئك الذين ارتدوا بذلات الجامعة. ووجد جيل أن الشيء الوحيد الإيجابي في هذه العملية هو أنه وللمرة الأولى في التاريخ، سيكون عدد الرجال موازياً لعدد النساء في

الجامعة. ولكن لسوء الحظ، أرادت معظم الفتيات التواجد برفقة شاب يرتدي البذلة العسكرية.

كان ديكنز، صديق جيل القديم من أيام المدرسة، من بين عدد قليل من الطلاب غير المنزعجين من عدم تطوعهم في الجيش. وللتذكير فقط، لم يكن هناك أي داعٍ ليخضع ديكنز أساساً لفحص طبي. فهذا الفحص من بين الفحوص النادرة التي يخفق في النجاح فيها. ولكنه اختفى فجأة وذهب إلى مكان يدعى «بليتشلي بارك». لم يخبر أحد جيل بما يفعلونه هناك، سوى أن الأمر «سري» جداً. وقال ديكنز لجيل إنه لا يستطيع زيارته في أي وقت؛ مهما كانت الظروف.

ومع مرور الأشهر، بدأ جيل يمضي المزيد من الوقت في المقهى، وليس في قاعة المحاضرات المزدحمة، فيما بدأت جامعة أوكسفورد تمتلئ بالجنود العائدين من الجبهة؛ بعضهم بذراع واحدة أو ساق واحدة، وبعضهم مصابون بالعمى، وكانوا جميعاً في جامعته. حاول متابعة حياته كما لو أنه لم يلاحظ أي شيء، ولكنه في نهاية الفصل، بدأ يشعر بالغرابة، وبأنه لا ينتمي إلى هذا المكان.

وفي نهاية الفصل، ذهب جيل إلى اسكوتلندا للاحتفال بولادة سيباستيان آرثر كليفتون. فقد تمت دعوة أفراد العائلة الصغيرة، وصديق واحد أو اثنين للمشاركة في الاحتفال الذي تم في دار عبادة قصر مولجلري. لكنّ والد إيما وجيل لم يكن من بين المدعوين.

تفاجأ جيل وفرح كثيراً عندما طلبت منه إيما أن يكون كفيل ابنها؛ رغم أنه أجفل قليلاً عندما اعترفت له بأن السبب الوحيد الذي دفعها

إلى اختياره هو أنه حتماً الخيار الأول بالنسبة إلى هاري؛ بالرغم من كل ما حصل.

وفي صباح اليوم التالي، فيما كان متوجهاً لتناول الفطور، لاحظ جيل ضوءاً صادراً من مكتب جده. وعندما مرّ من أمام الباب في طريقه إلى غرفة الطعام، سمع جيل اسمه يدور في الحديث، فتوقّف في مكانه، وتقدّم أكثر من الباب نصف المفتوح، ثم تجمّد مذعوراً عندما سمع السير والتر يقول: «يؤلمني قول ذلك، لكنّ الولد سرّ أبيه».

فأجاب اللورد هارفي: «أوافقك الرأي. وأنا لطالما علّقت آمالي على الصبي؛ ما يجعل المسألة كلها بغيضة».

قال السير والتر: «لا تدري كم كنت فخوراً، بصفتي رئيس مجلس الإدارة، عندما تم تعيين جيل كمسؤول في مدرسة بريستول للقواعد».

وقال اللورد هارفي: «افترضت أنه سيسخّر هذه المواهب المميزة في القيادة والشجاعة التي يكشف عنها غالباً في أرض الملعب على أرض المعركة».

عندها، قال السير والتر: «لكنّ الشيء الإيجابي الوحيد في كل هذه المسألة هو عدم اعتقادي بأن هاري كليفتون يمكنه أن يكون ابن هوغو».

وعلى الفور، مشى جيل في الرواق بسرعة، واجتاز غرفة الطعام، ثم خرج عبر الباب الأمامي، وركب سيارته وبدأ رحلته الطويلة إلى الريف الغربي.

وفي صباح اليوم التالي، ركن سيارته أمام مكتب تجنيد. ومجدداً، وقف في الرتل، ليس للتسجل مع فرقة غلاوسسترز هذه المرة، وإنما في الجهة الأخرى من آيفون، حيث يطلب فيلق ويسيكس متطوعين جدداً.

وبعد أن ملأ الاستمارة، خضع لفحص طبي شامل جديد. هذه المرة، عندما سأله الطبيب: «هل تعلم إذا كانت هناك أمراض أو مشكلات وراثية في عائلتك قد تمنعك من الانخراط في الخدمة الفعلية؟»، أجاب: «لا، يا سيدي».

12

وعند ظهر اليوم التالي، غادر جيل عالماً ودخل عالماً آخر.

فقد ركب ستة وثلاثون مجنداً، لا يجمعهم أي شيء باستثناء تسجلهم للانضمام إلى الجيش، في قطار واحد مع عريف تصرّف كما لو أنه مربيتهم. وفيما انطلق القطار من المحطة، حدّق جيل عبر النافذة المتسخة في الدرجة الثالثة، وكان واثقاً من شيء واحد فقط؛ وهو أنهم يتجهون صوب الجنوب. لكن، عندما توقف القطار في ليمبستون بعد أربع ساعات، أدرك كم توغلوا صوب الجنوب.

خلال الرحلة، بقي جيل صامتاً، وأصغى بانتباه إلى كل الرجال حوله الذين سيكونون رفاقه خلال الأسابيع الاثني عشر المقبلة. سائق حافلة من فيلتون، وشرطي من لونغ آشتون، وجزّار من برود ستريت، وعامل بناء من نايلسي، ومزارع من وينسكومب.

وبعد أن نزلوا من القطار، رافقهم العريف إلى حافلة كانت في انتظارهم.

سأل الجزّار: «إلى أين سنذهب؟».

فأجاب العريف بلكنة اسكوتلندية مميزة: «ستكتشف الأمر بسرعة يا صديقي».

وطوال ساعة كاملة، تحركت الحافلة في دارتمور إلى أن اختفت كل آثار المنازل والأشخاص، وبقيت فقط الصقور المحلقة في الأعلى بحثاً عن فريسة.

وأخيراً، توقفوا أمام مجموعة من المباني، حيث توجد لافتة كبيرة كُتِب عليها ثكنة إيبرس: معسكر تدريب فرقة ويسيكس. ولكن، لم ترتفع معنويات جيل. خرج جندي من غرفة الحراسة، ورفع الحاجز المتحرك للسماح للحافلة بالتقدّم مسافة مئة ياردة إضافية قبل أن تتوقف وسط ملعب كبير. وهناك، كان بانتظارهم جندي واحد للإشراف على نزولهم من الحافلة.

عندما نزل جيل، وجد نفسه وجهاً لوجه مع رجل عملاق، ضخم الصدر، يرتدي بذلة باللون الكاكي، وبدا كأنه مزروع في الملعب الكبير. كانت هناك ثلاثة صفوف من الميداليات معلّقةً على صدره، وكان يحمل قضيباً تحت ذراعه اليسرى. لكنّ أكثر ما لفت نظر جيل في مظهره هو طية سرواله الواضحة وحذاؤه اللامع جدّاً؛ لدرجة أن جيل استطاع رؤية انعكاسه عليه.

قال الرجل بصوت صدح في أرض الملعب؛ ففكر جيل في أنه لا يحتاج إلى أي مكبّر للصوت: «أهلاً بكم أيها السادة. اسمي الرقيب داوسون، وعليكم مناداتي سيدي. يتوجب عليّ تحويلكم من أشخاص عاديين إلى قوة مقاتلة خلال اثني عشر أسبوعاً فقط. بعد ذلك، يمكنكم اعتبار أنفسكم أفراداً في فرقة ويسيكس؛ أفضل فيلق من نوعه. طوال الأسابيع الاثني عشر المقبلة، سأكون أمكم وأباكم وحبيبتكم. ودعوني أؤكد لكم أن لديّ هدفاً واحداً في الحياة؛ وهو التأكد من أنكم فور لقائكم بأي ألماني، ستتمكنون من قتله قبل أن يقتلكم. ستبدأ هذه

العملية عند الساعة الخامسة من صباح الغد». في تلك اللحظة، سُمِع صوت هدير، غير أنّ الرقيب تجاهله وتابع كلامه: «حتى ذلك الحين، سأترك للرقيب ماك كلاود مهمة اصطحابكم إلى المطعم لتناول الطعام قبل الاستقرار في الثكنة. احرصوا على أن تستريحوا جيداً خلال الليل، لأنكم ستحتاجون إلى كل طاقة تملكونها عندما نلتقي مجدداً».

جلس جيل أمام فطيرة سمك لم ترَ مكوناتها المياه المالحة قط. وبعد جرعة واحدة من ماء بني فاتر يفترض أنه شاي، أعاد كوبه إلى الطاولة.

فقال له الشاب الجالس قربه: «إذا لم تشأ تناول فطيرة السمك، فهل يمكنني الحصول عليها؟». عندها، أومأ جيل برأسه، وتبادلا طبقيهما. ولم يتحدث الشاب مجدداً إلا بعد أن التهم طبق جيل.

فقد قال: «أعرف أمك».

عندها، نظر إليه جيل عن كثب، متسائلاً عن كيفية حصول ذلك.

فتابع الرجل كلامه: «نحن نوصل اللحم إلى مانور هاوس وشركة بارينغتون. أحب أمك؛ فهي سيدة لطيفة جداً. بالمناسبة، أنا بايتس، تيري بايتس». وصافح جيل بقوة وهو يقول: «لم أعتقد يوماً أنني سأجلس قربك».

في تلك اللحظة، قال الرقيب: «حسناً أيها الشباب، هيّا فلننطلق». عندها، نهض المجندون الجدد عن مقاعدهم، ولحقوا بالرقيب إلى خارج المطعم، واجتازوا أرض الملعب للوصول إلى كوخ فولاذي كتبت كلمة «مارن» على بابه. إنها معركة أخرى رابحة لفيلق ويسيكس؛ حسب ما شرحه لهم الرقيب قبل أن يفتح الباب للكشف عن مقرهم الجديد.

كان قد وُضِع ستة وثلاثون سريراً- ثمانية عشر سريراً في كل جهة- في مساحة لا تتعدى غرفة الطعام في قصر بارينغتون. تم وضع جيل بين أتكينسون وبايتس، فقال لنفسه إن الأمر شبيه بالمدرسة التحضيرية؛ رغم ملاحظته فرقاً واحداً أو اثنين خلال الأيام القليلة الأولى.

«حسناً أيها الرجال. حان الوقت لخلع الملابس والاستراحة قليلاً».

وقبل صعود الرجل الأخير إلى سريره، أطفأ الرقيب الأنوار وقال: «احرصوا على النوم قليلاً. إذ ينتظركم يوم طويل غداً». وما كان جيل ليتفاجأ لو أضاف: «ممنوع الكلام بعد إطفاء المصابيح»؛ مثلما فعل فيشر، مفوض الطلاب في مدرسته القديمة.

ومثلما قيل لهم، أضيئت المصابيح مجدداً عند الساعة الخامسة صباحاً. لم تتح لجيل فرصة النظر إلى ساعته بعدما دخل الرقيب أول داوسون وقال: «آخر رجل يضع قدميه على الأرض سيكون أول من يتلقى ضربة سكين!».

وعلى الفور، ارتطم عدد كبير من الأقدام بالأرض، فيما مشى الرقيب أوّل بين الأسرّة، وضرب بعصاه طرف كل سرير لم تطأ قدما صاحبه الأرض بعد.

وتابع كلامه قائلاً: «والآن، أصغوا إليّ جيداً. سأعطيكم أربع دقائق للاغتسال والحلاقة، وأربع دقائق أخرى لترتيب السرير، وأربع دقائق لارتداء الملابس، وثماني دقائق لتناول الفطور. ما يعني أن لديكم عشرين دقيقة في الإجمال. لا أوصيكم بالثّرثرة؛ على اعتبار أنه ليس بإمكانكم تحمّل نتيجة تبديد الوقت سدى. وعلى أية حال، أنا الشخص الوحيد الذي يُسمَح له بالكلام. هل هذا مفهوم؟».

فقال جيل: «طبعاً مفهوم». وتلا ذلك ضحك مفاجئ.

بعد قليل، وقف الرقيب أوّل أمامه، وصرخ بصوت عالٍ، وقد وضع عصاه على كتف جيل: «عندما تفتح فمك مجدداً يا بنيّ، فأَنا لا أريد أن أسمع منك سوى نعم سيدي، أو لا سيدي. هل هذا واضح؟».

فقال جيل: «نعم سيدي».

«لا أعتقد أنني سمعتك أيها الفتى».

فصرخ جيل: «نعم سيدي!».

«هذا أفضل. والآن، اذهب للاغتسال أيها الرجل الفظيع قبل أن أفرض عليك عقوبة».

لم يعرف جيل ما هي العقوبة، ولكنها لم تبدُ له شيئاً جميلاً إطلاقاً.

كان بايتس خارجاً من غرفة الاستحمام عندما دخل جيل. وعندما حلق جيل لحيته، كان بايتس قد رتّب سريره وارتدى ملابسه وفي طريقه لتناول الفطور. وحين لحق به جيل أخيراً، جلس على المقعد المقابل له.

سأله جيل بإعجاب: «كيف تنجح في ذلك؟».

سأله بايتس: «أنجح في ماذا؟».

«في الاستيقاظ جيداً، فيما لا يزال معظمنا نصف نائمين».

«الأمر بسيط حقاً. فأنا لحام مثل أبي. أستيقظ كل صباح عند الساعة الرابعة من بعد منتصف الليل، وأتوجه إلى السوق. فإذا أردت الحصول على أجود أنواع اللحوم، عليّ التواجد لحظة وصولها من أحواض السفن أو محطات القطار. أما إذا تأخرت بضع دقائق فقط، فسأحصل

على النوعية الثانية. وإذا تأخرت نصف ساعة، فسأحصل على البقايا، ولن تشكرني أمك على ذلك».

عندها ضحك جيل، فيما نهض بايتس وعاد إلى الثكنة، ليكتشف أن الرقيب أول لم يخصص أي وقت لتنظيف الأسنان.

مضى معظم الوقت قبل الظهر في قياس المجندين للبذلات العسكرية؛ علماً أن واحدة أو اثنتين منها بدت وكأنها مستعملة سابقاً. ثم تمّ توزيع القبعات، والأحزمة، والجزمات، والخوذات، ودهان ملمع للأحذية. وأخيراً، بعد حصول المجندين على كل لوازمهم، تم اصطحابهم إلى أرض الملعب للبدء في أول جلسة تدريب. وبما أن جيل خدم في الفرقة العسكرية في المدرسة، فقد كشف عن تقدّم بسيط على رفاقه، ولكنه أحس بأنه لن يمضي وقت طويل قبل أن يتفوق عليه تيري بايتس.

وعند الساعة الثانية عشرة، تمت إعادتهم إلى قاعة الطعام. كان جيل جائعاً جداً، لدرجة أنه تناول كل ما قُدِّم له. بعد الغداء، عادوا إلى الثكنة، وارتدوا الملابس الرياضية قبل أن ينقلوا إلى القاعة الرياضية. شكر جيل بصمت أستاذ اللياقة البدنية في الثانوية لأنه علّمه كيفية التسلق بالحبال، والتوازن على عارضة، واستعمال قضبان الجدار للتمدد. ولاحظ تماماً كيف قلّد بايتس كل حركاته.

انتهى تدريب بعد الظهر بالركض لمسافة خمسة أميال في الطبيعة الوعرة. وصل ثمانية مجندين فقط من أصل المجندين الستة والثلاثين إلى بوابة الثكنة برفقة مدرب الرياضة. وقد ضاع أحد المجندين، فأُرسِل فريق بحث لإحضاره مجدداً. بعد ذلك، قُدِّم لهم الشاي في ما وصفه

الرقيب الأول فترة استراحة، ولكنها في الواقع كانت فترة الانهيار على الأسرّة، والاستغراق في نوم عميق بالنسبة إلى معظم الشبان.

وعند الساعة الخامسة من صباح اليوم التالي، فُتِح باب الثكنة مجدداً. وهذه المرة، ارتطمت عدة أقدام بالأرض قبل أن يضيء الرقيب أول المصابيح. بعد الفطور، تم تخصيص ساعة كاملة للمشي الإيقاعي في أرض الملعب، والتزم الجميع تقريباً بالخطوات هذه المرة. بعدها، جلس المجندون الجدد على العشب على شكل دائرة، وتعلموا كيفية فك بندقية، وتنظيفها، وحشوها وإطلاق النار منها. سحب الرقيب رصاصة من الأسطوانة في حركة سريعة، وذكّرهم أن الرصاصة لا تعرف الجهة التي تم وضعها فيها، ولذلك يجب منحها الفرصة لمغادرة الأسطوانة من الأمام وقتل العدو، وعدم الارتداد إلى الخلف وقتلهم هم.

تم قضاء فترة بعد الظهر في التدرب على مدى البندقية؛ حيث علّم المدرِّبون كل مجنّد كيفية تثبيت قاعدة البندقية على كتفه، وكيفية ضبط الرؤية الأمامية والخلفية مع الدائرة الوسطية للهدف، والضغط على الزناد برفق، وعدم الضغط عليه بقوة أبداً. هذه المرة، شكر جيل جده على الساعات التي أمضاها معه في صيد الإوز، حيث استطاع إصابة الهدف تماماً.

انتهى اليوم الثاني بالركض لمسافة خمسة أميال جديدة، وشرب الشاي والاستراحة، قبل أن تُطفَأ المصابيح في تمام العاشرة. انهار معظم الرجال على أسرّتهم قبل إطفاء المصابيح، متمنّين لو أن الشمس لا تشرق في صباح اليوم التالي، أو يموت الرقيب الأول خلال نومه. لكنّ الحظ لم

يحالفهم. بدا الأسبوع الأول بمثابة شهر طويل بالنسبة إلى جيل. ولكنه في نهاية الأسبوع الثاني بدأ يعتاد على الروتين؛ رغم أنه لم ينجح قط في الاستحمام قبل بايتس.

ورغم أنه لم يستمتع بالتدريبات الأساسية، إلا أنه أحب التحدي والمنافسة. ولكنه مع مرور كل يوم اضطر إلى الاعتراف بأنه وجد صعوبة أكبر في التفوق على اللحام الآتي من برود ستريت. فقد استطاع بايتس التعادل معه في حلبة الملاكمة، وتبديل الرصاصات في البندقية. وعندما بدأوا ينتعلون جزمات ثقيلة ويحملون بندقية أثناء الركض لمسافة خمسة أميال، عندها ازدادت كثيراً صعوبة التغلب على الرجل الذي اعتاد طوال أعوام عدة على حمل ذبائح الأبقار على كتفه صباحاً وظهراً ومساءً.

وفي نهاية الأسبوع السادس، لم يتفاجأ أحد حين ترقّى بارينغتون وبايتس إلى رتبة وكيل عريف، وحظي كل منهما بفرقة خاصة به.

لكن، ما إن وضع الرجلان الشارتين على كتفيهما حتى بدأت المنافسة الشرسة بين الفرقتين؛ ليس فقط في أرض الملعب أو النادي الرياضي، وإنما أيضاً في العمليات الليلية أو التمارين الميدانية وتحركات الجنود. وفي نهاية كل يوم، كان كل من جيل وبايتس يعلن عن نفسه بأنه المنتصر؛ كما لو أنهما ولدان في المدرسة. وفي أغلب الأحيان، اضطر الرقيب الأول إلى استخدام القوة لفصلهما عن بعضهما.

ومع اقتراب موعد الاستعراض العسكري، أحسّ جيل بالفخر بكلتا الفرقتين اللتين بدأتا تشعران بأنهما تستحقان لقب «الويسيكسيين» بعد

انتهاء الاستعراض. إلا أن الرقيب الأول حذّر المجندين غالباً بأنه لن يمضي وقت طويل قبل أن يشاركوا في معركة حقيقية، ويكونوا في مواجهة عدو حقيقي حيث سيستعمل رصاص حقيقي. كما ذكّرهم أيضاً أنه لن يكون قربهم لمساعدتهم. وللمرة الأولى، اعترف جيل لنفسه بأنه سيشتاق إلى هذا الرجل اللعين.

«نحن جاهزون». كان ذلك كل ما قاله بايتس في ما يتعلق بهذا الموضوع.

بعد إنهاء الاستعراض العسكري يوم الجمعة في الأسبوع الثاني عشر، افترض جيل أنه سيعود إلى بريستول مع بقية الشبان للاستمتاع بعطلة نهاية الأسبوع قبل العودة إلى الثكنة العسكرية يوم الاثنين. لكنه عندما خرج من أرض الملعب بعد ظهر ذلك اليوم، أخذه الرقيب الأول جانباً، وقال له:

«أيها العريف بارينغتون، عليك التوجه إلى الرائد رادكليف فوراً».

أراد جيل الاستفسار عن السبب، ولكنه عرف أنه لن يحصل على جواب.

وعلى الفور، اجتاز أرض الملعب، وطرق على باب مكتب المعاون، وهو رجل رآه سابقاً من بعيد.

فقال صوت من الداخل: «ادخل». عندها، دخل جيل، ووقف متأهباً وألقى التحية. «بارينغتون». وبعد أن ردّ له التحية العسكرية، قال الرائد رادكليف: «لديّ بعض الأخبار الجيدة لك. تم قبولك في مدرسة تدريب الضباط».

ولم يكن جيل يعلم أنه تم اختياره رسمياً لهذا المنصب.

«صباح الغد، عليك السفر إلى مونس فوراً، حيث ستبدأ بالتدريب يوم الاثنين. تهانينا وبالتوفيق».

قال جيل: «شكراً لك يا سيدي». ثم أضاف: «هل سيكون بايتس معي؟».

فسأله الرائد رادكليف: «بايتس! أتقصد العريف بايتس؟».

«نعم، سيدي».

فأجاب المعاون: «لا والحمد لله. فهو ليس مناسباً ليكون ضابطاً».

أمل جيل أن يكون الألمان مغفلين عند اختيارهم ضباطهم.

وعندما وصل جيل إلى قاعدة تدريب الضباط في مونس في ألدرشوت بعد ظهر اليوم التالي، لم يكن مستعداً للسرعة التي ستتغير فيها حياته مجدداً. وقد احتاج إلى بعض الوقت للاعتياد على العرفاء، والرقباء، وحتى على مناداة الرقيب الأول له بكلمة «سيدي».

نام في غرفة مستقلة لم يُفتَح بابها عند الخامسة صباحاً ليدخل منه الضابط غير المفوض ويضرب طرف سريره بعصا، ويأمره بوضع قدميه على الأرض؛ فالباب فتح فقط عندما قرر جيل فتحه. تناول الفطور مع مجموعة من الشبان الذين لم يكونوا بحاجة إلى تعليمهم كيفية حمل الشوكة والسكين، رغم أن واحداً أو اثنين منهما أوحيا له بأنهما لن يتعلما

أبداً كيفية الإمساك ببندقية، وطبعاً كيفية إطلاق النار منها. لكن بعد مرور أسابيع قليلة، سيكون كل هؤلاء الرجال في الجبهة الأمامية لقيادة متطوعين مفتقدين إلى الخبرة؛ حيث ستكون حياة أولئك المتطوعين مرتبطة بقراراتهم.

انضم جيل إلى هؤلاء الرجال في قاعة الدراسة، حيث تعلموا التاريخ العسكري والجغرافيا وقراءة الخرائط، وتكتيكات المعارك، والألمان وفن القيادة. لقد تعلم جيل شيئاً واحداً فقط من اللحام في برود ستريت، وهو أنه لا يمكن أبداً تعليم فن القيادة.

بعد ثمانية أسابيع، وقف الرجال الشباب أنفسهم في أرض الملعب، وتم منحهم شارة الضباط الملكية. كما حصلوا على نجمة على كل كتف، وعلى عصا من الجلد البني، ورسالة تهنئة من الملك.

كل ما أراده جيل هو الانضمام إلى فوجه العسكري والتنسيق مع رفاقه القدامى، ولكنه عرف أن هذا لن يكون ممكناً؛ لأنه عندما خرج من أرض الملعب بعد ظهر يوم الجمعة، ألقى له التحية العسكرية كل العرفاء والرقباء وحتى الرقيب الأول نفسه.

غادر ستون ملازماً شاباً ثكنة ألدرشوت بعد ظهر ذلك اليوم، وذهب كل منهم لقضاء عطلة نهاية الأسبوع مع عائلته؛ علماً أن بعضهم فعلوا ذلك للمرة الأخيرة.

أمضى جيل معظم اليوم وهو يتنقل من قطار إلى آخر، فيما شق طريقه إلى ويست كاونتري. ووصل إلى مانور هاوس في الوقت المناسب لتناول العشاء مع أمه.

عندما رأت إليزابيت الملازم الشاب واقفاً في الردهة، لم تحاول إخفاء فخرها به.

لكنّ أمل جيل خاب لأن إيما وغرايس لم تكونا في المنزل لرؤيته في البذلة العسكرية. وقد شرحت له أمه أن غرايس- التي باتت الآن في فصلها الثاني في كامبريدج- نادراً ما تأتي إلى المنزل، حتى خلال العطلة.

وخلال وجبة الطعام التي قدمها له جنكينز وحده- لأن العديد من الموظفين باتوا الآن على الجبهة وليس أمام مائدة الطعام مثلما شرحت له أمه- أخبر جيل أمه بما فعلوه في معسكر التدريب في دارتمور. وعندما سمعت عن تيري بايتس، تنهدت وقالت: «كان بايتس وابنه من أفضل الجزّارين في بريستول».

«كانوا!».

«تم هدم كل المحلات في برود ستريت. وبالتالي، حُرمنا من منتجات بايتس اللحام. لقد ارتكب الألمان الكثير من المجازر».

عندها، عبس جيل ثم سأل والدته: «وماذا عن إيما؟».

«بأفضل حال، ولكن...»

كرّر جيل: «ولكن؟». مضى بعض الوقت قبل أن تجيب أمه بهدوء: «كان الأمر سيكون أسهل بكثير لو أنجبت إيما طفلة عوضاً عن طفل».

فسألها جيل مستغرباً: «ولِمَ هذا الأمر مهم؟». وملأ كأسه مجدداً.

عندها، أحنت أمه رأسها، ولكنها لم تقل أي شيء.

ثم قال جيل بعد أن استوعب مَقصدها: «أوه يا إلهي! هل افترضت أنه بعد موت هاري، سوف أرث...»

عندها، قالت أمه وهي ترفع رأسها إلى الأعلى: «من الأفضل ألا تفترض أي شيء يا حبيبي، ولاسيما قبل أن نتأكد من أن والدك ليس أيضاً والد هاري. فحتى ذلك الحين، ووفقاً لوصية جد جدك، سيكون سيباستيان من يرث اللقب في النهاية».

بالكاد تفوّه جيل بكلمة خلال الوجبة، فيما حاول استيعاب أهمية كلمات أمه. وبعد تقديم القهوة، قالت له أمه إنها متعبة وخلدت إلى النوم.

وعندما صعد جيل السلالم متوجهاً إلى غرفته بعد لحظات قليلة، لم يستطع مقاومة رغبته في المرور إلى غرفة الحضانة لرؤية ابن أخته. جلس بمفرده مع وريث لقب بارينغتون الذي استغرق في نوم عميق، غير متأثر أبداً بالحرب، وغير آبهٍ حتماً لوصية جده أو أهمية كلماتها.

وفي اليوم التالي، انضمّ جيل إلى جدّيه لتناول الغداء في نادي سافاج. كان الجو مختلفاً تماماً عن عطلة نهاية الأسبوع التي تشاركوها قبل خمسة أشهر في قصر مولجلري. والشيء الوحيد الذي أراد الرجلان العجوزان معرفته هو الفوج الذي سينضم إليه.

أجاب جيل: «لا أعرف». رغم أنه كان تواقاً مثلهما لمعرفة ذلك. ولكنه كان سيرد بالجواب نفسه حتى لو عرف الإجابة؛ رغم أن هذين الرجلين العجوزين محاربان قديمان.

صباح يوم الاثنين، نهض الملازم بارينغتون باكراً. وبعد تناوله الفطور مع أمه، توجّه إلى هادسون؛ إلى مقرّ فوج ويسيكس الأول. وكانت قد سبقته مجموعة كبيرة من السيارات المصفحة والشاحنات المليئة بالجنود الذين خرجوا من البوابة الرئيسة.

نزل من السيارة، وتوجّه إلى كشك الحارس، فقال له عريف: «صباح الخير يا سيدي». ثم ألقى عليه التحية العسكرية؛ وهذا أمر لم يكن جيل قد اعتاد عليه بعد. «طلب المعاون أن تتوجه إلى مكتبه فور وصولك».

فأجاب جيل: «يسرني ذلك يا حضرة العريف، ولكنني لا أعرف أين يقع مكتب الرائد رادكليف». وردّ له التحية العسكرية.

«إنه في آخر الساحة يا سيدي، الباب الأخضر. ستجده فوراً».

مشى جيل في الساحة، وردّ على الكثير من التحيات العسكرية قبل أن يصل إلى مكتب المعاون.

وقف الرائد رادكليف خلف مكتبه عندما دخل جيل الغرفة، وقال: «أوه، بارينغتون، يا صديقي. سررت برؤيك مجدداً. لم نكن واثقين من وصولك في الوقت المناسب».

فسأله جيل: «في الوقت المناسب لماذا؟».

«تم نقل الفوج إلى مكان آخر. وقد قال الكولونيل إنه يجدر بنا منحك فرصة الانضمام إلينا، أو البقاء هنا وانتظار الفوج الثاني».

«إلى أين سنذهب يا سيدي؟».

«لا أدري. فهذا يتخطى صلاحياتي. لكنني أؤكد لك أمراً؛ وهو أننا سنكون قريبين من الألمان أكثر من بريستول».

هاري كليفتون

1941

13

لن ينسى هاري أبداً ذلك اليوم الذي تم فيه إطلاق سراح لويد من لافنهام. وعلى الرغم من عدم تحسره على ذهابه، إلا أنه تفاجأ بكلمات ماكس لويد.

فقد قال له فيما تصافحا للمرة الأخيرة: «هل بإمكانك أن تسديني خدمة يا توم؟ فقد أحببت مذكراتك اليومية كثيراً، وأريد الاستمرار في قراءتها. أتمنى أن ترسلها إلى هذا العنوان». وأعطى هاري بطاقة كما لو أنه بات خارج السجن، ثم أضاف: «سأعيدها إليك خلال أسبوع».

تأثر هاري بكلامه كثيراً، ووافق على أن يرسل له كل دفتر يوميات يملأه.

وفي صباح اليوم التالي، أخذ هاري مكانه خلف مكتب المسؤول عن المكتبة، ولكنه لم يفكر في قراءة جريدة اليوم السابق قبل أن ينهي واجباته. واستمر في تحديث يومياته كل مساء، وكان كلما ملأ دفتراً أرسله إلى ماكس لويد. وشعر بالارتياح، وبالقليل من الدهشة حين عادت إليه تلك الدفاتر؛ مثلما وعده ماكس.

ومع مرور الأشهر، بدأ هاري يستوعب أن حياة السجن روتينية وعادية، ولذلك تفاجأ كثيراً عندما دخل آمر السجن المكتبة ذات صباح حاملاً معه نسخته من نيويورك تايمز. وعلى الفور، وضع هاري كومات الكتب التي كان يرتبها على الرفوف أرضاً.

سأله سوانسون: «هل تملك خريطة للولايات المتحدة؟».

فأجاب هاري: «نعم، طبعاً». ثمّ توجّه بسرعة إلى قسم المراجع، وأخرج نسخة من خريطة أميركا. سأل: «هل هناك مكان معين تبحث عنه يا آمر السجن؟».

«بيرل هاربور».

وطوال الساعات الأربع وعشرين التالية، كان هذا هو الموضوع الوحيد المتداول على ألسنة الجميع؛ السجناء والحراس على حد سواء. إذ كان الجميع يتساءلون: هل ستدخل أميركا الحرب؟

عاد سوانسون إلى المكتبة في صباح اليوم التالي، وقال لهاري:

«أعلن الرئيس روزفلت على الراديو للتو أن الولايات المتحدة قد أعلنت الحرب على اليابان».

فقال هاري: «هذا رائع! لكن، متى سيساعدنا الأميركيون على هزيمة هتلر؟».

وعلى الفور، ندم هاري على استخدامه صيغة المتكلم الجمع. وحين نظر إلى سوانسون، رآه يحدق إليه بذهول، فعاد بسرعة إلى ترتيب كتب اليوم السابق على الرفوف.

حصل هاري على الجواب بعد أسابيع قليلة؛ عندما ركب وينستون تشرشل على متن الباخرة كوين ماري وأبحر إلى واشنطن لإجراء مناقشات مع الرئيس. وعندما عاد رئيس الوزراء إلى بريطانيا، وافق روزفلت على أن تحوّل الولايات المتحدة انتباهها إلى الحرب في أوروبا، وتسعى إلى التغلب على ألمانيا النازية.

ملأ هاري صفحات دفتر يومياته بردات فعل السجناء على أخبار اشتراك بلادهم في الحرب. واستنتج أنهم انتموا إلى إحدى الفئتين: الجبناء أو الأبطال. أولئك الذين شعروا بالارتياح لأنهم قابعون في السجن، وأملوا أن تنتهي الحرب قبل فترة من إطلاق سراحهم، وأولئك الذين تحرقوا شوقاً للخروج والهجوم على عدو يكرهونه أكثر من حراس السجن. وعندما سأل هاري رفيقه في الزنزانة عن الفئة التي ينتمي إليها، أجاب كوين: «هل التقيت يوماً رجلاً إيرلندياً لا يستمتع بالقذارة؟».

بالنسبة إليه، شعر هاري بإحباط أكبر؛ ولاسيما بعد أن اقتنع الآن أنه مع دخول الأميركيين الحرب، سيمرّ وقت طويل جداً قبل أن تتاح له فرصة المشاركة فيها. وللمرة الأولى منذ سجنه، فكر في الهروب.

كان هاري قد أنهى للتو قراءة مقالة في نيويورك تايمز عندما دخل شرطي المكتبة وقال: «آمر السجن يريد منك أن تذهب فوراً إلى مكتبه يا برادشو».

لم يتفاجأ هاري لدى سماعه ذلك، رغم أنه بعد إلقائه نظرة أخرى إلى الإعلان في أسفل الصفحة، تساءل عن كيفية تخيل لويد إمكانية هروبه. طوى الجريدة بترتيب، وأعادها إلى الرف، ثم لحق بالشرطي إلى خارج الغرفة.

سأل هاري الشرطي فيما اجتازا الفناء: «هل لديك أية فكرة عن سبب رغبته في رؤيتي، يا سيدي جويس؟».

فأجاب جويس بسخرية واضحة: «لا تسألني. فأنا لم أكن يوماً من المؤتمنين على أسرار آمر السجن».

وهكذا، لم يتحدث هاري مجدداً. وحين وقفا أمام مكتب آمر السجن، نقر جويس على الباب برفق.

فقال الصوت المعروف: «تفضل». عندها، فتح جويس الباب، ودخل هاري الغرفة. تفاجأ هاري لدى رؤيته رجلاً آخر في الغرفة لم يسبق له أن رآه من قبل، جالساً قبالة آمر السجن. كان الرجل يرتدي بذلة ضابط عسكري، وبدا أنيقاً جداً فأحس هاري بفوضويته. لم يبعد الرجل عينيه عن السجين.

عندها، نهض آمر السجن من خلف مكتبه قائلاً: «صباح الخير يا توم». وكانت تلك هي المرة الأولى التي يناديه فيها سوانسون باسمه. «إنه الكولونيل كليفردون، من فوج المشاة الخامس في تكساس».

قال هاري: «صباح الخير يا سيدي».

وقف كليفردون وصافح هاري. إنها سابقة أخرى.

قال سوانسون: «اجلس من فضلك يا توم. ثمة اقتراح يريد الكولونيل أن ينقله إليك».

فجلس هاري.

جلس الكولونيل كليفردون وبدأ كلامه: «سررت بلقائك يا برادشو. أنا الضابط المسؤول عن المشاة». فنظر إليه هاري بذهول. «لن تجد اسمي مذكوراً في كتب التجنيد، فأنا أدرّب مجموعات الجنود الذين يتم إرسالهم إلى خلف خطوط العدو بهدف توليد أكبر عدد ممكن من الإصابات بين صفوف العدو. وبالتالي، تتاح لكتيبة المشاة الفرصة لأداء مهمتها بصورة أفضل. لا أحد يعرف إلى أين أو متى ستصل فرقنا إلى

أوروبا، ولكنني سأكون من أوائل العارفين؛ لأن رجالي سينزلون بالمظلة إلى المساحة المحددة قبل أيام قليلة من الاجتياح».

كان هاري جالساً على حافة مقعده.

«لكن، قبل الانطلاق في هذه المرحلة، سأحضّر فرقة صغيرة متخصصة استعداداً لأي طارئ. وسوف تتألف هذه الفرقة من ثلاث مجموعات، تضم كل منها عشرة رجال: نقيب، ورقيب أول، وعريفان وستة جنود. خلال الأسابيع القليلة الماضية، اتصلت بعدد من آمري السجون لسؤالهم عمّا إذا كان لديهم رجال استثنائيون مناسبون لمثل هذه العملية. وقد كان اسمك من بين اسمين قدّمهما لي السيد سوانسون. وبعد أن تحققت من سجلك، وجدت أنك خدمت في البحرية، واتفقت مع آمر السجن على أن تعود إلى بذلتك العسكرية بدلاً من تبديدك وقتك هنا».

عندها، استدار هاري صوب آمر السجن وقال له: «شكراً لك سيدي. لكن، هل يمكنني أن أعرف من هو الشخص الثاني؟».

فأجاب سوانسون: «كوين. لقد سببتما لي الكثير من المشاكل خلال العامين الماضيين، ولذلك اعتقدت أنه حان دور الألمان للتعامل معكما». فابتسم هاري.

عندها تابع الكولونيل كلامه: «إذا قررت الانضمام إلينا يا برادشو، فسوف تبدأ على الفور دورة تدريبية أساسية تمتد لثمانية أسابيع، على أن يليها تدريب لمدة ستة أسابيع مع فرقة العمليات الخاصة. وقبل أن أتابع كلامي، أريد أن أعرف إذا كانت الفكرة قد أعجبتك؟».

فقال هاري: «متى أبدأ؟».

ابتسم الكولونيل وقال: «سيارتي في الفناء في الخارج، وقد تركت المحرك قيد العمل».

فقال آمر السجن: «حضّرت لك ملابس مدنية، يمكنك الحصول عليها من المتجر. ولا شك في أنه يجدر بنا إبقاء سبب مغادرتك السريعة للسجن سراً بيننا. وإذا سأل أحد ما عنك، فسأقول إنه تم نقلك وكوين إلى سجن آخر».

أومأ الكولونيل برأسه وسأله: «هل من أسئلة أخرى يا برادشو؟».

فسأل هاري: «هل وافق كوين على الانضمام إليك؟».

«إنه جالس على المقعد الخلفي في سيارتي، متسائلاً ربما عن سبب تأخرك».

«ولكنك تعرف سبب وجودي في السجن أيها الكولونيل، أليس كذلك؟».

فأجاب الكولونيل كليفردون: «التهرب من الخدمة. وبالتالي، عليّ مراقبتك عن كثب، أليس كذلك؟». وضحك الرجلان. «سوف تنضم إلى مجموعتي بصفتك جندياً، ولكنني أؤكد لك أن سجلك الماضي لن يُعيق فرص ترقيتك. وبما أننا تناولنا هذا الموضوع الآن يا برداشو، فمن الأفضل ربما تبديل اسمك نظراً للظروف الراهنة. فنحن لا نريد أن يكتشف أحد سجلك في ملفات البحرية ويبدأ بطرح أسئلة محرجة. هل من أفكار لديك؟».

فأجاب هاري بسرعة: «هاري كليفتون سيدي».

عندها، ابتسم آمر السجن وقال: «لطالما تساءلت عن اسمك الحقيقي».

إيما بارينغتون

1941

14

أرادت إيما مغادرة شقة كريستين بأسرع ما يمكن، والهروب من نيويورك، والعودة إلى إنكلترا. فحين تصل إلى بريستول، تستطيع أن تحزن بمفردها وتكرّس حياتها لتربية ابن هاري. ولكن، تبيّن لها أن الهروب ليس سهلاً جداً.

قالت كريستين: «أنا آسفة جداً». فيما وضعت ذراعها حول كتفَي إيما. «لم يخطر في بالي أنك لا تعرفين بما حصل لتوم».

فابتسمت إيما بوهن.

تابعت كريستين كلامها قائلة: «أريدك أن تعلمي أننا- أنا وريتشارد- لم نشك ولو هنيهة في براءته. فالرجل الذي عالجته لا يمكنه أن يكون قاتلاً».

قالت إيما: «شكراً لك».

سألتها كريستين: «لديّ بعض الصور لتوم حين كان معنا على متن كنساس ستار. هل تريدين رؤيتها؟».

عندها، أومأت إيما برأسها بتهذيب؛ رغم أنها لم تكن مهتمة إطلاقاً برؤية أية صور للملازم توماس برادشو. وقررت أنها فور مغادرة كريستين للغرفة، سوف تخرج من الشقة بهدوء وتعود إلى فندقها. فهي لا تريد أن تبدو مثل الحمقاء أمام امرأة غريبة تماماً.

وحين خرجت كريستين من الغرفة، نهضت إيما فوراً. غير أنها ما إن فعلت ذلك حتى أوقعت كوبها عن الطاولة، وأراقت القهوة على السجادة. عندها، ركعت على ركبتيها وبدأت تبكي مجدداً، فيما عادت كريستين إلى الغرفة، ممسكة بمجموعة من الصور الفوتوغرافية.

وعندما رأت كريستين إيما جالسة على ركبتيها والدموع تسيل من عينيها، حاولت مواساتها. «أرجوك، لا تقلقي بشأن السجادة. هذا ليس مهماً. خذي، انظري إلى هذه الصور ريثما أحضر شيئاً لتنظيفها». ثم أعطت إيما الصور، وغادرت الغرفة بسرعة مجدداً.

أدركت إيما أنه لم يعد بوسعها الفرار، ولذلك عادت إلى كرسيها، وبدأت تنظر إلى صور توم برادشو على مضض.

وفجأة، صرخت عالياً: «يا إلهي!». وحدّقت مذهولة إلى صورة لهاري وهو واقف على متن السفينة وتمثال الحرية خلفه، ثم إلى صورة أخرى له في مانهاتن فيما ناطحات السحاب تبدو خلفه. تلألأت الدموع في عينيها مجدداً، رغم أنها لم تفهم كيف حصل ذلك. انتظرت عودة كريستين بفارغ الصبر. لكن لم يمضِ وقت طويل قبل أن تعود سيدة المنزل، وتركع على ركبتيها، وتباشر في إزالة البقعة البنية الصغيرة بواسطة فوطة رطبة.

سألتها إيما بقلق: «هل تعرفين ماذا حلّ بتوم بعدما جرى اعتقاله؟».

فأجابت كريستين وهي تنظر إليها: «ألم يخبرك أحد؟ يبدو أنه لم تكن هناك أدلة كافية لإدانته بالجريمة. ولكن تمت إدانته بالهروب من الخدمة في الأسطول البحري، وحكم عليه بالسجن لمدة ست سنوات».

لم تفهم إيما كيف انتهى الأمر بهاري في السجن بسبب جريمة لم يرتكبها. «هل حصلت المحاكمة في نيويورك؟».

فأجابت كريستين: «نعم. وبما أن محاميه كان سيفتون جيلكس، لذا افترضنا أنا وريتشارد أنه لا يحتاج إلى أية مساعدة مادية».

«لم أفهم شيئاً».

«سيفتون جيلكس هو الشريك الأساسي في أحد أهم مكاتب المحاماة في نيويورك. وبالتالي، تم تمثيل توم بمحامٍ جيد. وعندما جاء لرؤيتنا بشأن توم، بدا قلقاً فعلاً. أعرف أنه زار أيضاً الدكتور والاس وقبطان السفينة، وأكّد لنا جميعاً أن توم بريء».

عندها، سألت إيما بهدوء: «هل تعرفين إلى أي سجن تم إرساله؟».

«أُرسل إلى سجن لافنهام في أعلى نيويورك. حاولنا أنا وريتشارد زيارته، ولكن السيد جيلكس قال لنا إنه لا يريد رؤية أحد».

قالت إيما: «هذا لطف منك. هل أستطيع أن أطلب منك خدمة صغيرة قبل مغادرتي؟ هل تسمحين لي بالاحتفاظ بإحدى هذه الصور الفوتوغرافية؟».

«خذيها كلها، فقد التقط ريتشارد العشرات. إنه يفعل هذا دوماً. فالتصوير الفوتوغرافي هوايته».

قالت إيما بعد أن وقفت أخيراً: «لا أريد تبديد المزيد من وقتك».

فأجابت كريستين: «أنت لا تبددين وقتي. نحن لم نفهم قط ما حصل مع توم. عندما ترينه، بلّغيه تحياتنا من فضلك. وإذا أراد زيارتنا، فسنكون مسرورين».

قالت إيما: «شكراً». فيما أزيلت السلسلة المعدنية مجدداً عن الباب. وعندما فتحت لها كريستين الباب، قالت: «أدركنا كلانا أن توم كان مغرماً بامرأة، ولكنه لم يخبرنا أنك إنكليزية».

15

أضاءت إيما المصباح قرب السرير، وتأمّلت مجدداً صور هاري وهو يقف على متن السفينة كنساس ستار. بدا سعيداً جداً، ومرتاحاً جداً، وغير مدرك أبداً لما ينتظره عند وصوله إلى اليابسة.

نامت واستيقظت مرات عدة وهي تحاول معرفة سبب قبول هاري بمواجهة تهمة القتل، والخضوع لحكم الهروب من الخدمة في أسطول لم ينضم إليه يوماً. وأخيراً، استنتجت أن سيفتون جيلكس وحده قادرٌ على توفير الأجوبة. أول ما تحتاج إلى القيام به هو أخذ موعد لرؤيته.

نظرت مجدداً إلى الساعة قرب السرير فوجدتها تشير إلى 3:21. نهضت من السرير، وارتدت رداء، وجلست أمام الطاولة الصغيرة، وملأت عدة أوراق بالملاحظات تحضيراً للقائها مع سيفتون جيلكس. وشعرت كما لو أنها تستعد لامتحان.

عند الساعة السادسة، استحمت وارتدت ملابسها، ثم نزلت إلى الأسفل لتناول الفطور. كانت ثمة نسخة من نيويورك تايمز موضوعة على طاولتها، فقلّبت الصفحات بسرعة، وتوقفت لقراءة مقال واحد. أصبح الأميركيون متشائمين حيال قدرة بريطانيا على الصمود في وجه الاجتياح الألماني الذي بات وشيكاً جداً. وفي أعلى المقال، كانت هناك صورة لوينستون تشرشل واقفاً على المنحدرات البيضاء لدوفر، ومحدقاً بتحدٍّ إلى القناة، وواضعاً سيجاره الشهير في مكانه، مع العنوان التالي: «سوف نحاربهم على الشواطئ».

أحست إيما بالذنب لوجودها بعيدة عن وطنها. عليها إيجاد هاري، وإطلاق سراحه من السجن ليعودا معاً إلى بريستول.

بحثت موظفة الاستقبال في الفندق عن مكتب جيلكس ومايرز وأبرناتي في دليل هاتف مانهاتن، ودوّنت عنواناً في وال ستريت وأعطته إلى إيما.

أوصلتها سيارة الأجرة إلى أمام مبنى كبير من الفولاذ والزجاج ارتفع عالياً في السماء. دفعت الأبواب الدوارة وتحققت من لوح كبير معلق على الجدار، دُوِّنت عليه أسماء كل الشركات الموجودة في الطوابق الثمانية والأربعين. كانت شركة جيلكس ومايرز وأبرناتي موجودة في الطوابق 20 و21 و22. وكل الاستعلامات تتم في الطابق العشرين.

انضمت إيما إلى مجموعة من الرجال الذين ارتدوا بذلات رمادية رسمية وملأوا أول مصعد متوافر. وعندما خرجت من المصعد في الطابق العشرين، رأت ثلاث نساء يرتدين قمصاناً بيضاء مفتوحة الياقة وتنانير سوداء جالساتٍ وراء مكتب استقبال، وهذا أمر آخر لم تعهده في بريستول. توجّهت بثقة صوب المكتب وقالت: «أود رؤية السيد جيلكس».

سألتها موظفة الاستقبال بتهذيب: «هل لديك موعد معه؟».

فاعترفت إيما: «لا». علماً أنها لم تتعامل مسبقاً إلا مع محامٍ محلي كان يستقبلهم دوماً كلما قصده أحد أفراد عائلة بارينغتون.

بدت موظفة الاستقبال متفاجئة. فالزبائن لا يأتون هكذا إلى مكتب الاستقبال على أمل رؤية المحامي الشهير. فهم يرسلون رسالة، أو تتصل

سكرتيرتهم لأخذ موعد من السيد جيلكس. «أعطيني اسمك من فضلك، وسأتكلم مع مساعدته».

«إيما بارينغتون».

«اجلسي من فضلك يا آنسة بارينغتون، وسيأتي أحد ما إليك سريعاً».

جلست إيما في مختلى صغير بمفردها. ومع مرور الوقت، تبيّن لها أن «سريعاً» قد تحوّلت إلى أكثر من نصف ساعة، قبل أن يأتي إليها رجل يرتدي بذلة رمادية ويحمل دفتراً أصفر.

قال وهو يصافحها: «اسمي ساموليل أنسكوت. وفهمت أنك تريدين مقابلة المحامي الكبير».

«هذا صحيح».

فقال أنسكوت وهو يجلس قبالتها: «أنا مساعده القانوني. وقد طلب مني السيد جيلكس معرفة سبب رغبتك في رؤيته».

قالت إيما: «إنها مسألة شخصية».

«أخشى أنه لن يوافق على رؤيتك إلا إذا أخبرته بذلك شخصياً».

عندها، زمّت إيما شفتيها وقالت: «أنا صديقة هاري كليفتون».

راقبت أنسكوت عن كثب، ولكن اتضح لها جلياً أن الاسم لا يعني له أي شيء؛ رغم أنه دوّنه على دفتره الأصفر.

«أعتقد أنه تم توقيف هاري كليفتون بتهمة قتل آدام برادشو، وكان السيد جيلكس محاميه».

تم تسجيل الاسم هذه المرّة أيضاً، وتحرك القلم بسرعة أكبر على الدفتر.

«أريد رؤية السيد جيلكس لمعرفة كيف يمكن لمحامٍ بمثل أهمّيته أن يسمح لخطيبي بالحلول محل توماس برادشو».

عندها، عبس المحامي الشاب، واتضح جلياً أنه غير معتاد على أن يتكلم أحد ما عن سيده بهذه الطريقة، ثم قال: «لا أعرف ما تتحدثين عنه يا آنسة بارينغتون. ولكنني سأخبر السيد جيلكس بما قلته، وسأعود إليك. يمكنك ربما إعطائي عنوانك».

فقالت إيما: «أنا الآن أقيم في فندق مايفلاور، وأستطيع رؤية السيد جيلكس في أي وقت يريده».

دوّن أنسكوت ملاحظة أخرى على دفتره، ثم نهض وأومأ برأسه بتهذيب، ولكنه لم يصافحها هذه المرة. غير أن إيما كانت واثقة من أنه لن يمضي وقت طويل قبل أن يوافق المحامي الكبير على رؤيتها.

استقلت سيارة الأجرة عائدة إلى فندق مايفلاور، وسمعت هاتفها في الغرفة يرنّ قبل أن تفتح الباب. ركضت إلى داخل الغرفة، ولكنها عندما رفعت السماعة كان الاتصال قد انقطع.

جلست أمام المكتب، وبدأت تكتب رسالة إلى أمها تخبرها فيها أنها وصلت بخير، ولكنها لم تذكر لها أنها باتت الآن مقتنعة بأن هاري لا يزال على قيد الحياة. فهي لن تفعل ذلك إلا عندما تراه بعينيها. وكانت قد بدأت بكتابة الصفحة الثالثة من الرسالة عندما رنّ الهاتف مجدداً، فرفعت السماعة.

«مساء الخير آنسة بارينغتون».

أجابت: «مساء الخير سيد أنسكوت». من دون الحاجة إلى أن يعرّف عن نفسه.

«تحدثت إلى السيد جيلكس في ما يتعلق بطلبك لقاءه، ولكنني أخشى أنه لن يتمكن من رؤيتك؛ لأن هذا سيولّد تضارباً في المصالح مع زبون آخر يمثله. إنه يأسف كثيراً لعدم مساعدتك».

ثم انقطع الاتصال.

بقيت إيما جالسة أمام مكتبها مذهولة، وهي تمسك بالسماعة، فيما عبارة « تضارب في المصالح» تتردد في أذنيها. هل يوجد فعلاً زبون آخر، وإذا كان الجواب نعم، فمن هو؟ وهل هذا مجرد عذر لعدم مقابلتها؟ أعادت سماعة الهاتف إلى مكانها، وجلست جامدة لبعض الوقت، متسائلة عما كان جدها سيفعله في مثل هذه الظروف. ثم تذكرت أحد شعاراته المفضلة: هناك أكثر من طريقة للوصول إلى الهدف.

فتحت إيما درج المكتب، ووجدت مجموعة جديدة من الأوراق، فأعدّت لائحة بأسماء الأشخاص الذين قد يملأون بعض الفجوات الناجمة عن «تضارب المصالح» المزعوم للسيد جيلكس. بعد ذلك، نزلت إلى مكتب الاستقبال، وعرفت أنها ستكون مشغولة كثيراً في الأيام القليلة المقبلة. حاولت موظفة الاستقبال إخفاء دهشتها عندما طلبت منها الشابة الآتية من إنكلترا عناوين المحكمة ومركز الشرطة والسجن.

وقبل أن تغادر فندق مايفلاور، دخلت إيما متجر الفندق واشترت دفتراً أصفر لها، ثم خرجت إلى الرصيف، وأوقفت سيارة أجرة.

أوصلتها السيارة إلى منطقة في المدينة مختلفة عن تلك التي يتواجد فيها مكتب السيد جيلكس. وفيما صعدت الدرج المؤدي إلى المحكمة، فكرت إيما في هاري، وفي شعوره عندما دخل هذا المبنى نفسه، وإنما في ظروف مختلفة تماماً. سألت الحارس الواقف عند الباب عن مكان مكتب المراجع؛ على أمل أن تكتشف حقيقة تلك الظروف.

فأجاب الحارس: «إذا كنت تقصدين غرفة السجلات يا آنستي، فإنها في الطابق السفلي».

وبعد أن نزلت طابقين على السلالم، سألت إيما موظفاً جالساً خلف المكتب عمّا إذا كان بوسعها رؤية سجلات القضية المرفوعة من ولاية نيويورك ضد برادشو. عندها، أعطاها الموظف استمارة لملئها، وتضمنت السؤال: هل أنت طالب؟ فأجابت عليه بكلمة نعم. وبعد دقائق قليلة، أُعطيت لإيما ثلاثة صناديق كبيرة.

قال لها الموظف: «سنغلق بعد ساعتين. لذا، عندما يرنّ الجرس، فعليك إعادة الصناديق إلى هذا المكتب فوراً».

بعدما قرأت إيما بضع صفحات من المستندات، لم تفهم سبب عدم استمرار ولاية نيويورك في الدعوى التي تتهم فيها توم برداشو بالقتل، فيما توجد أدلة قوية ضده. فقد تشارك الأخوان غرفة واحدة في الفندق، وكانت بصمات توم الملطخة بالدماء على إبريق الشراب، ولا يوجد أي إيحاء بأن شخصاً آخر قد دخل الغرفة قبل اكتشاف جثة آدام وسط بركة من الدماء. لكن، لماذا هرب توم من مسرح الجريمة؟ ولماذا قرر المدعي العام الاكتفاء بتهمة الهروب من الخدمة العسكرية؟ والأمر المثير للحيرة أكثر هو كيفية تورّط هاري في هذه القضية أساساً. ترى، هل تتضمن

الرسالة الموجودة على المدفأة في منزل مايزي الأجوبة الشافية عن كل هذه الأسئلة؟ أم أن جيلكس يعرف ببساطة شيئاً ما ولا يريدها أن تكتشفه؟

انقطعت أفكارها عندما رُنّ الجرس، وطُلب منها إعادة الملفات إلى المكتب. كانت قد تمكنت من إيجاد إجابات عن بعض الأسئلة، ولكن العديد من الأسئلة الأخرى بقيت من دون جواب. دوّنت إيما اسمين أملت في أن يعطياها معظم تلك الأجوبة، لكن هل سيزعمان أيضاً وجود تضارب في المصالح؟!

خرجت من المحكمة بعد الساعة الخامسة، ممسكة بعدد من الأوراق بيدها الطويلة. اشترت لوحاً من الشوكولاته وقنينة كولا من بائع جوال، قبل أن توقف سيارة أجرة أخرى وتطلب من السائق اصطحابها إلى مركز الشرطة في الدائرة 24. أكلت وشربت في السيارة، علماً أن أمها لا توافق أبداً على هذا السلوك.

عند وصولها إلى مركز الشرطة، طلبت إيما التحدث إلى التحري كولوسكي أو التحري راين.

فقال لها الرقيب الجالس خلف المكتب: «كلاهما يعملان ليلاً هذا الأسبوع. لذا، لن يأتيا إلى هنا قبل الساعة العاشرة».

عندها، شكرته إيما، وقررت العودة إلى الفندق وتناول العشاء قبل العودة مجدداً إلى الدائرة 24 عند الساعة العاشرة مساء.

بعد أن تناولت سلطة القيصر، عادت إيما إلى غرفتها في الطابق الرابع، واستلقت على السرير، وراحت تفكّر في الأسئلة التي تريد طرحها

على كولوسكي أو راين؛ على افتراض أن يوافق أحدهما على رؤيتها. هل امتلك الملازم برادشو لكنة أميركية...؟

غطت إيما في نوم عميق، غير أنها استفاقت فجأة على صوت صفارة شرطة صدحت في الشارع في الأسفل. عندها، فهمت سبب كون الغرف في الطوابق العلوية أغلى كلفة. تحققت من ساعتها، فوجدتها تشير إلى 1:15.

قالت: «اللعنة». فيما نهضت من السرير فوراً، وركضت إلى الحمام، ومررت منشفة تحت المياه الباردة ثم مسحت بها وجهها. بعد ذلك، غادرت الغرفة بسرعة، واستقلت المصعد إلى الطابق الأرضي. وعندما خرجت من الفندق، تفاجأت لدى رؤيتها الشارع مزدحماً، والرصيف مليئاً بالناس، كما لو أن الوقت منتصف النهار.

أوقفت سيارة أجرة، وطلبت من السائق اصطحابها إلى الدائرة 24. بدأ سائقو سيارات الأجرة في نيويورك يفهمون عليها، أو ربما هي التي بدأت تفهم عليهم!

صعدت الدرج المؤدي إلى مركز الشرطة بعد الساعة الثانية بدقائق قليلة، فطلب منها رقيب آخر الجلوس، ووعدها بإبلاغ كولوسكي أو راين بأنها تنتظر في ردهة الاستقبال.

توقعت إيما الانتظار لوقت طويل، ولكنها تفاجأت حين سمعت بعد دقائق قليلة الرقيب يقول: «هاي، كارل، ثمة سيدة تقول إنها تريد رؤيتك». وأشار في اتجاه إيما.

عندها، حمل التحري كولوسكي كوب القهوة بإحدى يديه، والسيجارة باليد الأخرى، وتوجّه نحو إيما وقد ارتسمت على وجهه نصف

ابتسامة، فبدأت إيما تتساءل عمّا إذا كانت تلك الابتسامة ستختفي بسرعة عندما يكتشف سبب رغبتها في رؤيته.

سألها: «كيف أستطيع مساعدتك يا سيدتي؟».

فقالت مبالغةً بإظهار لكنتها الإنكليزية: «اسمي إيما بارينغتون، وأريد نصيحتك في ما يتعلق بمسألة شخصية».

عندها، قال كولوسكي: «إذاً، فلنذهب إلى مكتبي يا آنسة بارينغتون». وبدأ يمشي في الرواق إلى أن وصل إلى باب فتحه بركلة من كعب حذائه، ثم قال لها: «اجلسي من فضلك». وأشار إلى الكرسي الوحيد الآخر الموجود في الغرفة. وسألها حين جلست: «هل أحضر لك قهوة؟».

«لا، شكراً لك».

قال فيما وضع كوبه على الطاولة وأشعل سيجارته: «هذا قرار حكيم يا سيدتي. كيف أساعدك؟».

«عرفت أنك كنت أحد التحريين اللذين اعتقلا خطيبي».

«ما اسمه؟».

«توماس برادشو».

كانت محقة. فالمظهر، والصوت، والسلوك، وكل ما فيه تبدل. «نعم، هذا صحيح. وأؤكد لك يا سيدتي أن القضية كانت بسيطة وخالية من التعقيدات لولا تدخل سيفتون جيلكس».

عندها، ذكّرته إيما: «لكن، لم تتم المحاكمة أصلاً».

«حصل هذا فقط لأن جيلكس كان محامي برادشو. فلو دافع ذلك الرجل عن أي مجرم لأقنع القاضي ببساطة أنه بريء».

«هل تقول إن جيلكس...»

غير أنّ كولوسكي قال بسخرية قبل أن تنهي إيما جملتها: «لا. لطالما اعتقدت أنها صدفة أن يكون المدعي العام مرشحاً مجدداً للمنصب هذا العام، وأن بعض زبائن جيلكس من أبرز الداعمين لحملته الانتخابية. على أية حال، تم الحكم على برادشو بالسجن لمدة ست سنوات بسبب هروبه من الخدمة، ليتم بعد ذلك تخفيض مدة الحكم إلى ثمانية عشر شهراً أو سنتين على الأكثر».

عندها، سألته إيما: «ما الذي توحي به؟».

فأجاب كولوسكي وهو ينفخ دخان سيجارته في الهواء: «أعتقد أن القاضي مقتنع بارتكاب برادشو لجريمة القتل».

فما كان من إيما إلا أن قالت: «أوافقكما الرأي أنت والقاضي. فعلى ما يبدو، لقد ارتكب توم برادشو الجريمة». عندها، بدا كولوسكي متفاجئاً، فتابعت موضِّحة: «لكن، هل قال لك الرجل الذي اعتقلته إنك ارتكبت خطأ، وإنه ليس توم برادشو وإنما هاري كليفتون؟».

نظر التحري إلى إيما عن كثب، وفكر في ما سمعه قليلاً، ثم أجاب: «في البداية، قال شيئاً من هذا القبيل. ولكنه لم يذكر الأمر لاحقاً لأن جيلكس أخبره ربما أن هذا لن ينفع».

«وهل يهمك يا سيد كولوسكي إذا استطعت إثبات أن الأمر ينفع؟».

عندها، أجاب كولوسكي بصرامة: «لا، يا سيدتي. فقد تم إغلاق القضية قبل وقت طويل. وقد حكم على خطيبك بالسجن لمدة ست سنوات بسبب جريمة اعترف بها، ولديّ الكثير من الأعمال الواجب إنجازها...» ووضع إحدى يديه على كومة من الملفات ثم تابع: «... بدلاً من أن أعيد فتح الجروح. والآن، هل من شيء آخر أستطيع أن أساعدك فيه؟».

«هل يسمحون لي بزيارة توم في لافنهام؟».

فقال كولوسكي: «لا أرى مانعاً في ذلك. اكتبي رسالة إلى آمر السجن، وسيرسل إليك إذناً بالزيارة. وبعد ملئك استمارة الإذن وإرسالها مجدداً، سيتم إبلاغك بالموعد. لا يفترض أن يستغرق ذلك أكثر من ستة إلى ثمانية أسابيع».

عندها، اعترضت إيما: «لكنني لا أملك ستة أسابيع. فعليّ العودة إلى إنكلترا خلال أسبوعين. ألا يوجد شيء آخر أستطيع فعله لتسريع العملية؟».

أجاب التحري: «هذا ممكن فقط لأفراد العائلة، لا بل يقتصر الأمر على الزوجات والأهل».

فقالت إيما: «ماذا عن والدة ابن السجين؟».

«في نيويورك يا سيدتي، يمكن اعتبارك بمثابة الزوجة، شرط أن تتمكني من إثبات ذلك».

وعلى الفور، أخرجت إيما صورتين من حقيبتها؛ واحدة لسيباستيان، والأخرى لهاري وهو يقف على متن سفينة كنساس ستار.

فقال كولوسكي وهو يُعيد إليها صورة هاري: «هذا كافٍ بالنسبة إليّ. إذا وعدتني بتركي بسلام، فسأتحدث مع آمر السجن وأرى ما يمكنني فعله».

عندها، قالت إيما: «شكراً لك».

«كيف أتصل بك؟».

«أنا أقيم في فندق مايفلاور».

فقال كولوسكي وهو يدوّن ملاحظة: «سأتصل بك. لكن، أريد منك يا سيدتي أن تعلمي أن توم برادشو قد قتل أخاه. وأنا واثق من ذلك».

«وأريد منك أن تعلم يا سيدي أن الرجل المسجون في لافنهام ليس توم برادشو. وأنا واثقة من ذلك». أعادت إيما الصورتين إلى حقيبتها، ونهضت استعداداً للمغادرة.

فيما ظهر العبوس على وجه التحري حين خرجت من الغرفة.

عادت إيما إلى فندقها، وخلعت ملابسها، ثم خلدت إلى السرير مباشرة. استلقت مستيقظة وهي تتساءل عمّا إذا كان كولوسكي قد فكر مجدداً في إمكانية توقيفه الرجل الخطأ. لم تعرف السبب الذي جعل جيلكس يسمح بالحكم على هاري بالسجن لمدة ست سنوات، فيما كان يسهل عليه إثبات أن هاري ليس توم برادشو.

وأخيراً، خلدت إلى النوم ممتنة لعدم إيقاظها من قبل زوار ليليين.

رنّ الهاتف عندما كانت في الحمام، ولكنّها ما إن رفعت السماعة حتى انقطع الاتصال.

وجاء الاتصال الثاني فيما كانت على وشك إغلاق باب غرفتها للنزول من أجل تناول الفطور. دخلت الغرفة بسرعة، ورفعت السماعة فسمعت صوتاً تعرفت إليه فوراً.

أجابت: «صباح الخير يا سيد كولوسكي».

فقال التحري: «الأخبار ليست جيدة». وعلى الفور، انهارت إيما على السرير وقد خشيت من الأسوأ، فيما تابع التحري كلامه: «تحدثت إلى آمر السجن في لافنهام مباشرة قبل مغادرتي العمل، وقد قال لي إن برادشو أوضح جلياً أنه لا يريد أي زوار، من دون أي استثناءات. يبدو أن السيد جيلكس قد أصدر أمراً بعدم إبلاغه أصلاً حين يطلب شخص ما رؤيته».

عندها، توسلت إليه إيما: «ألا يمكنك أن توصل إليه رسالة بطريقة ما؟ أنا واثقة من أنه حين يعرف أنني أريد زيارته...»

غير أن كولوسكي قاطعها قائلاً: «لا أمل يا سيدتي. فأنت لا تعرفين إلى أين يستطيع جيلكس الوصول».

«أيستطيع التغلب على آمر السجن؟».

«آمر السجن ليس مهماً. إذ إن المدعي العام ونصف القضاة في نيويورك يخضعون لأوامره. لكن، لا تخبري أحداً أنني قلت لك ذلك».

ثم انقطع الاتصال الهاتفي.

لم تعرف إيما كم مرّ من الوقت قبل أن تسمع طرقاً على الباب. من يمكن أن يكون؟ ثم فُتِح الباب وظهر وجه ودود.

سألتها امرأة تجرّ عربة: «هل أستطيع تنظيف الغرفة يا آنسة؟».

فأجابت إيما: «أحتاج إلى دقيقتين فقط». وتحققت من ساعتها، فتفاجأت بأنها أصبحت العاشرة وعشر دقائق. أدركت أنه يجب عليها إخلاء رأسها من الهموم قبل أن تفكر في الخطوة التالية، لذا قررت القيام بنزهة طويلة في سنترال بارك.

تنزهت في الحديقة إلى أن تمكّنت من اتخاذ قرارها. فقد حان الوقت لزيارة عمتها وطلب نصيحتها حول ما يجب القيام به.

انطلقت إيما في اتجاه الشارع 64 وبارك، وكانت تائهة في أفكارها بشأن كيفية شرحها للعمة فيليس سبب عدم زيارتها من قبل، حيث لم تستوعب جيداً ما رأته. غير أنها توقفت فجأة، واستدارت ورجعت إلى الخلف، ثم تحققت من كل نافذة إلى أن وصلت إلى دار نشر دابلداي. كان ثمة هرم من الكتب على النافذة الوسطية، مع صورة يظهر فيها رجل ذو شعر أسود مرتد إلى الخلف وشاربان رفيعان. كان يبتسم لها.

مذكرات سجين

يومياتي في سجن لافنهام

تأليف ماكس لويد

مؤلف الكتاب الأكثر مبيعاً سيوقّع كتابه في هذا المتجر يوم الخميس عند الساعة الخامسة مساء.

لا تفوِّتوا فرصة لقاء المؤلف.

جيل بارينغتون

1941

16

لم يعرف جيل إلى أين يذهب الفوج. فقد انتقل باستمرار طوال أيام عدة، ولم يستطع النوم إطلاقاً لأكثر من ساعتين متواصلتين في كل مرة. إذ ركب أولاً في قطار، ثم في شاحنة، قبل أن يصعد إلى ناقلة جنود عبرت أمواج المحيط قبل أن تُنزِل أخيراً 1000 جندي في مرفأ الإسكندرية المصري على شاطئ أفريقيا الشمالية.

خلال الرحلة، التقى جيل مجدداً رفاقه من معسكر إيبر في دارتمور، وقد باتوا الآن تحت أمرته. إلا أن واحداً أو اثنين منهم- وبايتس تحديداً- لم يجد سهولة في مناداته سيدي، لا بل وجد صعوبة أكبر في إلقاء التحية العسكرية عليه كلما التقيا.

كانت ثمة مجموعة من العربات المسلحة في انتظار فوج ويسيكس عند نزولهم من الباخرة. لم يكن قد سبق لجيل أن اختبر من قبل مثل هذا الحرّ الشديد، وسرعان ما بات القميص الكاكي الجديد مبللاً بالعرق بعد لحظات من نزوله إلى تلك الأرض الغريبة. نظّم رجاله بسرعة في ثلاث مجموعات، قبل أن يصعدوا إلى الشاحنات التي كانت في انتظارهم. تقدّم الموكب ببطء في طريق ساحلية ضيقة، من دون التوقف لساعات عدة. وأخيراً، وصلوا إلى ضواحي بلدة مدمرة كثيراً قال عنها بايتس بصوت عالٍ: «توبروك! قلت لكم ذلك». وبدأ المال يتحرك بين الأيدي.

بعد دخولهم البلدة، تم إنزال الرجال في نقاط مختلفة. فقد نزل جيل والضباط الآخرون أمام فندق ماجستيك الذي اختاره فوج ويسيكس ليكون المقرّ الرئيس لهم. شقّ جيل طريقه عبر الأبواب الدوارة، واكتشف سريعاً أنه ما من شيء مهيب في الفندق. فقد تم وضع مكاتب في كل المساحات المتوافرة، كما تم تثبيت الخرائط والجداول على الجدران حيث كانت اللوحات الفنية سابقاً. وتحوّلت السجادة الحمراء القاتمة التي استقبلت من قبل أهم الشخصيات من مختلف أنحاء العالم إلى سجادة بالية بسبب الجزمات العسكرية المزودة بمسامير التي وطئتها.

بقيت ردهة الاستقبال هي المساحة الوحيدة التي تذكرهم بأن هذا المكان كان فندقاً في ما مضى. قام عريف بشطب اسم الملازم بارينغتون من لائحة طويلة من أسماء الواصلين الجدد.

ثم قال: «الغرفة 219». وأعطاه مغلفاً صغيراً، وتابع: «ستجد فيه كل ما تحتاج إليه يا سيدي».

صعد جيل السلم العريض المؤدي إلى الطابق الثاني ودخل الغرفة. جلس على السرير، وفتح المغلف وقرأ الأوامر الموجّهة إليه. في تمام السابعة، عليه التوجه إلى قاعة الحفلات؛ حيث سيتوجه الكولونيل المسؤول عن الفوج بكلمة إلى كل الجنود. فتح جيل حقيبته، ووضب أغراضها، ثم استحم وارتدى قميصاً نظيفاً ونزل إلى الأسفل. أخذ شطيرة وكوباً من الشاي من قاعة الضباط، ثم شقّ طريقه إلى قاعة الحفلات مباشرة قبل الساعة السابعة.

كانت القاعة الكبيرة ذات السقف العالي والمهيب والثريات الفخمة قد امتلأت بالجنود الذين التقوا مجدداً أصدقاء قدامى، وتعرفوا إلى آخرين جدد في انتظار الخطوة التالية المطلوبة منهم. فجأة، لمح جيل ملازماً شاباً في الطرف البعيد من الغرفة، واعتقد أنه يعرفه، غير أن هذا الأخير سرعان ما اختفى لاحقاً عن ناظريه.

وفي تمام الساعة السابعة إلا دقيقة واحدة، صعد الكولونيل روبرتسون إلى المنصة. وعلى الفور، سكت بسرعة جميع من في الغرفة للتركيز على ما سيتم الإعلان عنه. وقف الكولونيل في وسط المنصة ولوّح للرجال، وأبعد قدميه عن بعضهما، ووضع يديه على وركيه، وقال لهم:

«أيها السادة، قد يبدو غريباً لكم أنكم جئتم من كل أنحاء الإمبراطورية لشن حرب على الألمان في شمال أفريقيا. لكنّ المارشال روميل وقوته الاستكشافية موجودون هنا أيضاً؛ بهدف الحفاظ على مورد النفط لجنودهم في أوروبا. ونحن مسؤولون عن إعادته إلى برلين مهزوماً قبل أن ينفد الوقود من آخر دبابة لهم».

وسرعان ما علت الهتافات في أرجاء القاعة، بالترافق مع ضرب الأقدام على الأرض.

«أعطى الجنرال وافيل فوج ويسيكس ميزة الدفاع عن توبروك، وقد قلت له إننا مستعدون جميعاً للتضحية بحياتنا قبل أن يحجز روميل جناحاً له في فندق ماجستيك».

حينها، علت الهتافات أكثر، مع المزيد من ضرب الأقدام.

«والآن، أريد منكم جميعاً أن تراجعوا المسؤولين عنكم ليوجزوا لكم خطتنا الإجمالية للدفاع عن البلدة، وكذلك المسؤوليات التي يفترض بكل

منكم إنجازها. أيها السادة، لا نستطيع تبديد دقيقة واحدة من وقتنا. بالتوفيق».

وعلى الفور، تأهّب كل الجنود مجدداً فيما غادر الكولونيل المنصة. ثم تحقق جيل من الأوامر المعطاة له مجدداً. فقد تم إعطاؤه الفصيلة السابعة التي ستجتمع في مكتبة الفندق بعد اجتماع الكولونيل لبعض الوقت مع الرائد ريتشاردز.

قال الرائد عندما دخل جيل المكتبة بعد دقائق معدودة: «لا بد أنك بارينغتون». فألقى جيل التحية العسكرية. «سررت بانضمامك إلينا فور أن تم تعيينك. جعلتك مسؤولاً عن الفصيلة السابعة كبديل لصديقك القديم. وستكون لديك ثلاث مجموعات، كل منها مؤلفة من اثني عشر رجلاً، وتعود إليك مسؤولية الإشراف على القسم الغربي من المدينة. سيكون معك رقيب وثلاثة عرفاء لمساعدتك. وسيعطيك الملازم التفاصيل الدقيقة. وبما أنكما كنتما معاً في المدرسة، لن تمضيا الكثير من الوقت في التعرف إلى بعضكما».

تساءل جيل عن هوية ذلك الصديق، ثم تذكر الوجه المألوف الذي رآه في الجهة الأخرى من قاعة الاحتفالات.

أحب الملازم جيل بارينغتون زرع الشك في نفس الملازم فيشر؛ رغم أنه لن يتمكن أبداً من محو ما يتذكره عنه كتلميذ مفوض في مدرسة سانت بيد كان يتنمر على هاري كل ليلة في أسبوعه الأول من دون أي سبب سوى لكونه ابن عامل في أحواض السفن.

قال فيشر: «سررت بلقائك يا بارينغتون بعد هذا الوقت الطويل. لا أرى سبباً يحول دون تعاوننا في العمل بشكل جيد، أليس كذلك؟». وبدا جلياً أنه تذكر أيضاً معاملته السيئة لهاري كليفتون. فكشف جيل عن ابتسامة ضعيفة.

«هناك ثلاثون رجلاً تحت إمرتنا، بالإضافة إلى ثلاثة عرفاء ورقيب. ستذكر بعضهم من أيامك في معسكر التدريب. في الواقع، لقد جعلت العريف بايتس مسؤولاً عن القسم الأول».

«أتقصد تيري بايتس؟».

فكرر فيشر: «العريف بايتس. لا تستخدم أبداً الاسم الأول حين تتحدث عن بقية الرفاق. حين نكون بمفردنا، يا جيل، يمكنك مناداتي ألكس، ولكن ليس أمام الرجال. أنا واثق من أنك فهمتني».

عندها، فكّر جيل في سرّه: لطالما كنت متعجرفاً وفظاً، ويتضح جلياً أنه لم يتغير أي شيء. ولم يبتسم هذه المرة.

«والآن، علينا مراقبة القسم الغربي من المدينة في جولات من أربع ساعات. لا تقلِّل من أهمية مهمتنا؛ لأنه إذا هاجم روميل توبورك، فسيحاول دخول المدينة من الغرب. لذلك، علينا البقاء يقظين على الدوام. سأتركك لتوزيع جدول عمل الجنود. سأنجز شخصياً جولتين في اليوم، ولكنني لا أستطيع فعل المزيد بسبب مسؤولياتي الأخرى».

مثل ماذا؟ أراد جيل سؤاله.

استمتع جيل بالتجول في القسم الغربي من البلدة مع رجاله، وتعرف بسرعة إلى رجاله البالغ عددهم ستة وثلاثين رجلاً، لاسيما وأن

العريف بايتس أطلعه على أخبارهم باستمرار. ورغم أنه حاول إبقاءهم في حالة تأهّب دائم إثر تحذير فيشر، إلا أن الأسابيع مرّت من دون أية حادثة، فبدأ يتساءل عما إذا كانوا سيواجهون العدو فعلاً ذات يوم.

ذات ليلة من شهر أبريل، حين خرجت الدوريات الثلاث التابعة لجيل لإنجاز التمارين الرياضية، تعرّضوا لسيل من الرصاص من حيث لا يدرون، فانبطح الرجال أرضاً على الفور، وزحفوا بسرعة باتجاه أقرب مبنى لإيجاد أي غطاء ممكن.

كان جيل مع الفرقة الأمامية حين عاود الألمان إطلاق الدفعة الثانية من الرصاص. ورغم أن الرصاصات لم تصب هدفها، إلا أنه عرف أنه لن يمضي وقت طويل قبل أن يحدّد العدو موقعهم.

لذا، قال لرجاله فيما تأمّل الأفق ببطء عبر منظاره: «لا تطلقوا النار قبل أن آمركم بذلك». وقرر إبلاغ فيشر قبل القيام بأية خطوة. وعلى الفور، رفع الهاتف الميداني، وحصل على جواب فوري.

سأل فيشر: «كم هو عددهم برأيك؟».

«لا أعتقد أنهم أكثر من سبعين، أو ثمانين على أبعد تقدير. إذا أرسلت الفرقتين الثانية والثالثة، فيفترض أن يكون هذا كافياً لصدّهم إلى حين وصول التعزيزات».

في تلك اللحظة، أُطلِقت عليهم موجة ثالثة من الرصاص. ولكن، بعدما تأمّل جيل الأفق، أصدر الأمر نفسه مجدداً: «لا تطلقوا النار».

عندها قال فيشر: «سأرسل الفرقة الثانية بقيادة الرقيب هاريس لدعمك. وإذا أبقيتني مطلعاً على الأحداث، فسأقرر ما إذا كان يجدر بي إرسال الفرقة الثالثة إليك». ثم انقطع الاتصال الهاتفي.

جاءت الموجة الرابعة من الرصاص مباشرة بعد الموجة الثالثة. وعندما ركّز جيل النظر هذه المرة عبر منظاره، استطاع رؤية دزينة من الرجال الزاحفين صوبهم عبر الأرض المفتوحة.

«صوِّبوا على الهدف، لكن لا تطلقوا النار إلا حين يصبح الهدف في مرمانا. وتذكّروا أن كل رصاصة مهمة».

كان بايتس أول من ضغط على الزناد وهو يقول: «نلت منك». فيما انهار جندي ألماني على رمل الصحراء. وفيما أعاد حشو بندقيته، أضاف: «سيعلمكم هذا ألا تقصفوا برود ستريت».

فقال جيل: «اسكت يا بايتس وركّز».

«عفواً سيدي».

استمر جيل في النظر إلى الأفق، واستطاع رؤية رجلين، أو ربما ثلاثة رجال مصابين ووجوههم منغرزة في الرمل على مسافة ياردات قليلة من مخبئهم. عندها، أمر فرقته بإطلاق مجموعة جديدة من الرصاص، وراقب تراجع العديد من الألمان إلى الخلف، مثل النملات المسرعة إلى جحرها.

صرخ جيل: «أوقفوا إطلاق النار». مدركاً أنهم لا يستطيعون تبديد الذخيرة النفيسة. ثم نظر إلى يساره، واستطاع رؤية الفرقة الثانية تقف متأهبة تحت قيادة الرقيب هاريس، بانتظار أوامره.

عندها، رفع الهاتف الميداني، فعاد فيشر إلى الخط. «لن تصمد ذخيرتي لوقت طويل يا سيدي. جناحي الأيسر مغطى الآن بالرقيب هاريس، لكنّ جناحي الأيمن مكشوف. إذا كان بوسعك التقدم إلى الأمام، فستكون لدينا فرصة أفضل لصدّهم».

«بعد وصول الفرقة الثانية لتعزيز موقعك يا بارينغتون، من الأفضل أن أبقى في الخلف وأغطيك في حال تمكنوا من الاختراق».

في تلك اللحظة، جاءت دفعة جديدة من الرصاص في اتجاههم. يبدو جلياً أن الألمان قد عرفوا موقعهم بالضبط، لكن رغم ذلك طلب جيل من فرقتيه عدم إطلاق النار. لعن حظه، وأقفل الخط، وركض إلى الفجوة المفتوحة للانضمام إلى الرقيب هاريس، فلحق به وابل من الرصاص.

«ما رأيك يا حضرة الرقيب؟».

«إنهم نصف فوج يا سيدي، أي نحو ثمانين رجلاً. لكنني أعتقد أنهم مجرد فرقة استطلاع، ولذلك علينا فقط الاختباء والتحلي بالصبر».

فقال جيل: «أوافقك الرأي. ما الذي سيفعلونه برأيك؟».

«يعرف الألمان أنهم أكثر منّا عدداً، ولذلك سيرغبون في شنّ هجوم علينا قبل وصول أي تعزيزات. لذا، إذا أرسل الملازم فيشر الفرقة الثالثة لتغطية جناحنا الأيمن، سنصبح في موقع أقوى».

فكرّر جيل فيما وُجِّه إليهم وابل جديد من الرصاص: «أوافقك الرأي. سأعود وأتحدث إلى فيشر. انتظر أوامري».

مشى جيل في الميدان المفتوح بطريقة متعرجة. وهذه المرة، كانت الرصاصات قريبة منه جداً للمجازفة بهذه الخدعة مجدداً. كان على وشك الاتصال بفيشر عندما رنّ الهاتف الميداني، فأمسك به.

قال فيشر: «بارينغتون، أعتقد أن الوقت قد حان لنقوم بالمبادرة».

أراد جيل تكرار كلمات فيشر للتأكد من أنه سمعها كما هي. «تريد مني أن أشنّ هجوماً على موقع الألمان، فيما ترسل الفرقة الثالثة لتغطيتي».

عندها قال بايتس: «إذا فعلنا ذلك فسنكون عرضة لهجوم عنيف».

«اسكت يا بايتس».

«نعم، سيدي».

تابع جيل كلامه قائلاً لفيشر: «يعتقد الرقيب هاريس- وأنا أوافقه الرأي- أنه في حال أُرسلت الفرقة الثالثة لتغطية جناحنا الأيمن، فسيشنّ الألمان هجوماً، ثم نستطيع...»

غير أن فيشر قاطعه قائلاً: «لا أهتم بما يعتقده الرقيب هاريس. أنا أعطي الأوامر وأنت تنفذها. هل هذا واضح؟».

فقال جيل: «نعم، سيدي». ثم أغلق الهاتف.

قال بايتس: «أستطيع قتله يا سيدي».

عندها، تجاهله جيل وحشا مسدسه، ثم وضع ست قنابل يدوية على حزامه، ووقف بطريقة تسمح للفرقتين برؤيته، وقال بصوت عالٍ:

«ثبتوا الخناجر واستعدوا للتقدم». ثم خرج من وراء غطائه وصرخ: «اتبعوني!».

وفيما بدأ جيل يركض على الرمال الحارقة مع الرقيب هاريس والعريف بايتس خلفه، تلقى وابلاً جديداً من الرصاص، فتساءل عن الوقت الذي سيتمكن فيه من الصمود في مواجهة كل هذا الرصاص. لا يزال عليه اجتياز أربعين ياردة، واستطاع أن يرى بالضبط المواقع الثلاثة التي يختبئ فيها العدو. أخرج قنبلة يدوية من حزامه، وأزال سدتها ثم رماها صوب المخبأ الأوسط؛ كما لو أنه يعيد طابة كريكيت من الحافة البعيدة للملعب إلى قفازَي حارس المرمى. وقعت القنبلة مباشرة فوق المخبأ، فرأى جيل رجلين يطيران في الهواء، فيما وقع رجل آخر على ظهره.

بعد ذلك، استدار ورمى قنبلة ثانية إلى يساره، فأصابت القنبلة هدفها حتماً لأن نيران العدو توقفت فجأة. أما القنبلة الثالثة فأصابت رشاشاً. وفيما اقترب جيل أكثر فأكثر، استطاع رؤية الرجال الذين كان في مرماهم. عندها، أخرج مسدسه من قرابه، وبدأ يطلق النار كما لو أنه في لعبة رماية؛ لكن الأهداف هذه المرة كانت أناساً. واحد، اثنان، ثلاثة... ثم رأى جيل ضابطاً ألمانياً واقفاً أمامه. ضغط الضابط الألماني على زناده في لحظة متأخرة، وسرعان ما انهار على الأرض أمامه، فأحس جيل بالغثيان.

وعندما بات على مسافة ياردة واحدة فقط من المخبأ، أوقع جندي ألماني بندقيته على الأرض، فيما رفع آخر ذراعيه في الهواء. عندها، حدّق جيل إلى عيون الرجلين المهزومين اليائسة. ولم يكن هناك أي داعٍ لكي يتكلم الألمانية كي يفهم أنهما لا يريدان الموت.

صرخ جيل: «أوقفوا إطلاق النار!». فيما سيطر من بقي من أفراد الفرقتين 1 و2 بسرعة على مواقع العدو. وأضاف جيل: «قيّدوهم وانزعوا الأسلحة منهم. أيها الرقيب هاريس». ثم استدار إلى الخلف، فرأى الرقيب هاريس ورأسه في الرمل، فيما الدماء تسيل من فمه على مسافة ياردات فقط من المخبأ.

حدق جيل مجدداً إلى الرمال المفتوحة التي اجتازوها، وحاول ألا يحصي عدد الجنود الذين ضحوا بحياتهم بسبب قرار رجل ضعيف. بدأت الحمالات برفع الجثث من أرض المعركة.

«حضرة العريف بايتس، اجمع أسرى العدو في مجموعات ثلاثية، وأعدهم إلى المعسكر».

فقال بايتس: «حاضر يا سيدي». وبدا مستعداً تماماً لذلك.

بعد دقائق قليلة، عاد جيل وفرقته المستنزفة إلى الأرض الرملية المفتوحة. كانوا قد اجتازوا مسافة خمسين ياردة تقريباً عندما رأى جيل فيشر راكضاً صوبه، والفرقة 3 خلفه.

صرخ فيشر: «حسناً يا بارينغتون، سأستلم المهمة. اهتم أنت بالجهة الخلفية واتبعني». وقاد الجنود الألمان المأسورين إلى البلدة.

عندما وصلوا إلى فندق ماجستيك، احتشدت حولهم مجموعة صغيرة من الجنود الذين راحوا يهتفون فرحاً، فردّ فيشر التحية لرفاقه الجنود.

«بارينغتون، تأكد من وضع السجناء في زنزانات، ثم خذ الجنود إلى قاعة الطعام لشرب كأس. فهم يستحقون ذلك عن جدارة. وفي غضون ذلك، سأتكلم مع الرائد ريتشاردز».

عندها، سأله بايتس: «هل أستطيع قتله يا سيدي؟».

17

عندما نزل جيل لتناول الفطور في صباح اليوم التالي، جاء إليه عدد من الجنود لمصافحته؛ رغم أنه لم يسبق له أن تحدث إلى عدد منهم من قبل.

وفيما تقدّم بين الحشود، استدارت نحوه عدة رؤوس وابتسمت له؛ الأمر الذي وجده محرجاً قليلاً. أمسك بوعاء عصيدة، وبيضتين مسلوقتين، ونسخة قديمة من جريدة بانش، ثم جلس بمفرده، على أمل أن يتركه الجميع بسلام. لكن بعد لحظات قليلة، انضم إليه ثلاثة جنود أوستراليين لا يعرفهم. قلب صفحة في جريدة بانش، وضحك على رسم هزليّ لهتلر وهو ينسحب من كاليه على متن دراجة هوائية.

قال الأوسترالي الجالس إلى يمينه: «تصرف شجاع جداً».

فأحسّ جيل بأنه يتورد خجلاً.

وقال صوت من الجهة الأخرى من الطاولة: «أوافقك الرأي. إنه مميز فعلاً».

أراد جيل المغادرة قبل أن...

«ما كان اسم الرفيق؟».

تناول جيل ملعقة من العصيدة.

«فيشر».

عندها، كاد جيل يختنق.

«يبدو أن فيشر قد قاد فرقته في الأرض المفتوحة، وبواسطة قنابل يدوية ومسدس واحد، استطاع القضاء على ثلاثة مخابئ مليئة بالجنود الألمان».

فقال صوت آخر: «هذا لا يصدق!».

على الأقل، يوافقهم جيل الرأي في ذلك.

«وهل صحيح أنه قتل ضابطاً ألمانياً وسجن خمسين آخرين، فيما كان معه اثنا عشر رجلاً فقط لمساندته؟».

حاول جيل تقشير أول بيضة مسلوقة، غير أنها كانت قاسية.

وقال صوت آخر: «يبدو هذا صحيحاً؛ فقد تمت ترقيته إلى نقيب».

عندها، جلس جيل مصدوماً وهو يحدّق إلى صفار بيضته.

«قيل لي أيضاً إنه سيحصل على الميدالية العسكرية».

«إنه يستحق ذلك من دون شك».

سأل الصوت من الجهة الأخرى من الطاولة: «هل كان معه شخص آخر؟».

«نعم، مساعده، لكنني لا أذكر اسمه أبداً».

سمع جيل ما يكفي من الكلام، فقرّر أن يطلع فيشر على رأيه فيه. لذا، ترك بيضته الثانية على حالها، وخرج من القاعة وتوجه مباشرة إلى غرفة العمليات. كان غاضباً جداً، لدرجة أنه دخل الغرفة من دون الطرق

على الباب. لكنه ما إن دخل الغرفة، حتى وقف متأهباً وألقى التحية العسكرية وقال: «أعتذر يا سيدي. لم أعرف أنك هنا».

فقال فيشر: «هذا هو السيد بارينغتون يا حضرة الكولونيل. قلت لك إنه ساعدني في عملية الأمس».

«أوه، نعم. بارينغتون، عمل جيد. أنت لم تطّلع ربما على المراسيم هذا الصباح. ولكن، لقد تمت ترقيتك إلى رتبة ملازم أعلى، وبعد قراءة تقرير النقيب فيشر، أستطيع القول إنه سيتم ذكرك أيضاً في التقارير الإخبارية».

وقال فيشر: «تهانينا يا جيل. أنت تستحق ذلك فعلاً».

فيما قال الكولونيل: «بالفعل. وبما أنك هنا يا بارينغتون، كنت أقول للنقيب فيشر إنه بعد أن تعرّف الآن إلى الطريق المفضل لدى روميل للدخول إلى توبروك، علينا مضاعفة دورياتنا في الجهة الغربية من المدينة، ونشر مجموعة كاملة من الدبابات لمساندتك». وأشار بإصبعه إلى الخريطة المفتوحة على الطاولة وهو يتابع: «هنا وهنا وهنا. هل توافقان؟».

فأجاب فيشر: «نعم سيدي. المهم تثبيت الفرقة في مكانها على الفور».

عندها، أجاب الكولونيل: «لا يمكننا فعل ذلك بهذه السرعة؛ لأنني أعتقد أنه لن يمضي وقت طويل قبل أن يعود روميل. ولن يكون هذه المرة في مهمة استطلاعية، وإنما سيُحضر معه كامل القوة الألمانية الموجودة في أفريقيا. علينا الانتظار للتأكد من وقوعه في فخنا».

قال فيشر: «نحن في انتظاره، سيدي».

«جيد. لأنني عينتك مسؤولاً عن دورياتنا الجديدة يا فيشر. وأنت يا بارينغتون، سوف تبقى الثاني في القيادة».

قال فيشر: «سأضع تقريري على مكتبك عند منتصف اليوم يا سيدي».

«جيد يا فيشر. سأترك لك مهمة إعداد التفاصيل».

قال فيشر: «شكراً سيدي». ثم وقف متأهباً، وألقى التحية العسكرية فيما غادر الكولونيل الغرفة.

كان جيل على وشك التكلم، لكن فيشر بدا أسرع منه، إذ قال له فوراً: «قدّمت توصية بأن يتم منح الرقيب هاريس ميدالية عسكرية بعد وفاته، ويجب أن يتم أيضاً ذكر اسم العريف بايتس في النشرات الإخبارية. أتمنى أن تدعمني».

سأل جيل: «هل أفهم من ذلك أنه سيتم منحك الميدالية العسكرية ذات شكل الصليب أيضاً؟». مكتبة الرمحي أحمد

«ليس الأمر بيدي يا صديقي القديم. ولكنني مستعد لتلبية كل ما يراه الضابط المسؤول مناسباً. والآن، فلنبدأ العمل. فمع وجود ست فرق تحت أمرتنا، أقترح أن...»

بعد ما بات يُعرف «بوهم فيشر» في الفرقتين 1 و2، صار الجميع في حالة تأهب شديدة. فقد قامت فرقتان بمراقبة الحدود الغربية للمدينة،

ليلاً ونهاراً، وراح الجنود يتساءلون عن وقت الهجوم المرتقب، وليس إن كان روميل سيطلّ من الأفق على رأس مجموعة من الجنود الألمان.

حتى إن فيشر في وضعه الجديد كبطل، ظهر بين الحين والآخر على الحدود الخارجية؛ كما لو أنه أراد ببساطة الحفاظ على أسطورة لقبه، والحرص على جعل الجميع يرونه هناك. وكان يعود بعد ذلك إلى المسؤول عن فرقة الدبابات الموجود على مسافة ثلاثة أميال إلى الخلف، ويجري اتصالاته الميدانية.

اختار ثعلب الصحراء تاريخ 11 أبريل 1941 لشنّ هجومه على توبروك. وقد حارب البريطانيون والأوستراليون ببسالة شديدة للدفاع عن الحدود وحمايتها من الاعتداء الألماني. ولكن، مع مرور الأشهر، بدأت موارد الطعام والذخيرة تنفد، وشكّك البعض في أن تكون المسألة مسألة وقت فقط قبل أن يتغلب عليهم جيش روميل الكبير.

كان صباح يوم جمعة، وكان ضباب الصحراء أخف قليلاً حين تأمّل الملازم بارينغتون الأفق بمنظاره، وركز على صفوف وصفوف من الدبابات الألمانية.

ثم قال: «اللعنة!». وأمسك بالهاتف الميداني، فيما أصابت قذيفة المبنى الذي اختاره مع رجاله كموقع للمراقبة. أجاب فيشر على الهاتف، فقال له جيل: «أرى أربعين أو ربما خمسين دبابة متجهة نحونا، مع ما يبدو فوجاً كاملاً من الجنود للدعم. لذا، أريد الإذن لأسحب رجالي إلى موقع أكثر أماناً، حيث يمكننا التجمع مجدداً والاستعداد للمعركة».

غير أن فيشر ردّ قائلاً: «ابقوا في أماكنكم. وعندما يصبح العدو في متناولكم، اهجموا عليه».

فقال جيل مستنكراً: «نهجم عليه! بماذا؟ بالقوس والنشاب؟!! هذه ليست معركة أجينكور يا فيشر. بالكاد معي مئة رجل في مواجهة مجموعة كبيرة من الدبابات، ونحن لا نحمل أكثر من البنادق لحماية أنفسنا. بالله عليك يا فيشر، اسمح لي بتقرير ما هو الأفضل لرجالي».

غير أنّ فيشر كرر أوامره: «ابقوا في أماكنكم، واهجموا على العدو عندما يصبح في متناولكم. هذا أمر».

عندها، أطفأ جيل الهاتف.

قال بايتس: لسبب ما يعرفه وحده، لا يريدك هذا الرجل أن تبقى على قيد الحياة. كان يجدر بك السماح لي بقتله».

أصابت قذيفة أخرى المبنى، فيما بدأ الركام يتساقط حولهم. عندها، لم يعد جيل بحاجة إلى منظار لرؤية العدد الكبير من الدبابات الآتية نحوهم، وليستوعب أن لحظات قليلة فقط بقيت له في هذه الحياة.

«حدّدوا الهدف!». وعلى الفور، فكّر في سيباستيان الذي سيرث لقب العائلة. إذا كان الصبي جيداً بقدر هاري، فلا داعي لكي تخشى إمبراطورية بارينغتون على مستقبلها.

سقطت القذيفة التالية على المبنى خلفهم، واستطاع جيل أن يرى بوضوح جندياً ألمانياً ينظر إليه من كوّة دبابته. «أطلقوا النار!».

وفيما بدأ المبنى ينهار حوله، فكر جيل في إيما، وغرايس، ووالده، وأمه، وجدّيه و... أدت القذيفة التالية إلى انهيار المبنى كله. وعندما نظر

جيل إلى الأعلى، رأى قطعة كبيرة من الإسمنت تقع إلى الأسفل، فقفز فوق بايتس الذي كان لا يزال يطلق النار على دبابة آتية صوبهم.

آخر صورة رآها جيل كانت لهاري وهو يسبح باتجاه برّ الأمان.

إيما بارينغتون

1941

18

جلست إيما في غرفة الفندق بمفردها تقرأ كتاب مذكرات سجين من الغلاف إلى الغلاف. لم تكن تعرف من هو ماكس لويد، ولكنها كانت واثقة من أمر واحد؛ ليس هو الكاتب.

وحده رجل واحد قادر على تأليف هذا الكتاب. فقد تعرّفت إلى العديد من الجمل المألوفة، حتى إن لويد لم يزعج نفسه في تبديل كل الأسماء؛ إلا إذا كان يملك صديقة تدعى إيما ولا يزال يعشقها.

قلبت إيما الصفحة الأخيرة مباشرة قبل منتصف الليل، ثم قررت الاتصال هاتفياً بشخص لا يزال في العمل.

وعندما سمعت صوته عبر الهاتف، توسلت إليه قائلة: «خدمة واحدة إضافية».

فقال: «ماذا؟».

«أريد اسم الضابط الذي أطلق سراح ماكس لويد من السجن».

«أتعنين ماكس لويد المؤلف؟».

«نعم».

«لن أسألك حتى عن السبب».

بدأت تقرأ الكتاب للمرة ثانية، وتدوّن الملاحظات على الهامش بقلم رصاص. لكنها خلدت إلى النوم قبل أن يبدأ النائب الجديد للمسؤول عن

المكتبة عمله. استيقظت قرابة الساعة الخامسة من صباح اليوم التالي، ولم تتوقف عن القراءة إلا عندما دخل شرطي المكتبة وقال: «لويد، يريد آمر السجن رؤيتك».

استحمّت إيما لوقت طويل، وراحت تفكّر في أن كل المعلومات التي كانت تسعى بجدّ إلى اكتشافها موجودة في أية مكتبة مقابل دولار ونصف فقط.

وبعد أن ارتدت ملابسها، نزلت لتناول الفطور، وأخذت نسخة من جريدة نيويورك تايمز. وتفاجأت فيما هي تقلّب الصفحات لدى رؤيتها مقالة حول كتاب مذكرات سجين.

نحن ممتنون للسيد لويد لأنه لفت انتباهنا إلى ما يجري في سجوننا اليوم. لويد كاتب بارع، وذو موهبة حقيقية. وبعد أن تم إطلاق سراحه الآن، نأمل في أن يستمر في الكتابة.

إنه لم يكتب أصلاً كي يستمر في ذلك، قالت إيما ذلك لنفسها فيما وقّعت على فاتورتها.

وقبل صعودها إلى غرفتها مجدداً، سألت موظفة الاستقبال عن مطعم جيد قرب مكتبة دابلداي.

«البراسري، سيدتي. إنه مطعم من الطراز الأول. هل تريدين أن أحجز لك طاولة؟».

أجابت إيما: «نعم، من فضلك. أريد طاولة لشخص واحد أثناء الغداء اليوم، وأخرى لشخصين خلال العشاء هذه الليلة».

وكانت موظفة الاستقبال قد تعلّمت ألا تتفاجأ بما تقوله السيدة الآتية من إنكلترا.

عادت إيما إلى غرفتها، وباشرت في قراءة اليوميات مجدداً. تساءلت عن سبب بدء الرواية بوصول هاري إلى لافنهام؛ رغم وجود العديد من المراجع المتفرقة في الكتاب التي توحي بأنه جرى أيضاً تسجيل تجاربه السابقة، ولكنها لم تظهر إلى العلن لأن الناشر لم يطّلع عليها. وقد زادها ذلك اقتناعاً بوجود دفتر يوميات آخر: لا يصف فقط اعتقال هاري ومحاكمته، وإنما يشرح أيضاً سبب تحمّله هذا العذاب، فيما عرف محامٍ مثل السيد جيلكس أنه ليس توم برادشو.

وبعد أن قرأت صفحات محددة من الكتاب للمرة الثالثة، قررت إيما التنزه في الحديقة العامة مجدداً. وفيما كانت تمشي في جادة لكسينغتون، دخلت متجر بلومينغدايلز، وحجزت طلباً كان سيصبح جاهزاً للتسليم عند الساعة الثالثة. في بريستول، كان الطلب نفسه سيحتاج إلى أسبوعين.

وبينما كانت تتنزه في الحديقة، بدأت خطة تتشكل في رأسها، ولكنها كانت بحاجة للعودة مجدداً إلى مكتبة دابلدايز، والنظر عن كثب أكثر إلى تصميم المتجر قبل أن تضع لمساتها النهائية.

وعندما دخلت المكتبة، كان الموظّفون يحضّرون لحفل التوقيع. كانت هناك طاولة ومساحة مؤطرة بالحبال تظهر بوضوح مكان وقوف

الناس. أما الملصق الإعلاني على النافذة فوضعت عليه لافتة حمراء كبيرة كتب عليها: اليوم.

اختارت إيما فجوة بين صفين من الرفوف تستطيع من خلالها رؤية لويد بوضوح أثناء التوقيع، ومراقبة فريستها فيما هي تحضّر له فخاً.

غادرت مكتبة دابلدايز قبيل الواحدة ظهراً، وشقت طريقها إلى فيفث أفنيو متّجهة إلى مطعم براسري. رافقها نادل إلى طاولة ما كان ليقبل بها أي من جدّيها. لكن الوجبة كانت فعلاً من الطراز الأول، وعندما جاءت الفاتورة، أخذت نفساً عميقاً وتركت بقشيشاً كبيراً.

ثم قالت للنادل: «حجزتُ طاولة لهذا المساء. هل يمكن جعلها في مكان منعزل؟». بدا النادل مُشكِّكاً؛ إلى أن أخرجت إيما ورقة دولار، فأزالت على ما يبدو كل الشكوك. بدأت تعتاد على كيفية سير الأمور في أميركا.

سألته إيما فيما أعطته المال: «ما اسمك؟».

أجاب النادل: «جيمي».

«ثمة أمر آخر يا جيمي».

«نعم سيدتي».

«هل أستطيع الاحتفاظ بنسخة من قائمة الطعام؟».

«طبعاً سيدتي».

وفي طريق عودتها إلى فندق مايفلاور، مرّت إيما بمتجر بلومينغدايلز واستلمت طلبها. وابتسمت عندما عرض عليها الموظف عيّنة من البطاقة قائلاً لها: «أتمنى أن تعجبك يا سيدتي».

فقالت إيما: «لا يمكن أن تكون أفضل». وعندما عادت إلى غرفتها، راجعت أسئلتها المحضرة مراراً وتكراراً، وبعد أن حسمت خياراتها، كتبتها بترتيب على الجهة الخلفية من قائمة الطعام. بعد ذلك، أحست بالإرهاق الشديد، فاستلقت على السرير وغطت في نوم عميق.

وعندما أيقظها الرنين المتكرر للهاتف، كانت العتمة قد حلّت في الخارج. تحققت من ساعتها فوجدتها تشير إلى 5:10 من بعد الظهر.

فقالت: «اللعنة!». فيما رفعت سماعة الهاتف.

قال صوت عبر الهاتف: «أعرف هذا الإحساس؛ رغم أنني كنت سأختار كلمة أخرى. الاسم الذي تبحثين عنه هو بريت إيلدرز».

أجابت إيما: «شكراً لك. سأحاول ألا أزعجك مجدداً».

فقال التحري: «أتمنى ذلك». ثم أنهى المكالمة.

دوّنت إيما اسم «بريت إيلدرز» بترتيب بواسطة قلم رصاص على الزاوية العلوية اليمنى لقائمة الطعام. كانت تودّ الاستحمام بسرعة وتبديل ملابسها، ولكنها تأخرت أصلاً، وهي لا تستطيع تفويت الموعد.

أمسكت بقائمة الطعام وثلاث بطاقات، ووضعتها في حقيبتها، ثم خرجت من الباب مسرعة ونزلت السلالم من دون انتظار المصعد. أوقفت سيارة أجرة فوراً، وجلست على المقعد الخلفي قائلة: «مكتبة دابلدايز في فيفث أفنيو، وبسرعة من فضلك».

أوه لا، قالت إيما لنفسها، فيما انطلقت سيارة الأجرة بسرعة. ماذا يحصل لي؟!

دخلت إيما المكتبة المزدحمة، واستقرت في الموقع الذي اختارته بين كتب السياسة والدين، حيث تستطيع مراقبة ماكس لويد جيداً.

كان يوقّع كل كتاب بحيوية كبيرة، مستمتعاً بعدد معجبيه الكبير. وعرفت إيما أنه كان يفترض بهاري أن يجلس هناك لتلقي التهاني. لكن، هل يعرف هاري أن عمله قد نشر؟ هل ستعرف الجواب الليلة؟

تبيّن لها أنه لا داعي للاستعجال أبداً، لأن لويد استمر في توقيع كتابه لمدة ساعة إضافية إلى أن بدأ رتل المنتظرين يتضاءل. عندها، راح يخصص وقتاً أطول وأطول لتوقيع كل كتاب؛ على أمل أن يشجّع ذلك أشخاصاً آخرين للانضمام إلى الرتل.

وفيما كان يتحدّث بإسهاب مع آخر معجبة واقفة في الرتل، تركت إيما موقعها وتقدمت صوبه.

كانت الزبونة تسأله: «وكيف حال أمك العزيزة؟».

فأجاب لويد: «بخير والحمد لله. لم تعد مضطرة إلى العمل في الفندق بعد نجاح كتابي».

عندها، ابتسمت الزبونة وسألته: «وهل أستطيع السؤال عن إيما؟».

فقال لويد بعدما وقّع لها نسختها: «سوف نتزوج في الخريف».

قالت إيما لنفسها: «حقاً!».

فقالت الزبونة: «أوه، أنا مسرورة جداً. لقد ضحّت كثيراً من أجلك. بلّغها تحياتي».

عندها، أرادت إيما القول لها: لماذا لا تستديرين وتفعلين ذلك شخصياً.

قال لويد: «سأفعل ذلك حتماً». فيما أعطاها الكتاب مبتسماً ابتسامة عريضة.

عندها، تقدمت إيما إلى الأمام، وأعطته بطاقة، فتأمّلها هنيهة قبل أن ترتسم الابتسامة على وجهه مجدداً.

قال: «زميلة في المهنة». فيما وقف لإلقاء التحية عليها.

صافحت إيما يده الممدودة نحوها، ونجحت نوعاً ما في ردّ الابتسامة له وهي تقول: «نعم، ويظهر العديد من الناشرين في لندن اهتماماً كبيراً في نشر كتابك. لكن، إذا كنت قد وقّعت عقداً، أو لديك وكيل آخر في إنكلترا فأنا لا أريد تبديد وقتك».

«لا، لا، يا سيدتي العزيزة. أنا مسرور لسماعي اقتراحاتك».

«إذاً، يمكنك الانضمام إليّ لتناول العشاء، حيث نتحدث حول ذلك بإسهاب؟».

فهمس لويد: «أعتقد أنهم يتوقعون مني تناول العشاء معهم». وأشار نحو عدد من موظفي المكتبة.

عندها قالت إيما: «يا للأسف! فأنا سأسافر غداً إلى لوس أنجلوس للقاء همنغواي».

فما كان من لويد إلا أن قال: «إذاً، عليّ تخييب آمالهم، أليس كذلك؟ أنا واثق من أنهم سيتفهمون».

«جيد. هل بإمكاننا أن نلتقي في مطعم براسري بعدما تُنهي توقيع كتابك؟».

«من الأفضل أن تحجزي طاولة سريعاً».

قالت إيما فيما تقدّم منهما شخص أخير أراد الحصول على توقيع: «لا أعتقد أن هناك مشكلة. أتشوّق للقائك لاحقاً يا سيد لويد».

«ماكس من فضلك».

خرجت إيما من المكتبة، ومشت باتجاه مطعم البراسري في فيفث أفنيو. لم تنتظر طويلاً هذه المرة.

وقالت فيما رافقها النادل إلى طاولة معزولة عن الطاولات الأخرى: «جيمي، سوف ينضم إليّ زبون مهم جداً، وأريدها أن تكون أمسية لن ينساها أبداً».

فقال النادل بعد أن جلست إيما: «يمكنك الاعتماد عليّ يا سيدتي». وحين ابتعد النادل، فتحت إيما حقيبتها، وأخرجت قائمة الطعام، وراجعت الأسئلة مجدداً. وما إن رأت جيمي متجهاً نحوها برفقة ماكس لويد حتى أغلقت قائمة الطعام.

قال لويد وهو يجلس على الكرسي قبالتها: «يبدو أنك معروفة كثيراً هنا».

فقالت إيما مبتسمة: «إنه مطعمي المفضل في نيويورك».

«هل أحضر لك شراباً سيدي؟».

«مانهاتن مع الكثير من الثلج».

«وأنت سيدتي، ماذا تريدين؟».

«كالمعتاد جيمي».

انطلق النادل بسرعة، فتشوّقت إيما لمعرفة ما سيعود به. نظرت إلى لويد وقالت: «لِمَ لا نطلب الطعام ثم نباشر في العمل».

أجاب لويد: «فكرة جيدة. رغم أنني أعرف بالضبط ما أريده». في تلك اللحظة، ظهر النادل مجدداً، ووضع كأساً من شراب مانهاتن أمامه وكأساً من الشراب الأبيض أمام إيما. وكان من نوع الشراب نفسه الذي طلبته أثناء الغداء، فتأثرت إيما فعلاً.

«جيمي، أعتقد أننا جاهزان لطلب الطعام». فأومأ النادل برأسه، واستدار نحو ضيف إيما.

«أريد واحدة من شرائح اللحم اللذيذة. اجعل نضوجها متوسطاً، واترك الدهون فيها».

«طبعاً سيدي». ثم استدار نحو إيما وسألها: «ماذا أقدم لك سيدتي هذا المساء؟».

«سلطة قيصر من فضلك يا جيمي، وإنما مع صلصة خفيفة».

وبعد أن ابتعد النادل عنهما، قلبت إيما غطاء قائمة الطعام، رغم أنها ليست بحاجة إلى تذكر السؤال الأول وقالت: «مذكراتك اليومية

تحدثت فقط عن ثمانية عشر شهراً من سجنك. ولكنك سجنت لأكثر من عامين. لذا، آمل أن يكون هناك كتاب آخر».

أجاب لويد: «ما زال لديّ دفتر مليء باليوميات. وقد كنت أفكر في دمج بعض الأحداث الاستثنائية التي عشتها ضمن رواية أخطط لها». وبدا مسترخياً للمرة الأولى.

عندها، أرادت إيما القول: لأنك لو نشرته على شكل دفتر يوميات، لأدرك أي ناشر أنك لست المؤلف.

أحضر النادل الشراب للويد؛ لإعادة ملء كأسه الفارغة.

«هل تريد الاطلاع على لائحة الشراب يا سيدي؟ فثمة شيء مناسب أكثر لشريحة اللحم ربما».

فقال لويد: «فكرة جيدة». وفتح الدفتر ذا الغلاف الجلدي كما لو أنه صاحب الدعوة، ثم مرّر إصبعه فوق لائحة طويلة من أنواع المشروبات، وتوقف في الأسفل تقريباً. «قنينة من هذا، رجاء».

«اختيار ممتاز يا سيدي».

فافترضت إيما أن نوع الشراب ليس زهيد الثمن أبداً. لكنّ الوقت ليس مناسباً للتفكير في الأسعار.

لذا، قالت فيما نظرت إلى سؤالها الثاني: «كم كان هيسلر شخصاً سيئاً. اعتقدت أن هذا النوع من الأشخاص موجود فقط في الروايات أو الأفلام السينمائية».

فقال لويد: «لا، كان حقيقياً فعلاً. لكنني جعلته ينتقل إلى سجن آخر، إذا كنت تذكرين».

أجابت إيما: «نعم». فيما تم وضع شريحة لحم كبيرة أمام ضيفها وطبق سلطة أمامها. رفع لويد الشوكة والسكين، وبدا جلياً أنه مستعد للتحدي.

سألها: «إذاً، أخبريني عن نوع الاقتراح الذي تفكّرين فيه». فيما بدأ يتناول اللحم.

فأجابت إيما: «إنه اقتراح يمنحك فعلاً ما تستحقه من دون أي فلس إضافي». وتبدّلت نبرة صوتها فجأة، فبدا الذهول على وجه لويد، ووضع الشوكة والسكين جانباً في انتظار متابعة إيما كلامها. «أدرك تماماً يا سيد لويد أنك لم تكتب كلمة واحدة من كتاب مذكرات سجين، وأنك اكتفيت فقط بتبديل الاسم الحقيقي للمؤلف واضعاً اسمك مكانه». عندها، فتح لويد فمه مندهشاً. وقبل أن تتاح له فرصة الاحتجاج، تابعت إيما كلامها: «إذا كنت أحمق بما فيه الكفاية للاستمرار في الادعاء بأنك ألفت هذا الكتاب، فإن زيارتي الأولى في الصباح ستكون للسيد بريت إيلدرز؛ الضابط الذي أطلق سراحك من السجن. وبالتأكيد، لن يتمحور الكلام حتماً حول كيفية إعادة تأهيلك».

عاود النادل الظهور، وفتح قنينة الشراب، وانتظر حتى يقال له من سيتذوقه أولاً. كان لويد يحدق إلى إيما مثل الأرنب العالق في الفخ، لذا أومأت إلى النادل برأسها، وأخذت وقتها وهي تحرّك الشراب في كأسها قبل أن تتذوقه.

ثم قالت: «ممتاز. أحبّ هذا النوع من الشراب كثيراً». عندها، انحنى النادل قليلاً، وسكب كأسين من الشراب، ثم انطلق للبحث عن ضحية أخرى.

قال لويد بنبرة تحدٍّ: «لا يمكنك إثبات أنني لست الكاتب».

فقالت إيما: «بلى يمكنني؛ لأنني أمثِّل الرجل الذي أعدّ الكتاب». ثم ارتشفت القليل من الشراب قبل أن تتابع: «توم برادشو، نائب المسؤول عن المكتبة». وعلى الفور، تراجع لويد إلى الخلف على كرسيه وانهار بصمت. «إذاً، دعني أخبرك بالاقتراح الذي أقدّمه لك يا سيد لويد، وأوضِّح لك في الوقت نفسه أنه لا مجال أبداً للتفاوض. إلا إذا أردت العودة إلى السجن بتهمة الاحتيال والسرقة. إذا أردت الذهاب إلى سجن بيربوينت، فأنا أشعر أن السيد هيسلر سيكون مسروراً جداً بمرافقتك إلى الزنزانة؛ لأنك لم تذكره بالخير في هذا الكتاب».

بدا لها وكأن الفكرة لم تعجبه.

عندها، ارتشفت إيما القليل من الشراب قبل أن تضيف: «وافق السيد برادشو على السماح لك بمتابعة أسطورتك بأنك كتبت اليوميات، وهو لا يتوقّع منك أن تُعيد إليه المال الذي حصلت عليه مسبقاً؛ علماً أنني متأكدة بأنك أنفقته كله». فزمّ لويد شفتيه، بينما تابعت: «ولكنه يريد أن يوضِّح لك أنك إذا حاولت بيع حقوق النشر إلى أي بلد آخر، فسيتم اتهامك فوراً بسرقة الحقوق أنت والناشر. هل هذا واضح؟».

تمتم لويد: «نعم». وتشبّث بذراعَي الكرسي.

قالت إيما: «جيد. إذاً، اتفقنا». وبعد أن ارتشفت القليل من الشراب، أضافت: «أنا واثقة من أنك موافق يا سيد لويد على عدم الحاجة إلى متابعة حديثنا، وأعتقد أن الوقت قد حان لتغادر».

تردد لويد.

«سوف نلتقي مجدداً عند الساعة العاشرة من صباح الغد، في 49 وال ستريت».

«49 وال ستريت!».

«أجل، في مكتب السيد سيفتون جيلكس، محامي توم برادشو».

«إذاً، جيكلس هو من يقف وراء كل هذا. فهمت الآن كل شيء».

لم تفهم إيما ما قصده، وإنما قالت: «يجدر بك إحضار كل الدفاتر معك، وتسليمي إياها. وإذا تأخرت دقيقة واحدة، فسأطلب من السيد جيلكس الاتصال بالضابط المسؤول عن إطلاق سراحك وإخباره بكل ما فعلته منذ أن غادرت لافنهام. فسرقة أغراض زبون شيء، والادعاء بأنك ألّفت كتابه شيء آخر...»

عندها، استمر لويد في الإمساك بذراعَي الكرسي من دون أن يقول أي شيء، فيما قالت إيما: «يمكنك الذهاب الآن يا سيد لويد. أتشوّق إلى لقائك غداً في ردهة 49 وال ستريت في تمام العاشرة صباحاً. لا تتأخر، إلّا إذا أردت أن يكون موعدك التالي مع السيد إيلدرز».

وقف لويد على قدميه بتردد، وشق طريقه ببطء عبر المطعم، وجعل زبوناً أو زبونين يتساءلان عمّا إذا كان ثملاً. فتح له النادل الباب، ثم أسرع متّجهاً إلى طاولة إيما. وحين لاحظ شريحة اللحم التي لا تزال على حالها وكأس النبيذ الممتلئ، سأل بقلق: «أتمنى أن يكون كل شيء قد سار على ما يرام يا آنسة بارينغتون».

فأجابت: «كانت الأمور رائعة يا جيمي». ثم سكبت لنفسها كوباً آخر من الشراب.

19

بعد أن عادت إيما إلى غرفتها في الفندق، تحقّقت من الجهة الخلفية لقائمة الطعام، وفرحت لأنها استطاعت الحصول على أجوبة عن كل أسئلتها تقريباً. وفكّرت في أن طلبها منه تسليم كل الدفاتر في ردهة 49 وال ستريت من دون شك أمر مميز؛ لأنه جعل لويد يشعر بأن السيد جيلكس محاميها، وهذا أمر كفيل ببث الرعب في نفس شخص بريء تماماً. إلا أنها لا تزال محتارة مما قصده لويد حين قال لها: إذاً، جيكلس هو من يقف وراء كل هذا. فهمت الآن كل شيء. أطفأت المصابيح في غرفتها ونامت بارتياح للمرة الأولى منذ مغادرتها إنكلترا.

كان الروتين الصباحي لإيما مماثلاً للأيام السابقة. فبعد الفطور الخفيف، وقراءة جريدة نيويورك تايمز غادرت الفندق، واستقلت سيارة أجرة إلى وال ستريت. أرادت الوصول قبل بضع دقائق من موعدها. وأنزلتها سيارة الأجرة خارج المبنى في تمام الساعة 9:51. دفعت للسائق أجرته، وشعرت بالارتياح لأن زيارتها إلى نيويورك قد انتهت. فقد كانت مكلفة أكثر مما تصورت. ولم يساعدها قط تناولها وجبتين في مطعم البراسري مع قنينة شراب بخمسة دولارات بالإضافة إلى البقشيش.

إلا أنها لا تشك أبداً في أن الرحلة كانت تستحق العناء فعلاً. لاسيما وأن الصور التي تم التقاطها على متن السفينة كنساس ستار أكّدت لها أن هاري لا يزال على قيد الحياة، وأنه قد انتحل هوية توم برادشو لسبب ما. حين يصبح دفتر اليوميات الناقص بين يديها، سوف تحلّ بقية اللغز،

وستتمكن حينها من إقناع الضابط كولوسكي بضرورة إطلاق سراح هاري. فهي لا تنوي العودة إلى إنكلترا من دونه.

انضمت إيما إلى رتل من الموظفين الذين شقوا طريقهم إلى المبنى، ثم توجّهوا جميعاً إلى أقرب مصعد متوافر. لكن إيما لم تنضم إليهم، بل وقفت في مكان استراتيجي بين مكتب الاستقبال وصف المصاعد الاثني عشر؛ ما سيسمح لها برؤية جميع الداخلين إلى مبنى 49 وال ستريت.

تحقّقت من ساعتها فوجدتها تشير إلى 9:54. لا أثر للويد بعد. تحقّقت من ساعتها مجدداً فرأتها تشير إلى 9:57، ثم 9:58، وبعد ذلك 9:59، ثم 10:00. لا بد أنه عالق في زحمة السير. وعند الساعة 10:02، وقع بصرها لجزء من الثانية على شخص دخل. 10:04، هل فوتته؟ 10:06 نظرت إلى مكتب الاستقبال. لا أثر له. 10:08، حاولت إيقاف الأفكار السلبية ومنعها من دخول عقلها. 10:11، هل خدعها؟ 10:14، هل سيكون موعدها التالي مع السيد بريت إيلدرز؟ 10:17، لكم من الوقت ستنتظر؟ وأخيراً، عند الساعة 10:21، قال صوت من خلفها: «صباح الخير يا آنسة بارينغتون».

استدارت إيما، فوجدت نفسها وجهاً لوجه مع ساموويل أنسكوت الذي قال بتهذيب: «السيد جيلكس يتساءل إذا كان بوسعك الانضمام إليه في مكتبه».

ومن دون التفوه بأية كلمة أخرى، استدار أنسكوت ومشى باتجاه مصعد متوافر. نجحت إيما في دخول المصعد مباشرة قبل انغلاق بابه.

لم يكن هناك أي مجال إطلاقاً للكلام داخل المصعد المزدحم الذي صعد ببطء في طريقه إلى الطابق 22؛ حيث خرج أنسكوت ورافق إيما

في رواق طويل جدرانه مغطاة بخشب السنديان وأرضيته مكسوة بالسجاد الكثيف. كما كان الرواق مزيناً بصور كبار المحامين السابقين وزملائهم، ما أوحى بالصدق والصراحة والاتزان.

أرادت إيما طرح سؤال على أنسكوت قبل لقائها جيلكس للمرة الأولى، ولكنه سبقها بخطوات عدة. وعندما وصل إلى باب في نهاية الرواق، طرق على الباب، ثم فتحه من دون انتظار جواب. وبعد ذلك، وقف جانباً للسماح لها بالدخول، ثم أغلق الباب من دون أن ينضم إليهما.

هناك، على كرسي مريح عالي الظهر قرب النافذة، رأت ماكس لويد. كان يدخن سيجارة، ووجّه لإيما تلك الابتسامة نفسها التي رأتها يوم التقيا للمرة الأولى في مكتبة دابلداي.

حوّلت انتباهها إلى رجل طويل وأنيق المظهر، نهض ببطء من خلف مكتبه. لا ابتسامة، ولا أي إيحاء بمصافحة الأيدي. كان هناك حائط زجاجي خلفه ظهرت عبره ناطحات السحاب الشاهقة التي أوحت بقوة عظمى.

قال: «لطف منك أن تنضمي إلينا يا آنسة بارينغتون. اجلسي من فضلك».

جلست إيما على كرسي جلدي عميق جداً؛ لدرجة أنها اختفت عن الأنظار تقريباً. ولاحظت كدسة من الدفاتر على مكتب المحامي الكبير.

بدأ المحامي كلامه بالقول: «اسمي سيفتون جيلكس، وأنا وكيل الكاتب المبدع والمميز السيد ماكس لويد. زارني موكلي هذا الصباح لإخباري بأنه التقى شخصاً يزعم أنه وكيل أدبي من لندن، واتهمه بكل

وقاحة أنه ليس مؤلف كتاب مذكرات سجين الذي يحمل اسمه. أريدك أن تعلمي يا آنسة بارينغتون أنني أملك المخطوطات الأصلية، وكل كلمة فيها مكتوبة بيد السيد لويد». ثم وضع قبضة يده فوق الدفاتر، وسمح لنفسه بالابتسام قليلاً.

عندها، سألت إيما: «هل أستطيع رؤية أحدها؟».

أجاب جيلكس: «طبعاً». ورفع دفتراً من أعلى الكومة وأعطاها إياه.

فتحته إيما وبدأت تقرأ فيه. أول ما لاحظته هو أنه ليس مكتوباً بيد هاري، ولكنه بصوت هاري. أعادت الكتاب إلى السيد جيلكس الذي وضعه مجدداً فوق بقية الكتب. غير أنها سألت: «هل أستطيع إلقاء نظرة على بقية الدفاتر؟».

قال جيلكس: «لا. لقد أثبتنا وجهة نظرنا يا آنسة بارينغتون. ويستفيد موكلي من كل ما يمنحه إياه القانون إذا كنت حمقاء وكررت اتهامك له مجدداً». أبقت إيما عينيها على كومة الدفاتر، فيما استمر جيلكس في الكلام. «شعرت أيضاً بضرورة التحدث إلى السيد إيلدرز لتحذيره من احتمال اتصالك به، وأبلغته أنه إذا وافق على مقابلتك، فسيتم اعتباره شاهداً من دون شك في حال وصلت هذه القضية إلى المحكمة. في المقابل، شعر السيد إيلدرز أن أفضل حل له يقضي بتفاديه لقاءك. إنه رجل ذكي».

استمرت إيما في النظر إلى كومة الدفاتر.

«آنسة بارينغتون، لم أحتج إلى الكثير من الأبحاث لأكتشف أنك حفيدة اللورد هارفي والسير والتر بارينغتون، ويبرر ذلك عدم ثقتك في التعاطي مع الأميركيين. اسمحي لي بالقول إنك إذا أردت الاستمرار في

انتحال صفة الوكيل الأدبي، فأنا أستطيع ربما إعطاءك نصيحة مجانية، ولكنها معروفة بالنسبة إلى الجميع. لقد غادر إرنست همنغواي أميركا للعيش في كوبا عام 1939...»

عندها، قاطعته إيما قبل أن يتابع كلامه: «يا لكرمك سيد جيلكس! اسمح لي في المقابل أن أعطيك أيضاً نصيحة مجانية. أعرف جيداً أن هاري كليفتون»- فضاقت عينا جيلكس- «وليس موكلك من كتب مذكرات سجين. وإذا كنت أحمق بما فيه الكفاية، يا سيد جيلكس، وأصدرت اتهاماً بحقي، فقد تجد نفسك أيضاً أمام المحكمة لتبرير سبب دفاعك عن رجل متهم بالقتل على الرغم من معرفتك بأنه ليس الملازم توم برادشو».

عندها، بدأ جيلكس يضغط بعصبية على زر تحت مكتبه. وعلى الفور، نهضت إيما عن كرسيها، وابتسمت بلطف للرجلين، ثم غادرت الغرفة من دون التفوه بأية كلمة أخرى. مشت في الرواق المؤدي إلى المصعد بسرعة، فيما مرّ السيد أنسكوت ورجل أمن قربها مسرعين في طريقهما إلى مكتب السيد جيلكس. على الأقل، تفادت مذلة إخراجها من المبنى عنوة.

وعندما دخلت المصعد، سألها الموظف: «أي طابق آنستي؟».

«الطابق الأرضي من فضلك».

فقهقه الموظف وقال: «لا بد أنك إنكليزية».

«لماذا تقول هذا؟».

«في أميركا نقول الطابق الأول».

قالت إيما: «أوه طبعاً». ووجّهت له ابتسامة فيما خرجت من المصعد. ثم مشت في الردهة، وخرجت عبر الأبواب الدوارة، ونزلت الدرج بسرعة، ووصلت إلى الرصيف مدركة تماماً ما يجدر بها فعله. ثمة شخص واحد فقط تستطيع الآن اللجوء إليه. ففي النهاية، لا بد أن أخت اللورد هارفي ستكون حليفة مذهلة لها. أم أن العمة فيليس ستكون أيضاً صديقة مقربة لسيفتون جيلكس؟! إذا كان الأمر كذلك، فستضطر إيما حينها إلى ركوب أول سفينة عائدة إلى إنكلترا.

أوقفت سيارة أجرة، ولكنها عندما دخلتها، اضطرت إلى الصراخ عالياً بسبب صوت المذياع المرتفع.

قالت: «أربعة وستون بارك». ثم راحت تفكّر في كيفية شرحها لعمتها سبب عدم زيارتها لها من قبل. انحنت إلى الأمام، وأرادت أن تطلب من السائق أن يخفّف صوت المذياع، غير أن الكلمات المنبعثة منه استوقفتها: «سوف يتوجه الرئيس روزفلت إلى الأمة من المكتب البيضاوي عند الساعة الثانية عشرة والنصف من ظهر اليوم وفق التوقيت الشرقي».

جيل بارينغتون

1942–1941

20

أول ما رآه جيل كان ساقه اليمنى المربوطة ببكرة والمطوقة بجبيرة.

بالكاد استطاع تذكّر الرحلة الطويلة التي كان الألم خلالها لا يحتمل، والتي افترض أثناءها أنه سيموت قبل أن يصلوا به إلى المستشفى. ولن ينسى أبداً العملية الجراحية التي خضع لها. لكن، كيف يمكنه أن ينسى، لاسيما وأن المخدّر كان قد نفد من عندهم قبل أن يبدأ الطبيب بالعملية؟

أدار رأسه ببطء شديد إلى اليسار، فرأى نافذة عليها ثلاثة قضبان. وإلى اليمين، رآه.

قال جيل: «لا، ليس أنت. لهنيهة ظننت أنني هربت وذهبت إلى الجنة».

فقال بايتس: «ليس بعد. عليك أولاً البقاء هنا لفترة».

«لكم من الوقت؟».

«على الأقل، إلى أن تُشفى ساقك وربما أكثر».

عندها، سأل جيل بتفاؤل: «هل عدنا إلى إنكلترا».

فأجاب بايتس: «أتمنى ذلك. لا، نحن في ألمانيا؛ في معسكر واينسبرغ، حيث تم اقتيادنا جميعاً بعد أن أُسِرنا».

حاول جيل الجلوس، ولكنه لم يستطع إلا رفع رأسه عن الوسادة قليلاً؛ ما يكفي لرؤية صورة مؤطرة على الجدار لأدولف هيتلر وهو يؤدي التحية النازية.

«كم نجا من رجالنا؟».

«القليلون فقط. فقد التزم الرفاق بكلمات الكولونيل حرفياً: *سنضحي جميعاً بحياتنا قبل أن يحجز روميل جناحاً له في فندق ماجستيك»*.

«هل نجا أحد من فرقتنا؟»

«أنا وأنت و...».

«لا تقل لي فيشر؟».

«لا. لأنهم لو أرسلوه إلى واينسبرغ، لكنت قد طلبت نقلي إلى كولديتز».

بقي جيل ساكناً ومحدقاً إلى السقف، ثم سأل: «كيف نستطيع الفرار؟».

«طرحت على نفسي السؤال نفسه قبلك».

«وما الجواب الذي توصّلت إليه؟».

«لا مجال لذلك أبداً فيما ساقك لا تزال في الجبيرة. وحتى بعد ذلك لن يكون الأمر سهلاً. لكن، لديّ خطة».

«طبعاً».

قال بايتس: «الخطة ليست المشكلة، بل المشكلة في لجنة الهروب. فأعضاؤها يراقبون لائحة الانتظار، وأنت في آخر الرتل».

«وكيف أصبح في الأمام؟».

«الأمر مماثل لما يحصل في أي رتل آخر في إنكلترا؛ أي عليك انتظار دورك... إلّا إذا...»

« إلّا إذا ماذا؟».

« إلّا إذا رأى العميد تورنبول، الضابط الكبير المسؤول، سبباً وجيهاً لنقلك إلى الأمام».

«مثل ماذا؟».

«إذا استطعت التكلم بالألمانية بطلاقة، فسيكون هذا رائعاً».

«تعلّمت القليل منها عندما كنت في مدرسة الضباط. ليتني ركزت عليها أكثر».

«حسناً، تُعطى الدروس مرتين كل يوم. ويُفترض بشخص في مثل ذكائك ألا يجد صعوبة كبيرة فيها. لكن رغم ذلك، لا تزال اللائحة طويلة جداً لسوء الحظ».

«ما الذي أستطيع فعله للتقدم في لائحة الهروب بسرعة؟».

«الحصول على الوظيفة الصحيحة. هذا ما فعلته أنا فتقدمت ثلاثة أماكن خلال الشهر الماضي».

«وكيف فعلت ذلك؟».

«ما إن اكتشف الألمان أنني لحام حتى عرضوا عليّ وظيفة في مطعم الضباط. رفضت ذلك في بداية الأمر، ولكن العميد أصرّ على قبولي الوظيفة».

«لماذا يريدك أن تعمل لصالح الألمان!؟».

«لأنني أنجح بين الحين والآخر في سرقة بعض الطعام من المطبخ. والأهم من ذلك أنني أسمع المعلومات المفيدة للجنة الهروب. ولهذا السبب، أصبحت قريباً من مقدمة الرتل، فيما لا تزال أنت في نهايته. عليك وضع كلتا قدميك على الأرض إذا كنت لا تزال تأمل في دخول الحمام قبلي».

سأله جيل: «هل تعرف كم سيمضي من الوقت قبل أن أتمكن من فعل ذلك؟».

«يقول طبيب السجن إنك تحتاج إلى شهر إضافي على الأقل قبل إزالة الجبيرة، أو ربما ستة أسابيع».

عندها، انهار جيل على وسادته وقال: «لكن، حتى عندما أنهض من السرير، ما الوظيفة التي يمكن أن تُعرَض عليّ في مطعم الضباط؟! فأنا لا أملك المؤهلات الصحيحة مثلك».

قال بايتس: «بلى. في الواقع، لديك مؤهلات أفضل مني، ويمكنك الحصول على وظيفة في غرفة طعام قائد المعسكر، لأنني أعرف أنهم يبحثون عن نادل لتقديم الشراب».

فسأل جيل: «وما الذي يجعلك تعتقد أنني مؤهل لأكون نادلاً لتقديم الشراب؟». من دون أن يُخفي السخرية في صوته.

أجاب بايتس: «إذا كانت ذاكرتي جيدة، كان لديكم كبير خدم يدعى جنكينز يعمل في مانور هاوس».

«وهو لا يزال يعمل لدينا. لكنّ هذا لا يؤهلني...»

«وجدك، اللورد هارفي، يعمل في تجارة الشراب. بصراحة، أنت أكثر من مؤهل».

«وما الذي تقترحه؟».

«عندما تخرج من هنا، سيطلبون منك ملء استمارة للعمل تذكر فيها أين عملت سابقاً. وقد أخبرتُهم أصلاً أنك كنت خبير الشراب في فندق غراند في بريستول».

«شكراً. لكنهم خلال دقائق سيعرفون...»

«صدقني، إنهم لا يعرفون أي شيء. كل ما عليك فعله هو إرضاء الألمان، وتذكّر ما كان يفعله جنكينز. وإذا استطعنا بعدها التوصل إلى خطة محترمة نقدّمها إلى لجنة الهروب، فسنصبح في مقدمة الرتل خلال وقت قصير جداً. لكن، عليّ تذكيرك بوجود فخ».

«طبعاً، إذا كنتَ متورطاً».

«لكنني وجدت وسيلة لتفاديه».

«وما هو هذا الفخ؟».

«لا يمكنك الحصول على وظيفة لدى الألمان إذا كنت تتلقى دروساً في اللغة الألمانية؛ لأنهم ليسوا أغبياء جداً. لذا، لديهم لائحة بأسماء

جميع الأشخاص الذين يحضرون الصفوف لأنهم لا يريدون أن يتجسس أحد على محادثاتهم الخاصة».

«ولكنك قلت لي إنك وجدت حلاً لهذه المشكلة».

«نعم. كل ما عليك فعله هو تقليد الأرستقراطيين في ما يفعلونه للبقاء في الصدارة والتقدم على أناس مثلي، أي أخذ دروس خاصة. وقد وجدت لك أستاذاً علّم الألمانية في مدرسة سوليهول للقواعد. لكن، عليك أن تفهم لغته الإنكليزية». عندها ضحك جيل، غير أن بايتس تابع قائلاً: «وبما أنك ستبقى مسجوناً هنا لمدة ستة أسابيع إضافية، وليس لديك أي شيء آخر لتفعله، يمكنك الشروع في ذلك فوراً. سوف تجد قاموساً للغتين الألمانية والإنكليزية تحت وسادتك».

عندها، قال جيل فيما أمسك بيد صديقه: «أنا ممتن لك يا تيري».

«لا، بل أنا من يدين لك، أليس كذلك؟ فقد أنقذت حياتي».

عندما أُطلِق سراح جيل من جناح الطبابة بعد خمسة أسابيع، كان قد أصبح يعرف ألف كلمة ألمانية، غير أنه لم ينجح قطّ في تحسين لفظه.

وقد أمضى أيضاً ساعات طويلة مستلقياً على السرير، وهو يحاول تذكّر كيفية إنجاز جنكينز لعمله. تمرّن على قول: صباح الخير سيدي، مع إيماءة بسيطة بالرأس، وهل تريد تجربة هذا الشراب حضرة الكولونيل؟ وكان قد سكب إبريقاً من الماء في قنينة بهدف التجربة.

ذكّره بايتس: «تصرّف بتواضع دائماً، ولا تقاطع أحداً أبداً، ولا تتحدث إلا عندما يُطلب منك ذلك. في الواقع، افعل عكس ما كنت تفعله في الماضي».

فأراد جيل أن يضربه، ولكنه عرف أنه محق.

ورغم أنه سُمح لبايتس بزيارة جيل مرتين فقط في الأسبوع، لمدة ثلاثين دقيقة، إلا أنه كان يستفيد من كل من تلك الدقائق لإطلاعه على الأعمال اليومية في غرفة الطعام الخاصة بالقائد المسؤول. علّمه أسماء كل ضابط ومراتبهم، ما يحبونه وما يكرهونه، وحذّره بأن الرائد مولر- المسؤول عن أمن المعسكر- ليس رجلاً نبيلاً، ولا يمكن إغراؤه بأي شيء.

زار جيل أيضاً شخصٌ آخر، وهو العميد تورنبول الذي أصغى باهتمام إلى ما أخبره إياه جيل عن ملاحظاته حين تم إخراجه من جناح

الطبابة ونقله إلى المعسكر. تأثر العميد بما سمعه كثيراً، وعاد بعد أيام قليلة بأفكار خاصة به.

وقد قال لجيل: «إن لجنة الهروب مقتنعة تماماً بأن الألمان لن يسمحوا لك بالعمل في غرفة الطعام الخاصة بالمسؤول عن المعسكر إطلاقاً إذا عرفوا أنك ضابط. ولكي تنجح خطتك، عليك أن تكون مجرد جندي عادي. وبما أن بايتس هو الرجل الوحيد الذي عمل تحت أمرتك، فهو الوحيد الذي يجب أن يُبقي فمه مغلقاً».

فقال جيل: «سيفعل كل ما أطلبه منه».

حذّره العميد: «لن يفعل بعد الآن».

عندما خرج جيل من جناح الطبابة وتم نقله إلى المعسكر، تفاجأ بمدى تنظيم الحياة هناك، وخصوصاً بالنسبة إلى جندي عادي.

تذكّر أيامه في معسكر تدريب إيبر في دارتمور، حين كانت قدماه تطآن الأرض عند الساعة السادسة من كل صباح، مع رقيب لم يعامله كضابط قط.

لا يزال بايتس يتفوق عليه في الانتهاء من الاستحمام وتناول الفطور كل صباح. ثمة استعراض عسكري كامل في الساحة عند الساعة السابعة؛ حيث يؤدي العميد التحية العسكرية. وبعد أن يصرخ الرقيب أول: «انتهاء العرض»، ينتقل الجميع إلى القيام بنشاطاتهم المتفرقة لبقية اليوم.

لم يفوّت جيل قطّ الركض لمسافة خمسة أميال لمدة خمس وعشرين دقيقة حول المعسكر، أو ساعة المحادثة باللغة الألمانية مع أستاذه الخاص أثناء جلوسه في غرفة المراحيض.

وقد اكتشف بسرعة أن معكسر واينسبرغ فيه الكثير من الأمور المشتركة مع معسكر إيبر: الأرض الباردة والعارية، وعشرات الأكواخ المشتملة على أسرّة خشبية، والفرش القاسية، وغياب وسائل التدفئة باستثناء الشمس التي نادراً ما كانت تزور واينسبرغ؛ تماماً مثل الصليب الأحمر. وهناك أيضاً رقيب أول يقول عن جيل دوماً إنه أحمق صغير.

وكما في دارتمور، ثمة سياج عالٍ من الأسلاك الشائكة حول المعسكر، ومنفذ واحد فقط للدخول والخروج. المشكلة هي أنه لا توجد إجازات في عطل نهاية الأسبوع، فضلاً عن أن الحراس المسلحين بالبنادق لا يؤدون لك التحية عند خروجك من البوابات بسيارتك الصفراء.

عندما طُلِب من جيل ملء استمارة العمل في المعسكر، كتب «الجندي جيل بارينغتون» في خانة الاسم، و«خبير شراب» في خانة الوظيفة السابقة.

سأله بايتس: «ماذا تقصد!؟».

فأجاب جيل بنبرة متكبّرة: «نادل يقدّم الشراب».

عندها، قال بايتس فيما مزّق الاستمارة: «ولماذا لم تكتب ذلك بحق الله؟ إلا إذا أردت طبعاً الحصول على وظيفة في فندق الريتز. هيّا، عليك ملء استمارة جديدة».

وبعد أن ملأ جيل الاستمارة الثانية، انتظر بصبر كي يقابله أحد من مكتب قائد المعسكر، واستفاد من الساعات الطويلة لتمرين عقله وجسمه.

في هذه الأثناء، استمر بايتس في إطلاعه على ما يجري في الجهة الأخرى من السياج، لا بل نجح في إحدى المرات أيضاً في سرقة قطعة بطاطا وقطعة خبز، ونصف برتقالة.

وقد شرح ذات مرة: «لا أستطيع الإفراط في السرقة، فآخر ما أريده هو خسارة وظيفتي».

بعد مرور شهر تقريباً، طُلب منهما مقابلة لجنة الهروب وتقديم خطة بايتس/بارينغتون التي باتت تُعرَف باسم خطة السرير والفطور؛ السرير في واينسبرغ والفطور في زوريخ.

كانت مقابلتهما السرية جيدة، ووافقت اللجنة على إمكانية ترقيتهما قليلاً في لائحة الانتظار، ولكن من دون الإيحاء أبداً باقتراب موعد الهروب. في الواقع، أخبرهما العميد بصراحة أنه لا يجدر بهما إزعاج اللجنة قبل حصول الجندي بارينغتون على وظيفة في غرفة طعام قائد المعسكر.

عندها، سأل جيل بعد أن غادرا الاجتماع: «لماذا كل هذا الوقت الطويل يا تيري؟».

فابتسم العريف بايتس ابتسامة عريضة وقال: «أنا مسرور جداً لأنك تناديني تيري، طبعاً حين نكون بمفردنا، لكن لا تفعل ذلك أبداً أمام الرجال. هل فهمت؟». وقلّد فيشر نوعاً ما.

فضربه جيل على ذراعه.

ذكّره بايتس: «يمكن اللجوء إلى المحكمة العسكرية لأنّ جندياً عادياً يهاجم ضابطاً غير مفوّض».

فضربه جيل مجدداً وقال: «والآن، أجب عن سؤالي».

«لا شيء يتحرك بسرعة في هذا المكان. عليك التحلي بالصبر يا جيل».

«لا يمكنك مناداتي بجيل إلا حين نجلس لتناول الفطور في زوريخ».

«لا مشكلة».

وتبدّل كل شيء يوم قرر قائد المعسكر إقامة حفل غداء على شرف مسؤولين من الصليب الأحمر، وكان بحاجة إلى نادل إضافي.

قال بايتس لجيل قبل مرافقته إلى الجهة الأخرى من السياج الشائك لإجراء مقابلة مع الرائد مولر: «لا تنسَ أنك جندي عادي. وعليك محاول التفكير كخادم، وليس كشخص كان لديه خدم. فإذا شك مولر للحظة بأنك ضابط، ستتم معاقبتنا نحن الاثنين، وسنعود إلى البداية في لعبة الأفاعي والسلالم. وعندها، بإمكاني أن أؤكد لك أمراً واحداً: لن يطلب منا العميد أبداً رمي النرد مجدداً. لذا، تصرّف مثل خادم، ولا تلمح أبداً بأنك تفهم كلمة ألمانية واحدة. هل اتفقنا؟».

فقال جيل: «نعم سيدي».

وبعد مرور ساعة واحدة، عاد جيل وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة كبيرة.

سأله بايتس: «هل حصلت على الوظيفة؟».

فأجاب جيل: «أنا محظوظ لأن قائد المعسكر هو الذي أجرى المقابلة معي وليس مولر. سأبدأ العمل غداً».

«ألم يشكّ قطّ في أنك ضابط ومن عائلة مرموقة؟».

«لا، بعد أن أخبرته أنّني صديقك».

قبل تقديم الغداء للمسؤولين في الصليب الأحمر، فتح جيل ست قناني من الشراب كي يدخل الهواء إليها. وبعد أن جلس الضيوف، سكب نصف إنش من الشراب في كأس قائد المعسكر، وانتظر موافقته. وحين حصل على إيماءة بالرأس، سكب النبيذ للضيوف، ووقف دوماً إلى الجهة اليمنى. ثم انتقل إلى الضباط؛ وفق المراتب، وعاد أخيراً إلى قائد المعسكر، بصفته صاحب الدعوة.

وخلال وجبة الطعام، حرص على ألا تفرغ أي كأس، ولكنه لم يُعِد ملء كأس الشخص أثناء تكلمه. وتماماً مثل جنكينز، لم يرَه أو يسمعه أحد. سار كل شيء وفق الخطة المُحضَّرة، رغم إدراك جيل أن عينَي الرائد مولر لم تفارقاه قط؛ حتى عندما حاول الاختباء في الخلفية.

وفيما تمّت إعادتهما إلى المعسكر بعد ظهر ذلك اليوم، قال له بايتس: «أعجب بك قائد المعسكر كثيراً».

فقال جيل مُتشكّكاً: «ما الذي يدفعك إلى قول هذا؟».

«لقد أخبر الطاهي المسؤول أنك من دون شك قد عملت في منزل كبير، وأنه على الرغم من كونك من الطبقة المتواضعة، إلا أنه تمّ تعليمك على يد محترف».

فقال جيل: «شكراً لك يا جنكينز».

سأل بايتس: ما الذي قصده بكلمة محترف؟».

أصبح جيل بارعاً جداً في وظيفته الجديدة، حيث أصرّ قائد المعسكر على أن يتولى خدمته، حتى لو تناول الطعام بمفرده. وقد سمح ذلك لجيل بتأمل تصرفاته، والتبدلات في صوته، وضحكته، وحتى تأتأته الخفيفة.

وفي غضون أسابيع، استلم الجندي بارينغتون مفاتيح قبو الشراب، وسُمِح له باختيار أنواع الشراب التي يُفترض تقديمها أثناء العشاء. وبعد أشهر قليلة، سمع بايتس قائد المعسكر يقول للطاهي المسؤول إن بارينغتون ممتاز.

كلما أقام قائد المعسكر حفلة عشاء، كان جيل يُقيّم بسرعة عدد الألسنة التي يمكن أن تسكت أثناء إعادة ملء الكؤوس لها باستمرار، وكيفية جعله نفسه غير منظور كلما بدأ أحد تلك الألسنة بالثرثرة. كان ينقل كل المعلومات المفيدة التي يسمعها في السهرة إلى المساعد الشخصي للعميد أثناء خروجهما للركض معاً مسافة خمسة أميال. وتضمّنت تلك المعلومات مكان عيش قائد المعسكر، وحقيقة انتخابه في

المجلس البلدي في عمر الثانية والثلاثين، وتعيينه عمدة عام 1938. لا يستطيع القيادة، ولكنه زار إنكلترا ثلاث أو أربع مرات قبل اندلاع الحرب، ويتكلم الإنكليزية بطلاقة. وفي المقابل، عرف جيل أنه تمت ترقيته مع بايتس في لائحة الهروب.

تمثل النشاط الأساسي لجيل خلال النهار بقضاء ساعة كاملة في التحدث مع أستاذه. وأثناء تلك الدروس، كان التفوه بكلمة إنكليزية واحدة ممنوعاً، لدرجة أن الأستاذ الآتي من مدرسة سوليهول قال للعميد إن الجندي بارينغتون بدأ يشبه قائد المعسكر أكثر فأكثر.

وفي 3 ديسمبر 1941، وقف الرقيب بايتس والجندي بارينغتون للمرة الأخيرة أمام لجنة الهروب. أصغى العميد وفريقه إلى خطة السرير والفطور بانتباه كبير، وأجمعوا على أن فرص نجاحها أكبر بكثير من معظم الخطط التي تم وضعها سابقاً.

سأل العميد: «ما هو أفضل وقت برأيك لتنفيذ خطتك؟».

فأجاب جيل من دون تردد: «ليلة رأس السنة يا سيدي. إذ سيكون كل الضباط مدعوّين لتناول العشاء مع قائد المعسكر للاحتفال بالسنة الجديدة».

أضاف بايتس: «وفيما سيتولى الجندي بارينغتون سكب الشراب، لن يحافظ الكثيرون منهم على توازنهم عند حلول منتصف الليل».

فقال العميد لبايتس: «باستثناء مولر الذي لا يتناول الشراب».

«صحيح. ولكنه يحرص دوماً على شرب نخب ألمانيا وشعبها. وإذا أخذنا في عين الاعتبار ليلة رأس السنة ومضيفه، أشعر أنه سيكون نائماً عندما تتم إعادته إلى المنزل».

عندها، سأل ملازم شاب انضم أخيراً إلى اللجنة: «في أي وقت كانت تتم إعادتك إلى المعسكر بعد انتهاء حفلات العشاء عند قائد المعسكر؟».

فأجاب بايتس: «قرابة الحادية عشرة. ولكنها ليلة رأس السنة، ولذلك لن تنتهي الحفلة قبل منتصف الليل».

وتدخّل جيل قائلاً: «لا تنسوا أيها السادة أنّني أملك مفاتيح قبو الشراب. ولذلك، أؤكد لكم أن عدة قنانٍ ستشق طريقها إلى كشك الحراسة تلك الليلة. فنحن لا نريدهم أن يفوّتوا الاحتفالات».

عندها، قال ضابط قليل الكلام: «هذا ممتاز. لكن، كيف تنويان الهروب منهم؟».

فأجاب جيل: «بالخروج من الباب الرئيس في سيارة قائد المعسكر. فهو مضيف من الطراز الأول، ولا يغادر أبداً قبل ضيفه الأخير، ما يمنحنا ساعتين على الأقل».

قال العميد: «حتى لو استطعت سرقة سيارته، ومهما كان الحراس ثملين، فسيتمكنون حتماً من التمييز بين نادل يقدّم الشراب وقائد المعسكر».

أجاب جيل: «ليس إذا ارتديت معطفه الكبير وقفّازيه، ووضعت قبعته ووشاحه، وأمسكت بعصاه».

لم يقتنع الضابط الشاب بما سمعه كثيراً وسأله: «وهل تعتقد أن قائد المعسكر سيسلّمك كل ملابسه أيها الجندي بارينغتون؟».

فأجاب جيل: «لا، يا سيدي. لكنّ قائد المعسكر يترك دوماً معطفه وقبعته وقفّازيه في غرفة الملابس».

قال الضابط نفسه: «لكن، ماذا عن بايتس؟ سوف يلمحونه من مسافة ميل».

أجاب بايتس: «ليس إذا كنت في صندوق السيارة».

عندها، قال العميد: «وماذا عن سائق قائد المعسكر الذي يفترض أن يكون إنساناً رزيناً؟».

فأجاب جيل: «إننا نعمل على حلّ هذه المشكلة».

وقال الضابط الشاب مجدداً: «وإذا نجحتما في تخطي مشكلة السائق وتجاوز الحراس، ما هي المسافة الفاصلة عن الحدود السويسرية؟».

فأجاب بايتس: «مئة وسبعة وثلاثون كيلومتراً. وبسرعة مئة كيلومتر في الساعة، يفترض أن نصل إلى الحدود في أقل من ساعتين».

«هذا على افتراض عدم وجود عقبات في الطريق».

عندها قال العميد: «ما من خطة هروب خالية من المصاعب حتماً. وفي النهاية، يرتبط الأمر بكيفية تفاعل الشخص مع الأوضاع غير المرتقبة».

فأومأ جيل وبايتس برأسيهما دليل موافقة.

وقال العميد: «شكراً لكما. سوف تفكر اللجنة في خطتكما، ثم سنبلغكما بقرارنا في الصباح».

وبعد أن غادرا الاجتماع سأل بايتس: «ما الذي يجعل ذلك الضابط الشاب ضدنا؟».

فأجاب جيل: «لا شيء. على العكس، أعتقد أنه يتمنى أن يكون العضو الثالث في فريقنا».

وفي 6 ديسمبر، علم جيل من المرافق الشخصي للعميد خلال ركضهما معاً مسافة خمسة أميال كالمعتاد أنه تم إعطاء الضوء الأخضر لخطتهما، وأن اللجنة تتمنى لهما هروباً آمناً. عندها، انضم جيل بسرعة إلى الرقيب بايتس، ونقل إليه الخبر.

راجع بارينغتون وبايتس خطة «السرير والفطور» مراراً وتكراراً، إلى أن سئما من الساعات اللامتناهية للتحضير؛ تماماً مثل الأبطال الأولمبيين، وأرادا سماع صفارة الانطلاق.

وعند الساعة السادسة صباحاً من يوم 31 ديسمبر 1941، توجّه الرقيب تيري بايتس والجندي جيل بارينغتون للعمل في المقرّ الرئيس لقائد المعكسر، وهما يدركان تماماً أنه في حال فشلت خطتهما، فعليهما الانتظار لعام إضافي في أفضل الأحوال. لكن، إذا تمّ إلقاء القبض عليهما بالجرم المشهود...

22

«عُدْ عند السادسة والنصف». صرخ تيري في وجه الرقيب الألماني الذي رافقهما من المعسكر إلى المقر الرئيس للقائد.

إلا أن التعبير الجامد على وجه الرقيب أكّد لجيل أنه لن يحظى أبداً بأية ترقية.

فكرّر تيري: «عُدْ عند الساعة السادسة والنصف». ولفظ كل كلمة ببطء شديد، ثم أمسك بمعصم الرقيب وأشار إلى السادسة في ساعته. تمنّى جيل لو كان بإمكانه القول للرقيب بلغته: «إذ عدت عند الساعة السادسة والنصف أيها الرقيب، فسيكون هناك الكثير من الشراب لك ولرفاقك في كشك الحراسة». ولكنه عرف أنه إذا فعل ذلك، فسيتم اعتقاله وسيُمضي ليلة رأس السنة في زنزانة منفردة.

أشار تيري مجدداً إلى ساعة الرقيب، وقلّد رجلاً يشرب. وهذه المرة، ابتسم الرقيب وقلّد الحركة نفسها.

عندها، قال جيل فيما توجّها إلى المقرّ الرئيس لقائد المعسكر: «أعتقد أنه فهم الرسالة أخيراً».

«علينا التأكد من نقل الشراب قبل وصول أول ضابط. لذا، علينا التحرك بسرعة».

قال تيري: «نعم سيدي». فيما انطلقا في اتجاه المطبخ.

ذهب جيل إلى حجرة الملابس، وأخرج ملابس النادل، وارتدى القميص الأبيض والسروال الأسود والسترة البيضاء، ووضع ربطة العنق السوداء. لمح زوجاً من القفازات الجلدية السوداء على مقعد خشبي نسيه أحد الضباط حتماً في مناسبة سابقة، فما كان منه إلا أن وضع زوج القفازات في جيبه قائلاً لنفسه إنه قد يفيده لاحقاً. ثم أغلق باب حجرة الملابس، وشق طريقه إلى غرفة الطعام. كانت ثلاث نادلات- بينهنّ غريتا، الوحيدة التي أراد مغازلتها، ولكنه عرف أن جنكينز لن يوافق- يحضّرن مائدة لستة عشر شخصاً.

تحقق من الساعة، فوجدها تشير إلى 6:12 مساء. عندها، غادر قاعة الطعام ونزل إلى الأسفل متّجهاً إلى قبو الشراب. كان ثمة مصباح واحد يضيء الغرفة التي كانت تضم سابقاً الخزانات المليئة بالأرشيف. لكن منذ وصول جيل، تم استبدالها برفوف للشراب.

قرر جيل أنه يحتاج إلى ثلاثة صناديق من الشراب على الأقل لعشاء هذه الليلة، بالإضافة إلى صندوق آخر من الشراب للرقيب العطشان ورفاقه في كشك الحراسة. تأمل الرفوف بعناية قبل أن يختار قنينتين من شراب الكرز، ودزينة من الشراب الإيطالي، وقنّينتين من الشراب الفرنسي، وصندوقاً من الشراب الألماني. وفيما كان على وشك المغادرة، استقرت عيناه على ثلاث قنانٍ من شراب الشعير، وقنينتين من الشراب الروسي القوي، ونصف دزينةٍ من القناني من الشراب العسلي، وقنينة من الشراب المعتق. وأحس جيل أنه يمكن مسامحة الزائر إذا لم يعرف من في الحرب ضد من.

وطوال الدقائق الخمس عشرة، نقل صناديق الشراب على السلالم، وكان يتوقّف دوماً للتحقق من ساعته. وفي تمام الساعة 6:29، فتح الباب

الخلفي فوجد الرقيب الألماني يقفز صعوداً ونزولاً وهو يضرب يديه بجانبيه ليبقى دافئاً. عندها، رفع جيل راحتَي يديه مشيراً له إلى ضرورة البقاء جامداً لبرهة. ثم انتقل بسرعة في الرواق- لأن جنكينز لم يركض قط- وحمل صندوق الشراب وعاد وسلّمه إليه.

غريتا التي تأخرت في إنجاز عملها، راقبت عمليّة تسليم الشراب وابتسمت لجيل، فردّ لها الابتسامة قبل أن تختفي في غرفة الطعام.

قال جيل بصرامة فيما أشار إلى الخارج: «كشك الحرّاس». فأومأ الرقيب برأسه، وانطلق في الاتجاه الصحيح. وكان تيري قد سأل جيل سابقاً إذا كان يجدر به تهريب بعض الطعام من المطبخ للرقيب وأصدقائه في كشك الحراسة.

فأجابه جيل بصرامة: «طبعاً لا. فنحن نريدهم أن يشربوا طوال الليل على معدة فارغة».

أغلق جيل الباب، وعاد إلى غرفة الطعام حيث كانت النادلات قد أنهين تقريباً إعداد المائدة.

فتح دزينة من الشراب، ولكنّه وضع أربع زجاجات منها فقط على الرف الجانبي، فيما خبّأ الثماني الأخرى تحت الرف. إذ لم يشأ أن يكتشف مولر خطته. ووضع أيضاً قنينة من شراب الشعير وقنينتين من شراب الكرز على طرف الرف، قبل أن يصفّ عليه دزينة من الكؤوس الكبيرة، ونصف دزينة من الكؤوس الصغيرة. بات كل شيء مرتباً في مكانه.

كان جيل يلمّع كأساً عندما دخل الكولونيل شاباكر. تحقّق الكولونيل من المائدة، وأجرى تعديلاً أو اثنين على ترتيب الكراسي، ثم حوّل انتباهه إلى مجموعة القناني الموضوعة على الرف الجانبي. تساءل

جيل عمّا إذا كان سيعلّق، لكنّ الكولونيل اكتفى بالابتسام وقال: «أتوقع وصول الضيوف قرابة الساعة السابعة والنصف، وقد أخبرت الطاهي أننا سنجلس لتناول العشاء في تمام الثامنة».

أمل جيل أن تبدو لغته الألمانية طليقة بقدر إنكليزية الكولونيل شاباكر.

الشخص الثاني الذي دخل غرفة الطعام كان ملازماً شاباً انضم مؤخّراً إلى نادي الضباط، وسوف يحضر للمرة الأولى عشاء مع قائد المعسكر. لاحظ جيل أنه كان ينظر إلى شراب الشعير، فتقدم منه وسكب له نصف كوب، ثم قدّم للكولونيل شراب الكرز المفضل لديه.

الضابط الثاني الذي وصل كان النقيب هنكل؛ وهو مساعد قائد المعسكر. وقد قدّم له جيل شرابه المعتاد، ثم أمضى الدقائق الثلاثين التالية وهو يسكب الشراب لكل الضيوف، ويقدّم لكلّ منهم النوع المفضل لديه.

وعندما جلس الضيوف لتناول العشاء، تم استبدال العديد من القناني الفارغة بأخرى من القناني الاحتياطية التي كان جيل قد خبّأها تحت اللوح الجانبي.

بعد لحظات قليلة، جاءت النادلات وهنّ يحملن أطباق حساء بورش، فيما تذوق قائد المعسكر الشراب الأبيض.

قال جيل: «إيطالي». فيما عرض عليه اللصاقة.

فتمتم القائد: «هذا ممتاز».

بعد ذلك، استمر جيل في ملء كل الكؤوس الفارغة؛ باستثناء كأس الرائد مولر الذي اكتفى بشرب الماء.

ثمل بعض الضيوف بسرعة أكثر من غيرهم، واستمر جيل في التحرك حول المائدة؛ للتأكد دوماً من عدم بقاء أي كأس فارغة. تم تحطيم أحد أطباق الحساء أرضاً، فاختفى جيل في الخلفية لأن تيري كان قد حذّره مما يمكن أن يحصل لاحقاً. بعد لحظات، فتحت الأبواب الدوارة، ودخل الطاهي حاملاً رأس بقرة كبيراً على صينية فضية. ولحقت به النادلات ووضعن أطباق الخضار والبطاطا، مع أوعية الصلصة السميكة، في وسط الطاولة.

وفيما بدأ الطاهي بتقطيع اللحم، تذوّق الكولونيل شاباكر شرابه، وظهرت ابتسامة جديدة على وجهه. وبعد قليل، تابع جيل مهمته في إعادة ملء كل الكؤوس الفارغة، باستثناء كأس واحدة. فقد لاحظ أن الملازم الشاب لم يتحدث منذ فترة، ولذلك ترك كأسه على حالها. وبدأ واحد أو اثنان من الضباط الآخرين يتلعثمان بكلماتهما، ولكنه أرادهما أن يبقيا يقظين حتى منتصف الليل على الأقل.

عاد الطاهي لاحقاً لتقديم أطباق ثانوية، وأطاع جيل أوامر الكولونيل شاباكر عندما طلب منه إعادة ملء كؤوس الجميع. وعندما ظهر تيري للمرة الأولى لإزالة ما بقي من رأس البقرة، كان الرائد مولر هو الضابط الوحيد الذي لا يزال رزيناً.

بعد دقائق قليلة، دخل الطاهي للمرة الثالثة، حاملاً هذه المرة قالب حلوى بالشوكولاته وضعه على الطاولة أمام قائد المعسكر. غرز صاحب الدعوة سكيناً في قالب الحلوى عدة مرات، فيما وزعت النادلات

قطعاً كبيرة من الحلوى على كل واحد من الضيوف. واستمر جيل في ملء كؤوسهم؛ إلى أن وصل إلى القنينة الأخيرة.

وفيما رفعت النادلات أطباق الحلوى، رفع جيل كؤوس الشراب الكبيرة عن الطاولة، واستبدلها بالكؤوس الصغيرة الخاصة بشراب العنب.

وبعد الساعة الحادية عشرة، أعلن الكولونيل شاباكر مباشرة: «أيها السادة، أرجو منكم أن تملأوا كؤوسكم لأنّني أريد أن أشرب نخباً». ثم نهض من مكانه، ورفع كأسه عالياً في الهواء وقال: «نخب ألمانيا».

وعلى الفور، نهض خمسة عشر ضابطاً بسرعات مختلفة، وكرّروا وراءه: «نخب ألمانيا». عندها، نظر مولر إلى جيل، ونقر على كأسه مشيراً إلى أنه يريد شراباً ما ليشرب النخب.

وقال مولر: «ليس شراب الشعير أيها الأحمق، بل أريد شراب العنب».

فابتسم جيل، وملأ كأسه بشراب العنب.

لم ينجح في إيقاع مولر في الفخ.

استمر الحديث الصاخب والودّي فيما حمل جيل علبة سيجار ومررها على الضيوف الجالسين إلى الطاولة، وطلب من الضيوف اختيار سيجار. بات الملازم الشاب الآن يضع رأسه على الطاولة، واستطاع جيل سماع شخيره تقريباً.

وعندما نهض الكولونيل مجدداً لشرب نخب صحة الزعيم، سكب جيل لمولر المزيد من شراب العنب. فرفع هذا الأخير كأسه، وطقطق

بقدميه لتأدية التحية النازية. وتلا ذلك شرب نخب فريدريك الأعظم. وهذه المرة، حرص جيل على ملء كأس مولر بالكامل قبل أن ينهض.

وقبل خمس دقائق من منتصف الليل، تأكد جيل من أن كؤوس الجميع مليئة. وعندما بدأت الساعة على الجدار ترنّ، صرخ خمسة عشر ضابطاً في الوقت نفسه تقريباً 10، 9، 8، 7، 6، 5، 4، 3، 2، 1 ثم صرخوا: «فلتحيا ألمانيا». فيما ربتوا على ظهور بعضهم بعضاً ترحيباً بالعام الجديد.

مرّ بعض الوقت قبل أن يعودوا إلى أماكنهم، فيما بقي قائد المعسكر واقفاً، ونقر على كأسه بملعقة، فصمت الجميع لسماع خطابه السنوي.

بدأ قائد المعسكر كلامه بشكر زملائه على وفائهم وتفانيهم خلال هذا العام الصعب، ثم تحدث لبعض الوقت عن قدر ألمانيا. عندها، تذكر جيل أن شاكابر كان عمدة محلياً قبل أن يستلم قيادة المعسكر. وأنهى القائد خطابه بتمنيه أن يكون اليمين قد ربح الحرب في مثل هذا الوقت من السنة المقبلة. عندها، أراد جيل الصراخ: اسمع، اسمع! لكنّ مولر كان قد استدار نحوه ليرى إن كانت كلمات الكولونيل قد سببت أية ردة فعل لديه. لذا، نظر جيل أمامه من دون أي تعبير، كما لو أنه لم يفهم أية كلمة؛ وهكذا اجتاز امتحاناً آخر من امتحانات مولر.

23

كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة من بعد منتصف الليل بدقائق قليلة عندما نهض أول ضيف للمغادرة، وشرح: «عليّ الشروع في العمل عند الساعة السادسة صباحاً أيها الكولونيل». ولقي هذا الكلام تصفيقاً، فيما انحنى الضابط لتقديم التحية، ثم غادر من دون التفوه بأية كلمة أخرى.

غادر عدد من الضيوف الآخرين في الساعة التالية، لكن جيل عرف أنه لا يستطيع تنفيذ هروبه طالما أن مولر لا يزال موجوداً. وبدأ يتوتر قليلاً حين جاءت النادلات لأخذ فناجين القهوة؛ لأن هذا دليل على اقتراب السهرة من نهايتها وعلى إمكانية أمره بالعودة إلى المعسكر. لذا، أبقى جيل نفسه مشغولاً، واستمر في سكب الشراب لأولئك الضباط الذين لم يكونوا مستعجلين للمغادرة.

وأخيراً، نهض مولر فيما غادرت آخر نادلة الغرفة، وتمنى ليلة سعيدة لزملائه قبل أن يطقطق بقدميه ويؤدي التحية النازية لرفاقه مجدداً. وكان جيل وتيري قد اتفقا على عدم إمكانية تنفيذ خطتهما إلا بعد مرور خمس عشرة دقيقة على الأقل على مغادرة مولر، وبعد التأكد من أن سيارته لم تعد موجودة في مكانها الاعتيادي.

وهكذا، أعاد جيل ملء الكؤوس للضباط الستة الذين بقوا جالسين حول الطاولة. وكانوا جميعاً من أصدقاء قائد المعسكر المقربين. فقد كان اثنان منهم معه في المدرسة، فيما خدم ثلاثة آخرون في المجلس البلدي.

ووحده مساعد قائد المعسكر يعرفه منذ فترة وجيزة. لقد جمع جيل كل هذه المعلومات خلال الأشهر القليلة الماضية.

لا بد أنها كانت الساعة الثانية وعشرين دقيقة عندما استدعى قائد المعسكر جيل، وقال له بالإنكليزية: «لقد كان يوماً طويلاً. اذهب وانضم إلى صديقك في المطبخ، وخذ معك قنينة من الشراب».

فقال جيل: «شكراً لك سيدي». ثم وضع قنّينتَي شراب في وسط الطاولة.

وكانت الكلمات الأخيرة التي سمع جيل قائد المعسكر يقولها لمعاونه الجالس إلى يمينه قبل أن يغادر: «عندما نربح هذه الحرب أخيراً يا فرانز، فأنا أنوي عرض وظيفة على هذا الرجل. إذ لا أتوقّع أنه سيرغب في العودة إلى إنكلترا فيما العلم النازي يرفرف فوق قصر باكنغهام».

أخذ جيل آخر قنينة شراب موجودة على الرف وغادر الغرفة، ثم أغلق الباب خلفه بهدوء. أحسّ بالأدرينالين يتدفق في جسمه، وكان مدركاً تماماً أن الدقائق الخمس عشرة التالية ستحدد مصيرهما. نزل السلالم المؤدية إلى المطبخ، حيث وجد تيري يتحدث مع الطاهي، ونصف قنينة فارغة من شراب الكرز الذي يستعمل في الطهو إلى جانبه.

عندها، قال تيري فيما نهض عن كرسيه: «كل عام وأنت بخير أيها الطاهي. عليّ المغادرة الآن، وإلا فسأتأخر على الفطور في زوريخ».

حاول جيل الحفاظ على رباطة جأشه، فيما رفع الطاهي يده مشيراً إلى استيعابه.

صعدا السلالم بسرعة، وكانا الشخصين الوحيدين الرزينين في المبنى. أعطى جيل تيري قنينة الشراب وقال له: «لديك دقيقتان وليس أكثر».

وعلى الفور، مشى تيري في الرواق، وخرج من الباب الخلفي. وحين خرج ضابط من غرفة الطعام وتوجّه إلى الحمام، اختبأ جيل في العتمة في أعلى السلالم.

بعد لحظات قليلة، فُتِح الباب الخلفي مجدداً وظهر منه رأس، فلوّح جيل لتيري بعصبية، وأشار إلى الحمام. عندها، ركض تيري نحوه، وانضمّ إليه في العتمة؛ مباشرة قبل خروج الضابط من الحمام وعودته إلى غرفة الطعام بخطى مضطربة. وبعد أن أغلق الباب خلفه، سأل جيل: «كيف حال الحارس الألماني أيها الرقيب؟».

«إنه نصف نائم. أعطيته قنينة الشراب، وحذّرته من أننا سنغيب لمدة ساعة تقريباً».

«هل تعتقد أنه فهم؟».

«لا أعتقد أنه يكترث».

فقال جيل وهو يخرج مجدداً متّجهاً إلى الرواق: «جيد. عليك العمل بمثابة مراقب». ثمّ أطبق قبضتَي يديه لمنعهما من الارتجاف. وكان على وشك فتح باب حجرة الملابس عندما سمع صوتاً آتياً من الداخل، فتجمّد في مكانه، ووضع أذنه على الباب مصغياً. احتاج إلى هنيهة فقط ليتعرف إلى صاحب الصوت. وللمرة الأولى، خرق جيل قاعدة جنكينز الذهبية، وتراجع إلى الخلف في الرواق وانضمّ إلى تيري في عتمة أعلى السلالم.

«ما المشكلة؟».

فوضع جيل إصبعه على شفتيه، فيما فُتح باب حجرة الملابس وخرج منها الرائد مولر وهو يرتّب أزرار بذلته. وبعد أن ارتدى معطفه الكبير، نظر إلى الرواق للتأكد من أن أحداً لم يلمحه، ثم خرج من الباب الأمامي إلى عتمة الليل.

سأل جيل: «أية فتاة؟».

«غريتا ربما. قمت بعلاقة حميمة معها بضع مرات، ولكن ليس في حجرة الملابس».

«أليس هذا مخالفاً للأوامر العسكرية؟».

فأجاب تيري: «فقط إذا كنت ضابطاً».

توجّب عليهما الانتظار بضع لحظات إضافية قبل أن يُفتَح الباب مجدداً وتظهر غريتا، متوردة قليلاً. خرجت من الباب الأمامي بهدوء، من دون أن تزعج نفسها في التحقق ممّا إذا كان أحد قد رآها.

قال جيل: «محاولة ثانية». ثم تراجع بسرعة في الرواق، وفتح باب حجرة الملابس واختفى داخلها. وفي تلك اللحظة بالذات، خرج ضابط آخر من غرفة الطعام.

عندها، بدأ تيري يقول بصوت منخفض: لا تستدر إلى اليمين، لا تستدر إلى اليمين. إلا أن الضابط استدار إلى اليسار وتوجّه إلى الحمام، فبدأ تيري يدعو كي يطول وقت الضابط في الحمام، ثم بدأ يعدّ الثواني؛ إلى أن فُتِح باب حجرة الملابس، وخرج منها قائد المعسكر في المظهر ولكن ليس في الاسم. لوّح له تيري ليعود بسرعة إلى الداخل، فاستجاب جيل فوراً، وعاد إلى حجرة الملابس وأغلق الباب خلفه.

وعندما ظهر الضابط المعاون مجدداً، خشي تيري أن يذهب إلى حجرة الملابس ليحضر قبعته ومعطفه، ويعثر على جيل مرتدياً ملابس قائد المعسكر. ففي هذه الحالة، ستنتهي اللعبة قبل أن تبدأ. تتبع تيري خطوات الضابط بناظريه متوقعاً الأسوأ، لكن الضابط توقف أمام باب حجرة الطعام وفتحه، وسرعان ما اختفى في الداخل. وبعد أن أغلق الباب، اندفع تيري في الرواق بسرعة البرق، وفتح باب حجرة الملابس، فوجد جيل مرتدياً معطفاً كبيراً ووشاحاً وقفّازين، وقد اعتمر قبعة مستدقة المقدمة، ويحمل في يده عصا، فيما العرق يتقطر من جبينه.

قال تيري: «فلنخرج من هنا قبل أن يصاب أحدنا بنوبة قلبية».

غادر تيري وجيل المبنى بسرعة أكبر مما فعل مولر أو غريتا.

قال جيل بعد أن أصبحا في الخارج: «استرخِ. لا تنسَ أننا الشخصان الوحيدان الرزينان هنا». ولفّ الوشاح حول عنقه حيث غطى ذقنه، وأنزل قبعته قليلاً، ثم أمسك العصا بصرامة، وأحنى ظهره قليلاً؛ لأنه أطول من قائد المعسكر بإنشين تقريباً.

وما إن سمع السائق جيل يقترب حتّى خرج من السيارة وفتح له الباب الخلفي. وكان جيل قد تمرّن كثيراً على جملة سمع الكولونيل يقولها لسائقه مرات عدة. لذا، فيما جلس على المقعد الخلفي، أنزل قبعته على وجهه أكثر فأكثر وتمتم: «خذني إلى المنزل يا هانس».

عاد هانس إلى مقعد السائق، لكنّه عندما سمع طقطقة بدت مثل إبزيم الحذاء، نظر إلى الخلف متشككاً، فرأى القائد ينقر بعصاه على النافذة.

سأل جيل بشيء من الخوف: «ما الذي يؤخرك يا هانس؟».

وعلى الفور، أدار هانس المحرك، وبدّل محرك السرعة في السيارة، ثم انطلق ببطء متّجهاً إلى كشك الحراسة. وعندما سمع رقيب صوت السيارة المقتربة، خرج من الكشك فوراً، وحاول فتح الحاجز المتحرك وتقديم التحية العسكرية في الوقت نفسه. عندها، رفع جيل عصاه في إشارة إلى امتنانه، وكاد ينفجر ضاحكاً عندما لاحظ أن اثنين من الأزرار العلوية في سترة الرقيب مفتوحان. ما كان الكولونيل شاباكر ليمرّر ذلك من دون تعليق، حتى إن حصل ذلك في ليلة رأس السنة.

وكان الرائد فورسدايك- وهو مسؤول الاستخبارات في لجنة الهروب- قد أخبر جيل أن منزل قائد المعسكر يقع على مسافة ميلين تقريباً من المعسكر، وأنّ آخر مئتي ياردة من الطريق عبارة عن طريق ضيقة وغير مضاءة. بقي جيل مسترخياً في زاوية المقعد الخلفي؛ حيث لا يكون من الممكن رؤيته عبر مرآة الرؤية الخلفية في السيارة. لكن، ما إن انعطفت السيارة نحو الطريق الضيق حتى جلس منتصباً، ونقر على كتف السائق بعصاه، وطلب منه التوقف.

وقال: «لم يعد بوسعي الانتظار». ثم خرج من السيارة، وزعم أنه يفتح زر سرواله ليتمكن من التبويل.

راقب هانس الكولونيل فيما اختفى بين الأجمات، وبدا محتاراً. ففي النهاية، لقد أصبحا على مسافة مئة متر فقط من بابه الأمامي. ثم خرج من السيارة، وانتظر قرب الباب الخلفي. وعندما ظنّ أنه سمع سيده يعود، استدار نحو مصدر الصوت، فتلقّى فوراً ضربة قوية كسرت أنفه، وانهار على الأرض.

ركض جيل إلى الجهة الخلفية للسيارة وفتح الصندوق، فخرج منه تيري، ومشى متّجهاً نحو هانس المُمدد أرضاً، وبدأ يفك له أزرار بذلة السائق، قبل أن يخلع عنه ملابسه. وبعد أن ارتدى بايتس ملابسه الجديدة، بدا جلياً أنه أقصر من هانس وأكثر بدانة.

فقال جيل كما لو أنه قرأ أفكاره: «لا يهم. فعندما تجلس خلف المقود، لن ينظر إليك أحد».

ثمّ سحبا هانس إلى الجهة الخلفية للسيارة، ووضعاه في الصندوق.

وقال تيري فيما كان يربط منديلاً حول فم هانس: «أشك في أن يستيقظ قبل أن نبدأ فطورنا في زيوريخ».

جلس السائق الجديد لقائد المعسكر خلف المقود، ولم يتفوه أي منهما بكلمة إلى أن أصبحا مجدداً على الطريق الرئيسة. لا داعي لكي يتوقف تيري ويتحقق من لافتات الطريق، لأنه كان قد حفظ مسبقاً الطريق المؤدية إلى الحدود كل يوم خلال الشهر الماضي.

قال جيل: «ابقَ في الجهة اليمنى من الطريق، ولا تقد السيارة بسرعة؛ فآخر ما نريده هو التعرض لحادث سير».

قال تيري بعدما تجاوزا لافتة لشافهوسن: «أعتقد أننا نجحنا».

«لن أصدق ذلك قبل أن نجلس إلى طاولتنا في فندق إمبريال ويعطيني النادل قائمة الفطور».

فقال تيري: «لا أحتاج إلى قائمة. فأنا أريد تناول البيض، واللحم المقدد، والفول، والنقانق والبندورة، بالإضافة إلى الشراب طبعاً. فهذا فطوري الاعتيادي في سوق اللحم كل صباح. ماذا عنك؟».

«بيضة مسلوقة قليلاً، وشريحة من الخبز المحمص مع الزبدة، ومقدار ملعقة من مربى أوكسفورد، وكوب من شاي إيرل غراي».

«لم تحتج إلى وقت طويل للتحول مجدداً من نادل إلى أرستقراطي».

فابتسم جيل، وتحقق من ساعته. كانت ثمة سيارات قليلة على الطريق بعد ليلة رأس السنة، ولذلك تقدما بسرعة ملحوظة. حصل ذلك إلى أن لمح تيري موكباً أمامهما، فسأل: «ماذا أفعل الآن؟».

«تجاوزهم، إذ لا يمكننا تبديد أي وقت. ولا داعي لأن يشكوا فينا. ففي النهاية، أنت تقود سيارة ضابط كبير لا يفترض أبداً تأخيره».

وعندما وصل تيري إلى قرب السيارة الأخيرة في الموكب، انتقل إلى وسط الطريق وبدأ يتجاوز صفاً طويلاً من العربات المصفحة والدراجات النارية. ومثلما توقع جيل، لم يُبدِ أحد اهتماماً بسيارة مرسيدس تنقل مسؤولاً رسمياً. وعندما تجاوز تيري السيارة الأمامية في الموكب تنفس الصعداء، ولكنه لم يشعر بالارتياح الكامل إلا عندما انعطف حول زاوية، ولم يعد بوسعه رؤية أضواء السيارات في مرآة الرؤية الخلفية.

استمر جيل في التحقق من ساعته كل بضع دقائق. وأكّدت اللافتة التالية أنهما يُحرزان تقدماً جيداً، لكن جيل كان مدركاً تماماً أنهما سيفقدان السيطرة على الأمر ما إن يغادر آخر ضيف ويخرج الكولونيل شاباكر بحثاً عن سيارته والسائق.

مرّت أربعون دقيقة إضافية قبل أن يصلا إلى ضواحي شافهوسن. وكانا كلاهما في غاية التوتر، لدرجة أنهما لم يتفوها بأية كلمة. كان جيل مرهقاً وجالساً على المقعد الخلفي، من دون أن يفعل أي شيء، ولكنه عرف أنه لا يستطيع الاسترخاء إلا بعد اجتياز الحدود السويسرية.

وعندما وصلا إلى البلدة، كان السكان المحليون قد بدأوا يستيقظون. مرّ الترامواي بين الحين والآخر، كما مرّت سيارات غريبة الشكل، وبعض الدراجات الهوائية التي نقلت أشخاصاً يفترض بهم العمل في أول يوم من السنة الجديدة. لا داعي لكي يبحث تيري عن اللافتات التي تُرشد إلى الطريق المؤدية إلى الحدود؛ لأنه استطاع رؤية جبال الألب شامخة من بعيد، فأحسّ بالحرية كما لو أنها على مسافة قريبة جداً.

قال تيري: «اللعنة!». فيما ضغط بشدة على المكابح.

فقال جيل فيما انحنى إلى الأمام: «ما المشكلة؟».

«انظر إلى ذلك الرتل»؟

عندها، أخرج جيل رأسه من النافذة، فرأى رتلاً من نحو أربعين سيارة واقفة قبلهما، وكلها تنتظر لاجتياز الحدود. تحقق من السيارات ليرى إن كانت هناك سيارة رسمية أخرى. وبعد أن تأكد من أنه لا توجد أية واحدة أخرى قال: «تقدّم إلى الأمام. فهذا ما يتوقعون منا القيام به. وإذا لم نفعل ذلك، فسنلفت الانتباه».

تقدّم تيري إلى الأمام ببطء، وتوقف فقط عندما وصل إلى الحاجز، فقال له جيل:

«انزل وافتح لي الباب، ولكن من دون التفوّه بأية كلمة».

عندها، أطفأ تيري المحرك، ونزل من السيارة وفتح الباب الخلفي، فتوجّه جيل إلى حاجز الجمارك.

وعلى الفور، نهض ضابط شاب من خلف مكتبه، وألقى التحية الرسمية عندما رأى الكولونيل يدخل الغرفة. أعطاه جيل مجموعتين من

الأوراق النقدية التي أكّد له مزوّر المعسكر أنها كفيلة بالسماح له باجتياز أية حدود في ألمانيا. سوف يرى الآن إذا كان المزوّر يبالغ. وفيما قلّب الضابط الأوراق، نقر جيل بعصاه على جانب ساقه ونظر إلى ساعته باستمرار.

قال: «لديّ موعد مهم في زيوريخ، وأكاد أتأخر».

«آسف يا حضرة الكولونيل، سأفسح الطريق أمامك بأسرع ما يمكن. يفترض أن يستغرق الأمر بضع لحظات فقط».

تحقق الضابط من صورة الكولونيل على الأوراق وبدا مذهولاً، فتساءل جيل عمّا إذا كان سيطلب منه إزالة الوشاح عن وجهه؛ لأنه إذا فعل ذلك فسيدرك فوراً أنه صغير جداً ليكون «كولونيل».

عندها، حدّق جيل بتحدٍ إلى الرجل الشاب الذي كان يفكّر على ما يبدو في العواقب المحتملة لتأخيره ضابطاً كبيراً نتيجة طرح أسئلة غير ضرورية عليه. ومال الميزان لصالح جيل. إذ أومأ الضابط برأسه، وختم الأوراق، وقال: «أتمنى ألا تتأخر على موعدك يا سيدي».

فقال جيل: «شكراً لك». ووضع الأوراق في الجيب داخلي، وكان متوجهاً نحو الباب عندما أوقفه الضابط الشاب في مكانه حين صرخ: «عاش هتلر!».

تردد جيل قليلاً، ثم استدار ببطء وقال: «عاش هتلر!». وقدّم التحية العسكرية النازية المثالية. وحين خرج من المبنى، اضطر إلى كبت ضحكته عندما لاحظ أن تيري قد أمسك الباب الخلفي بيد واحدة، ورفع سرواله باليد الأخرى.

قال جيل: «شكراً لك يا هانس». فيما جلس على المقعد الخلفي.

عندئذ، سمعا صوتاً عالياً يصدر من الصندوق.

فقال تيري: «يا إلهي. هانس».

وعلى الفور، عادت إليهما كلمات العميد. «ما من خطة هروب خالية من المصاعب حتماً. وفي النهاية، يرتبط الأمر بكيفية تفاعل الشخص مع الأوضاع غير المرتقبة».

أغلق تيري الباب الخلفي وعاد إلى مكانه خلف عجلة القيادة بأسرع ما يمكن؛ إذ خشي أن يسمع الحراس صوت الضرب الصادر من الصندوق. حاول البقاء هادئاً فيما ارتفع الحاجز الأفقي إنشاً تلو الآخر، وأصبح صوت الضرب أعلى وأعلى.

قال جيل: «انطلق ببطء. لا تعطِهم أي سبب للشك فينا».

وعلى الفور، حرّك تيري مبدل السرعة وانطلق ببطء تحت الحاجز الأفقي. فيما نظر جيل عبر النافذة الجانبية عندما مرت السيارة أمام كشك الجمارك. كان الضابط الشاب يتحدث عبر الهاتف، ثم نظر إلى خارج النافذة وحدّق إلى جيل مباشرة، وبعد ذلك نهض من وراء مكتبه، وخرج مسرعاً إلى الطريق.

قدّر جيل أن تكون الحدود السويسرية على مسافة لا تتعدى مئتي ياردة. نظر عبر النافذة الخلفية، فرأى الضابط الشاب يلوّح بعصبية، فيما خرج حراس يحملون بنادقهم بسرعة.

قال جيل: «تبديل في الخطة. اضغط على دواسة الوقود بسرعة». فيما أصابت أولى الرصاصات الجهة الخلفية للسيارة.

كان تيري يبدّل السرعة عندما انفجر الدولاب، فحاول جاهداً إبقاء السيارة على الطريق، ولكنها انحرفت من جانب إلى آخر، ثم ارتطمت بالحاجز الإسمنتي الجانبي قبل أن تتوقف في منتصف الطريق بين حاجزي الحدود. وفي تلك اللحظة، جاءت دفعة جديدة من الرصاصات.

فقال جيل: «لقد حان دوري للتغلب عليك في سرعة الدخول إلى الحمام».

وعلى الفور أجابه تيري: «هذا مستحيل». ثم وضع قدميه على الأرض قبل أن يفتح جيل الباب الخلفي.

بدآ يركضان بسرعة في طريقهما إلى الحدود السويسرية. وإذا كان يتوجّب على أي منهما الركض بسرعة فائقة يوماً، فهذا هو ذلك اليوم. وعلى الرغم من تغييرهما اتجاههما أثناء الركض في محاولة منهما لتفادي الرصاصات، بقي جيل واثقاً من أنه سيعبر الحدود أولاً. كان حراس الحدود السويسرية يهتفون لهما. وعندما اجتاز جيل الحدود، رفع ذراعيه عالياً احتفالاً بالنصر؛ إذ تغلّب أخيراً على خصمه اللدود.

غير أنه حين استدار إلى الخلف، رأى تيري مستلقياً في وسط الطريق على مسافة ثلاثين ياردة تقريباً، وقد اخترقت رصاصة الجهة الخلفية من رأسه وتقطر الدم من فمه.

عندها، ركع جيل على ركبتيه، وبدأ يزحف متّجهاً إلى صديقه، فانطلقت دفعة جديدة من الرصاص، فيما أمسك جنديان سويسريان بكاحليه وسحباه إلى الخلف؛ إلى برّ الأمان.

فأراد أن يشرح لهما أنه لا يريد تناول الفطور بمفرده.

هوغو بارينغتون

1942–1939

24

لم يستطع هوغو بارينغتون إخفاء الابتسامة عن وجهه عندما قرأ في صحيفة أخبار بريستول المسائية أن هاري كليفتون قد دُفِن في البحر بعد ساعات قليلة من إعلان الحرب.

فأخيراً، ها قد أنجز الألمان شيئاً جيداً. إذ استطاع قائد غواصة ألمانية أن يحلّ مشكلته العظمى. وبدأ هوغو يفكر في أنه مع مرور الوقت يمكنه العودة إلى بريستول، واستئناف عمله كنائب لرئيس مجلس الإدارة في شركة بارينغتون للشحن البحري. سيبدأ بالاتصال بأمه بشكل منتظم في بارينغتون هال؛ ولكن بعد مغادرة والده إلى العمل كل يوم. خرج تلك الليلة للاحتفال، وعاد إلى منزله ثملاً جداً.

عندما هاجر هوغو إلى لندن بعد حادثة زفاف ابنته، استأجر شقة في حدائق كادوغان مقابل باوند واحد في الأسبوع. والشيء الوحيد الجيد في ذلك المنزل المؤلف من ثلاث غرف هو العنوان؛ إذ أوحى بأنه رجل صاحب ثروة.

صحيح أنه كان يملك بعض المال في المصرف، لكن ذلك المال تضاءل بسرعة، وبات لديه الكثير من الوقت من دون وجود مصدر منتظم للدخل. لم يمضِ وقت طويل قبل أن يضطر إلى بيع سيارته البوغاتي؛ فصار لديه ما يكفي من المال لبضعة أسابيع؛ إلى أن وصله أول شيك مصرفي. لا يمكنه طلب المساعدة من والده لأنه قطع الاتصال به، فضلاً عن أن السير والتر مستعد حتماً لمساعدة مايزي كليفتون بدلاً من مساعدة ابنه.

بعد قضائه عدة أشهر عقيمة في لندن، حاول هوغو إيجاد وظيفة. لكن الأمر لم يكن سهلاً. فإذا كان صاحب العمل يعرف والده، فهو لم يقابله قط. وإذا فعل، كان مديره الجديد يطلب منه العمل لساعات طويلة جداً لم يدرك أنها موجودة؛ مقابل أجرة لا تغطي فاتورته في المقهى.

عندها، بدأ هوغو يغامر بما بقي لديه من المال. وأصغى إلى العديد من الرفاق من أيام المدرسة الذين أخبروه عن صفقات لا يمكن أن تفشل أبداً، وتورط في صفقة أو صفقتين مشبوهتين جعلتاه على اتصال بمن تعتبرهم الصحافة متبطلين، ويعتبرهم والده سارقين.

وبعد سنة واحدة، لجأ هوغو إلى استدانة المال من الأصدقاء، وحتى من أصدقاء الأصدقاء. لكن، عندما لا تكون لديك وسيلة لتسديد ديونك، سيتم حذفك بسرعة من لوائح المدعوين إلى معظم الحفلات، ولن يُسمَح لك بالانضمام إلى حفلات الصيد الريفية في عطلات نهاية الأسبوع.

كلما شعر هوغو بالإحباط، كان يتصل بأمه؛ ولكن بعد أن يتأكد من أن والده قد أصبح في المكتب. إذ يمكن دوماً الاعتماد على ماما للحصول على المال؛ تماماً مثلما كان يفعل حين كان ولداً في المدرسة في العاشرة من عمره.

ثمة صديق قديم له من أيام المدرسة يدعى أرشي فنويك، وقد دعاه أحياناً لتناول الغداء في ناديه، أو لحضور حفلات الكوكتيل الراقية في تشيلسي. وهناك، التقى هوغو أولغا للمرة الأولى. لم يلفته وجهها أو قامتها، وإنما اللآلئ الملتفة حول عنقها في ثلاثة صفوف. فسأل هوغو صديقه أرشي إذا كانت تلك اللآلئ حقيقية.

فأجاب: «هي كذلك حتماً. لكن احذر، فأنت لست الشخص الوحيد الذي يحاول الإيقاع بتلك المرأة الغنية».

وأخبره أرشي أن أولغا بيوتروفسكا قد وصلت إلى لندن مؤخراً، بعد أن هربت من بولندا إثر الاجتياح الألماني. وقد خُطف أهلها على يد البوليس السري الألماني؛ لمجرد أنهما يهوديان، فعبس هوغو. لم يستطع أرشي إخبار صديقه هوغو الكثير عنها، سوى أنها تعيش في منزل رائع في ساحة لاوندس، وتملك مجموعة رائعة من التحف الفنية. لم يكن هوغو قد اهتمّ بالفن يوماً، ولكنه سمع عن بيكاسو وماتيس.

مشى هوغو في القاعة الكبيرة، وعرّف عن نفسه أمام الآنسة بيوتروفسكا. وعندما أخبرته أولغا عن سبب مغادرتها ألمانيا، عبّر عن غضبه، وأكّد لها أن عائلته كانت فخورة بالتعامل مع اليهود طوال أكثر من مئة عام. ففي النهاية، كان والده- السير والتر بارينغتون- صديقاً مقرّباً من روتشيلد وهامبرو. وقبل وقت من انتهاء الحفلة، دعا أولغا للانضمام إليه على الغداء في فندق الريتز في اليوم التالي. وبما أنه لم يعد يُسمح له بالتوقيع على الفاتورة، اضطر إلى الاستدانة من أرشي مجدداً.

سار الغداء على ما يرام، وخلال الأسابيع القليلة التالية، غازل هوغو أولغا بشكل مكثف، ضمن حدود موارده. وأخبرها أنه ترك زوجته بعدما اعترفت له بعلاقتها الغرامية مع أفضل صديق له، وطلب من محاميه الشروع في معاملات الطلاق. في الواقع، كانت إليزابيت قد طلّقته أصلاً، ومنحها القاضي مانور هاوس، وكل المقتنيات التي لم ينقلها هوغو بعد أن غادر بسرعة فائقة.

كانت أولغا متفهمة جداً، ووعدها هوغو بأن يطلبها للزواج لحظة يصبح حراً. ولم يتوقف قط عن إخبارها عن مدى جمالها، وكيف أن العلاقة الحميمة بينهما مثيرة جداً مقارنة مع علاقته مع إليزابيت. وذكّرها باستمرار أنه حين يموت والده، فسوف تصبح اللايدي بارينغتون، وسوف تُحلّ كل مشاكله المالية المؤقتة عندما يرث أملاك بارينغتون. وأوحى لها ربما بأن والده أكبر سناً وأقل صرامة مما هو فعلاً؛ إذ استعمل دوماً تعبير «الشيخوخة السريعة».

وبعد أسابيع قليلة، انتقل هوغو إلى ساحة لاوندس. وخلال الأشهر القليلة التالية، عاد إلى أسلوب العيش الذي افترض أنه من حقه. وقد قال له العديد من الرجال إنه محظوظ لأنه برفقة تلك المرأة الجميلة والساحرة، لا بل إن بعضهم أضافوا: «وهي فاحشة الثراء أيضاً».

كاد هوغو ينسى ما يعنيه تناول ثلاث وجبات يومياً، وارتداء ملابس جديدة، والاستعانة بسائق للتجول في المدينة. ومع مرور الوقت، سدّد معظم ديونه. ولم يمضِ وقت طويل قبل أن تُفتَح أمامه مجدداً الأبواب التي أوصدت مؤخراً في وجهه. إلا أنه بدأ يتساءل عن الفترة التي سيدوم فيها هذا الأمر؛ لأنه لا ينوي حتماً الزواج من لاجئة يهودية من وراسو.

ركب ديريك ميتشيل القطار السريع المنتقل من تامبل ميدز إلى بادينغتون. فقد عاد التحري الخاص للعمل بدوام كامل مع سيده القديم؛ لاسيما وأن راتبه بات يُسدّد مجدداً في الأول من كل شهر، كما سُدِّدت نفقاته فور تقديمها. توقع هوغو أن يطلعه ميتشيل على أحوال

عائلة بارينغتون مرة في الشهر. واهتم على وجه الخصوص بمعرفة أخبار والده، وزوجته السابقة، وجيل، وإيما، وحتى غرايس. لكنه كان لا يزال يخشى أيضاً مايزي كليفتون، وتوقع أن يخبره ميتشيل بكل ما تفعله.

وهكذا، اعتاد ميتشيل على السفر إلى لندن بواسطة القطار، وكان الرجلان يلتقيان في قاعة الانتظار المقابلة للمحطة 7 في مركز بادينغتون. وبعد ساعة واحدة، كان ميتشيل يستقل القطار مجدداً للعودة إلى تمبل ميدز.

وهكذا، عرف هوغو أن إليزابيت قد استمرت في العيش في مانور هاوس، فيما كانت غرايس نادراً ما تعود إلى المنزل بعد أن فازت بمنحة للتعلم في جامعة كامبريدج. وقد أنجبت إيما طفلاً أطلقت عليه اسم سيباستيان آرثر، فيما انخرط جيل في فوج ويسكس العسكري كجندي خاص، وبعد إنهائه دورة التدريب الممتدة على فترة اثني عشر أسبوعاً، تم إرساله إلى معسكر مونس لتدريب الضباط.

تفاجأ هوغو كثيراً حين عرف أنه لم يتم قبول جيل في فوج غلاوسسترز بعد فترة وجيزة من اندلاع الحرب لأنه مصاب بعمى الألوان؛ تماماً مثله هو ووالده. وقد استخدم هوغو العذر نفسه لتفادي التجنيد الإجباري عام 1915.

ومع مرور الأشهر، بدأت أولغا تسأل أكثر فأكثر عن موعد انتهاء طلاق هوغو. فحاول دوماً جعل الأمر يبدو وكأنه وشيك. لكن عندما اقترحت عليه العودة إلى شقته في ساحة كادوغان إلى حين إنجازه

معاملات الطلاق في المحكمة، قرر فعل شيء ما. فانتظر أسبوعاً إضافياً قبل أن يخبرها أن محاميه أخبره أنهم بدأوا بالإجراءات القانونية.

وهكذا، مرّت أشهر إضافية من الانسجام. وبالطبع، لم يخبر أولغا أنه أبلغ صاحب المنزل في ساحة كاودغان بتخليه عن المنزل بعد شهر واحد من انتقاله للعيش معها. وأنها إذا رمته خارجاً، فلن يجد مكاناً للعيش فيه.

مرّ شهر كامل تقريباً قبل أن يتصل ميتشيل بهوغو ويقول له إنه يحتاج إلى لقائه فوراً؛ وكان هذا طلباً غير اعتيادي. عندها، اتفقا على اللقاء في تمام الساعة الرابعة من بعد ظهر اليوم التالي في مكانهما المعتاد.

عندما دخل ميتشيل قاعة الانتظار في محطة القطار، كان هوغو جالساً أصلاً على مقعد خشبي، مختبئاً خلف نسخة من جريدة أخبار لندن المسائية. كان يقرأ مقالاً عن هجوم روميل على توبروك؛ رغم أنه لا يعرف موقع توبروك على الخريطة. استمر في القراءة عندما جلس ميتشيل قربه. وتحدث التحري الخاص بهدوء، من دون أن ينظر أبداً في اتجاه هوغو.

«أريدك أن تعلم أن ابنتك الكبرى تعمل نادلة في فندق غراند، تحت اسم الآنسة ديكنز».

«أليس هذا هو المكان نفسه الذي تعمل فيه مايزي كليفتون؟».

«صحيح. إنها مديرة المطعم، وقد كانت مديرة ابنتك».

لم يتخيل هوغو السبب الذي قد يدفع إيما للعمل كنادلة. «هل تعرف أمها بالأمر؟».

«حتماً، لأن هودسون هو الذي كان يوصلها ويُنزلها على مسافة مئة ياردة من الفندق كل صباح في تمام الساعة السادسة إلا ربعاً. لكن، ليس هذا هو السبب الذي جئت من أجله».

فقلب هوغو صفحة الجريدة ليرى صورة للجنرال أوشينلك واقفاً خارج خيمته في الصحراء، وموجهاً الكلام إلى جنوده.

«استقلت ابنتك سيارة أجرة إلى أحواض السفن صباح أمس، وكانت تحمل حقيبة. وعندما صعدت على متن سفينة ركاب تدعى كنساس ستار، حصلت على وظيفة في مكتب الاستعلامات. وقد أخبرت أمها أنها ذاهبة إلى نيويورك لزيارة العمة فيليس التي أعتقد أنها أخت اللورد هارفي».

ذهل هوغو بدقة المعلومات التي حصل عليها ميتشيل، ولكنه أراد أن يعرف السبب الذي دفع إيما إلى العمل على متن السفينة التي مات فيها هاري كليفتون. ما من شيء منطقي في ذلك. لذا، طلب من ميتشيل التدقيق في الموضوع أكثر، وإبلاغه فوراً بأي معلومات جديدة حول إيما.

ومباشرة قبل مغادرة ميتشيل لركوب القطار والعودة إلى تمبل ميدز، أخبر هوغو أن القذائف الألمانية قد دمّرت شارع برود تماماً. فلم يفهم هوغو أهمية هذا الخبر بالنسبة إليه، إلى أن ذكّره ميتشيل بأنه الشارع الذي تواجد فيه مقهى تيلي. واعتقد أنه يفترض بالسيد بارينغتون أن يعرف أن بعض المقاولين مهتمون بموقع العمل القديم للسيدة كليفتون.

عندها، شكر هوغو ميتشيل على المعلومة؛ من دون أن يوحي له بأنها مهمة له.

وما إن عاد هوغو إلى ساحة لاوندس حتى اتّصل بالسيد برندرغاست؛ مدير مصرف بروفنسيال الوطني.

«أتوقع أنك تتصل بخصوص برود ستريت». كانت تلك هي أولى الكلمات التي لفظها مدير المصرف.

«نعم. سمعت أن موقع مقهى تيلي معروض للبيع ربما».

فأجاب برندرغاست: «الشارع كله معروض للبيع بعدما تعرض للقصف. فقد خسر معظم أصحاب المحلات مصدر رزقهم. وبما أن ذلك حصل بسبب الحرب، ليس بوسعهم طلب تعويض من شركات التأمين».

«إذاً، هل أستطيع الحصول على موقع مقهى تيلي مقابل سعر معقول؟».

«بصراحة، يمكنك الحصول على الشارع كله مقابل مبلغ معقول؛ إذا كنت تملك بعض المال الاحتياطي يا سيد بارينغتون. وأنا أوصيك بهذا الاستثمار الذكي».

فذكّره هوغو: «على افتراض أن نربح الحرب».

«أعترف أنها مغامرة، لكنّ الربح قد يكون كبيراً جداً».

«وما هو المبلغ الذي نتحدث عنه؟».

«بالنسبة إلى موقع السيدة كليفتون، أعتقد أنني أستطيع إقناعها ببيعه مقابل مئتي باوند. في الواقع، إن نصف التجار في ذلك الشارع من زبائني، ولذلك أعتقد أنك تستطيع إنجاز كامل الصفقة مقابل ثلاثة آلاف تقريباً. الأمر أشبه بلعب المونوبولي بنرد ممتلئ».

فقال هوغو قبل أن ينهي الاتصال: «سأفكر في الأمر». ولم يخبر برندرغاست أنه لا يملك حتى مال المونوبولي.

حاول التفكير في طريقة لجمع هذا المبلغ من المال، في الوقت الذي رفض فيه كل معارفه إقراضه خمسة باوندات. ولم يكن بإمكانه طلب المزيد من المال من أولغا؛ إلا إذا كان مستعداً للزواج منها، وهذا مستحيل.

ما كان ليفكر في المسألة مجدداً لو لم يصادف توبي دانستايبل في إحدى حفلات أرشي.

كان توبي وهوغو صديقين في إيتون. لا يذكر هوغو الكثير من المعلومات حول دانستايبل؛ سوى أنه كان يسرق المال بانتظام من الأولاد الأصغر سناً. وعندما أُلقي القبض عليه أخيراً وهو يسرق ورقة عشرة شلنات من أحد الأولاد، افترض الجميع أنه سيتم طرده، وهذا ما كان سيحصل ربما لو لم يكن الابن الثاني لإيرل دانستايبل.

عندما سأل هوغو صديقه توبي عن أحواله هذه الأيام، أجاب بغموض أنه يعمل في العقارات. عندها، أخبره هوغو عن فرصة الاستثمار الموجودة في برود ستريت، ولكنه لم يهتم. في الواقع، لاحظ هوغو أن توبي لم يرفع عينيه عن عقد الألماس المتلألئ حول عنق أولغا.

قدّم توبي بطاقته الشخصية إلى هوغو وقال له: «إذا احتجت إلى بعض المال النقدي يوماً، فلا يفترض أن يكون الأمر صعباً؛ إذا فهمت ما أعنيه يا صديقي القديم».

فهم هوغو الأمر تماماً، ولكنه لم يأخذ اقتراحه المبطّن على محمل الجد؛ إلا عندما سألته أولغا ذات صباح أثناء تناول الفطور عمّا إذا كان قد تم تحديد موعد لقرار المحكمة بشأن الطلاق. فأكد لها هوغو أن الأمر بات وشيكاً.

وفي ذلك اليوم، غادر المنزل وتوجّه إلى النادي مباشرة، وتحقّق من بطاقة توبي، ثم اتصل به. اتفقا على اللقاء في مقهى في فولهام، حيث جلسا في إحدى الزوايا بمفردهما، وتناولا الشراب، وتحدثا عن حال الرفاق في الشرق الأوسط. لم يبدّلا الموضوع إلا بعدما تأكدا من أن أحداً لا يسمعهما.

قال توبي: «كل ما أحتاج إليه هو مفتاح الشقة، ومكان مجوهراتها بالضبط».

فأكد له هوغو: «لا يفترض بذلك أن يكون صعباً».

«الشيء الوحيد الذي يجدر بك فعله يا صديقي هو ابتعادكما عن المنزل لوقت طويل بما يكفي كي أنجز المهمة».

لذا، عندما اقترحت عليه أولغا خلال الفطور حضورَ عرض مسرحية ريغوليتو في مسرح سادلرز ويلز، وافق هوغو على شراء بطاقتين. كان يختلق الأعذار لتجنّب ذلك عادة، ولكنه وافق هذه المرة، لا بل اقترح أن يتناولا العشاء في مطعم سافوي بعد ذلك للاحتفال.

فسألته: «للاحتفال بماذا؟».

فأجاب بعفوية: «حصولي على الطلاق». عندها، طوّقته بذراعيها. «بعد ستة أشهر يا حبيبتي، سوف تصبحين السيدة بارينغتون».

ثم أخرج هوغو من جيبه علبة جلدية صغيرة، وقدّم لها خاتم خطوبة اشتراه بصورة مؤقتة في اليوم السابق من بورلينغتون أركاد. وافقت على عرضه الزواج منها فوراً، غير أنه كان ينوي إعادة الخاتم إلى المتجر خلال فترة ستة أشهر.

بدا له وكأن الأوبرا قد استمرت لمدة ثلاثة أشهر بدلاً من الساعات الثلاث المذكورة في البرنامج. إلا أن هوغو لم يتذمر؛ لأنه عرف أن توبي يستفيد من الوقت جيداً.

وخلال تناولهما العشاء في ريفر روم، تناقش هوغو وأولغا حول المكان الذي سيُمضيان فيه شهر العسل؛ لأنهما لا يستطيعان السفر إلى الخارج. وقد فضّلت أولغا منطقة باث؛ القريبة جداً من بريستول بحسب رأي هوغو. ولكن بما أن الأمر لن يحدث أبداً، وافق هوغو على اقتراحها بسرور.

وفيما كانا في سيارة الأجرة عائدين إلى ساحة لاوندوس، راح هوغو يتساءل عن مقدار الوقت الذي سيمضي قبل أن تكتشف أولغا أن مجوهراتها مسروقة. إلا أن ذلك حصل أسرع مما توقع؛ لأنهما ما إن فتحا باب الشقة، حتّى وجدا الفوضى تعم المكان كله. وكل ما بقي على الجدران حيث كانت اللوحات معلقة سابقاً هو حدود واضحة تشير إلى حجم تلك اللوحات.

وفيما انفجرت أولغا في نوبة هستيريا، رفع هوغو الهاتف واتصل بالرقم 999. احتاجت الشرطة إلى ساعات عدة لإعداد جردة بكل ما هو ناقص؛ لأن أولغا لم تستطع الحفاظ على رباطة جأشها لأكثر من بضع لحظات متتالية للإجابة عن أسئلتهم. وقد أكد لهما كبير المحققين المسؤول عن القضية أن تفاصيل الأغراض المسروقة ستعمم على كل تجار الألماس واللوحات الفنية في لندن خلال ثماني وأربعين ساعة.

كاد يُغمى على هوغو عندما التقى توبي دانستايبل في فولهام بعد ظهر اليوم التالي. فرفيقه من أيام المدرسة بدا هادئاً جداً مثل الملاكم المحنّك. وعندما هدأ هوغو أخيراً، دفع توبي نحوه على الطاولة علبة أحذية.

فصرخ هوغو: «لا أحتاج إلى حذاء جديد».

عندها، قال صديقه وهو ينقر على العلبة: «ربما لا. ولكنك ستتمكن من شراء متجر أحذية بما هو موجود هنا».

وعلى الفور، رفع هوغو الغطاء وحدّق إلى العلبة، فوجد أنها لم تكن تحتوي على حذاء، وإنما على أوراق نقدية من فئة خمسة باوندات.

قال توبي: «لا تزعج نفسك في عدّها. ستجد هنا عشرة آلاف باوند نقداً».

عندها، ابتسم هوغو وقد استعاد هدوءه مجدداً وقال: «أنت صديق جيد». ثم أعاد الغطاء إلى مكانه، وطلب كأساً آخر من الشراب.

ومع مرور الأسابيع وإخفاق الشرطة في التوصل إلى أي مشتبه به، أكّد كبير المحققين لهوغو أن السرقة ناجمة عن عملية داخلية برأيه،

واستمر في تكرار هذا التعبير كلما التقيا. إلا أن توبي أكد له أنهم لن يفكروا أبداً في اعتقال ابن السير والتر بارينغتون إلا إذا كان لديهم دليل ثابت يقنع القاضي بشكل قاطع.

وذات يوم، سألت أولغا هوغو عن مصدر بذلاته الجديدة، وعن كيفية تمكّنه من شراء سيارة بوغاتي. فأظهر لها دفتر السيارة الذي يؤكد أنها كانت ملكه قبل أن يلتقيا، إلا أنه لم يخبرها بأنه كان محظوظاً لأن التاجر الذي باعه إياها لا يزال يحتفظ بها.

ومع اقتراب الفترة التي يفترض فيها صدور حكم الطلاق النهائي، بدأ هوغو يستعد لما يسمونه استراتيجية الهروب في الدوائر العسكرية. لكن عندئذ، أخبرته أولغا بأنها تريد أن تشاركه خبراً مذهلاً.

قال ويلنغتون ذات مرة لضابط صغير إن التوقيت هو كل شيء في الحياة، فمن يكون هوغو ليعارض المنتصر في معركة واترلو؛ لاسيما وأن حكمة ذلك الرجل العظيم ستنطبق عليه؟

كان يقرأ صحيفة تايمز أثناء الفطور، وعندما انتقل إلى صفحة الوفيات رأى صورة لوالده تحدق إليه. حاول قراءة الخبر من دون أن تكتشف أولغا أن حياتهما على وشك أن تتغير.

برأي هوغو، إن موت الرجل العجوز أمر جيّد. لكن الفقرة الأخيرة من الخبر المكتوب كانت أكثر ما لفت انتباهه. سيرث لقب السير والتر بارينغتون ابنه الوحيد الباقي على قيد الحياة، هوغو.

إلا أن جريدة التايمز لم تضف عبارة وكل ما ينطوي عليه ذلك اللقب.

مايزي كليفتون

1942-1939

25

لا تزال مايزي تذكر الألم الذي شعرت به عندما لم يعد زوجها إلى المنزل بعد انتهاء دوام عمله المسائي. حينها عرفت أن آرثر قد مات، رغم مرور سنوات طويلة قبل أن يعترف لها أخوها ستان بحقيقة ما حصل لزوجها في حوض السفن بعد ظهر ذلك اليوم، ويؤكّد شكوكها.

لكن ذلك الألم لا يمكن مقارنته أبداً بما شعرت به حين قيل لها إن ابنها الوحيد قد دفن في البحر بعد تعرّض سفينة ديفونيان لصاروخ ألماني؛ بعد ساعات قليلة من إعلان الحرب.

لا تزال مايزي تذكر آخر مرة رأت فيها هاري. فقد جاء لزيارتها في فندق غراند صباح يوم خميس. حينها كان المطعم مزدحماً، وكان هناك رتل طويل من الزبائن الذين ينتظرون أدوارهم للجلوس وتناول الطعام. وقف في الرتل، ولكنه عندما رأى أمه تدخل المطبخ وتخرج منه من دون أن تبدّد لحظة واحدة، انسحب بعيداً مفترضاً أنها لم تلاحظه. لطالما كان ولداً عميق التفكير، وقد عرف أنها لن توافق على مقاطعته عملها، وأنه إذا أراد إخبارها الحقيقة، فلن ترغب في سماع أنه ترك أوكسفورد للانضمام إلى الأسطول البحري.

في اليوم التالي، زارها السير والتر بارينغتون لإبلاغها بأن هاري أبحر في الصباح الباكر على متن السفينة إس إس ديفونيان بصفته مسؤولاً رابعاً فيها، وأنه سوف يعود بعد شهر للانضمام إلى أسطول السفينة

ريزوليوشن بصفته بحاراً عادياً؛ إذ ينوي الانطلاق بحثاً عن الغواصات الألمانية في المحيط الأطلسي. ولكنه لم يدرك أنهم بدأوا يبحثون عنه أصلاً.

أرادت مايزي أن تأخذ يوم إجازة حين يعود هاري، لكنّ هذا لم يحصل قطّ. ولم تساعدها إطلاقاً معرفتها أن العديد من الأمهات الأخريات خسرن أولادهن بسبب هذه الحرب الوحشية والبربرية.

وعندما أنهت عملها وعادت إلى المنزل مساء ذلك اليوم من شهر أكتوبر، كان الدكتور والاس- الطبيب المسؤول في سفينة إس إس كنساس ستار- ينتظرها أمام الباب الأمامي لمنزل ستيل هاوس لاين. لم يكن هناك داعٍ لكي يخبرها عن سبب وجوده؛ إذ إن الخبر كان جلياً على وجهه.

جلسا في المطبخ، وأخبرها الطبيب أنه كان مسؤولاً عن صحة أولئك البحارة الذين تم انتشالهم من المحيط بعد غرق السفينة ديفونيان. وأكّد لها أنه بذل كل ما بوسعه لإنقاذ حياة هاري، ولكنه لم يستعد وعيه قط لسوء الحظ. في الواقع، من بين البحارة التسعة الذين عالجهم تلك الليلة، ثمة بحار واحد بقي على قيد الحياة، وهو توم برادشو؛ المسؤول الثالث في سفينة ديفونيان الذي كان صديقاً لهاري. لذا، كتب لها برادشو رسالة تعزية، ووعده الدكتور والاس بتسليمها للسيدة كليفتون فور عودة السفينة كنساس ستار إلى بريستول. وقد وفى بوعده. أحست مايزي بالذنب لحظة غادر الطبيب للعودة إلى سفينته، لأنها لم تعرض عليه حتى كوباً من الشاي.

وضعت رسالة توم برادشو على المدفأة قرب صورتها المفضلة لهاري حين كان في جوقة المدرسة.

وعندما عادت إلى العمل في اليوم التالي، كان زملاؤها في الفندق لطفاء ومتفهمين، واقترح عليها السيد هورست- مدير الفندق- أن تحصل على إجازة لبضعة أيام، فأخبرته بأنها لا تريد ذلك أبداً. بل على العكس، إذ عملت ساعات إضافية قدر المستطاع؛ على أمل على أن يخفف ذلك من حدّة ألمها.

لكنه لم يفعل.

العديد من الرجال الذين عملوا في الفندق غادروا للانضمام إلى القوى المسلحة، وحلّت النساء محلّهم. وفي ذلك الحين، لم يعد ذهاب المرأة إلى العمل أمراً معيباً، ووجدت مايزي نفسها تتحمل المزيد والمزيد من المسؤوليات مع تضاؤل عدد الموظفين الذكور.

كان مدير المطعم على وشك التقاعد في ذكرى ميلاده الستين، لكن مايزي افترضت أن السيد هورست سيطلب منه البقاء في عمله حتى نهاية الحرب. ولذلك، صُدِمت كثيراً عندما استدعاها إلى مكتبه وعرض عليها الوظيفة.

وقد قال لها: «أنت تستحقين المنصب يا مايزي. ويوافقني الرأيَ المكتب الرئيس».

فأجابت قبل أن تغادر المكتب: «أريد يومين للتفكير في الأمر».

لم يتطرق السيد هورست إلى الموضوع مجدداً طوال أسبوع كامل، وعندما تطرق إليه أخيراً، اقترحت مايزي أن تتم تجربتها لمدة شهر أولاً، فضحك.

ثم قال لها: «يفترض بالمدير، وليس بالموظف، أن يصرّ على شهر التجربة».

وخلال أسبوع، نسيا كلاهما مسألة شهر التجربة؛ لأنه رغم الساعات الطويلة والمسؤوليات الكبيرة، شعرت مايزي بالكثير من الرضى. وعرفت أنه حين تنتهي الحرب ويعود الرجال من الجبهة، ستعود نادلة مجدداً. لا بل كانت مستعدة للعودة إلى العمل مع إيدي لو كان هاري من بين الذين سيعودون إلى المنزل.

لم تحتج مايزي إلى قراءة الجريدة لتعرف أن السلاح الجوي الياباني قد دمّر الأسطول الأميركي في بيرل هاربور، وأن الأميركيين انتفضوا دفعة واحدة لمواجهة عدو مشترك، فانضموا إلى الحلفاء؛ إذ ظلّ هذا الموضوع يتردد على ألسنة الجميع لعدة أيام.

ولم يمضِ وقت طويل قبل أن تتعرف مايزي إلى أول أميركي.

بعد ذلك، جاء آلاف الأميركيين إلى ويست كاونتري خلال العامين التاليين، واستقر العديدون منهم في معسكر حربي في ضواحي بريستول. بدأ بعض الضباط يتناولون الطعام في مطعم الفندق، ولكنهم حين يصبحون زبائن منتظمين يختفون، ولا يظهر لهم أي أثر مجدداً. وتذكرت مايزي أن بعضهم ما كانوا أكبر سناً من هاري.

إلا أنّ الأمر تبدل عندما عاد واحد منهم. لم تتعرف عليه مايزي على الفور عندما دخل المطعم على كرسي متحرك وطلب طاولته الاعتيادية. ولطالما اعتقدت نفسها بارعة في حفظ الأسماء، ولا سيما الوجوه؛ فهذا أمر ضروري حين يعجز المرء عن القراءة والكتابة. لكنها ما إن سمعت

تلك اللكنة الجنوبية حتى عرفته فوراً. «أنت الملازم مولهولاند، أليس كذلك؟».

«لا يا سيدة كليفتون. أنا الرائد مولهولاند الآن؛ فقد تمّت ترقيتي، وأُعِدتُ إلى هنا للتعافي قبل عودتي مجدداً إلى وطني في كارولينا الشمالية».

فابتسمت مايزي، وعرضت عليه طاولته الاعتيادية؛ رغم أنه لم يسمح لها بمساعدته في تحريك كرسيه المتحرك. مايك، مثلما أصرّ أن تناديه مايزي، أصبح زبوناً منتظماً، وكان يأتي إلى المطعم مرتين أو حتى ثلاث مرات أسبوعياً.

وقد ضحكت مايزي عندما قال لها السيد هورست: «هل تعلمين أنه مغرم بك؟».

فأجابته: «أعتقد أن أيام مغازلتي قد ولّت».

عندها، قال لها: «لا تقلّلي من شأن نفسك؛ فأنت في عزّ الشباب يا مايزي. وأؤكد لك أن الرائد مولهولاند ليس أول رجل يسألني إن كنت تخرجين مع أحد».

«حاول ألا تنسى يا سيد هورست أنني جدة».

فقال المدير: «ما كنت لأخبره بذلك لو كنت مكانك».

لم تتعرف مايزي إلى الرائد مجدداً عندما جاء ذات مساء مستعملاً عكّازين بعد تخلّيه عن الكرسي المتحرك. ثم مرّ شهر آخر، وتم استبدال العكّازين بعصا. ولم يمضِ وقت طويل قبل أن يصبح كل ذلك من الماضي.

ذات مساء، اتصل الرائد مولهولاند لحجز طاولة لثمانية أشخاص، وقال لمايزي إنه يريد الاحتفال بشيء ما، فافترضت أنه عائد إلى كارولينا الشمالية، وأدركت للمرة الأولى أنها ستشتاق إليه.

لم تكن تعتبر مايك رجلاً وسيماً، ولكنه صاحب أروع ابتسامة، فضلاً عن أسلوب الجنتلمان الإنكليزي الذي يتّصف به، أو مثلما قال ذات مرة الجنتلمان الجنوبي.

كان قد بات أمراً شائعاً التكلم عن الأميركيين بالسوء منذ استقرارهم في قواعدهم العسكرية في بريطانيا. وقد تداولت ألسنة العديد من أهالي بريستول الذين لم يلتقوا من قبل أميركياً قط أنهم غالباً ما يفرطون في الجنس، ويفرطون في الحصول على المال. على الأقل، كان هذا رأي شقيقها ستان، وما من شيء قالته استطاع تبديل رأيه ذاك.

وعندما انتهى العشاء الاحتفالي للرائد، بات المطعم خالياً تقريباً. وعند الساعة العاشرة، وقف ضابط ليشرب نخب صحة مايك ولتهنئته.

وفيما كان المدعوون على وشك المغادرة والعودة إلى المعسكر قبل حظر التجول، أخبرته مايزي- نيابة عن كل الموظفين- عن مدى سرورهم لأنهم استعادوا جميعاً عافيتهم، وباتوا بخير للعودة إلى وطنهم.

فقال ضاحكاً: «لن أعود إلى وطني يا مايزي. فنحن نحتفل بترقيتي إلى منصب نائب قائد المعسكر. وأخشى أنك ستستمرين في رؤيتي إلى حين انتهاء هذه الحرب». فرحت مايزي بالخبر، وتفاجأت حين أضاف: «ثمة حفلة راقصة يوم السبت المقبل، وأتساءل إن كنت ستشرفينني بأن تكوني ضيفتي».

عندها، عجزت مايزي عن الكلام. فهي لا تذكر آخر مرة طلب منها أحدهم الخروج معه. لا تعرف لكم من الوقت وقف هناك منتظراً جوابها، ولكنها قبل أن تجيب قال: «أخشى أنها المرة الأولى التي سأذهب فيها إلى حفلة راقصة منذ أعوام عدة».

فاعترفت مايزي: «وأنا أيضاً».

26

تضع مايزي دوماً كل أجرتها والبقشيش الذي تحصل عليه في المصرف بعد ظهر يوم الجمعة،

ولا تأخذ أي مبلغ من المال معها إلى المنزل؛ لأنها لا تريد أن يكتشف ستان أنها تجني مالاً أكثر منه. كان حساباها دوماً فائضين. وكلما أظهر الحساب الجاري رصيداً من عشرة باوندات، كان يتم تحويل خمسة باوندات إلى حساب المدخرات؛ عشها الصغير مثلما تسمّيه، للحالات الطارئة. فبعد مشكلتها المالية مع هوغو بارينغتون، صارت تفترض دوماً إمكانية حدوث خطب ما.

يوم الجمعة، أفرغت محتويات محفظتها على الرف، فبدأ الموظف المصرفي يحصي النقود المعدنية المُجمّعة في كومات صغيرة مرتبة؛ مثلما يفعل كل أسبوع.

ثم قال لها: «إنها أربعة شلنات وتسعة سنتات يا سيدة كليفتون». ودوّن المبلغ على دفتر حسابها.

فقالت له مايزي حين أعاد إليها الدفتر من تحت المصبع الحديدي: «شكراً لك». وكانت تضع الدفتر في حقيبتها عندما أضاف: «السيد برندرغاست يتساءل إذا كان بوسعه التكلم معك».

وعلى الفور، خفق قلب مايزي. فهي تعتبر مديري المصارف وجُباة الإيجارات بمثابة أشخاص ينقلون دوماً الأخبار السيئة، ولديها سبب

وجيه مع السيد برندرغاست؛ لأنه عندما رآها آخر مرة فعل ذلك لتذكيرها بعدم وجود اعتمادات كافية في حسابها لتغطية تكاليف هاري في فصله الأخير في مدرسة بريستول للقواعد. لذا، توجّهت إلى مكتب المدير على مضض.

قال السيد برندرغاست فيما نهض من خلف مكتبه بعدما دخلت مايزي الغرفة: «صباح الخير يا سيدة كليفتون». ثم أشار إلى المقعد عارضاً عليها الجلوس وتابع: «أردت التكلم معك في مسألة خاصة».

عندها، شعرت مايزي بالمزيد من القلق، وحاولت أن تتذكر ما إذا كانت قد كتبت أي شيكات في الأسابيع القليلة الماضية حيث بات حسابها مكشوفاً. فقد اشترت فستاناً للحفلة الراقصة التي دعاها إليها مايك مولهولاند في الثكنة الأميركية، لكن الفستان مستعمل وسعره ضمن ميزانيتها.

تابع السيد برندرغاست كلامه قائلاً: «ثمة زبون مهم للمصرف استفسر عن حصتك في شارع برود ستريت، حيث كان مقهى تيلي في السابق».

«لكنني افترضت أنني خسرت كل شيء عندما تعرّض المبنى للتفجير!».

فقال برندرغاست: «ليس كل شيء. فصكوك الأرض لا تزال باسمك».

عندها سألته مايزي: «وكم يمكن أن تساوي بعد أن دمر الألمان معظم المنطقة!؟ فعندما ذهبت إلى شارع شابل مؤخراً، بدا المكان مدمراً بالكامل».

أجاب السيد برندرغاست: «هذا صحيح. لكن زبوني لا يزال راغباً في عرض مئتَي باوند عليك مقابل الأرض».

فكررت مايزي كلامه كما لو أنها ربحت الجائزة الكبرى: «عرض مئتي باوند؟!».

أكد لها السيد برندرغاست: «هذا هو المبلغ الذي يريد دفعه».

فجأة، سألت مايزي: «كم تساوي الأرض برأيك؟». ففاجأت بذلك مدير المصرف.

أجاب: «لا أعرف يا سيدتي. فأنا مصرفي، ولست مخمّن عقارات».

بقيت مايزي صامتة بضع لحظات، ثم قالت له: «أرجوك، أخبر زبونك أنّني بحاجة إلى بضعة أيام للتفكير في الأمر».

فقال برندرغاست: «نعم طبعاً. لكن أريدك أن تعلمي أن زبوني طلب مني تقديم العرض لأسبوع واحد فقط».

عندها، أجابت مايزي بتحدٍّ: «إذاً، سأتخذ قراري يوم الجمعة المقبل، أليس كذلك؟».

فقال برندرغاست: «مثلما تريدين يا سيدتي». وفيما نهضت مايزي للمغادرة، تابع قائلاً: «أتطلع لرؤيتك يوم الجمعة القادم».

وبعد أن غادرت مايزي المصرف، لم تكفّ عن التفكير في أن مدير المصرف لم ينادِها سيدتي مطلقاً من قبل. وخلال طريق العودة إلى المنزل، مرّت أمام منازل ذات ستائر سوداء- فهي لا تستقل الحافلة إلا عند هطول المطر- وراحت تفكر في كيفية إنفاقها مبلغ مئتي باوند. لكنّ تلك

الأفكار استُبدِلت سريعاً بالتساؤل حول من يمكنه أن ينصحها في ما يتعلّق بالمبلغ الذي تستحقه الأرض.

جعل السيد برندرغاست العرض يبدو منطقياً، لكن إلى أي جانب يقف!؟ ربّما عليها التكلم مع السيد هورست. لكن قبل أن تصل إلى ستيل هاوس لاين، قررت أنه من غير المنطقي إقحام مديرها في مسألة شخصية. بدا لها مايك مولهولاند رجلاً ذكياً، لكن ماذا يعرف عن قيمة الأرض في بريستول؟ وبالنسبة إلى أخيها ستان، لا جدوى أبداً من سؤاله عن رأيه، لأنه سيقول لها حتماً: «خذي المال أيتها الفتاة واهربي». وعند التفكير في الأمر ملياً، إن أخاها ستان آخر شخص تريده أن يعرف أي شيء عن أمورها المادية.

عندما وصلت مايزي إلى ميريوود لاين كان الظلام قد حلّ، فبدأ السكان يستعدون للمكوث في منازلهم. لم تفلح بعد في حل المشكلة. وعندما مرّت أمام بوابة مدرسة هاري الابتدائية القديمة، عاد إليها دفق من الذكريات، وشكرت بصمت السيد هولكومب على كل ما فعله لابنها خلال فترة نموه. ثم توقفت في مكانها؛ فالسيد هولكومب رجل ذكي. ففي النهاية، لقد ذهب إلى جامعة بريستول، ونال منها شهادة. ترى، هل يستطيع تقديم النصيحة لها؟

عادت مايزي أدراجها، وتوجّهت نحو بوابة المدرسة. ولكنها عندما دخلت الملعب، لم يكن هناك أحد. تحققت من ساعتها، فوجدتها تشير إلى الخامسة وبضع دقائق. عاد كل الأولاد إلى منازلهم، ويفترض أن السيد هولكومب قد غادر أيضاً.

مشت في الملعب، وفتحت باب المدرسة الرئيس، فأصبحت في رواق مألوف. بدا لها وكأن الزمن قد توقف. فالجدران القرميدية الحمراء هي نفسها، واللوحات الملونة نفسها معلقةٌ على الجدار؛ غير أنّها تحمل توقيع أولاد مختلفين، كما أنّ كؤوس كرة القدم هي نفسها، وإنما ربحها فريق آخر. لكن حيث كانت قبعات المدرسة سابقاً، باتت هناك الآن الأقنعة الواقية من الغازو. تذكرت مايزي المرة الأولى التي جاءت فيها لرؤية السيد هولكومب للتذمر بشأن العلامات الحمراء التي وجدتها على ظهر هاري في وقت الاستحمام. عندها بقي هادئاً، فيما فقدت أعصابها. وبعد ساعة، غادرت مايزي المكتب وهي تدرك تماماً من المذنب.

لاحظت مايزي ضوءاً يتسلل من تحت باب صف السيد هولكومب. ترددت قليلاً، ثم أخذت نفساً عميقاً وطرقت على الزجاج بهدوء.

فقال الصوت المرح الذي تذكرته بوضوح: «تفضّل».

دخلت غرفة الصف فوجدت السيد هولكومب جالساً وراء كومة كبيرة من الكتب، يكتب بالقلم على الورق. كانت على وشك تذكيره بنفسها عندما نهض قائلاً: «يا لها من مفاجأة جميلة يا سيدة كليفتون، وخصوصاً إذا كنتُ أنا من تبحثين عنه».

فأجابت مايزي وهي تشعر ببعض الخجل: «نعم، هذا صحيح. آسفة لإزعاجك يا سيد هولكومب، ولكنني أحتاج إلى نصيحة، ولم أعرف إلى من ألجأ».

فقال مدير المدرسة: «يا لحسن حظي! كيف أستطيع المساعدة؟». وعرض عليها كرسياً صغيراً مخصصاً عادة لابن ثمانية أعوام.

عندها، أخبرته مايزي عن لقائها بالسيد برندرغاست، وكيف أنه عرض عليها مئتي باوند مقابل قطعة الأرض الخاصة بها في برود ستريت، ثم سألته: «هل تعتقد أن السعر عادل؟».

فأجاب السيد هولكومب وهو يهزّ رأسه: «لا أعرف. لا أملك أية خبرة في مثل هذه الأمور، وأخشى أن أسديك نصيحة سيئة. في الواقع، اعتقدت أنك جئت لرؤيتي بخصوص مسألة أخرى».

فكررت مايزي: «مسألة أخرى!».

«نعم. اعتقدت أنك رأيت الإعلان المعلق على اللوح خارج المدرسة، وأردتِ التقدم بطلب».

سألته: «التقدم بطلب! لِمَ؟».

«لأحد البرامج الحكومية الجديدة للصفوف المسائية، وهي مخصصة لمساعدة أشخاص مثلك؛ هم في الواقع أذكياء، ولكن لم تتح لهم فرصة متابعة تعليمهم».

لم تشأ مايزي الاعتراف بأنها حتى لو رأت الإعلان، فإنها تعجز عن قراءته. «لديّ الكثير من العمل، ويصعب علي التفكير في القيام بشيء آخر في الوقت الحاضر. هناك العمل و...»

عندها قال السيد هولكومب: «آسف لسماع ذلك؛ لأنني أعتقد أنك مرشحة مثالية. سوف أعطي معظم الصفوف بنفسي، وسأكون مسروراً كثيراً لو علّمت والدة هاري كليفتون».

«المشكلة هي أن...»

غير أنّه تابع كلامه رافضاً الاستسلام: «ستكون الدروس لمدة ساعة واحدة، مرتين أسبوعياً. الصفوف في المساء، ولا شيء يمنعك من الانسحاب إذا وجدت أن الصفوف غير مناسبة لك».

«لطف منك التفكير بي يا سيد هولكومب. قد أفعل ذلك ربما حين تتضاءل واجباتي». ثم نهضت وصافحت مدير المدرسة.

فقال لها وهو يرافقها إلى الباب: «آسف لأنني لم أستطع مساعدتك في حل مشكلتك يا سيدة كليفتون، ولكنها مشكلة جميلة».

فأجابت مايزي قبل أن تغادر: «لطف منك أن تُخصّص لي جزءاً من وقتك يا سيد هولكومب». ثم مشت في الرواق، واجتازت الملعب، قبل أن تخرج من بوابة المدرسة. وقفت على الرصيف، وحدّقت إلى لوح الإعلانات، وتمنت لو أنها تستطيع القراءة.

27

استقلت مايزي سيارة الأجرة مرتين فقط في حياتها: مرة لحضور زفاف هاري في أوكسفورد، ويومها استقلّتها من المحطة المحلية. والمرة الثانية حصلت مؤخراً، عندما حضرت دفن والدها. لذا، عندما توقفت سيارة أميركية أمام 27 ستيل هاوس لاين، شعرت بالقليل من الإحراج، وأملت أن يكون الجيران قد أسدلوا ستائرهم.

وعندما نزلت السلالم مرتدية فستانها الأحمر الحريري ذا الكتفين المحشوتين والحزام عند الخصر- وهي موضة رائجة جداً قبل الحرب- لمحت أمها وستان يحدقان إليها من النافذة.

كان السائق قد خرج من السيارة وطرق على الباب الأمامي، وبدا غير واثق من أنه وصل إلى العنوان الصحيح. لكن عندما فتحت له مايزي الباب، فهم فوراً سبب دعوة الرائد هذه السيدة الجميلة إلى الحفلة الراقصة. انحنى أمام مايزي احتراماً، ثم فتح لها الباب الخلفي للسيارة.

فقالت له: «شكراً لك، لكنني أفضل الجلوس في الأمام».

وبعد أن وجد السائق طريقه إلى الشارع الرئيس، سألته مايزي عن الفترة الزمنية التي مضت على عمله مع الرائد مولهولاند.

«طوال حياتي يا سيدتي. الرجل والصبي».

فقالت مايزي: «لم أفهم».

«كلانا من راليغ، في كارولينا الشمالية. وعندما تنتهي هذه الحرب، سأعود إلى وطني، وإلى وظيفتي القديمة في مصنع الرائد».

«لم أكن أعرف أن الرائد يملك مصنعاً».

«إنه يملك العديد منها يا سيدتي. وهو معروف في راليغ بملك عرانيس الذرة».

سألت مايزي: «عرانيس الذرة!».

«أنتِ لم تري شيئاً مثلها في بريستول يا سيدتي. وللاستمتاع فعلاً بعرانيس الذرة، لا بد من سلقها، ودهنها بالزبدة وتناولها على الفور؛ ومن الأفضل في كارولينا الشمالية».

«ومن الذي يُدير المصانع الآن فيما ملك عرانيس الذرة بعيد ويحارب الألمان؟».

«الصغير جوي؛ ابنه الثاني. إنه يديرها بمساعدة أخته ساندي حسب اعتقادي».

«ألديه ابن وابنة في الوطن؟».

«كان لديه ابنان وابنة يا سيدتي، ولكنّ مايك جونيور قُتِل لسوء الحظ في الفيليبين».

أرادت مايزي أن تسأل الرقيب عن زوجة مايك، ولكنها شعرت بأن الرجل قد يشعر بالإحراج من طرح أسئلة عليه في هذا الخصوص، لذا انتقلت إلى موضوع أكثر أماناً، وسألته عن ولايته الأميركية فأجاب: «إنها الفضلى بين الولايات الثماني والأربعين». ولم يتوقف عن الحديث عن كارولينا الشمالية إلا عندما وصلا إلى بوابة المعسكر.

عندما لمح الحارس السيارة، رفع فوراً الحاجز المتحرك، وقدّم التحية لمايزي فيما دخلت السيارة أرض المعسكر. «طلب مني الرائد اصطحابك فوراً إلى مقره يا سيدتي؛ لتتناولي معه كأساً من الشراب قبل الذهاب إلى الحفلة الراقصة».

توقفت السيارة أمام منزل خشبي صغير، ولمحت مايك واقفاً على العتبة في انتظارها. خرجت من السيارة قبل أن يفتح لها السائق الباب، وتوجّهت نحوه بسرعة، فانحنى وقبّلها على وجنتها وقال: «تعالي يا عزيزتي، أريدك أن تتعرفي على بعض زملائي». ثم أخذ معطفها وأضاف: «تبدين رائعة».

فقالت مايزي: «أتعني مثل أحد عرانيس الذرة؟».

فقال: «بل مثل المشمش المشهور في كارولينا الشمالية». ورافقها إلى غرفة تضجّ بالأصوات ومليئة بالضحك والأصوات الحيوية، ثم قال: «والآن، فلنجعل الجميع غيورين؛ لأنهم سيكتشفون أنني برفقة جميلة الحفلة».

دخلت مايزي غرفة مليئة بالضباط ورفيقاتهم، ولم تشعر يوماً بترحيب أكبر مما شعرت به حينها. وراحت تتساءل إن كانت ستحظى بالمعاملة نفسها لو أنها ضيفة رائد إنكليزي على مسافة أميال قليلة في المقر الرئيس لفوج ويسيكس.

رافقها مايك في الغرفة، وعرّفها على زملائه؛ بمن فيهم قائد المعسكر الذي نالت استحسانه بوضوح. وفيما انتقلت من مجموعة إلى أخرى، لاحظت العديد من الصور الفوتوغرافية المنتشرة في أرجاء الغرفة؛ على

الطاولات والرفوف والمدفأة، وفيها على ما يبدو تظهر زوجة مايك وأولاده.

مباشرة بعد الساعة التاسعة، انتقل الضيوف إلى القاعة الرياضية حيث تُقام الحفلة الراقصة، وإنما بعدما قام صاحب الدعوة بمساعدة كل السيدات على ارتداء معاطفهن. وقد منح ذلك مايزي الفرصة للنظر عن كثب أكبر إلى الصور الفوتوغرافية لامرأة شابة جميلة.

قال مايك حين عاد إلى الغرفة: «إنها زوجتي أبيغايل، وقد كانت جميلة مثلك. ما زلت أشتاق إليها. توفيت بمرض السرطان قبل خمسة أعوام تقريباً. وهذا مرض يجدر بنا جميعاً إعلان الحرب عليه».

عندها قالت مايزي: «أنا آسفة. لم أقصد...»

«لا، لقد اكتشفت للتو كم نملك الكثير من الأمور المشتركة. أفهم شعورك بالضبط؛ إذ خسرت زوجك وابنك. لكن، اللعنة، نحن هنا هذه الليلة للاحتفال، وليس للتأسف على أحوالنا. هيا يا عزيزتي، فقد جعلتِ كل الضباط غيّورين، والآن فلنجعل بقية المعسكر مجنوناً».

عندها، ضحكت مايزي وهي تُمسك بذراعه. غادرا المنزل، وانضما إلى رتل من الشباب الذين كانوا متوجهين جميعاً إلى المكان نفسه.

وعندما وصلت إلى الحفلة الراقصة، نجح الأميركيون الشباب في جعل مايزي تشعر كما لو أنها كانت تعرفهم طوال حياتها. وخلال السهرة، دعاها العديد من الضباط للرقص معهم، لكنّ مايك نادراً ما جعلها تبتعد عن ناظريه. وعندما عزفت الفرقة موسيقى الفالز للمرة الأخيرة، تفاجأت من انتهاء السهرة بسرعة.

وبعدما توقّف التصفيق، بقي الجميع واقفين في حلبة الرقص. عزفت الفرقة عدداً من المقاطع الموسيقية غير المألوفة بالنسبة إلى مايزي، ولكنها ذكرت جميع من في الغرفة بأن بلدهم في حالة حرب. إلا أن العديد من الشباب الذين وقفوا متأهبين، وواضعين أيديهم على قلوبهم وهم ينشدون النشيد الوطني، لن يبقوا ربما على قيد الحياة للاحتفال بذكرى ميلادهم التالية؛ تماماً مثل هاري. وفكّرت مايزي في سرّها بأن هذا هدر غير ضروري للحياة!

وفيما خرجا من قاعة الرقص، اقترح عليها مايك أن يعودا إلى منزله للاستمتاع بكأس قبل أن يعيدها الرقيب إلى منزلها. كانت تلك الكأس هي الأولى التي تشربها مايزي من ذلك النوع من الشراب في حياتها، وقد نجح الشراب في تحرير لسانها بسرعة.

لذا، قالت بعد أن استقرت على الأريكة ومُلِأت كأسها مجدداً: «مايك، لديّ مشكلة. وبما أنني أملك أسبوعاً واحداً فقط لحلها، أردت الاستعانة بك».

قال مايك: «هيّا يا عزيزتي. لكنني أحذرك من أنه في حال تورّط رجال إنكليز في الأمر فلن أتمكن أبداً من التعاطي معهم. في الواقع، أنت أول شخص أشعر بالارتياح معه. هل أنت واثقة من أنك لست أميركية؟».

فضحكت مايزي وقالت: «كم أنت لطيف يا مايك». ثم تناولت جرعة أخرى من الشراب، وشعرت هذه المرة أنها مستعدة لإخباره بمشكلتها الفورية. «بدأت القصة قبل عدة أعوام؛ عندما امتلكت مقهى

في برود ستريت، وكان اسمه تيلي. وقد تحوّل الآن إلى أرض مدمرة، لكن هناك شخص يعرض عليّ مبلغ مئتي باوند للحصول عليه».

سأل مايك: «إذاً، أين المشكلة؟».

«لا أعرف القيمة الفعلية للأرض».

«حسناً، ثمة أمر أكيد؛ وهو أنه طالما أن هناك فرصة لعودة الألمان ومتابعتهم قصفهم، فلن يحاول أحد تشييد أي شيء في ذلك الموقع؛ على الأقل حتى انتهاء الحرب».

«قال السيد برندرغاست إن زبونه مخمّن عقارات».

قال مايك: «يبدو لي أكثر كشخص استغلالي؛ فهو يرغب في شراء أرض مهدمة بسعر زهيد. وعندما تنتهي الحرب، سيتمكن من تحقيق ربح كبير. بصراحة، أعتقد أن هذا النوع من الأشخاص مستعد لفعل أي شيء لتحقيق ربح سريع».

«لكن، ألا يحتمل أن يكون مبلغ مئتي باوند سعراً معقولاً؟».

«حسب القيمة المضافة».

عندها، جلست مايزي منتصبة، وهي غير واثقة من أنها سمعته بشكل جيّد. «لا أفهم ما قصدته».

«تقولين إن كل شارع برود ستريت مهدم، ولم يصمد أي مبنى».

«صحيح. لكن، ما الذي يجعل أرضي الصغيرة أكثر أهمية؟».

«إذا اشترى ذلك الرجل كل الأراضي الأخرى في الشارع، فستكونين في موقع قوي للتفاوض. في الواقع، يجدر بك طلب الكثير من المال؛ لأن

أرضك قد تكون الوحيدة التي لم يمتلكها بعد، والتي ستمنعه من إعادة بناء الشارع كله، رغم أن هذا آخر ما قد يرغب في إطلاعك عليه حتماً».

«وكيف بإمكاني أن أكتشف القيمة المضافة لموقعي الصغير؟».

«قولي لمدير المصرف إنك لن تقبلي بأقل من أربعمئة باوند، وستعرفين الجواب سريعاً».

فقالت مايزي: «شكراً لك يا مايك. هذه نصيحة جيدة». ثم ابتسمت وتناولت رشفة أخرى من الشراب فأغمي عليها بين ذراعيه.

28

عندما نزلت مايزي لتناول الفطور في صباح اليوم التالي، لم تتذكر من أوصلها إلى المنزل، أو كيف صعدت إلى غرفتها.

فقالت لها والدتها فيما سكبت لها الشاي: «وضعتك في السرير بنفسي. فقد أوصلك رقيب شاب؛ حتّى إنّه ساعدني في نقلك إلى غرفتك».

انهارت مايزي جالسة على كرسيها، ثم راحت تخبر أمها ببطء بما حصل معها خلال السهرة، وشيئاً فشيئاً بدأت تدرك كم استمتعت برفقة مايك.

سألتها أمها: «هل أنت واثقة بأنه غير متزوج؟».

«توقفي عن هذا يا أمي. إنه أول موعد لنا».

«هل بدا متحمساً؟».

قالت: «أعتقد أنه دعاني إلى المسرح في الأسبوع المقبل، ولكنني لا أعرف أي يوم، أو أي مسرح». وفي تلك اللحظة، دخل أخوها ستان الغرفة.

جلس ستان عند طرف الطاولة، وانتظر وضع وعاء العصيدة أمامه، قبل أن يبتلع محتوياته مثل كلب يشرب الماء في يوم حار. وعندما أنهى العصيدة، فتح قنينة شراب واحتسى ما فيها دفعة واحدة ثم قال: «سأشرب قنينة أخرى لأن اليوم هو الأحد». ثم تجشّأ بصوت عالٍ.

لا تتحدث مايزي أبداً خلال الطقوس الصباحية لستان، وهي عادة تذهب إلى العمل قبل أن تتاح له فرصة التعبير عن آرائه في ما يتعلّق بأي شيء يخطر في باله. لذا، نهضت عن كرسيها، وكانت على وشك المغادرة إلى دار العبادة حين صرخ: «اجلسي أيتها المرأة. أريد التكلم معك قبل أن تذهبي إلى دار العبادة!».

أرادت مايزي متابعة طريقها وعدم الاستجابة له، لكن ستان لن يتوانى عن شدها وضربها إذا أراد ذلك. لذا، جلست مجدداً.

سألها: «ماذا ستفعلين بالمئتي باوند التي ستتقاضينها؟».

«وكيف عرفت؟».

«أخبرتني أمي عن ذلك في الليلة الماضية عندما ذهبت إلى المدينة لمقابلة ذلك الرجل الأميركي».

عندها، عبست مايزي في وجه أمها التي بدت محرجة، وإنما لم تقل أي شيء. «لمعلوماتك يا ستان، إن الرائد مولهولاند جنتلمان، وما أفعله في أوقات فراغي ليس من شأنك مطلقاً».

«إذا كان أميركياً أيتها الغبية، فدعيني أحذرك: إنّهم لا ينتظرون أن يسألوا؛ إذ يظنون أن كل شيء متاح لهم».

عندها، قالت مايزي محاولة البقاء هادئة: «أنت من دون شك تتحدث استناداً إلى معلوماتك البدائية حول الموضوع».

فقال ستان: «الأميركيون كلهم متشابهون. فهم يريدون شيئاً واحداً فقط، وعندما يحصلون عليه، سيعودون إلى قواعدهم ويتركون لنا مهمة إنجاز الأمر؛ تماماً مثلما فعلوا في الحرب الأولى».

أدركت مايزي أنه لا جدوى أبداً من متابعة النقاش، لذ ا اكتفت بالجلوس هناك؛ على أمل أن تنتهي هذه العاصفة بسرعة.

قال ستان: «لم تخبريني بعد بما تنوين فعله بالمبلغ الذي ستحصلين عليه».

فأجابت مايزي: «لم أحسم أمري بعد. على أية حال، لا علاقة لك أبداً بكيفية إنفاقي مالي».

فقال ستان: «بل لي علاقة بالأمر؛ لأن نصفه لي».

عندها سألت مايزي: «وكيف توصّلت إلى هذه النتيجة؟».

«على اعتبار أنك تعيشين في منزلي، ولذلك يحقّ لي بالمال. ودعيني أحذرك أيتها الفتاة من أنك في حال فكرت في تجاهلي، ولم أحصل على حصتي، فسأضربك بشدة، وسأشوهك حيث لا ينظر إليك حتى عبد أميركي».

قالت مايزي: «أنت تشعرني بالغثيان يا ستان».

«لا يوازي ذلك ما سأجعلك تشعرين به إذا لم تعطيني المال، لأنني...»

عندها وقفت مايزي، وخرجت من المطبخ، وتوجهت إلى الردهة، وأمسكت بمعطفها، ثم خرجت من الباب الأمامي قبل أن يُنهي ستان جملته.

عندما تحققت مايزي من حجوزات الغداء ليوم الأحد، أدركت بسرعة أنه عليها جعل اثنين من زبائنها بعيدين قدر الإمكان عن بعضهما بعضاً. لذا، أجلست مايك مولهولاند إلى طاولته الاعتيادية، فيما جعلت باتريك كاسي يجلس في الجهة الأخرى من الغرفة، حيث لا تتاح لهما أبداً فرصة اللقاء.

لم تكن قد رأت باتريك منذ ثلاثة أعوام تقريباً، وتساءلت إن كان قد تغيّر. هل ما زال يملك تلك الطلة الإيرلندية الساحرة التي أسرتها عندما التقيا للمرة الأولى؟

وتلقّت جواباً عن أحد تساؤلاتها لحظة دخل الغرفة.

قالت قبل أن ترافقه إلى طاولته: «كم أنا مسرورة برؤيتك بعد مضيّ كل هذا الوقت يا سيد كاسي». نظرت عدة نساء إلى الرجل الإيرلندي الوسيم فيما اجتاز الغرفة، وسألته مايزي فيما أعطته قائمة الطعام: «هل ستمكث هنا لوقت طويل يا سيد كاسي؟».

فأجاب باتريك: «الأمر مرتبط بك». وفتح قائمة الطعام، لكنه لم ينظر إلى محتوياتها.

أملت مايزي ألا يكون أحد قد لاحظ توردها، واستدارت فرأت مايك مولهولاند ينتظر عند مكتب الاستقبال؛ فهو لا يسمح لأحد سوى مايزي بمرافقته إلى طاولته. لذا، توجّهت إليه مسرعة، وهمست: «مرحباً مايك، حجزت لك طاولتك المعتادة. هلّا ترافقني إليها».

«طبعاً».

وبعد أن حوّل مايك انتباهه إلى قائمة الطعام- رغم أنه يختار دوماً الطبقين نفسيهما كل يوم أحد؛ وهما طبق الحساء ويليه طبق العجل المسلوق مع بودينغ يوركشاير- ذهبت إلى الجهة الأخرى من الغرفة لتدوين طلب باتريك.

خلال الساعتين التاليتين، أبقت مايزي عينيها على كلا الرجلين، وحاولت في الوقت نفسه الإشراف على مئة زبون غيرهما. وعندما رنّت الساعة في قاعة الطعام معلنة أنها الثالثة، كان قد بقي شخصان فقط في غرفة الطعام. جون واين وغاري كوبر، فبدأت مايزي تتساءل عمّن سيغادر أولاً. طوت فاتورة مايك، ووضعتها على طبق ونقلتها إليه، فدفع المبلغ المستحقّ من دون التحقق منها.

وقال لها: «وجبة ممتازة»، ثم أضاف هامساً: «ألا يزال موعدنا في المسرح قائماً لليلة الثلاثاء؟».

فأجابت مايزي ممازحة: «طبعاً يا عزيزي».

عندها قال لها: «إذاً، أراك أمام مسرح «أولك فيك» في تمام الساعة الثامنة». ومرّت حينها نادلة أخرى قرب طاولته.

«أتطلع إلى ذلك يا سيدي، وتأكد من أنني سأنقل إطراءاتك إلى الطاهي».

فما كان من مايك إلا أن كبت ضحكته. وقبل أن يغادر الطاولة ويخرج من قاعة الطعام، نظر إلى مايزي وابتسم.

وعندما اختفى عن نظرها، أخذت مايزي الفاتورة إلى باتريك، فتحقّق من كل ما ذُكر فيها، وترك بقشيشاً كبيراً، ثم سألها: «هل أنت مشغولة مساء غد؟». ووجّه إليها تلك الابتسامة التي تذكرها جيداً.

«نعم، سأحضر صفاً مسائياً».

عندها قال باتريك: «أنت تمازحينني من دون شك».

«لا. ولا يفترض بي أن أصل متأخرة لأنه أول درس في فصل ممتد لمدة اثني عشر أسبوعاً». ولم تخبره أنها لم تحسم أمرها بعد في ما يتعلّق بمتابعة الفصل أم لا.

قال باتريك: «إذاً، فلنخرج يوم الثلاثاء».

«أنا مرتبطة بموعد مسبق يوم الثلاثاء».

«حقّاً أم أنك تقولين هذا لمجرد التخلص مني؟».

«لا، أنا ذاهبة إلى المسرح».

«إذاً، ماذا عن الأربعاء؟ أم أنها ليلة المعادلات الجبرية؟».

«لا، بل القراءة والتعبير».

فقال باتريك: «ماذا عن الخميس؟». وحاول ألا يبدو يائساً.

عندها أجابت مايزي: «نعم، أنا حرة يوم الخميس». فيما مرّت نادلة أخرى قرب طاولتهما.

قال باتريك: «الحمد لله. بدأت أظن أنه عليّ حجز موعد للأسبوع المقبل».

فضحكت مايزي وسألته: «بماذا تفكر؟».

«أعتقد أنه يمكننا الذهاب إلى...»

«سيدة كليفتون». فاستدارت مايزي، ورأت مدير الفندق السيد هورست واقفاً خلفها وقال: «عندما تُنهين عملك مع هذا الزبون، هلّا تأتين إلى مكتبي من فضلك».

ظنت مايزي أنها كانت كتومة، ولكنها تخشى الآن أن يتم طردها؛ لأن سياسة الشركة تمنع الموظفين من التقرّب من الزبائن. هكذا خسرت وظيفتها السابقة، وكان بات كاسي يومها الزبون المسؤول عن تلك الحادثة.

شعرت بالامتنان لأن باتريك خرج من المطعم من دون التفوه بكلمة أخرى. وبعد أن تحققت من درج النقود، توجّهت إلى مكتب السيد هورست.

«اجلسي يا سيدة كليفتون. ثمة مسألة مهمة أريد مناقشتها معك». فجلست مايزي وأمسكت بذراعي الكرسي لمنع نفسها من الارتجاف. «لاحظت أن يومك كان مزدحماً جداً».

فأجابت مايزي: «مئة واثنان وأربعون زبوناً. إنه رقم قياسي».

عندها قال: «لا أعرف كيف سأستبدلك، لكن الإدارة هي التي تتخذ هذه القرارات وليس أنا. الأمر خارج عن إرادتي».

عندها قالت مايزي: «لكنني أستمتع بوظيفتي».

«ربما، لكن عليّ الاعتراف لك بأنني أوافق الإدارة في قرارها».

تراجعت مايزي إلى الخلف على كرسيها، مستعدةً لتقبل مصيرها، فيما تابع السيد هورست كلامه قائلاً: «لقد أوضحوا تماماً أنهم لا يريدون أن تعملي في المطعم، وطلبوا مني استبدالك بأسرع ما يمكن».

«لكن، لماذا؟».

«لأنهم يريدون نقلك إلى الإدارة. بصراحة يا مايزي، لو كنت رجلاً، لكنت الآن تديرين حتماً أحد فنادقنا. تهانينا!».

عندها قالت مايزي: «شكراً». فيما بدأت تفكّر في المضاعفات.

قال السيد هورست: «فلننجز المعاملات الرسمية». وفتح درج مكتبه وأخرج منه رسالة، وقال: «عليك قراءتها بدقة؛ فهي تنطوي على تفاصيل عملك الجديد. بعد قراءتها، عليك توقيعها وإعادتها إليّ، لأرسلها مجدداً إلى مكتب الإدارة».

عندئذ، حسمت أمرها.

خافت مايزي أن يسخر منها الآخرون.

لذا، عندما وصلت إلى بوابة المدرسة، كادت تعود أدراجها لو لم ترَ امرأة أخرى أكبر منها سناً تدخل المبنى. وعلى الفور، لحقت بها عبر الباب الأمامي، ومن ثم في الرواق، وتوقفت عندما وصلت إلى الصف. نظرت إلى الداخل، على أمل أن تكون الغرفة مكتظة فلا يلاحظها أحد. ولكنها رأت فقط سبعة أشخاص حاضرين؛ رجلين وخمس نساء.

توجّهت إلى الجهة الخلفية للغرفة، وجلست قرب الرجلين على أمل ألا يراها أحد. غير أنّها ندمت على قرارها فوراً؛ لأنها لو جلست قرب الباب لتمكنت من الهروب بسهولة أكبر.

أخفضت رأسها عندما فُتِح الباب ودخل السيد هولكومب الغرفة. أخذ مكانه خلف المكتب أمام اللوح الأسود، وسوّى طيات ياقة ردائه الأسود الطويل ونظر إلى تلاميذه. وابتسم عندما لمح السيدة كليفتون جالسة في الخلف.

بدأ كلامه بالقول: «سأبدأ بكتابة الأحرف الأبجدية، وأريدكم أن تلفظوها فيما أنا أكتبها». ثم حمل طبشورة وأدار ظهره إلى الموجودين في الصف. كتب الحرف «أ» على اللوح الأسود، وسُمعت أصوات عدة دفعة واحدة، ومن ثم الحرف «ب»، وبعده الحرف «ت» الذي لفظه الجميع باستثناء مايزي. وعندما وصل إلى الحرف «ي»، لفظت مايزي الحرف.

«سأشير الآن إلى حرف عشوائي وسأرى إذا كنتم قادرين على التعرف إليه». في الجولة الثانية، استطاعت مايزي التعرف إلى نصف الأحرف. وفي محاولتها الثالثة، باتت متصدرة الطلاب في الصف. وعندما انتهت الحصة الدراسية، وحده السيد هولكومب أدرك أنه درسها الأول منذ عشرين عاماً، ولم تكن مايزي على عجلة من أمرها للعودة إلى المنزل.

قال السيد هولكومب: «عندما نلتقي مجدداً يوم الأربعاء، يفترض أن تتمكني من كتابة أحرف الأبجدية كلها بالتسلسل الصحيح».

أرادت مايزي حفظ الأبجدية يوم الثلاثاء كي لا ترتكب أي خطأ.

«وبالنسبة إلى الأشخاص الذين لن يتمكنوا من مرافقتي إلى المقهى لتناول مشروب، أراكم يوم الأربعاء».

افترضت مايزي أنه يُفترَض بمن سيرافقونه الحصول على دعوة منه، ولذلك نهضت عن كرسيها وتوجهت نحو الباب، فيما تحلق الآخرون حول مكتب الأستاذ وطرحوا عليه عشرات الأسئلة.

وحين وصلت مايزي إلى الباب سألها الأستاذ: «هل ستذهبين معنا إلى المقهى يا سيدة كليفتون؟».

فسمعت نفسها تقول: «شكراً لك يا سيد هولكومب. أودّ ذلك». وانضمّت إلى الآخرين فيما غادروا الغرفة واجتازوا الطريق للوصول إلى مقهى «شيب إين».

توزع الجميع في أنحاء المقهى، فأصبحت جالسة مع الأستاذ بمفردهما.

سألها السيد هولكومب بعدما أحضر لها كوباً من عصير الليمون: «هل تعرفين كم أنت ذكية؟».

«لكنني تركت المدرسة في عمر الثانية عشرة، وما زلت عاجزة عن القراءة والكتابة».

«صحيح أنك تركت المدرسة في سن مبكرة، ولكنك لم تتوقفي عن التعلم قط. وبما أنك والدة هاري كليفتون، فقد ينتهي بك الأمر ربما بتعليمي».

«وهل علّمك هاري؟».

«كل يوم، من دون أن يدرك ذلك. لكنني عرفت فوراً أنه أذكى مني، وأملت فقط في أن أنجح في إيصاله إلى مدرسة بريستول للقواعد قبل أن يفعل ذلك بنفسه».

عندها سألته مايزي مبتسمة: «وهل نجحت؟».

اعترف هولكومب: «فعلت ذلك في الرمق الأخير».

صرخ النادل: «آخر الطلبات!».

عندها، نظرت مايزي إلى الساعة وراءها، ولم تصدق أن الساعة قد صارت 9:30، ويجب الالتزام بقوانين حظر التجول.

بدا أمراً طبيعياً أن يرافقها السيد هولكومب إلى المنزل. ففي النهاية، إنهما يعرفان بعضهما منذ أعوام عدة. وفي طريقهما عبر الشوارع غير المضاءة، أخبرها الكثير من القصص الأخرى عن هاري، ما جعلها حزينة وسعيدة في الوقت نفسه. وبدا جلياً أيضاً أن السيد هولكومب مشتاق إليه، وأحست بالذنب لأنها لم تشكره قبل أعوام عدة.

وعندما وصلا إلى الباب الأمامي لمنزلها في ستيل هاوس لاين، قالت مايزي: «لا أعرف اسمك الأول».

فقال بخجل: «أرنولد».

قالت: «اسم جميل. هل أستطيع مناداتك أرنولد؟».

«نعم، طبعاً».

«وأنت نادِني مايزي». ثم أخرجت مفتاح باب منزلها ووضعته في القفل وتابعت: «طاب مساؤك أرنولد. أراك يوم الأربعاء».

أعادت السهرة في المسرح الكثير من الذكريات السعيدة إلى مايزي؛ عندما كان باتريك كاسي يصطحبها إلى مسرح «أولد فيك» كلما جاء إلى بريستول. لكن، مع خمود ذكرى باتريك وقضائها الوقت مع رجل آخر، أحست أنه قد يكون لها مستقبل معه، فقد عاود الجني الإيرلندي الظهور في حياتها مجدداً. أخبرها أنّ ثمة سبباً وراء رغبته في رؤيتها، وهي لا تشك في ذلك السبب كثيراً. إلا أنها لا تريده أن يوقع الفوضى في حياتها مجدداً. فكرت في مايك؛ فهو أحد أكثر الرجال لطفاً واحتراماً، والأكثر صراحة في محاولاته إخفاء مشاعره تجاهها.

لقد علّمها باتريك أمراً مهماً؛ ألا وهو عدم التأخر إطلاقاً في الذهاب إلى المسرح. فبرأيه، ما من شيء أكثر إحراجاً من الدوس على أقدام الأشخاص أثناء شق الطريق في العتمة للوصول إلى المقاعد الوسطية بعد رفع الستارة.

وعندما دخلت مايزي المسرح قبل عشر دقائق من موعد رفع الستارة، كان مايك واقفاً بانتظارها في الردهة، حاملاً بيده برنامج المسرحية. ما إن رأته حتى ابتسمت وتذكرت فوراً كيف ينجح دوماً في رفع معنوياتها. بادلها الابتسامة، وقبّلها على وجنتها برفق.

قال لها فيما سلّمها البرنامج: «لا أعرف الكثير عن نويل كوارد، ولكنني قرأت ملخص المسرحية، وهي على ما يبدو تتحدث عن رجل وامرأة لم يحسما قرارهما بعد حول من يجدر بهما الزواج منه».

لم تقل مايزي أي شيء فيما دخلا ليجلسا على مقعديهما. وبدأت تتبع أحرف الأبجدية إلى أن وصلت إلى الحرف «هـ». وعندما شقّا طريقهما إلى وسط الصف، تساءلت عن كيفية نجاح مايك في الحصول على مثل هذين المقعدين الرائعين لعرض نفدت تذاكره منذ زمن.

بعد إطفاء الأنوار ورفع الستارة، أمسك بيدها، ولم يفلتها إلا عندما دخل أوين ناريس وصفق الجمهور بقوة. أصبحت مايزي مفتونة بالقصة، وإن لم تكن مريحة جداً. إلا أن العرض توقف عندما طغى الصوت العالي لصفارة الإنذار على كلمات السيد ناريس، وابتعد الممثلون عن المسرح ليحلّ مكانهم مدير المسرح الذي نظّم بفاعلية استراتيجية خروج كانت ستُفرح حتماً قلب ضابط مسؤول عن فوج جنود. بات أهالي بريستول معتادين على الزيارات المفاجئة للألمان الذين لا ينوون دفع ثمن تذاكر المسرح.

خرج مايك ومايزي من المسرح، ونزلا الدرج للوصول إلى ملاذٍ مألوف أصبح ملجأ لرواد المسرح المنتظمين. جلس الجمهور في أي مكان

متوافر لحضور العرض المسرحي غير المحدد ببطاقات. إنها أعظم مساواة اجتماعية؛ مثلما وصف كليمان أتلي الحياة في ملجأ خلال غارة جوية.

قال مايك فيما وضع سترته على الأرض: «لم أكن أرغب في مثل هذا الموعد الغرامي».

فأجابت مايزي وهي تجلس فوق السترة: «عندما كنت صغيرة، حاول العديد من الرجال الوصول بي إلى هنا، لكنك أول واحد ينجح في ذلك». عندها، ضحك مايك، فيما بدأت مايزي تخربش شيئاً على البرنامج المسرحي.

قال: «إذاً، أنا مسرور». ووضع ذراعه برفق حول كتفها، فيما ارتجت الأرض نتيجة القنابل التي وقعت في مكان قريب جداً، ثم سألها: «لم تذهبي إلى أميركا قط يا مايزي، أليس كذلك؟». وحاول إلهاءها عن الغارة الجوية.

فاعترفت مايزي: «لم أذهب إلى لندن قط. في الواقع، أستطيع القول إن ويستون سوبر ماري وأوكسفورد هما أبعد مكانين ذهبت إليهما، وقد كانت كلتا الرحلتين كارثيتين، ولذلك يُستحسن ربما أن أبقى في المنزل».

عندها ضحك مايك وقال: «أودّ أن تري أميركا، ولاسيما الجنوب».

فقالت مايزي: «أعتقد أنه علينا الطلب من الألمان الاستراحة لبضع ليالي قبل أن نفكر في هذه المسألة».

وفجأة، صمت كل شيء، فعلا التصفيق في الملجأ، وخرج الجميع من الفاصل غير المتوقع للانتقال إلى المسرح مجدداً.

وبعد جلوس الجميع على مقاعدهم، صعد مدير المسرح إلى المنصة وقال: «سوف يستمر العرض من دون أية فواصل. ولكن، إذا قرر الألمان زيارتنا مجدداً، فعلينا إلغاء العرض. يؤسفني القول إنه لا يمكننا إعادة المال. إنها قوانين الألمان». فضحك بعض الأشخاص.

بعد لحظات من رفع الستارة مجدداً، وجدت مايزي نفسها غارقة مجدداً في حبكة المسرحية. وعندما قدّم الممثلون التحية الأخيرة، وقف كل الجمهور تقديراً لأدائهم المسرحي، وكذلك لتفوقهم على الحرب الألمانية؛ على حدّ قول مايك.

سأل مايك: «هارفي أو البانتري؟». فيما رفع البرنامج الذي شطبت أحرف الأبجدية من عنوانه وأعادت كتابتها في الأسفل وفق التسلسل المعروف.

وأجابت مايزي: «البانتري». ولم تشأ الاعتراف بأنها ذهبت ذات مرة إلى هارفي مع باتريك، وأمضت السهرة كلها وهي تنظر إلى الطاولات وتخشى رؤية ابنة اللورد هارفي، إليزابيت تتناول العشاء هناك مع هوغو بارينغتون.

أخذ مايك وقتاً طويلاً في تأمل قائمة الطعام، الأمر الذي فاجأ مايزي؛ لأن خيارات الأطباق محدودة جداً. كان عادة يتحدث عما يحصل في المعسكر، أو القلعة مثلما يحبّ تسميتها، ولكن ليس الليلة. حتى إنّه لم يتذمر من البريطانيين الذين لا يفهمون البايسبول. عندها، بدأت تتساءل عمّا إذا كان يشعر بالسوء.

سألته: «هل كل شيء على ما يرام يا مايك؟».

فنظر إليها وقال: «إنهم يريدون إعادتي إلى الولايات المتحدة». فيما جاء نادل إليهما وسألهما إذا كانا يريدان طلب الطعام الآن. وكان ذلك توقيتاً رائعاً برأي مايزي؛ لأن هذا على الأقل سيمنحها وقتاً للتفكير، ولكن ليس في ما تريد أكله. وبعد أن طلبا الأطباق وابتعد النادل، حاول مايك مجدداً.

«تم نقلي إلى وظيفة مكتبية في واشنطن».

عندها، انحنت مايزي فوق الطاولة وأمسكت بيده.

«ألححت عليهم للسماح لي بالبقاء هنا لمدة ستة أشهر إضافية... لكي أبقى معك. ولكنهم رفضوا طلبي».

فقالت مايزي: «آسفة لسماع ذلك، لكن...»

«أرجوكِ، لا تقولي أي شيء يا مايزي، لأنني أجد صعوبة كبير في الأمر. وحده الله يعلم كم فكرت في الأمر». بعد ذلك، ساد صمت طويل، وقطعه مايك قائلاً: «أدرك تماماً أننا نعرف بعضنا منذ فترة وجيزة، لكن مشاعري لم تتبدل منذ أن رأتك عيناي للمرة الأولى». فابتسمت مايزي، وتابع كلامه: «وأتساءل، لا بل آمل وأرجو، أن تفكري في الذهاب معي إلى أميركا... كزوجة لي».

عجزت مايزي عن الكلام، غير أنّها نجحت أخيراً في القول: «أنا متأثرة جداً». ولم تستطع التفكير في أي شيء آخر لتقوله.

«أدرك تماماً أنك تحتاجين إلى الوقت للتفكير في الأمر. وأنا آسف لأن ظروف الحرب لا تسمح لنا بالمغازلة الطويلة».

«متى ستعود إلى وطنك؟».

«في نهاية الشهر. وإذا وافقت على عرضي، فبإمكاننا الزواج في المعسكر والعودة معاً كزوج وزوجة». ثم انحنى إلى الأمام، وأمسك بيدها وتابع: «لم أكن يوماً واثقاً إلى هذا الحد في أي شيء في حياتي». في تلك اللحظة، عاد النادل إلى طاولتهما مجدداً، وسألهما:

«من منكما اختار الكبدة المفرومة؟».

لم تنم مايزي تلك الليلة، وعندما نزلت لتناول الفطور في صباح اليوم التالي، أخبرت أمها أن مايك قد طلبها للزواج.

وكان الجواب الفوري للسيدة تانكوك: «وافقي. فأنت لن تحصلي على فرصة أفضل للبدء بحياة جديدة. ولنكن صريحتين معاً، لم يعد لديك أي سبب للبقاء هنا». فيما نظرت بحزن إلى صورة هاري الموضوعة على المدفأة.

كانت مايزي على وشك التعبير عن تحفظها حين دخل ستان الغرفة بسرعة، فنهضت قائلة: «من الأفضل أن أذهب الآن كي لا أتأخر عن العمل».

فصرخ قائلاً لها فيما غادرت الغرفة: «لا تعتقدي أنني نسيت مسألة المال الذي تدينين لي به».

كانت مايزي جالسة على حافة مقعدها في الصف الأمامي عندما دخل السيد هولكومب الصف في تمام الساعة السابعة من ذلك المساء.

رفعت مايزي يدها مرات عدة خلال الساعة التالية؛ مثل تلميذة نجيبة تعرف كل الأجوبة وتريد أن يلاحظها الأستاذ. لكن حتى لو حصل ذلك فهو لم يفضح نفسه.

قال لها السيد هولكومب: «هل يمكنك المجيء يومَي الثلاثاء والخميس في المستقبل يا مايزي؟». فيما توجّها إلى المقهى مع الآخرين.

عندها، سألته مايزي: «لماذا؟ ألم أكن جيدة بما فيه الكفاية؟».

فأجاب الأستاذ: «بل على العكس. لذا، قررت نقلك إلى الصف المتوسط قبل أن يصبح هذا الصف مزدحماً جداً». وأشار بيده إلى رفاقها.

«لكن، ألن أكون مقصرة يا أرنولد؟».

«أعتقد أنك ستكونين كذلك في البداية، ولكنك من دون شك في نهاية الشهر ستكونين قد عوّضت ذلك، وسأنقلك بعدها إلى الصف المتقدم».

لم تجب مايزي؛ لأنها عرفت أنه لن يمضي وقت طويل قبل أن تضطر إلى إخبار أرنولد بأنها خططت لأمور أخرى في نهاية الشهر.

مجدداً، جلسا بمفردهما في المقهى. ومجدداً، رافقها إلى ستيل هاوس لاين. وعندما أخرجت مايزي مفتاح الباب من حقيبتها هذه المرة، أحست بأنه يحاول استجماع شجاعته لتقبيلها، غير أنها لن توافق على ذلك طبعاً. أليس لديها ما يكفي من المشاكل؟!

قال: «كنت أتساءل عن أول كتاب تودين قراءته».

فأجابت مايزي وقد وضعت المفتاح في القفل: «لن يكون كتاباً، وإنما رسالة».

30

تناول باتريك الفطور والغداء والعشاء في مطعم الفندق أيام الاثنين والثلاثاء والأربعاء. وافترضت مايزي أنه سيصطحبها إلى العشاء في «بليمسول لاين» على أمل إحياء الذكريات القديمة. وفي الواقع، لم تكن قد ذهبت مجدداً إلى ذلك المطعم منذ سفر باتريك إلى إيرلندا. وقد كانت محقة؛ لأنه فعل ذلك بالضبط.

كانت مايزي مصممة على ألا تقع مجدداً في شرك سحر باتريك وطلته الجميلة، وأرادت إخباره عن مايك ومشاريعهما للمستقبل. لكن مع مرور الوقت خلال الأمسية، وجدت صعوبة أكبر فأكبر في التطرق إلى الموضوع.

سألها باتريك أثناء تناولهما الشراب في استراحة المطعم قبل الشروع في العشاء: «ماذا فعلت منذ أن غادرتُ بريستول؟ لا يخفى على أحد أنك تديرين أفضل مطعم فندقي في المدينة، وتنجحين في الوقت نفسه في حضور صفوف مسائية».

فقالت بمرارة: «نعم، سأفتقد إلى كل هذا عندما...»

سألها باتريك: «عندما ماذا؟».

فقالت مايزي محاولة التراجع عن الموضوع: « تقتصر الدورة على اثني عشر أسبوعاً فقط».

قال باتريك: «أعتقد أنك ستعطين الصفوف بنفسك بعد اثني عشر أسبوعاً».

سألته: «ماذا عنك؟ ماذا فعلت؟». فيما جاء النادل لإخبارهما أن طاولتهما قد أصبحت جاهزة.

لم يُجب باتريك عن السؤال إلا بعد أن جلسا إلى طاولة هادئة في زاوية الغرفة.

«أنت تذكرين ربما أنه تمت ترقيتي لأصبح نائب مدير الشركة قبل ثلاثة أعوام، ولهذا السبب ذهبت إلى دابلن».

فقالت مايزي: «لم أنسَ السبب الذي جعلك تعود إلى دابلن».

«حاولت العودة إلى بريستول مرات عدة، ولكن بعد اندلاع الحرب بات الأمر مستحيلاً، ولم يكن بوسعي كتابة رسالة لك».

«حسناً، سوف تحلّ هذه المشكلة في القريب العاجل».

«إذاً، يمكنك القراءة لي في السرير».

سألته مايزي: «وكيف كان وضع شركتك خلال تلك الأوقات العصيبة؟». في محاولة لإعادة الحديث إلى أرض آمنة.

«في الواقع، حققت الكثير من الشركات الإيرلندية ربحاً جيداً خلال الحرب. فحياد الدولة أتاح لنا التعامل مع كلتا الجهتين».

عندها، قالت مايزي بذهول: «هل أنت مستعد للعمل مع الألمان؟».

«لا. فلطالما أوضحنا كشركة أين يكمن ولاؤنا، ولكنك لن تتفاجئي لدى معرفتك أن العديد من رجال دولتي يسعدهم العمل مع الألمان. لهذا السبب، عشنا بعض السنوات الصعبة. لكن، بعد دخول أميركا الحرب، بدأ الإيرلنديون يعتقدون أن الحلفاء قد يربحون الحرب».

وكانت تلك فرصتها لإخبار باتريك عن رجل أميركي محدد، ولكنها لم تفعل، بل سألته: «وما الذي جاء بك إلى بريستول الآن؟».

«الجواب بسيط، وهو أنت».

«أنا!!». حاولت مايزي بسرعة التفكير في طريقة مقنعة لإعادة الحديث إلى برّ الأمان، بعيداً عن الحياة الشخصية.

«نعم، فسوف يتقاعد المدير في نهاية العام، وقد طلب مني رئيس مجلس الإدارة تولّي منصبه».

قالت مايزي: «تهانينا». وشعرت بالارتياح لأن الحديث عاد إلى مجال آمن، فتابعت محاولة تخفيف وطأة الحديث: «وهل تريد اصطحابي معك لأكون نائب المدير؟».

«لا، بل أريدك أن تكوني زوجتي».

وعلى الفور، تبدّلت نبرة صوتها: «ألم يخطر في بالك يا باتريك، ولو لبرهة خلال الأعوام الثلاثة الماضية، أن شخصاً آخر قد دخل حياتي؟».

قال باتريك: «بلى، كل يوم. ولهذا السبب جئت لأعرف ما إذا كان هناك رجل آخر في حياتك».

فترددت مايزي قليلاً ثم قالت: «نعم».

«وهل طلب منك الزواج؟».

همست: «نعم».

«وهل قبلت عرضه؟».

أجابت بصرامة: «لا، لكنني وعدته بإعطائه جوابي قبل عودته إلى أميركا في نهاية الشهر».

«وهل هذا يعني أنه ما زالت لديّ فرصة؟».

«بصراحة يا باتريك، الاحتمالات ليست لصالحك. فأنت لم تتصل بي طوال الأعوام الثلاثة الماضية، وها قد عدت فجأة وكأن شيئاً لم يتبدل».

لم يحاول باتريك الدفاع عن نفسه، فيما قدّم لهما النادل الطبق الرئيس، ثم قال: «أتمنى لو أن الأمر كان بهذه السهولة».

«باتريك، لطالما كان الأمر سهلاً. لو طلبت مني الزواج قبل ثلاثة أعوام، لكنت قد ركبت فوراً في أول مركب متجه إلى إيرلندا».

«لم يكن بوسعي فعل ذلك يومها».

عندها، وضعت مايزي الشوكة والسكين على الطاولة من دون أن تتناول أي لقمة، ثم قالت: «لطالما تساءلت عمّا إذا كنت متزوجاً».

«لماذا لم تقولي أي شيء في ذلك الوقت؟!».

«حينها كنت مغرمة بك يا باتريك، لدرجة أنني كنت مستعدة للمعاناة».

«لقد عدت إلى إيرلندا لأنني لم أكن أستطيع الزواج منك».

«وهل تبدّل الأمر الآن؟».

«نعم. لقد تركتني بريوني قبل عام واحد. فقد تعرفت إلى شخص اهتم بها أكثر مما فعلت أنا، فلم يكن الأمر صعباً».

قالت مايزي: «يا إلهي! لماذا حياتي معقدة جداً على الدوام؟».

فابتسم باتريك وقال: «أنا آسف لأنني تطفّلت على حياتك مجدداً، ولكنني لن أستسلم بسهولة هذه المرة، وخصوصاً أنه لا يزال لديّ أمل ضعيف». ثم انحنى فوق الطاولة وأمسك بيدها. وبعد قليل، جاء النادل إلى طاولتهما مجدداً، وظهرت على وجهه نظرة قلقة عندما لاحظ أنهما لم يتناولا أي شيء من الطبقين اللذين أصبحا باردين.

سألهما: «هل كل شيء على ما يرام؟».

فأجابت مايزي: «لا».

استلقت مايزي على فراشها مستيقظة، وراحت تفكّر في الرجلين في حياتها. مايك موثوق جداً ولطيف جداً، وتعرف أنه سيكون مخلصاً لها حتى يوم مماته. وباتريك مثير وحيوي ولن تشعر معه بالملل أبداً. بدّلت رأيها مرات عدة خلال الليل، ولم يساعدها أنّها ملزمة باتخاذ قرارها خلال وقت قصير جداً.

وعندما نزلت لتناول الفطور في صباح اليوم التالي، لم تبخل عليها أمها بكلماتها عندما سألتها مايزي عن الرجل الذي ستختاره من بين الاثنين لو أتيحت لها فرصة الاختيار.

فقد قالت من دون تردد: «مايك. إذ يمكن الوثوق فيه أكثر على المدى الطويل، والزواج هو للمدى الطويل. على أية حال، لم أثق في الإيرلندي يوماً».

فكّرت مايزي في كلمات أمها، وكانت على وشك طرح سؤال آخر عندما دخل ستان الغرفة. بعدما انتهى من تناول عصيدته، ثم قاطع أفكارها.

«هل سترين مدير المصرف اليوم؟».

فلم تجب مايزي.

«اعتقدت ذلك. احرصي على أن تعودي إلى المنزل مع مالي يا صغيرتي. وإذا لم تفعلي، فسأذهب للبحث عنك».

وقرابة الساعة الرابعة من بعد الظهر، قال السيد برندرغاست: «كم سررت برؤيتك يا سيدتي». فيما طلب من مايزي الجلوس على كرسي، وانتظر إلى أن ارتاحت مايزي قبل أن يسألها: «هل استطعت التفكير في عرض زبوني المغري؟».

فابتسمت مايزي؛ إذ بكلمة واحدة، أوضح السيد برندرغاست الطرف الذي يقف إلى جانبه.

أجابت مايزي: «لا شك في أنني فعلت. وأريد منك أن تخبر زبونك بأنني لن أقبل قرشاً واحداً أقل من أربعمئة باوند».

عندها فغر السيد برندرغاست فمه.

«وبما أنني قد أغادر بريستول في نهاية هذا الشهر، يستحسن أن تقول لزبونك إن عرضي المغري سيبقى صالحاً فقط لمدة أسبوع واحد».

عندها، أغلق السيد برندرغاست فمه.

«سأحاول زيارتك مجدداً في الأسبوع المقبل يا سيد برندرغاست، وستبلغني حينها بقرار زبونك». ثم نهضت مايزي عن كرسيها، ووجّهت ابتسامة لطيفة للمدير قبل أن تضيف: «أتمنى لك عطلة نهاية أسبوع سعيدة يا سيد برندرغاست».

وجدت مايزي صعوبة في التركيز على كلمات السيد هولكومب، وليس سبب ذلك فقط أن الصف المتوسط متطلب أكثر من صف المبتدئين، وسرعان ما ندمت على انضمامها إليه. وعندما رفعت يدها، كان ذلك لطرح سؤال وليس للإجابة عن واحد.

إلا أن حماسة أرنولد كانت معدية، فهو يملك موهبة حقيقية في جعل الجميع يشعرون بالمساواة، ويشدد على أهمية أية مساهمة في الصف.

بعد عشرين دقيقة من شرح ما أسماه القواعد الأساسية، دعا طلّابه للانتقال إلى الصفحة 72 من كتاب نساء صغيرات. لم تكن الأرقام مشكلة بالنسبة إلى مايزي، ففتحت الصفحة الصحيحة بسرعة. ثم طلب هولكومب من امرأة جالسة في الصف الثالث الوقوف وقراءة الفقرة الأولى، فيما تتبع باقي الطلاب كل جملة، كلمة كلمة. وضعت مايزي إصبعها على أعلى الصفحة، وحاولت جاهدة تتبع القارئة، ولكنها أخفقت بذلك سريعاً.

وعندما طلب الأستاذ من رجل عجوز جالس في الصف الأمامي قراءة الفقرة نفسها مجدداً، استطاعت مايزي التعرف إلى بعض الكلمات، ولكنها بدأت تدعو في سرّها كي لا يطلب منها أرنولد أن تكون القارئة التالية. وتنفّست الصعداء عندما طلب من شخص آخر قراءة الفقرة نفسها مجدداً. وعندما جلس القارئ الأخير، أخفضت مايزي رأسها، ولكنها لم تنجح في الفرار هذه المرة.

«وأخيراً، سأطلب من السيدة كليفتون الوقوف وقراءة الفقرة نفسها مجدداً».

نهضت مايزي من مكانها وحاولت التركيز. قرأت الفقرة كلها؛ كلمة كلمة تقريباً، من دون النظر أبداً إلى الصفحة. ففي النهاية، لقد أمضت أعواماً طويلة وهي تحفظ طلبات الزبائن المعقدة في المطاعم.

وجّه إليها السيد هولكومب ابتسامة حنون فيما جلست. «يا لذاكرتك المميزة يا سيدة كليفتون». ولم يفهم أحد آخر أهمية كلماته. «أريد الآن مناقشة معاني بعض الكلمات في تلك الفقرة. في السطر الثاني مثلاً، هناك كلمة «خطبة»، وهي كلمة قديمة الطراز. هل يستطيع أحد منكم إعطائي مرادفاً لها أكثر حداثة؟».

فارتفعت عدة أيدي في الصف، وأرادت مايزي أن تكون واحدة منهم لو لم تتعرف إلى صوت مألوف لخطوات متجهة نحو باب الصف.

قال الأستاذ: «آنسة ويلسون».

فقالت الآنسة ويلسون: «زواج». فيما فُتح باب الصف ودخل شقيق مايزي الغرفة. توقّف أمام اللوح الأسود، وانتقلت عيناه من شخص إلى آخر.

سأله السيد هولكومب بتهذيب: «هل أستطيع مساعدتك؟».

فأجاب ستان: «لا. فقد جئت لاستلام ما هو من حقي، ولذلك دع فمك مغلقاً أيها الأستاذ إذا كنت تعرف صالحك، واهتم بشؤونك الخاصة فقط». واستقرت عيناه على مايزي.

أرادت مايزي إخباره خلال الفطور أنه سيمضي أسبوع آخر قبل أن تعرف ما إذا كان زبون السيد برندرغاست قد قبل عرضها الجديد أم لا. لكن، فيما توجّه ستان نحوها مباشرة، عرفت أنها لن تتمكن من إقناعه بأنها لا تملك المال. مكتبة الرمحي أحمد

سألها قبل أن يصل إلى طاولتها: «أين مالي؟».

فأجابت مايزي: «لم أحصل عليه بعد. عليك أن تنتظر أسبوعاً آخر».

فقال ستان: «اللعنة!». وأمسكها من شعرها، وبدأ يشدها لإبعادها عن مقعدها وهو يصرخ. وفيما تحرك متّجهاً نحو الباب، جلس بقية الطلاب في الصف مذهولين. رجل واحد فقط وقف في طريقه.

«ابتعد عن طريقي أيها الأستاذ».

«أقترح عليك إفلات أختك يا سيد تانكوك إذا كنت لا تريد التورط في مشاكل أكبر من تلك التي تورطت فيها أصلاً».

فضحك ستان: «أتعني منك ومن هؤلاء؟! إذا لم تبتعد عن طريقي فسأحطم أسنانك داخل فمك، وأعدك بأن المشهد لن يكون جميلاً».

لم يرَ ستان الضربة الموجهة إليه، وعندما أصابته في فم معدته، انحنى متألماً، ولم يكن قد تمكن من استعادة انتباهه حين تلقّى ضربة جديدة على ذقنه. أما الضربة الثالثة فطرحته أرضاً مثل شجرة مقطوعة.

استلقى ستان على الأرض ممسكاً معدته، ومتوقعاً رفسها، فيما وقف الأستاذ فوقه وانتظره حتى يتعافى. وعندما شعر ستان بالتّحسّن أخيراً، وقف على قدميه باضطراب، ولم يُبعد عينيه عن الأستاذ قط فيما توجه ببطء نحو الباب. وعندما ظن أنه أصبح على مسافة آمنة، نظر مجدداً إلى مايزي التي كانت لا تزال ممددة على الأرض، متقوقعة على نفسها مثل كرة، وهي تبكي بهدوء.

وقال لها بصوت عالٍ: «من الأفضل ألا تعودي إلى المنزل قبل أن تُحضري المال إذا كنت تعرفين صالحك!». ومن دون أن يُضيف أية كلمة أخرى، خرج إلى الرواق.

وحتى بعد أن سمعت مايزي الباب يغلق، بقيت خائفة جداً ولم تتحرك. عندها، جمع بقية الطلاب كتبهم وانسحبوا من الغرفة بهدوء. لم يذهب أحد إلى المقهى تلك الليلة.

مشى السيد هولكومب في الغرفة ببطء، وركع قربها، ثم أحاط بذراعيه جسمها المرتجف. مرّ بعض الوقت قبل أن يقول: «من الأفضل أن تذهبي معي إلى منزلي الليلة يا مايزي. سأحضّر لك سريراً في غرفة الضيوف، ويمكنك المكوث قدر ما تشائين».

إيما بارينغتون

1942-1941

31

قالت إيما: «أربعة وستون وبارك». فيما ركبت سيارة الأجرة بعدما خرجت من مكتب سيفتون جيلكس في وال ستريت.

جلست على المقعد الخلفي للسيارة، وحاولت التفكير في ما يجدر بها قوله للعمة فيليس عندما تصل إلى بيتها، لكنّ صوت المذياع في السيارة كان عالياً جداً، حيث لم تستطع التركيز. فكرت في أن تطلب من السائق إخفاض الصوت، ولكنها عرفت أن سائقي سيارات الأجرة في نيويورك يتظاهرون بالصمم عندما يحلو لهم ذلك، ولكنهم ليسوا أغبياء إطلاقاً.

استمعت إيما إلى المذيع وهو يصف بصوت حماسي ما حصل في مكان يدعى بيرل هاربور، وأدركت أن أول سؤال للعمة فيليس سيكون: ما الذي جاء بك إلى نيويورك أيتها الشابة؟ وسيليه السؤال: كم مضى على وجودك هنا؟ ثم السؤال الثالث: لماذا مضى كل هذا الوقت قبل أن تأتي لرؤيتي؟ إلا أن إيما لم تكن تملك جواباً مناسباً لأي من هذه الأسئلة؛ إلا إذا أرادت إخبار العمة فيليس كل شيء، وهذا أمر أرادت تفاديه لأنها لم تخبر أمها أصلاً بكل شيء.

قالت إيما لنفسها إن العمة فيليس ربما لا تعرف بوجودها أصلاً. وهل يحتمل وجود ضغينة قديمة في العائلة لا تعرف إيما بشأنها؟ أو ربما كانت العمة فيليس متوحدة، أو مطلقة، أو متزوجة مجدداً، أو معتوهة...

كل ما تعرفه إيما عنها هو أنها رأت ذات مرة بطاقة معايدة تحمل توقيع فيليس وغوردون وأليستاير. هل أحدهما الزوج والآخر الابن؟ ولزيادة الأمور سوءاً، لا تملك إيما أي دليل يثبت أنها فعلاً قريبة العمة فيليس.

لم تكن إيما واثقة جداً من نفسها عندما أوصلتها سيارة الأجرة أمام الباب الأمامي ودفعت الأجرة للسائق.

خرجت من السيارة، ونظرت إلى المبنى الحجري البني المؤلف من أربع طبقات، وبدّلت رأيها مرات عدة في ما يتعلق بالطرق على الباب. وأخيراً، قررت أن تدور حول المبنى؛ على أمل الشعور بثقة أكبر عند عودتها. وأثناء تجوّلها في الشارع 64، لاحظت إيما أن النيويوركيين يتحركون ذهاباً وإياباً بسرعة كبيرة جداً، مع وجوه مصدومة وقلقة. وراح بعضهم ينظرون إلى السماء. إنهم لا يعتقدون حتماً أن الغارة الجوية اليابانية التالية ستكون في مانهاتن، أليس كذلك؟

كان ثمة بائع جرائد يقف عند الزاوية ويصرخ بصوت عالٍ: «أميركا أعلنت الحرب! اقرأوا آخر الأخبار!».

عندما عادت إيما مجدداً إلى الباب الأمامي لمنزل العمة، قررت أنها اختارت أسوأ يوم لزيارتها. من الأفضل ربما أن تعود إلى الفندق وتؤجل الأمر حتى الغد. لكن، هل سيكون الغد مختلفاً؟ لقد نفد مالها تقريباً، وإذا باتت أميركا الآن مشاركة في الحرب، فكيف ستعود إلى إنكلترا، والأهم من ذلك؛ كيف ستعود إلى سيباستيان الذي لا تريد الابتعاد عنه أكثر من بضعة أسابيع؟

وجدت نفسها تصعد الدرجات الخمس لتصبح أمام باب أسود لامع ذي مقبض نحاسي كبير. قد تكون العمة فيليس خارج المنزل، أو ربما بدلت عنوان منزلها. كانت إيما على وشك قرع الباب عندما لاحظت جرساً في الحائط كُتبت تحته كلمة «تجار». ضغطت على الجرس، وتراجعت إلى الخلف وانتظرت، وفرحت بمواجهة الشخص الذي يتعاطى مع التجار.

بعد لحظات، فتح الباب رجل طويل وأنيق، يرتدي سترة سوداء وسروالاً مخططاً وقميصاً أبيض، ويضع ربطة عنق رمادية.

سألها: «كيف أستطيع مساعدتك يا سيدتي؟». وقد استوعب جلياً أن إيما ليست واحدة من التجار.

فأخبرته: «اسمي إيما بارينغتون. وأتساءل إن كانت العمة فيليس في المنزل».

«نعم يا آنسة بارينغتون. فيوم الاثنين تلعب «البريدج» بعد الظهر. تفضلي إلى الداخل، وسأبلغ السيدة ستيوارت بوجودك هنا».

تمتمت إيما: «أستطيع العودة غداً إذا لم يكن الوقت مناسباً». ولكنه كان قد أغلق الباب خلفها، وبات في منتصف الرواق.

وفيما وقفت إيما في الردهة، أدركت فوراً البلد الذي يتحدر منه آل ستيوارت؛ إذ ثمة لوحة لبوني برنس تشارلي فوق سيوف متشابكة، ودرع لآل ستيوارت معلقة على الجدار في الطرف البعيد للقاعة. مشت إيما في القاعة، وتأملت لوحات حملت توقيع بيلبو، وفيرغوسون، وماك تاغارت، ورايبورن. تذكرت أن جدها اللورد هارفي يملك لوحة من رسم «لورانس»

معلقة في قاعة الرسم في قصر مولجلري. لم تكن تعرف مصدر مال عمّتها، ولكن يتضح جلياً أنها تملك الكثير منه.

عاد كبير الخدم بعد دقائق قليلة، والطلة المؤثرة نفسها تبدو على وجهه. ربما لم يسمع بعد بالخبر المتعلق ببيرل هاربور.

قال: «سوف تستقبلك السيدة في قاعة الرسم».

كم يشبه جنكينز! ما من كلمات زائدة، مشية واثقة لا تتغير أبداً، وأسلوب إذعان من دون أن يكون مذعناً. أرادت إيما أن تسأله عن المنطقة التي يتحدر منها في إنكلترا، ولكنها عرفت أنه سيعتبر الأمر تطفلاً، ولذلك لحقت به في الرواق من دون أية كلمة أخرى.

كانت على وشك صعود السلالم، عندما توقف كبير الخدم وفتح باباً معدنياً ووقف جانباً للسماح لها بالدخول. مصعد في منزل خاص! تساءلت إيما عمّا إذا كانت العمة فيليس معوّقة. ارتجف المصعد حين وصل إلى الطابق الثالث، ثم دخلت إيما قاعة رسم تحتوي على مفروشات أنيقة. ولولا ضجيج السيارات، والأبواق العالية، وصفارات سيارات الشرطة الآتية من الشارع في الأسفل، لظن المرء أنه في إيدينبورغ.

«انتظري هنا من فضلك يا سيدتي».

بقيت إيما واقفة قرب الباب، فيما مشى كبير الخدم في الغرفة للانضمام إلى أربع سيدات متقدمات في السن كن جالسات قرب المدفأة يشربن الشاي ويتناولن البسكويت أثناء الإصغاء إلى مذياع صوته غير مرتفع أبداً.

وعندما قال كبير الخدم: «الآنسة إيما بارينغتون». التفتت جميع السيدات ونظرن إلى إيما. تعرفت إيما فوراً إلى شقيقة اللورد هارفي قبل أن تقف تلك الأخيرة لإلقاء التحية عليها. فلديها شعر اللورد هارفي الأحمر نفسه، والابتسامة الماكرة نفسها، وذلك الأسلوب الراقي الذي يتّصف به شخص نبيل.

قالت: «لا يمكن أن تكوني إيما الصغيرة». فيما تركت مجموعة النساء وتوجّهت نحو حفيدتها، متحدثة بلكنة بريطانية بدت واضحة في صوتها: «آخر مرة رأيتك فيها يا عزيزتي، كنت ترتدين فستاناً مطبعاً بالمربعات مع جوربين أبيضين صغيرين، وتحملين عصا هوكي. وحينها خشيت كثيراً على الصبيان الذين يلعبون في الفريق المقابل». فابتسمت إيما. إنها تملك روح الفكاهة نفسها الموجودة لدى جدها. «والآن، انظري إلى نفسك. ها قد أصبحت شابة جميلة». فتورّدت إيما خجلاً. «ما الذي جاء بك إلى نيويورك يا عزيزتي؟».

بدأت إيما كلامها بالقول: «آسفة لأنني تطفلت عليك هكذا أيتها العمة». فيما نظرت بتوتر إلى السيدات الثلاث الأخريات.

فهمست العمّة: «لا تقلقي بشأنهن. فبعد تصريح الرئيس، لديهن ما يكفي للانشغال به. أين حقائبك؟».

أجابتها إيما: «حقيبتي في فندق مايفلاور».

عندها، قالت العمة وهي تستدير صوب كبير الخدم: «باركر، أرسل أحداً ما لإحضار أغراض الآنسة إيما من فندق مايفلاور، ثم حضّر غرفة الضيوف الرئيسة. فبعد أخبار اليوم، أعتقد أن حفيدتي العزيزة ستبقى معنا لبعض الوقت». وسرعان ما اختفى كبير الخدم بعيداً.

«لكن أيتها العمة...»

فقاطعتها العمة قائلة وقد رفعت يدها: « الاعتراض ممنوع. وأطلب منك ألا تناديني بالعمة، لأنني أشعر كما لو أنني امرأة عجوز مشاكسة. صحيح أنني قد أكون امرأة عجوز مشاكسة، ولكنني لا أرغب في أن يذكرني أحد بذلك بشكل منتظم، ولذلك ناديني من فضلك فيليس».

فقالت إيما: «شكراً لك أيتها العمة فيليس».

ضحكت فيليس وقالت: «أحب الإنكليز كثيراً. والآن، تعالي وألقي التحية على صديقاتي. سوف يفرحن بلقاء شابة مستقلة وعصرية مثلك».

«بعض الوقت» تحول إلى أكثر من عام. ومع مرور كل يوم، شعرت إيما بتوق أكبر للقاء سيباستيان، ولكنها لم تتمكن من متابعة أخبار نمو ابنها إلا من خلال الرسائل التي أرسلتها إليها أمها، وأحياناً غرايس. بكت إيما عندما علمت بموت جدها؛ لأنها اعتقدت أنه سيعيش إلى الأبد. وحاولت عدم التفكير في من سيتولى أمور الشركة، وافترضت أن والدها لن يتجرأ على المجيء إلى بريستول.

نجحت فيليس في جعل إيما تشعر بالارتياح كما لو أنها أمها الحقيقية. واكتشفت إيما بسرعة أن العمة فيليس تملك كل مزايا عائلة هارفي، لأنها كريمة جداً، ولا يعرف قاموسها منذ زمن بعيد كلمات مستحيل وغير محتمل وغير عملي. غرفة الضيوف الرئيسة- مثلما تسميها فيليس- عبارة عن جناح من الغرف المطلة على سنترال بارك، ما بعث الفرح في قلب إيما بعدما مكثت في غرفة واحدة في فندق مايفلاور.

أما المفاجأة الثانية لإيما فكانت عندما نزلت لتناول العشاء في الليلة الأولى، ووجدت العمة ترتدي فستاناً أحمر طويلاً، وتتناول كأساً من الشراب وتدخن السجائر. وابتسمت لفكرة أن تصفها هذه المرأة بالعصرية.

قالت قبل أن تتاح لباركر فرصة سكب كأس من الشراب لإيما: «سينضم إلينا ابني أليستاير على العشاء. إنه محام وعازب؛ وهاتان سلبيّتان لن يتخطاهما على الأرجح. ولكنه قد يكون ممتعاً أحياناً، وإن بدا جدياً نوعاً ما».

وصل أليستاير بعد دقائق قليلة، وقد ارتدى سترة رسمية لتناول العشاء مع أمه، فجسّد صورة «البريطاني المسافر».

عرفت إيما أنه في الخمسين من عمره، وقد نجح الخياط الماهر في إخفاء حقيقة امتلاكه بعض الكيلوغرامات الإضافية. لم يكن مرحاً كثيراً، وإنما بدا ذكياً جداً، ومطلعاً كثيراً، وإن بالغ نوعاً ما في الكلام عن القضية التي يعمل عليها حالياً. ولم يتفاجأ حين أخبرت أمه الفخورة إيما خلال العشاء أن أليستاير هو أصغر شريك في شركة المحاماة منذ موت زوجها. وعندها، افترضت إيما أن فيليس تعرف سبب عدم زواجه.

لا تعرف إيما ما إذا كان الطعام اللذيذ، أو الشراب الممتاز، أو الضيافة الأميركية ما جعلها تسترخي كثيراً وتخبرهما بكل ما حصل معها منذ أن رأتها العمة فيليس لآخر مرة في ملعب الهوكي في مدرسة ريد مايدس.

وعندما شرحت إيما السبب الذي دفعها إلى اجتياز المحيط الأطلسي بالرغم من كل المخاطر، كانا كلاهما يحدقان إليها كما لو أنها آتية من كوكب آخر.

وبعد أن تناول أليستاير آخر لقمة من تارت الفاكهة وحوّل انتباهه إلى كأس الشراب الكبيرة، أمضى الدقائق الثلاثين التالية وهو يتأمل ضيفتهما غير المتوقعة، كما لو أنه في المحكمة وهي شاهدة عدائية.

ثم قال وهو يطوي منديله: «حسناً، عليّ القول يا أمي إن هذه القضية تبدو واعدة أكثر من قضية شركة «أمالغايتد واير» ضد شركة «نيويورك الكتريك». أتحرق شوقاً للقاء سيفتون جيلكس».

فقالت إيما: «وما الجدوى من تبديد وقتنا مع سيفتون جيلكس فيما الأهم هو إيجاد هاري وتوضيح الحقيقة؟».

قال أليستاير: «أوافقك الرأي، ولكنني أشعر أن الأول سيقودنا إلى الآخر». ثم أمسك بنسخة إيما من كتاب مذكرات سجين، غير أنه لم يفتح الكتاب بل اكتفى بتأمل الغلاف.

سألت فيليس: «من الناشر؟».

فأجاب أليستاير: «فايكينغ للنشر». ورفع نظارته.

«هارولد غوينزبورغ».

سأل أليستاير أمه: «هل تعتقدين أنه تعاون مع ماكس لويد في هذه المسألة؟».

أجابت: «طبعاً لا. أخبرني والدك ذات مرة أنه تواجه مع غوينزبورغ في المحكمة. وأذكر أنه وصفه بالخصم المذهل، ولكنه رجل لا يفكر أبداً في تخطي القانون أو خرقه».

فقال أليستاير: «إذاً، نحن نملك فرصة؛ لأنه في هذه الحالة لن يسرّ أبداً بما حصل تحت اسمه. لكن عليّ قراءة الكتاب أولاً قبل أن أدبر اجتماعاً مع الناشر». ونظر أليستاير عبر الطاولة وابتسم لإيما. «أتحرق شوقاً لمعرفة رأي السيد غوينزبورغ فيك أيتها الشابة».

وقالت فيليس: «وأتحرق شوقاً أيضاً لمعرفة رأي إيما في هارولد غوينزبورغ».

قال أليستاير: «تأثرت فعلاً يا أمي».

وبعد أن سكب باركر كأساً أخرى لأليستاير وأشعل له سيجاره مجدداً، تجرأت إيما على سؤاله عن احتمالات السماح لها بزيارة هاري في سجن لافنهام.

قال لها: «سأتقدم غداً بطلب بالنيابة عنك. وسوف نرى إذا كان بوسعي إنجاز شيء أفضل من تحرّيك المفيد».

كررت إيما: «تحريَّ المفيد؟».

قال أليستاير: «مفيد على غير العادة. فبعدما أدرك تورط جيلكس في القضية، أستغرب فعلاً كيف وافق التحري كولوكسي على رؤيتك».

قالت فيليس، فيما غمزت إيما: «لا أستغرب أبداً أنه كان متعاوناً».

«أتقولين إن زوجك هو الذي ألّف هذا الكتاب؟».

فأجابت إيما: «لا يا سيد غوينزبورغ. أنا وهاري كليفتون لم نتزوج، ولكنني أم طفله. لكن نعم، هاري هو الذي ألّف مذكرات سجين أثناء سجنه في لافنهام».

نزع هارولد غوينزبورغ النظارة الصغيرة عن طرف أنفه، ونظر عن كثب إلى المرأة الشابة الجالسة في الجهة المقابلة من مكتبه، ثم قال: «ثمة مشكلة بسيطة في أقوالك، وعليّ القول إن كل عبارة من المذكرات اليومية كتبت بخط السيد لويد».

«لقد نسخ مخطوطات هاري حرفياً».

«لكي يكون هذا الأمر ممكناً، فلا بد أن يكون السيد لويد قد تشارك الزنزانة مع توم برادشو، وهذا أمر يصعب التحقق منه».

عندها اقترح أليستاير: «أو ربما عملا معاً في المكتبة».

قال غوينزبورغ: «إذا استطعت إثبات ذلك فستصبح شركتي، وأنا معها طبعاً، في وضع حرج فعلاً. وسيتوجّب عليّ في هذه الحالة طلب مساعدة قانونية».

عندها قال أليستاير الجالس إلى يمين إيما: «نريد أن نوضّح منذ البداية أننا جئنا إلى هنا بنية طيبة؛ لأننا شعرنا أنه يجدر بك معرفة قصة قريبتي».

فقال غوينزبورغ: «ولهذا السبب تحديداً وافقت على رؤيتكما؛ لأنني من أشد المعجبين بالمرحوم والدك».

«لم أكن أعلم أنك تعرفه».

فقال غوينزبورغ: «لم أعرفه، ولكنه كان الطرف الآخر في نزاع تورّطت فيه شركتي، وقد غادرت قاعة المحكمة حينها متمنياً لو أنه إلى جانبي. لكن، إذا أردتُ الأخذ بقصة قريبتك، فأتمنى ألا تعارض طرحي على الآنسة بارينغتون سؤالاً واحداً أو اثنين».

قالت إيما: «تسرّني الإجابة عن أية أسئلة تراودك يا سيد غوينزبورغ. لكن، هل يمكنني أن أسألك إذا كنت قد قرأت كتاب هاري؟».

«أنا أحرص على قراءة كل كتاب ننشره يا آنسة بارينغتون. لا أستطيع الادعاء بأنني أجد كل الكتب ممتعة، أو أنني أنهيها كلها. ولكنني حين قرأت كتاب مذكرات سجين، عرفت لحظة أنهيت الفصل الأول أن الكتاب سيحقق مبيعات هائلة. وقد كتبت أيضاً ملاحظة على هامش الصفحة 211». ورفع غوينزبورغ الكتاب وقلّب صفحاته قبل أن يقرأ: «لطالما أردت أن أكون كاتباً، وأعمل حالياً على وضع الخطوط الأولى للجزء الأول من سلسلة روايات بوليسية حصلت في بريستول».

عندها قالت إيما مقاطعة الرجل العجوز: «بريستول. كيف يمكن أن يعرف ماكس لويد أي شيء عن بريستول؟».

فأجاب غوينزبورغ: «توجد بريستول في ولاية إيلينويس التي يتحدر منها السيد لويد يا آنسة بارينغتون؛ مثلما أخبرني ماكس عندما قلت له إنني مهتم بقراءة الجزء الأول من السلسلة».

فوعدته إيما: «لن تفعل أبداً».

قال غوينزبورغ: «لقد سلّم الفصول الأولى من رواية هوية خاطئة، وعليّ القول إنها جيدة».

«وهل تلك الفصول مكتوبة بالأسلوب نفسه مثل المذكرات؟».

«نعم. وقبل أن تسألي يا آنسة بارينغتون، إنها مكتوبة أيضاً بالخط اليدوي نفسه؛ إلا إذا كنت تقترحين أنها منسوخة أيضاً».

«لقد فعل ذلك في المرة الأولى، فلماذا لن يحاول مرة ثانية؟».

قال غوينزبورغ: «لكن، هل لديك أي دليل حقيقي على أن السيد لويد لم يكتب مذكرات سجين؟». وبدأ يتوتر قليلاً.

«نعم يا سيدي. فأنا «إيما» المذكورة في الكتاب».

«في هذه الحالة يا آنسة بارينغتون، أوافق الكاتب الرأي بأنك فعلاً رائعة الجمال، وقد أثبتّ فعلاً- على حد قول الكاتب- أنك شجاعة ومستعدة للقتال».

ابتسمت إيما وقالت: «وأنت مغازل قديم يا سيد غوينزبورغ».

عندها قال غوينزبورغ وهو يعيد النظارة إلى طرف أنفه: «مثلما قال، شجاعة ومستعدة للقتال، لكنني أشك في أن تؤخذ أقوالك على محمل الجد في المحكمة. يستطيع سيفتون جيلكس إحضار نصف دزينة من «إيما» إلى قاعة المحكمة ليشهدن جميعاً بأنهن عرفن لويد طوال حياتهن. أحتاج إلى شيء أكثر إقناعاً».

«ألا تجد أنها مصادفة كبيرة يا سيد غوينزبورغ أن يوم وصول توماس برادشو إلى لافنهام هو أول يوم من المذكرات؟».

«شرح السيد لويد أنه لم يكن بوسعه الشروع في كتابة المذكرات إلا بعدما أصبح المسؤول عن مكتبة السجن، حيث بات لديه المزيد من الوقت لنفسه».

«لكن، كيف تفسر أنه لم يتحدث قط عن ليلته الفائتة في السجن، أو صباح اليوم الذي تم فيه إطلاق سراحه؟ تناول الفطور فقط في مطعم السجن، ثم ذهب إلى المكتبة للبدء بيوم عمل جديد».

سأل غوينزبورغ: «ما هو شرحك؟». فيما نظر إليها من فوق نظارته.

«الشخص الذي كتب المذكرات لا يزال في لافنهام، ويعمل ربما على تأليف الجزء الثاني».

فقال غوينزبورغ رافعاً حاجبه: «لا يفترض أن يصعب عليك التحقق من ذلك».

عندها قال أليستاير: «أوافقك الرأي، وقد تقدمت أصلاً بطلب بالنيابة عن الآنسة بارينغتون لزيارة السيد برادشو في السجن، وأنتظر الحصول على موافقة آمر سجن لافنهام».

سأل غوينزبورغ: «هل لي أن أطرح عليك بعض الأسئلة الإضافية يا آنسة باريغتون، على أمل تبديد أي شكوك باقية؟».

أجابت إيما: «نعم طبعاً».

ابتسم الرجل العجوز، وخلع معطفه، ورفع نظارته على أنفه، وتأمل لائحة من الأسئلة المدونة على دفتر أمامه. «من هو الكابتن جاك تارانت المعروف أحياناً بالعجوز جاك؟».

«إنه صديق قديم لجدي. وقد خدما معاً في حرب بوير».

«أي جد؟».

«السير والتر بارينغتون».

أومأ الناشر برأسه. «وهل اعتبرت السيد تارانت رجلاً نبيلاً؟».

«لا يمكن لومه على أي شيء؛ تماماً مثل زوجة القيصر. ربما كان صاحب التأثير الأكبر في حياة هاري».

«لكن، أليس هو السبب وراء عدم زواجك أنت وهاري؟».

سأل أليستاير: «أهذا السؤال مناسب برأيك؟».

فقال غوينزبورغ من دون أن يُبعد عينيه عن إيما: «أعتقد أننا على وشك معرفة ذلك».

عندها، أجابت إيما بصوت مخنوق: «شعر جاك أنه من واجبه إبلاغ رجل الدين بأن والدي- هوغو بارينغتون- قد يكون أيضاً والد هاري».

تدخل أليستاير: «هل كان هذا ضرورياً يا سيد غوينزبورغ؟».

قال الناشر: «أوه نعم». ورفع نسخة من كتاب مذكرات سجين عن مكتبه، وتابع قائلاً: «أنا مقتنع الآن أن هاري كليفتون، وليس ماكس لويد، هو من كتب هذا الكتاب».

ابتسمت إيما وقالت: «شكراً لك، رغم أنني لا أعرف ما يمكنني فعله».

عندها، قال غوينزبورغ: «أعرف بالضبط ما يجب فعله. في البداية، سأنشر نسخة معدلة بأسرع ما يمكن، مع تعديلين أساسيين: سوف يحل اسم هاري كليفتون مكان اسم ماكس لويد على الغلاف الأمامي، وستظهر صورته على الغلاف الخلفي؛ على افتراض أنك تملكين واحدة يا آنسة بارينغتون».

قالت إيما: «لديّ العديد من الصور، ومنها صورة له على متن السفينة كنساس ستار أثناء دخولها مرفأ نيويورك».

بدأ غوينزبورغ كلامه بالقول: «وهذا يفسّر أيضاً...»

فقاطعه أليستاير: «لكنك إذا فعلت ذلك، فسوف تعمّ الفوضى. وسوف يرفع جيلكس دعوى تشويه سمعة نيابة عن موكله، وسيطلب تعويضاً عن الأضرار».

عندها قال غوينزبورغ: «فلنأمل ذلك. لأنه إذا فعل، فسيصبح الكتاب من دون شك الرقم الأول في لوائح المبيعات، وسيبقى كذلك لأشهر عدة. لكن إذا لم يفعل أي شيء- وأعتقد أن هذا ما سيحصل- فسيؤكد لنا ذلك أنه الشخص الوحيد الذي رأى الدفتر الناقص الذي كتبه هاري كليفتون عند وصوله إلى لافنهام».

قالت إيما: «إذاً، عرفت أنه يوجد دفتر آخر».

فقال غوينزبورغ: «طبعاً يوجد. وفي الواقع، إن ذكرك لسفينة كنساس ستار هو الذي جعلني أدرك أن المخطوطة التي قدّمها لي السيد

لويد على أنها الفصول الأولى من هوية خاطئة ليست سوى سرد لما حصل لهاري كليفتون قبل أن يُحكَم عليه بجريمة لم يرتكبها».

قالت إيما: «هل يمكنني قراءتها؟».

لحظة دخلت إيما مكتب أليستاير، أدركت أن خطباً ما قد حصل. فالترحيب الودود المألوف، والابتسامة اللبقة قد اختفيا ليحل مكانهما عبوس شديد.

قالت: «لن يسمحوا لي بزيارة هاري، أليس كذلك؟».

فقال أليستاير: «لا. لقد تم رفض طلبك».

«لكن، لماذا؟ أخبرتني أن هذا من حقوقي».

«اتصلت بآمر السجن في وقت سابق من هذا الصباح، وطرحت عليه السؤال نفسه».

«وما الحجة التي أعطاها؟».

فقال أليستاير: «يمكنك سماعها بنفسك لأنني سجّلت حديثنا. أصغي جيداً لأن الحديث يعطينا ثلاثة تلميحات مهمة جداً». ومن دون أية كلمة أخرى، انحنى إلى الأمام وضغط على زر التشغيل في المسجّل، فتحركت أسطوانتان صغيرتان.

«سجن لافنهام».

«أريد التحدث مع آمر السجن».

«من المتصل؟».

«أليستاير ستيوارت. محامٍ في نيويورك».

صمت، ومن ثم رنين آخر. صمت أطول، ومن ثم: «سأصلك به يا سيدي».

كانت إيما جالسة على حافة مقعدها عندما سمعت صوت آمر السجن.

«صباح الخير يا سيد ستيوارت. أنا آمر السجن سوانسون. كيف أستطيع مساعدتك؟».

«صباح الخير سيد سوانسون. تقدمت قبل عشرة أيام بطلب بالنيابة عن موكلتي، الآنسة إيما بارينغتون، لزيارة السجين توماس برادشو في أقرب فرصة ممكنة. إلا أنني تلقيت رسالة من مكتبك هذا الصباح تفيد بأنه تم رفض الطلب. ولا أجد سبباً قانونياً...»

«سيد ستيوارت، تمت دراسة طلبك بالطريقة القانونية، ولكنني لم أستطع منحك الموافقة لأن السيد برادشو لم يعد موجوداً في هذا المبنى».

تلا ذلك فترة صمت أخرى، لكن إيما لاحظت أن الشريط لا يزال يعمل. أخيراً، قال أليستاير: «وإلى أي سجن تم نقله؟».

«لا يحق لي الكشف عن هذه المعلومات يا سيد ستيوارت».

«لكن وفقاً للقانون، يحق لموكلتي...»

«لقد وقّع السجين على مستند تخلى فيه عن حقوقه، ويمكنني إرسال نسخة منه إليك».

فقال أليستاير: «لكن، لماذا فعل ذلك؟». كما لو أنه رمى الطعم في الماء.

فكرر آمر السجن: «لا يحق لي الكشف عن هذه المعلومات». وبالتالي، لم يعلق في الطعم.

سأل أليستاير: «هل يمكنك كشف أية معلومة في ما يتعلق بتوماس برداشو؟». وحاول ألا يبدو يائساً جداً.

تلا ذلك صمت آخر، ورغم استمرار الشريط المسجل في العمل، تساءلت إيما عما إذا كان آمر السجن قد أغلق هاتفه. عندها وضع أليستاير إصبعه على شفته، ثم عاد الصوت إلى الخط فجأة.

«تم إطلاق سراح هاري كليفتون من السجن، ولكنه مستمرّ في تنفيذ حكمه». صمت آخر طويل. «وفقدتُ أفضل مسؤول عن المكتبة عرفه هذا السجن».

أُنهي الاتصال الهاتفي.

ضغط أليستاير على زر التوقف قبل أن يتكلم. «ساعدنا آمر السجن بقدر ما يستطيع».

قالت إيما: «أتعني بذكره اسم هاري حرفياً؟».

«نعم، ومن خلال قوله لنا إنه خدم في مكتبة السجن حتى فترة وجيزة. وذلك يبرر كيفية حصول لويد على دفاتر اليوميات».

أومأت إيما برأسها وقالت: «ولكنك قلت لي إن هناك ثلاثة تلميحات رئيسة. فما هو التلميح الثالث؟».

«أنه تم إطلاق سراح هاري من سجن لافنهام، ولكنه ما زال يؤدي فترة سجنه».

قالت إيما: «لا بد أنه موجود في سجن آخر».

فقال أليستاير: «لا أعتقد ذلك. نحن الآن في حالة حرب، وأعتقد أن توم برادشو سيؤدي بقية حكمه في الأسطول البحري».

«ما الذي يدفعك إلى مثل هذا التفكير؟».

فأجاب أليستاير: «الأمر مذكور في المذكرات اليومية». وحمل نسخة من مذكرات سجين، وفتح صفحة عليها علامة وقرأ: «أول شيء سأفعله حين أعود إلى بريستول هو الانضمام إلى الأسطول البحري ومحاربة الألمان».

«لكنهم لن يسمحوا له أبداً بالعودة إلى إنكلترا قبل إنهائه فترة حكمه».

«لم أقل إنه انضم إلى الأسطول البحري البريطاني».

فقالت إيما: «يا إلهي!». بعدما فهمت مغزى كلمات أليستاير.

قال أليستاير بمرح: «على الأقل، نحن الآن نعرف أن هاري ما زال على قيد الحياة».

«ليته لا يزال في السجن».

هوغو بارينغتون

1943–1942

33

أقيم حفل تأبين السير والتر في دار عبادة سانت ماري ريدكليف. ولا شك في أن رئيس مجلس الإدارة السابق لشركة بارينغتون للشحن البحري كان سيشعر بالفخر لدى رؤيته هذا العدد الكبير من الحشود، وسماعه الكلمة المؤثرة التي ألقاها رجل الدين.

بعد انتهاء الحفل، وقف المعزون في الصف لتقديم التعازي للسير هوغو، فيما وقف عند الباب الشمالي لدار العبادة برفقة أمه. استطاع أن يشرح للذين سألوه عن ابنته أن إيما محتجزة في نيويورك، ولكنه لم يستطع أن يشرح لهم سبب ذهابها إلى هناك أساساً. كما شرح لهم أن ابنه جيل الذي يفتخر به كثيراً محتجز في معسكر ألماني في واينسبرغ. فقد تولّت أمه نقل هذه المعلومات له في الليلة السابقة.

خلال حفل التأبين، جلس اللورد واللايدي هارفي، وإليزابيت؛ زوجة هوغو السابقة، وابنتهما غرايس في الصف الأول في دار العبادة في الجهة المقابلة لهوغو.

وفي النهاية، قدموا جميعاً التعازي للأرملة الحزينة، وغادروا عمداً من دون الاكتراث بوجوده.

فيما جلست مايزي كليفتون في الجهة الخلفية من دار العبادة، وقد أخفضت رأسها طوال الوقت، ثم غادرت قبل لحظات من انتهاء حفل التأبين.

وعندما وقف بيل لوكوود، المدير التنفيذي لشركة بارينغتون، لمصافحة رئيسه الجديد وتقديم التعازي له، كان كل ما قاله له هوغو: «أتوقع رؤيتك في مكتبي صباح غد في تمام الساعة التاسعة».

فأحنى السيد لوكوود رأسه باحترام.

بعد حفل التأبين، استقبل هوغو المعزّين في بارينغتون هول، وراح يتجوّل بينهم، فاكتشف العديدون منهم أنه لم تعد لديهم وظيفة مع شركة بارينغتون. وعندما غادر آخر ضيف، صعد هوغو إلى غرفته وبدّل ملابسه لتناول العشاء.

دخل قاعة الطعام ممسكاً بذراع أمه. وبعد أن جلست أمه، جلس على كرسي والده عند رأس الطاولة. وخلال وجبة الطعام، أثناء غياب الخدم، أخبر أمه أنه تغيّر نحو الأفضل؛ بالرغم من سوء ظن والده به.

وأكد لها أن الشركة بين يدين أمينتين، وأن لديه العديد من البرامج الواعدة لمستقبلها.

وعند الساعة 9:23 من صباح اليوم التالي، عبَر هوغو بوابات شركة بارينغتون للشحن البحري في سيارته البوغاتي للمرة الأولى منذ أكثر من عامين. ركن سيارته في المساحة المخصصة لرئيس مجلس الإدارة قبل أن يصعد إلى مكتب والده القديم.

وعندما خرج من المصعد في الطابق الرابع، رأى بيل لوكوود يذرع الرواق ذهاباً وإياباً خارج مكتبه، حاملاً ملفاً أحمر تحت إبطه. إلا أن هوغو أصرّ على إبقائه منتظراً.

قال لوكوود فيما تقدم نحوه: «صباح الخير هوغو».

إلا أن هوغو تابع طريقه من دون أن يرد على تحيّته، وقال لسكرتيرته القديمة كما لو أنه لم يغب قط: «صباح الخير آنسة بوتس. سأبلغك متى أصبح مستعداً للقاء السيد لوكوود». ثم دخل مكتبه الجديد.

جلس أمام مكتب والده- إذ كان لا يزال يعتبره هكذا، وتساءل عن الوقت الذي سيستمر فيه هذا الشعور- ثم شرع في قراءة جريدة تايمز. بعد دخول الأميركيين والروس الحرب، تزايد عدد الأشخاص الواثقين من انتصار الحلفاء. وضع الجريدة جانباً.

«سأرى السيد لوكوود الآن يا آنسة بوتس».

دخل المدير التنفيذي مكتب رئيس مجلس الإدارة وقد رسم ابتسامة على وجهه، ثم قال: «أهلاً بك مجدداً يا هوغو».

فنظر إليه هوغو بصرامة وقال: «رئيس مجلس الإدارة».

عندها قال المدير التنفيذي: «آسف، حضرة رئيس مجلس الإدارة». علماً أن هذا الرجل كان موجوداً في مجلس إدارة شركة بارينغتون حين كان هوغو لا يزال طفلاً صغيراً.

«أريد منك إطلاعي على الوضع المالي للشركة».

«طبعاً حضرة رئيس مجلس الإدارة». وفتح لوكوود الملف الأحمر الذي كان يحمله تحت إبطه.

إلا أنه بقي واقفاً لأن رئيس مجلس الإدارة لم يدعه للجلوس، وبدأ بالقول: «نجح والدك في إبقاء الشركة صامدة خلال الأوقات الصعبة.

وبالرغم من العقبات العديدة، ولاسيما استمرار الألمان في قصف أحواض السفن خلال الغارات الليلية في المرحلة الأولى من الحرب، وبمساعدة العقود الحكومية، نجحنا في اجتياز العاصفة. ولذلك يفترض أن نكون في وضع جيد عند انتهاء هذه الحرب المريعة».

قال هوغو: «اختصر، أخبرني بالخلاصة».

فتابع المدير التنفيذي كلامه فيما قلب الصفحة: «في العام الماضي، حققت الشركة ربحاً يقدّر بسبعة وثلاثين ألفاً، وأربعمئة باوند وعشرة شلنات».

قال هوغو: «يستحسن أن ننسى أمر الشلنات العشرة، أليس كذلك؟».

فأجاب لوكوود متجاهلاً السخرية: «كان والدك يصر على ذلك».

«وماذا عن هذا العام؟».

«تشير النتائج نصف السنوية إلى أننا في وضع مساوٍ، لا بل ربما هو أفضل من العام الماضي». وقلب لوكوود صفحة أخرى.

سأل هوغو: «ما هو عدد المقاعد المتوافرة حالياً في مجلس الإدارة؟».

تفاجأ لوكوود بتبديل الموضوع، وتوجّب عليه قلب صفحات عدة قبل أن يتمكن من الإجابة. «ثلاثة، لأن اللورد هارفي، والسير ديريك سينكلير، والكابتن هيفتز استقالوا جميعاً بعد وفاة والدك».

قال هوغو: «يسعدني سماع ذلك. فهذا يوفر عليّ عناء طردهم».

«أفترض، يا حضرة رئيس مجلس الإدارة، أنك لا ترغب في تدوين هذه المشاعر في محضر هذا اللقاء، أليس كذلك؟».

فأجاب هوغو: «لا يهمني أبداً إذا فعلت أو لم تفعل».

عندها، أخفض المدير التنفيذي رأسه.

سأله هوغو: «متى موعد تقاعدك؟».

«سأبلغ الستين بعد شهرين تقريباً. لكن إذا شعرت، يا حضرة رئيس مجلس الإدارة، نظراً للظروف الراهنة...»

«أي ظروف؟».

«بما أنك استلمت منصبك للتو، يمكنني البقاء لبضعة أعوام إضافية».

فقال هوغو: «هذا لطف منك». فابتسم المدير التنفيذي للمرة الثانية هذا الصباح، فيما تابع هوغو: «لكن من فضلك لا ترهق نفسك من أجلي. يناسبني أن تبقى شهرين فقط. ما هو التحدي الأكبر الذي نواجهه في الوقت الحاضر؟».

أجاب لوكوود بعد أن تعافى من الصدمة: «تقدّمنا مؤخراً للحصول على مناقصة حكومية كبيرة لتأجير سفننا التجارية للأسطول البحري. لسنا المفضلين، ولكنني أعتقد أن والدك استطاع إثبات نفسه جيداً عندما قام المحققون بزيارة الشركة في وقت سابق من هذا العام، ولذلك يفترض أن يتم أخذنا على محمل الجد».

«متى سنعرف النتيجة؟».

«أخشى أن ذلك سيتطلب بعض الوقت. فالموظفون الحكوميون المدنيون لا يعملون بسرعة. وقد حضّرت أيضاً بعض الأوراق لتراجعها، يا حضرة رئيس مجلس الإدارة، حيث تكون على اطلاع بأحدث الأمور قبل أول اجتماع لمجلس الإدارة».

فأجاب هوغو: «لا أنوي عقد أي اجتماعات لمجلس الإدارة في المستقبل. فأنا أثق في القيادة المباشرة. لذا، سأتخذ القرارات بمفردي، وسأتحمل مسؤوليتها. ولكنك تستطيع ترك أوراقك مع سكرتيرتي لأطلع عليها عندما يتسنى لي الوقت».

«مثلما تريد يا حضرة رئيس مجلس الإدارة».

وبعد لحظات قليلة من مغادرة لوكوود المكتب، نهض هوغو عن مقعده، وقال وهو يمرّ من أمام مكتب الآنسة بوتس: «سأذهب لزيارة المصرف».

فسألته الآنسة بوتس: «هل أتصل بالسيد برندرغاست لأبلغه بأنك تودّ رؤيته؟». فيما ركضت خلفه بسرعة في الرواق.

أجاب هوغو: «طبعاً لا. أريد مفاجأته».

سألته الآنسة بوتس فيما دخل المصعد: «هل من شيء تريد مني تحضيره قبل عودتك يا سيد هوغو؟».

«نعم، احرصي على تبديل الاسم على باب مكتبي قبل عودتي».

فاستدارت الآنسة بوتس للنظر إلى باب المكتب، حيث عُلِّقت لوحة كُتِب عليها بأحرف ذهبية: السير والتر بارينغتون، رئيس مجلس الإدارة.

أُغلِق باب المصعد.

وفيما توجّه هوغو إلى وسط بريستول، أحسّ أن الساعات القليلة الأولى التي أمضاها في منصبه كرئيس لمجلس الإدارة كانت ممتازة فعلاً. كل شيء على ما يرام. ركن سيارة البوغاتي أمام مصرف بروفنسيال الوطني في شارع كورن، وحمل علبة كان قد تركها تحت مقعد الركاب.

دخل المصرف، ومرّ أمام مكتب الاستقبال، وتوجّه مباشرة إلى مكتب المدير، ثم نقر برفق على الباب قبل دخوله. ذهل السيد برندرغاست، فيما وضع هوغو علبة أحذية على مكتبه وجلس على الكرسي قبالته.

«أتمنى أنني لم أقاطعك عن شيء مهم».

فقال برندرغاست محدقاً إلى علبة الأحذية: «طبعاً لا يا سيد هوغو. أنا متوافر من أجلك في أي وقت تريده».

«هذا جيد يا برندرغاست. لماذا لا تبدأ بإطلاعي على آخر أخبار برود ستريت؟».

عندها، مشى مدير المصرف في الغرفة، وفتح درجاً في خزانة، وأخرج منه ملفاً سميكاً ثم وضعه على الطاولة. فرز بعض الأوراق.

قال أخيراً: «أوه نعم. هذا ما كنت أبحث عنه».

وكان هوغو قد بدأ ينقر على ذراع الكرسي بتململ.

«من بين المتاجر الاثنين والعشرين التي توقفت عن العمل في برود ستريت منذ بدء القصف، وافق سبعة عشر منها على عرضك بدفع مبلغ مئتي باوند تقريباً مقابل التنازل عن الأرض؛ وهم رولان بائع الأزهار، وبايتس اللحام...»

«ماذا عن السيدة كليفتون؟ هل قبلت بعرضي؟».

«أخشى القول لا يا سيد هوغو. فالسيدة كليفتون لن تقبل بأقل من أربعمئة باوند. وقد أعطتنا مهلة حتى يوم الجمعة المقبل فقط».

«اللعنة. حسناً، يمكنك القول لها إن مئتي باوند هو عرضي النهائي. فهذه المرأة لم تملك يوماً فلساً واحداً باسمها، ولذلك لا أتوقع أن ننتظر طويلاً قبل أن تعود إلى رشدها».

عندها، سعل برندرغاست بخفّة بطريقة تذكرها هوغو جيداً، ثم قال:

«إذا نجحت في شراء كل العقارات الموجودة في ذلك الشارع، باستثناء عقار السيدة كليفتون، فأنا أعتقد أن مبلغ أربعمئة باوند سيكون منطقياً».

«إنها مخادعة. ما علينا سوى الانتظار».

«لا بأس، إذا كان هذا رأيك».

«نعم، هذا رأيي. وعلى أية حال، أعرف بالضبط الرجل القادر على إقناع السيدة كليفتون بأن تقبل بمبلغ مئتي باوند».

لم يكن برندرغاست مقتنعاً، غير أنه سأل: «هل من شيء أستطيع فعله من أجلك؟».

فأجاب هوغو وقد رفع الغطاء عن علبة الأحذية: «نعم. يمكنك وضع هذا المال في حسابي الشخصي، وإصدار دفتر شيكات جديد باسمي».

فقال برندرغاست وهو ينظر إلى العلبة: «طبعاً يا سيد هوغو. سأعدّ المال وأعطيك إيصالاً ودفتر شيكات».

«لكنني أحتاج إلى سحب مبلغ من المال فوراً، لأنني أريد شراء سيارة لاغوندا 12».

فقال برندرغاست: «لقد فازت هذه السيارة في سباق لو مانس. لكنك في الحقيقة كنت دوماً رائداً في هذا المجال».

فابتسم هوغو فيما نهض عن كرسيه.

«اتصل بي لحظة تدرك السيدة كليفتون أن مئتي باوند هو كل ما ستحصل عليه».

سأل هوغو فيما عاد إلى المكتب: «هل ما زال ستان تانكوك يعمل لدينا يا آنسة بوتس؟».

فأجابت سكرتيرته، فيما لحقت به إلى الغرفة: «نعم، سيدي. إنه عامل تحميل في فناء المخازن».

عندها، قال رئيس مجلس الإدارة فيما جلس خلف مكتبه: «أريد رؤيته على الفور».

فما كان من الآنسة بوتس إلا أن خرجت من الغرفة مسرعة.

حدق هوغو إلى الملفات المكدسة فوق مكتبه والتي يفترض به قراءتها قبل الاجتماع التالي لمجلس الإدارة. فتح غلاف أول ملف: لائحة بطلبات الاتحاد العمالي بعد لقائهم الأخير مع الإدارة. كان قد وصل إلى الرقم أربعة في اللائحة، القاضي بالحصول على إجازة مدفوعة لمدة أسبوعين كل سنة، عندما سمع طرقاً على الباب.

«تانكوك جاهز للقائك يا حضرة رئيس مجلس الإدارة».

«شكراً لك آنسة بوتس. دعيه يدخل».

دخل ستان تانكوك الغرفة، وخلع رداءه، ثم وقف أمام مكتب رئيس مجلس الإدارة، وقال: «هل أردت رؤيتي يا سيدي؟». وبدا متوتراً قليلاً.

نظر هوغو إلى العامل قصير القامة، غير حليق الذقن، الذي أوضح بطنه الكبير المكان الذي تذهب إليه معظم أجرته ليلة الجمعة.

«لديّ وظيفة من أجلك يا تانكوك».

فأجاب ستان: «نعم سيدي». وبدا أكثر تفاؤلاً.

«الأمر متعلق بأختك مايزي كليفتون، وقطعة الأرض التي تملكها في برود ستريت، حيث كان مقهى تيلي. هل تعرف أي شيء عن الأمر؟».

«نعم سيدي. عرض عليها أحدهم مبلغ مئتي باوند مقابل الحصول على الأرض».

قال هوغو: «حقاً!». وأخرج محفظته النقدية من جيبه الداخلي، وسحب منها ورقة خمسة باوندات ووضعها على المكتب. تذكر هوغو المظهر نفسه للعينين والشفتين عندما قام آخر مرة برشوة هذا الرجل. «أريدك أن تتأكد يا تانكوك من قبول أختك بالعرض، من دون الإيحاء بأنني من يقف خلف ذلك».

ومرر ورقة الباوندات الخمسة عبر المكتب.

فقال ستان: «لا مشكلة». وبات ينظر إلى ورقة النقود وليس إلى رئيس مجلس الإدارة.

عندها، قال هوغو فيما نقر على محفظته: «ستحصل على المزيد من هذه الأوراق يوم توقّع أختك على العقد».

«اعتبر الأمر منجزاً يا سيدي».

وأضاف هوغو بعفوية: «آلمني سماع ما حصل لابن أختك».

فأجاب ستان: «ليس الأمر مستغرباً بالنسبة إليّ، فقد تخطى حدوده برأيي».

«سمعت أنه دفن في البحر».

«نعم، قبل أكثر من عامين».

«كيف عرفتم؟».

«جاء طبيب السفينة لزيارة أختي».

«وهل أكد لها أن الشاب كليفتون قد دفن في البحر؟».

«طبعاً. حتى إنه أحضر لها رسالة من شاب كان على متن السفينة عند موت هاري».

فقال هوغو وقد انحنى إلى الأمام: «رسالة! ما الذي تقوله تلك الرسالة؟».

«لا أعرف يا سيدي. لم تفتحها مايزي قط».

«وما الذي فعلته بتلك الرسالة؟».

«لا تزال على المدفأة».

عندها، سحب هوغو ورقة خمسة باوندات أخرى وقال: «أود رؤية تلك الرسالة».

34

ضغط هوغو على مكابح سيارة اللاغوندا الجديدة عندما سمع بائع الجرائد ينادي اسمه من زاوية الشارع.

«حصل ابن السير هوغو بارينغتون على وسام الشجاعة في توبروك. اقرأوا الخبر!».

عندها، خرج هوغو من سيارته، وأعطى بائع الجرائد قطعة نقود ونظر إلى صورة ابنه عندما كان كابتن المدرسة في مدرسة بريستول للقواعد على الصفحة الأولى للجريدة. وعلى الفور، صعد إلى سيارته، وأطفأ المحرك وقرأ المقال.

حصل الملازم الثاني جيل بارينغتون من الفوج الأول في ويسيكس، وهو ابن السير هوغو بارينغتون، على الوسام العسكري بعد عمله البطولي في توبروك. فقد قاد الملازم بارينغتون فرقة من الجنود لمسافة ثمانين ياردة في الصحراء المفتوحة، وقتل ضابطاً ألمانياً وخمسة جنود آخرين، قبل أن ينقضّ على مخبأ للعدو ويأسر 63 جندياً ألمانياً من قوات روميل. وقد وصف الكولونيل روبرتسون من فوج ويسيكس تصرف الملازم بارينغتون بأنه ريادي جداً وشجاع كثيراً في ظل الظروف الراهنة.

آمر فصيلة الملازم بارينغتون، النقيب ألكس فيشر- وهو أيضاً من بريستول- شارك في العملية نفسها، وتم ذكره في النشرات الإخبارية تماماً

مثل الرقيب تيري بايتس، وهو لحام محلي من برود ستريت. إلا أن الملازم جيل بارينغتون تعرض لاحقاً للأسر على يد الألمان عندما سيطر روميل على توبروك. لذا، لم يعرف بارينغتون، ولا بايتس، بوسام الشجاعة الذي حصلا عليه لأنهما الآن سجينا حرب في ألمانيا. أما النقيب فيشر فقد فُقِد أثناء العملية. للمزيد من التفاصيل، الرجاء مراجعة الصفحتين 6 و7.

توجّه هوغو إلى المنزل مسرعاً لمشاركة الخبر مع أمه.

فقالت بعد أن أنهى قراءة المقال: «كم كان والتر سيفخر به. عليّ الاتصال بإليزابيت على الفور، في حال لم تسمع بالخبر».

وكانت تلك هي المرة الأولى التي يلفظ فيها أحدهم اسم زوجته السابقة منذ مدة طويلة.

قال ميتشيل: «اعتقدت أنك مهتم بمعرفة أن السيدة كليفتون تضع خاتم خطوبة».

«وممن ستتزوج تلك المرأة؟».

«اسمه أرنولد هولكومب على ما يبدو».

«ومن يكون؟».

«أستاذ مدرسة. إنه يدرّس اللغة الإنكليزية في مدرسة ميريوود الابتدائية. في الواقع، كان يدرّس هاري قبل ذهابه إلى سانت بيدس».

«لكنّ هذا حصل قبل أعوام عدة. لماذا لم تذكر هذا الاسم من قبل؟».

«التقيا مجدداً في الآونة الأخيرة، عندما بدأت السيدة كليفتون تحضر الصفوف المسائية».

فكرر هوغو: «الصفوف المسائية!».

أجاب ميتشيل: «نعم. إنها تتعلم القراءة والكتابة. يبدو أنها متفوقة على الشباب».

صرخ هوغو: «ماذا تقصد؟».

«عندما أنجز التلاميذ الامتحان النهائي، حلّت في المرتبة الأولى».

قال هوغو: «حقاً! ربما يجدر بي زيارة السيد هولكومب وإبلاغه بالضبط بما كانت خطيبته تفعله في الأعوام التي انقطع بها اتصالهما».

«عليّ الإشارة ربما إلى أن هولكومب لعب الملاكمة في جامعة بريستول، مثلما اكتشف ستان تانكوك بنفسه».

قال هوغو: «أستطيع تدبر الأمر بنفسي. وفي غضون ذلك، أريدك أن تراقب امرأة أخرى، قد تكون خطيرة جداً على مستقبلي؛ تماماً مثل مايزي كليفتون».

وعلى الفور، أخرج ميتشيل دفتراً صغيراً وقلم رصاص من جيب داخلي.

«إنها تدعى أولغا بيوتروفسكا، وهي تعيش في لندن، في الرقم 42 ساحة لاوندس. أريد أن أعرف اسم كل شخص تتصل به، وخصوصاً إذا

كان يعمل في مهنتك السابقة. لا توفّر أي تفاصيل؛ مهما كانت سخيفة أو كريهة برأيك».

وبعد أن أنهى هوغو كلامه، اختفى الدفتر والقلم. ثم أعطى ميتشيل مغلفاً؛ وهذا دليل على انتهاء اللقاء. فوضع ميتشيل مغلف المال في جيب سترته، ووقف وما لبث أن غادر.

تفاجأ هوغو بالملل الذي شعر به بسرعة في منصب رئيس مجلس إدارة شركة بارينغتون؛ إذ تضمّن عمله حضور اجتماعات لامتناهية، وقراءة أوراق كثيرة، وإصدار مقررات دائمة، ومراجعة مذكرات عديدة، والإجابة على كمية هائلة من الرسائل عن طريق البريد. وبالإضافة إلى كل ذلك، قبل أن يغادر كل مساء، كانت الآنسة بوتس تعطيه حقيبة مليئة بالمزيد من الأوراق التي يجب عليه مراجعتها قبل عودته إلى مكتبه في تمام الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي.

دعا هوغو ثلاثة من أصدقائه للانضمام إلى مجلس الإدارة، ومن بينهم أرشي فنويك وتوبي دانستايبل؛ على أمل أن يخففوا من العبء الملقى على عاتقه. إلا أنهم نادراً ما حضروا الاجتماعات، وفي المقابل توقعوا الحصول على حصتهم المالية.

وهكذا، مع مرور الأسابيع، بدأ هوغو يصل إلى المكتب في وقت متأخر أكثر فأكثر، ثم ذكّره بيل لوكوود بأنه سيحتفل بذكرى ميلاده الستين بعد أيام قليلة وسيتقاعد، فما كان من هوغو إلا أن قال له إنه قرر إبقاءه لسنتين إضافيتين.

فأجاب لوكوود: «هذا لطف منك يا حضرة رئيس مجلس الإدارة. ولكنني أشعر بأنني خدمت الشركة لأربعين عاماً تقريباً، وقد حان الوقت كي أفسح المجال أمام رجل أكثر شباباً».

عندها، ألغى هوغو حفلة الوداع الخاصة بلوكوود.

الرجل الأكثر شباباً كان راي كومبتون، نائب لوكوود الذي مضت أشهر قليلة فقط على وجوده في الشركة، وهو حتماً لم يُثبِت موقعه بعد. وعندما قدّم النتائج السنوية لشركة بارينغتون أمام مجلس الإدارة، اعترف هوغو للمرة الأولى بأن الشركة تنهار، واتفق مع كومبتون على ضرورة التخلص من بعض عمال أحواض السفن قبل أن تعجز الشركة عن دفع أجورهم.

ومع تضاؤل ثروة شركة بارينغتون، بدا مستقبل الأمة أكثر تفاؤلاً.

فقد انسحب الجيش الألماني من ستالينغراد، وبدأ البريطانيون يعتقدون للمرة الأولى أن الحلفاء يمكنهم أن يربحوا الحرب. وبدأت الثقة في المستقبل تتغلغل في نفوس الأمة، وأُعيد فتح المسارح والنوادي والمطاعم في كل أرجاء البلاد.

أحب هوغو العودة إلى المدينة والانضمام إلى بيئته الاجتماعية هناك، ولكنّ تقارير ميتشيل أوضحت له جلياً أنه يجدر به الابتعاد عن لندن.

لم يبدأ العام 1943 بشكل جيد لشركة بارينغتون.

فقد أُلغيت عدة عقود من زبائن شعروا باليأس لأن رئيس مجلس الإدارة لم يزعج نفسه بالإجابة عن رسائلهم، وبدأ العديد من المدينين يطالبون بأموالهم؛ لا بل إن واحداً أو اثنين منهم هددا باللجوء إلى القضاء. وذات صباح، أشرق بصيص أمل جعل هوغو يعتقد أنه سيحل كل مشاكله النقدية الفورية.

فقد ورده اتصال من برندرغاست عزز آماله.

إذ اتصلت شركة العقارات «يونايتد دومينيون» بمدير المصرف، وأبدت اهتمامها بشراء موقع برود ستريت.

قال برندرغاست بتبجح نوعاً ما: «أعتقد يا سيد هوغو أنه من الأفضل عدم ذكر الرقم عبر الهاتف».

وبعد أربعين دقيقة فقط، كان هوغو جالساً في مكتب برندرغاست، وشهق عندما سمع المبلغ المعروض.

كرر هوغو: «هل قلت إن المبلغ أربعة وعشرون ألف باوند؟».

فأجاب برندرغاست: «نعم، وأنا واثق من أن هذا هو السعر الأولي. فبإمكاني رفع السعر لجعله يصل إلى الثلاثين. وإذا تذكّرنا أن تكلفة مشروعك الأساسي كانت أقل من ثلاثة آلاف باوند، فإن هذا الاستثمار يعتبر مربحاً جداً. لكن، ثمة عقبة صغيرة».

فقال هوغو قلقاً: «عقبة!».

أجاب برندرغاست: «السيدة كليفتون. فالعرض مشروط بحصولك على ملكية كل الموقع، بما في ذلك حصتها».

عندها، صرخ هوغو: «أعطِها ثماني مئة».

سعل برندرغاست كالعادة؛ رغم أنه لم يذكّر زبونه بأنه لو أخذ بنصيحته سابقاً واتفق مع السيدة كليفتون لدفع أربعمئة باوند فقط قبل بضعة أشهر. وإذا اكتشفَت الآن عرض شركة «يونايتد دومينيون»...

غير أن برندرغاست اكتفى بالقول: «سأبلغك فور حصولي على جواب منها».

قال هوغو: «افعل ذلك. وفيما أنا هنا الآن أريد سحب القليل من المال النقدي من حسابي الخاص».

«آسف يا سيد هوغو، لكنّ هذا الحساب فارغ في الوقت الحاضر...»

كان هوغو جالساً على المقعد الأمامي في سيارة اللاغوندا ذات اللون الأزرق الملكي عندما دفع السيد هولكومب باب المدرسة وبدأ يمشي في الملعب. توقف للتحدث مع عامل صيانة كان يطلي البوابات الأمامية بطبقة جديدة من الطلاء الليلكي والأخضر، أي لونَي مدرسة ميريوود.

«أنت تنجز عملاً جيداً يا ألف».

وسمع هوغو عامل الصيانة يقول: «شكراً لك يا سيد هولكومب».

«لكنني ما زلت أتوقع منك التركيز أكثر على الأفعال، وحاول ألا تتأخر يوم الأربعاء».

فلمس آلف قبعته.

بدأ السيد هولكومب يمشي على الرصيف، وتظاهر بأنه لم يرَ هوغو الجالس وراء مقود سيارته. عندها، سمح هوغو لنفسه بالتكشير. فالجميع ينظرون بإعجاب إلى سيارته اللاغوندا 12. وهناك ثلاث سيدات وقفن على الرصيف المقابل، ولم يستطعن إبعاد عيونهن عن السيارة طوال نصف الساعة الماضية.

خرج هوغو من السيارة ووقف في وسط الرصيف، لكن هولكومب تجاهله. كان على مسافة خطوة واحدة منه عندما قال هوغو: «أتساءل إذا كان بوسعنا التكلم يا سيد هولكومب. اسمي...»

قال هولكومب: «أعرف جيداً من تكون». وتابع طريقه.

عندها، لحق هوغو بأستاذ المدرسة وقال: «شعرت فقط أنه يجدر بك أن تعلم...»

فقال هولكومب: «أعلم ماذا؟». فيما توقّف في مكانه واستدار لمواجهته.

«بما فعلته خطيبتك لجني لقمة عيشها، قبل زمن غير طويل».

«أجبرت على العمل في مكان مشبوه لأنّك لم تدفع تكاليف دراسة ابنها»- ثم نظر مباشرة إلى عيني هوغو وأضاف: «تكاليف دراسة ابنك في المدرسة، عندما كان في آخر سنتين في مدرسة بريستول للقواعد».

فقال هوغو بتحدٍّ: «ما من دليل على أن هاري كليفتون ابني».

«كان هناك دليل كافٍ بالنسبة إلى رجل الدين، ولذلك رفض السماح بزواج هاري من ابنتك».

«كيف عرفت؟ فأنت لم تكن هناك».

«كيف عرفت؟! لقد هربت».

عندها قال هوغو صارخاً: «إذاً، دعني أخبرك شيئاً لا تعرفه حتماً. هذه المرأة الفاضلة التي تنوي قضاء ما تبقى من حياتك معها خدعتني بقطعة أرض كنت أملكها في برود ستريت».

فقال هولكومب: «دعني أخبرك شيئاً تعرفه حتماً. سدّدت مايزي كل قرش من قرضك، وتركتها مع أقل من عشرة باوندات باسمها».

قال هوغو: «هذه الأرض تساوي الآن أربعمئة باوند، وهي ملك لي». ولكنه ندم فوراً على كلماته ما إن تفوّه بها.

«لو كانت ملكك، لما حاولت الآن شراء الموقع بضعف هذا المبلغ».

كان هوغو متوتراً جداً، لدرجة أنه سمح لنفسه بالكشف عن مدى اهتمامه بالموقع، ولكنه لم يكن قد أنهى كلامه. «حين تقوم بعلاقة حميمة مع مايزي كليفتون، ادفع لها المال يا أستاذ المدرسة، لأنني لم أفعل ذلك».

عندها، رفع هولكومب قبضة يده مهدداً.

فصرخ هوغو: «هيّا اضربني. ولكن لا تنسَ، فأنا على عكس ستان تانكوك، سأرفع عليك دعوى بسبب ما فعلته بي».

فما كان من هولكومب إلا أن أخفض قبضة يده ومشى بعيداً، منزعجاً من نفسه لأنه سمح لبارينغتون بإغاظته.

عندها، ابتسم هوغو بعد أن شعر بأنه أعطى الضربة القاضية.

وحين استدار، رأى الأولاد يضحكون في الجهة الأخرى من الطريق. وسبب ذلك أنهم لم يروا من قبل سيارة لاغوندا باللونين الليلكي والأخضر.

عندما رُفِض أول شيك مصرفي، تجاهل هوغو الأمر ببساطة، وانتظر بضعة أيام قبل تقديمه مرة ثانية. ولكن عندما تم رفضه مجدداً، مع ختم «مراجعة ساحب الحوالة»، بدأ يتقبل المحتوم.

وخلال الأسابيع القليلة التالية، وجد هوغو طرائق مختلفة للتهرب من مشكلة النقد الفورية.

فانقضّ أولاً على خزنة المكتب، وأخذ المبلغ الذي كان والده يحتفظ به دوماً للأيام السوداء والبالغ مئة باوند. إنها عاصفة هوجاء، وما كان الرجل العجوز ليلجأ حتماً إلى احتياطي المال النقدي لدفع راتب سكرتيرته. وبعد نفاد هذا المال، تخلى عن سيارة اللاغوندا على مضض. إلا أن تاجر السيارات أشار بتهذيب إلى أن اللونين الليلكي والأخضر ليسا رائجين هذا العام، وبما أن السير هوغو يحتاج إلى المال النقدي، فإنه يستطيع منحه فقط نصف سعر الشراء الأصلي؛ إذ يجب إزالة كل الطلاء وإعادة دهن السيارة مجدداً.

نجح هوغو في الصمود لشهر آخر.

ونظراً إلى عدم وجود أي أصول أخرى يمكن اللجوء إليها، بدأ يسرق المال من أمه. في البداية، سرق كل الأموال المتروكة عشوائياً في المنزل، ومن ثم النقود المعدنية الموجودة في المحفظات، وبعدها الأوراق المالية من الحقائب.

لم يمضِ وقت طويل قبل أن يسرق طاووساً فضياً صغيراً كان معروضاً وسط طاولة الطعام منذ أعوام طويلة، وباعه إلى أقرب مكتب رهن.

بعد ذلك، انتقل هوغو إلى سرقة مجوهرات أمه. بدأ بسرقة الأغراض التي لا تلاحظها؛ كدبوس قبعة، ومشبك فيكتوري، ومن ثم عقد من العنبر نادراً ما تضعه، وتاج ألماسي موجود في العائلة منذ أكثر من قرن ولا تضعه إلا في حفلات الزفاف والمناسبات الخاصة. فهو لا يتوقع حصول مثل هذه المناسبات في المستقبل القريب.

وأخيراً، انتقل إلى مجموعة التحف الفنية الخاصة بوالده؛ حيث نزع أولاً عن الجدار لوحة لجده رسمها جون سينغر سارجانت، وإنما بعد استقالة مدبرة المنزل والطاهي لأنهما لم يحصلا على راتبهما لأكثر من ثلاثة أشهر. مات جنكينز بعد شهر.

بعد ذلك، باع لوحة جده (*kcoL gninnuD ta lliM eTh*)، ثم لوحة جد جده (*no snawS*

novA eht) الموجودتين في العائلة منذ أكثر من قرن.

استطاع هوغو إقناع نفسه بأن ما يقوم به ليس سرقة. ففي النهاية، شملت وصية والده اللقب وكل ما ينطوي عليه.

هذا المصدر للأموال المتقطعة حافظ على صمود الشركة التي أظهرت خسارة بسيطة في الربع الأول من السنة؛ على اعتبار عدم الأخذ بالحسبان استقالة ثلاثة مديرين إضافيين، والعديد من كبار الموظفين الذين لم يتلقوا رواتبهم في اليوم الأخير من الشهر. وعند سؤاله، ألقى هوغو اللوم على الحرب، فقال له أحد المديرين الكبار في السن الذين غادروا الشركة: «لم يضطر والدك يوماً إلى استعمال هذا العذر».

بعد فترة وجيزة، بدأت الأصول المتحركة تتضاءل أيضاً.

وعرف هوغو أنه إذا عرض بارينغتون هول والأراضي التابعة لها والبالغة مساحتها 72 أكراً للبيع، فإنه بذلك يُعلن للعالم كله أن الشركة التي حققت الأرباح على مدى أكثر من مئة عام باتت الآن مفلسة.

استمرت أمه في تصديق طمأنة هوغو لها بأن المشكلة مؤقتة، وأن كل شيء سيحلّ مع الوقت. وبعد فترة، بدأ هوغو نفسه يصدق كذبته. وعندما بدأت الشيكات ترفض مجدداً، ذكره السيد برندرغاست أن هناك عرضاً بقيمة 3500 باوند بخصوص ممتلكاته في برود ستريت، والتي يفترض أن تمنحه ربحاً قدره بنحو 600 باوند على حدّ قول برندرغاست.

فصرخ هوغو عبر الهاتف: «وماذا عن الثلاثين ألفاً التي وعدتني بها؟».

«لا يزال هذا العرض موجوداً أيضاً يا سيد هوغو، ولكنه مرتبط بشرائك حصة السيدة كليفتون».

فصرخ: «أعطِها ألف باوند».

«مثلما تريد يا سيد هوغو».

أنهى هوغو الاتصال، وراح يتساءل عن المصيبة التالية. رنّ الهاتف مجدداً.

كان هوغو مختبئاً في إحدى زوايا مقهى فندق رايلواي أرمز، وهو فندق لم يزره من قبل، ولن يفعل أبداً مجدداً. تحقق من ساعته بتوتر كل بضع دقائق، في انتظار وصول ميتشيل.

انضم إليه التحري الخاص في تمام الساعة 11:34، أي بعد دقائق قليلة على وصول قطار بادينغتون السريع إلى محطة تمبل ميدز. جلس ميتشيل على الكرسي المقابل لزبونه الوحيد؛ رغم أنه لم يقبض أتعابه منذ أشهر عدة.

سأله هوغو: «ما الأمر الملح الذي لا يستطيع الانتظار؟». فيما تمّ وضع كوب الشراب أمام التحري الخاص.

ارتشف ميتشيل القليل من الشراب ثم قال: «آسف لإخبارك يا سيدي أن الشرطة قد اعتقلت صديقك توبي دانستاييل». فأحس هوغو بقشعريرة تسري في كل جسمه. «وقد اتهموه بسرقة المجوهرات الألماسية الخاصة بيوتروفسكا وبعض اللوحات الفنية، ومنها لوحات لبيكاسو ومونيه حاول بيعها لمتجر الفنون أغنوز في مايفاير».

فقال هوغو: «لن يفتح توبي فمه».

«لا أعتقد ذلك يا سيدي. فقد تم إبلاغي بأنه أفشى كل الحقيقة لتخفيف الحكم الصادر بحقه. ويبدو أن شرطة اسكوتلاند يارد مهتمة الآن بتوقيف الرجل الذي كان يقف وراء الجريمة».

شرب هوغو كل ما في كأسه فيما حاول استيعاب أهمية كلمات ميتشيل. وبعد صمت طويل، تابع التحري الخاص كلامه. «اعتقدت أنك ترغب أيضاً في معرفة أن الآنسة بيوتروفسكا طلبت من السير فرانسيس مايهو أن يمثلها».

«لماذا لم تترك للشرطة مسألة التعامل مع هذه القضية وحدها؟».

«إنها لم تطلب نصيحة السير فرانسيس بشأن السرقة، وإنما بشأن مسألتين أخريين».

كرر هوغو مستغرباً: «مسألتين أخريين!».

«نعم. فهمتُ أنه سيتم إصدار أمر قضائي بحقك بسبب نكثك بالوعد، وقد رفعت الآنسة بيوتروفسكا أيضاً دعوى أبوّة بحقّك، مطالبة بتسميتك والداً لابنتها».

«لا يمكنها أبداً إثبات ذلك».

«من بين الأدلة التي سيتم تقديمها للمحكمة، هناك إيصال خاتم الخطوبة الذي تم شراؤه من بائع مجوهرات في بورلينغتون أركاد، بالإضافة إلى شهادتَي مدبرة المنزل وخادمتها اللتين أكّدتا أنك أقمت في 42 ساحة لاوندوس لأكثر من عام».

للمرة الأولى منذ عشرة أعوام، طلب هوغو النصيحة من ميتشيل، فهمس قائلاً: «ما الذي يجب عليّ فعله برأيك؟».

«لو كنت مكانك يا سيدي، لغادرت البلاد بأسرع ما يمكن».

«كم من الوقت بقي لديّ برأيك؟».

«أسبوع أو عشرة أيام على الأكثر».

اقترب نادل منهما وقال: «الفاتورة شلن وتسعة سنتات سيدي».

لم يتحرك هوغو، فأعطى ميتشيل النادل ورقة نقدية وقال له: «احتفظ بالباقي».

وبعد أن غادر التحري الخاص عائداً إلى لندن، جلس هوغو بمفرده لبعض الوقت، مفكراً في خياراته. جاء النادل إليه مجدداً، وسأله إذا كان يودّ شرب كأس أخرى، لكن هوغو لم يجبه قط. وفي النهاية، نهض عن الكرسي، وشقّ طريقه إلى خارج مقهى الفندق.

توجّه هوغو إلى وسط المدينة، ببطء أكبر وأكبر مع كل خطوة؛ إلى أن عرف أخيراً ما يجدر به فعله. وبعد دقائق قليلة دخل المصرف.

فسأله الرجل الشاب عند مكتب الاستقبال: «كيف أساعدك سيدي؟». لكن هوغو كان قد أصبح في منتصف الردهة عندما اتصل الموظف بالمدير وأبلغه بأن السير هوغو بارينغتون متجه صوب مكتبه.

لم يتفاجأ برندرغاست من ذلك؛ لأن السير هوغو يفترض دوماً أنه محط ترحيب في المصرف في أية لحظة، ولكنه صُدم عندما لاحظ أن رئيس مجلس إدارة شركة بارينغتون لم يحلق ذقنه هذا الصباح.

قال هوغو فيما جلس على الكرسي قبالة المدير: «لديّ مشكلة تحتاج إلى معالجة فورية».

«نعم، طبعاً يا سيد هوغو. كيف أستطيع مساعدتك؟».

«ما هو أكبر سعر يمكن الحصول عليه مقابل ممتلكاتي في برود ستريت؟».

«ولكنني أرسلت لك رسالة في الأسبوع الماضي أبلغك فيها أن السيدة كليفتون قد رفضت عرضك الأخير».

فأجاب هوغو: «أعرف ذلك. أقصد من دون أرضها».

«لا يزال هناك عرض مطروح بقيمة ثلاثة آلاف وخمسمئة باوند، لكنني أعتقد أنك مستعد لدفع بعض المال الإضافي للسيدة كليفتون كي تتخلى عن أرضها ويصبح حينها عرض الثلاثين ألف باوند صالحاً».

فقال هوغو من دون أي شرح إضافي: «لم يعد لديّ وقت».

«في هذه الحالة، أنا واثق من أنني أستطيع إقناع زبوني برفع سعره إلى أربعة آلاف؛ ما يمنحك ربحاً جيداً».

«إذا قبلت بهذا العرض، فأنا أريد منك المساعدة في أمر آخر». فرفع السيد برندرغاست حاجبه، وتابع هوغو كلامه: «ألّا تكون لزبونك أية علاقة بالسيدة كليفتون».

«أؤكد لك ذلك يا سيد هوغو».

«إذا دفع لي زبونك أربعة آلاف، كم يبقى في حسابي الجاري؟».

عندها، فتح السيد برندرغاست ملف السير هوغو وتحقق من الميزانية، ثم قال: «لديك ثماني مئة واثنان وعشرون باونداً وعشرة شلنات».

لم يعد هوغو يمزح بشأن الشلنات العشرة. «في هذه الحالة، أحتاج إلى ثماني مئة باوند فوراً. وسأبلغك لاحقاً إلى أين يجب أن ترسل عائدات البيع».

فكرر برندرغاست: «عائدات البيع!».

أجاب هوغو: «نعم. قررت بيع بارينغتون هول».

لم يرَه أحد وهو يغادر المنزل.

فقد حمل حقيبة، وارتدى بذلة تويد سميكة ومعطفاً سميكاً، وانتعل حذاء بنياً متيناً، واعتمر قبعة لبادية بنية اللون. وإذا نظر إليه أحدهم بسرعة، فقد يعتقد أنه تاجر مسافر.

توجّه إلى أقرب محطة للحافلات، والتي كانت تبعد مسافة ميل تقريباً؛ علماً أن معظم تلك المساحة ملكه. وبعد أربعين دقيقة، صعد إلى متن حافلة خضراء؛ وهذه وسيلة نقل لم يجربها من قبل قط. جلس على المقعد الخلفي، من دون أن يبعد الحقيبة عن عينيه. وأعطى السائق ورقة عشرة شلنات، رغم أنه طلب منه ثلاثة بنسات فقط. إنها غلطته الأولى إذا كان يرغب في تفادي لفت النظر إليه.

تابعت الحافلة طريقها إلى بريستول؛ وهي رحلة تستغرق معه تقريباً اثنتي عشرة دقيقة في سيارة اللاغوندا، ولكنها استغرقت اليوم أكثر من ساعة، قبل أن تصل الحافلة أخيراً إلى محطة الحافلات. لم يكن هوغو الراكب الأول أو الأخير الذي نزل منها. تحقق من ساعته، فوجدها تشير إلى 2:38 من بعد الظهر. ما زال لديه الكثير من الوقت.

توجّه إلى منحدر محطة تمبل ميدز- علماً أنه لم يلاحظ المنحدر من قبل قطّ، ولم يضطر يوماً إلى حمل حقيبته بنفسه- ثم انضم إلى رتل طويل، واشترى تذكرة في الدرجة الثالثة إلى فيشغارد. سأل عن المحطة

التي سينطلق منها القطار. وبعد أن وجدها، وقف في الزاوية، تحت مصباح غاز غير مضاء.

وعندما وصل القطار أخيراً، صعد إليه، ووجد مقعداً في وسط مقطورة الدرجة الثالثة التي سرعان ما امتلأت. وضع حقيبته على الرف الحديدي قبالته، ولم يبعد عينيه عنها. ثمة امرأة فتحت باب المقطورة، ونظرت إلى الناس المكتظين داخلها، ولكنه لم يعرض عليها مقعده.

وعندما انطلق القطار من المحطة أخيراً تنهد ارتياحاً، وفرح لدى رؤيته بريستول تختفي في البعيد. استرخى على مقعده وفكر في القرار الذي اتخذه. ففي مثل هذا الوقت غداً، سيكون في كورك. لن يشعر بالأمان إلا عندما تطأ قدماه الأرض الإيرلندية. لكن عليه الوصول إلى سوانسي في الوقت المحدد إذا أراد اللحاق بالقطار المتجه إلى فيشغارد.

وصل القطار إلى سوانسي، وبقي لديه نصف ساعة. إنه وقت كافٍ لشرب كوب من الشاي وتناول فطيرة في مقهى المحطة. صحيح أن الشاي ليس إيرل غراي أو كارواردين، ولكنه متعب جداً حيث إنه لا يكترث للأمر. ما إن أنهى الفطيرة والشراب حتى انتقل من المقهى إلى أرضية مضاءة بأنوار خافتة، وانتظر ظهور قطار فيشغارد.

تأخر القطار، ولكنه كان واثقاً من أنه لن يغادر المحطة ما لم يصعد كل الركاب إلى متنه. بعد قضاء ليلة في كورك، سيحجز تذكرة على متن سفينة مبحرة إلى أميركا. سيبدأ هناك حياة جديدة؛ بالمال الذي سيحصل عليه بعد بيعه بارينغتون هول.

فكرة بيعه منزل أجداده جعلته يفكر في أمه للمرة الأولى. أين ستعيش بعد بيع المنزل؟ يمكنها العيش مع إليزابيث في مانور هاوس.

ففي النهاية، المنزل كبير. وإذا لم تستطع فعل ذلك، يمكنها العيش مع آل هارفي الذين يملكون ثلاثة منازل، بالإضافة إلى الكثير من المزارع في عقاراتهم.

بعد ذلك، انتقلت أفكاره إلى شركة بارينغتون للشحن؛ الشركة التي أسسها جيلان من العائلة، فيما نجح الجيل الثالث في جعلها تنهار بسرعة كبيرة.

لبرهة، فكر في أولغا بيوتروفسكا، وفرح لأنه لن يراها أبداً مجدداً. كما فكر أيضاً في توبي دانستايبل؛ سبب كل هذه المشاكل.

خطرت في باله إيما وغرايس، ولكن ليس لوقت طويل؛ فهو لم يفهم ابنتيه قطّ. ثم فكر في جيل الذي تفاداه بعد أن هرب من معسكر واينسبرغ وعاد إلى بريستول. يسأله الناس دوماً عن ابنه بطل الحرب، فيضطر إلى اختلاق قصة جديدة كل مرة. لن يكون هذا الأمر ضرورياً بعد الآن؛ لأنه حين يصبح في أميركا، سيتمكن من قطع كل روابطه مع عائلته، وعلى الرغم من أن جيل سيرث لقب العائلة- وما زال هوغو مصمماً على أنّ هذا سيحصل بعد وقت طويل جداً- بكل ما ينطوي عليه؛ إلا أن ذلك سيكون مجرد حبر على ورق.

لكنه في معظم الوقت فكر في نفسه، ولم يتوقف هذا الترف الذاتي إلا عندما وصل القطار إلى فيشغارد. انتظر نزول الجميع من المقطورة قبل أن يرفع حقيبته عن الرف الحديدي وينزل إلى الرصيف.

سار وفق التعليمات الصادرة عبر المذياع: «الحافلات إلى المرفأ. الحافلات إلى المرفأ!» كانت أربعاً. اختار الحافلة الثالثة. الرحلة قصيرة

هذه المرة، ولا يمكنه تفويت البوابة؛ رغم العتمة السائدة. كان هناك رتل طويل آخر للدرجة الثالثة، وإنما هذه المرة للصعود إلى الباخرة كورك.

بعد شرائه تذكرة باتجاه واحد، مشى إلى الممر الخشبي، وصعد إلى متن السفينة، ووجد لنفسه مختلى لا يقبل به هرّ يحترم نفسه. لم يشعر بالأمان إلا بعد أن سمع صفرتين عاليتين، وأحسّ بالسفينة تبتعد عن الرصيف.

بعد ابتعاد السفينة عن المرفأ، شعر بالاسترخاء للمرة الأولى، وكان مرهقاً جداً حيث أرخى رأسه على الحقيبة وغطّ في نوم عميق.

عندما أحسّ هوغو بنقرة على كتفه، لم يعرف لكم من الوقت قد نام. نظر إلى الأعلى، فرأى رجلين واقفين فوقه.

سأله أحدهما: «هل أنت السير هوغو بارينغتون؟».

على ما يبدو، لا جدوى من إنكار الأمر. أمسكاه من كتفيه وأبلغاه أنه موقوف، ثم أخذا وقتهما في قراءة لائحة طويلة من التهم الموجهة إليه.

فقال معترضاً: «لكنني في طريقي إلى كورك، وقد اجتزنا بلا شك مسافة الأميال الحدودية الاثني عشر!».

فقال الشرطي الثاني: «لا يا سيدي. أنت في طريقك إلى فيشغارد».

اتكأ العديد من الركاب فوق درابزين السفينة للنظر عن كثب إلى الرجل الذي تم إخراجه من السفينة، وكان السبب وراء تأخير انطلاقهم.

أُجبِر هوغو على الجلوس على المقعد الخلفي لسيارة ولسلي سوداء اللون. وبعد لحظات قليلة، بدأ رحلة العودة الطويلة إلى بريستول.

عندما فُتِح باب الزنزانة، دخل رجل يرتدي بذلة عسكرية، وأحضر له فطوراً على صينية. لكن لا الفطور، ولا الصينية كانا مما اعتاد السير هوغو على رؤيته في الصباح الباكر، ولا الرجل صاحب البذلة أيضاً. وبعد أن نظر إلى الخبز المقلي والبندورة المغمورة بالزيت، أبعد الصينية عنه. وتساءل عن الوقت الذي سيمضي قبل أن يصبح هذا الطعام جزءاً من غذائه الاعتيادي. وبعد دقائق قليلة، عاد الشرطي وأخذ الصينية وأغلق باب الزنزانة خلفه.

وعندما فُتِح الباب في المرة التالية، دخل شرطيان الزنزانة، ورافقا هوغو عبر درج حجري إلى قاعة المحاكمة في الطابق الأول. كان بين وينشاو، محامي شركة بارينغتون للشحن البحري، في انتظاره.

قال: «آسف جداً يا حضرة رئيس مجلس الإدارة».

فهزّ هوغو رأسه، والاستسلام بادٍ على وجهه وسأل: «ماذا سيحصل الآن؟».

«أخبرني مسؤول الشرطة أنه سيتم توجيه التهم إليك خلال الدقائق القليلة التالية. وبعدها، سيتم اصطحابك إلى المحكمة، حيث ستقف أمام قاضٍ. كل ما عليك فعله هو التأكيد على أنك غير مذنب. وقد أوضح مسؤول الشرطة أنهم سيرفضون أي طلب لإطلاق سراحك مقابل كفالة مالية، وسوف يخبر القاضي أنه تم إلقاء القبض عليك أثناء محاولتك مغادرة البلاد مع حقيبة تحتوي على ثماني مئة باوند. أخشى أن تنشر الصحافة كل هذا اليوم».

جلس هوغو ومحاميه في الغرفة بمفردهما، وانتظرا وصول مسؤول الشرطة. حذّر مسؤول الشرطة هوغو مسبقاً، وقال له إنه يفترض به توقّع قضاء عدة أسابيع في السجن قبل بدء المحاكمة، واقترح أسماء أربعة محامين يمكنهم الدفاع عنه. وكانا قد استقرا أخيراً على السير جيلبير غراي عندما فتح باب الزنزانة ودخل شرطي وقال: «يمكنك المغادرة يا سيدي». كما لو أن هوغو قد ارتكب مخالفة سير بسيطة.

مرّ بعض الوقت قبل أن يستوعب وينشاو الصدمة ثم يسأل: «هل يفترض بموكلي العودة في وقت لاحق اليوم؟».

«ليس حسب علمي يا سيدي».

خرج هوغو من مركز الشرطة رجلاً حراً.

تم ذكر هذه القصة على شكل فقرة صغيرة في الصفحة 9 من جريدة أخبار بريستول المسائية. السيد توبي دانستايبل، الابن الثاني للإيرل الحادي عشر لدانستايبل، توفي نتيجة ذبحة قلبية أثناء احتجازه في مركز شرطة ومبلدون.

تولّى ديريك ميتشيل لاحقاً إعطاءه تفاصيل ما حصل.

وقال إن الإيرل زار ابنه في زنزانته قبل ساعتين تقريباً من انتحار توبي. سمع الشرطي الذي كان موجوداً حينها المناقشات الحادة التي دارت بين الأب وابنه، ولاسيما حول سمعة العائلة وشرفها؛ والشيء الواجب فعله في حال كرر الإيرل هذه الأمور. وخلال الاستجواب الذي

أقيم لاحقاً في محكمة ويمبلدون، سأل القاضي الشرطي المعني عمّا إذا كان قد رأى أي تبادل للحبوب بين الرجلين خلال زيارة الإيرل.

فأجاب: «لا سيدي. لم أرَ أي شيء».

وفي تقرير القاضي الصادر عن محكمة ويمبلدون في وقت لاحق من بعد الظهر، قيل إن الموت ناجم عن أسباب طبيعية.

37

قالت الآنسة بوتس فيما لحقت بالسير هوغو إلى مكتبه: «اتصل السيد برندرغاست مرات عدة هذا الصباح يا سيدي، وقد شدد في المرة الأخيرة على أن الأمر طارئ». وإذا كانت قد تفاجأت برؤية رئيس مجلس الإدارة غير حليق الذقن، ويرتدي بذلة تويد تبدو وكأنه قد نام فيها، فهي لم تقل أي شيء.

عندما سمع هوغو أن برندرغاست يريد التحدث إليه بصورة ملحة، ظن فوراً أن صفقة برود ستريت قد فشلت، وأن المصرف يتوقع منه إعادة المبلغ. يستطيع برندرغاست التفكير مجدداً.

قالت الآنسة بوتس فيما تحققت من دفترها الصغير: «وتانكوك يقول إنه يحمل بعض الأخبار التي تريد سماعها». لم يعلّق رئيس مجلس الإدارة على كلامها، فتابعت قائلة: «لكن الشيء الأهم هو الرسالة التي تركتها لك على مكتبك. أعتقد أنك تريد قراءتها فوراً».

بدأ هوغو بقراءة الرسالة قبل جلوسه على الكرسي. ثم قرأها مجدداً ولم يصدق محتواها. وأخيراً، نظر إلى سكرتيرته.

«تهانينا سيدي».

صرخ هوغو: «اتصلي بالسيد برندرغاست هاتفياً، وبعد ذلك أريد رؤية المدير التنفيذي، ومن ثم تانكوك».

فقالت الآنسة بوتس: «نعم سيدي». وخرجت من الغرفة مسرعة.

وفيما انتظر هوغو إجابة برندرغاست على الهاتف، قرأ رسالة وزير الشحن للمرة الثالثة:

عزيزي السيد هوغو

يسرّني إبلاغكم أن شركة بارينغتون للشحن قد فازت بعقد...

رنّ الهاتف على مكتب هوغو، وقالت الآنسة بوتس: «السيد برندرغاست على الخط».

«صباح الخير سيد هوغو». وعاد التبجّح إلى صوته وهو يتابع: «اعتقدت أنك تريد أن تعرف أن السيدة كليفتون قد وافقت أخيراً على بيع حصتها في برود ستريت مقابل ألف باوند».

«ولكنني وقّعت عقداً لبيع بقية ملكيتي في الشارع لصالح «يونايتد دومينيون» مقابل أربعة آلاف باوند».

فقال برندرغاست: «ولا يزال هذا العقد على مكتبي. فلسوء حظهم، وحسن حظك، لم يتمكنوا من أخذ موعد لمقابلتي قبل العاشرة من هذا الصباح».

«هل بدّلت العقدين؟».

«نعم، سيد هوغو. فعلت ذلك من دون شك».

فانفطر قلب هوغو.

«مقابل أربعين ألف باوند».

«لم أفهم».

«بعد أن استطعت التأكيد لشركة «يونايتد دومينون» على أنك تملك حصة الآنسة كليفتون، بالإضافة إلى كل الصكوك الأخرى في الشارع، كتبوا لك شيكاً بكامل المبلغ».

«أحسنت يا برندرغاست. أعرف أنني أستطيع الاعتماد عليك».

«شكراً لك سيدي. كل ما عليك فعله الآن هو التوقيع على عقد السيدة كليفتون، لأتمكن بعدها من صرف شيك «يونايتد دومينيون»».

نظر هوغو إلى ساعته ثم قال: «تجاوزت الساعة الرابعة، ولذلك أول شيء سأفعله صباح غد هو الذهاب إلى المصرف».

عندها، سعل برندرغاست وقال: «هذا أول شيء ينبغي أن تفعله يا سيد هوغو، عند التاسعة صباحاً. وهل لي أن أسألك عمّا إذا كنت لا تزال تحتفظ بالمبلغ الذي أعطيتك إياه البارحة، والبالغ ثماني مئة باوند؟».

«نعم. لكن، لماذا تسأل؟».

«أعتقد أنه من الأفضل يا سيد هوغو أن تدفع للسيدة كليفتون ألف باوند قبل أن نقبض شيك «يونايتد دومينيون» البالغة قيمته أربعين ألفاً. فنحن لا نريد أية أسئلة محرجة من المكتب الرئيس في وقت لاحق».

عندها، قال هوغو وهو ينظر إلى حقيبته: «حسناً». وشعر بالارتياح لأنه لم ينفق قرشاً واحداً من المبلغ.

قال برندرغاست: «هذا كل شيء. وأريد تهنئتك أيضاً على إبرامك العقد الأكثر نجاحاً».

«وكيف عرفت بشأن العقد؟».

فقال برندرغاست وقد بدا الذهول في صوته قليلاً: «عفواً يا سيد هوغو!».

عندها قال هوغو: «أوه، اعتقدت أنك تتحدث عن شيء آخر. ليس الأمر مهماً يا برندرغاست. انسَ ما قلته». ثم أنهى الاتصال.

دخلت الآنسة بوتس الغرفة وقالت: «يريد المدير التنفيذي رؤيتك يا حضرة رئيس مجلس الإدارة».

«دعيه يدخل فوراً».

قال هوغو فيما دخل كومبتون الغرفة: «هل سمعت الخبر الجيد يا راي؟».

«نعم سيدي، وقد جاء فعلاً في الوقت المناسب».

فقال هوغو: «لم أفهم جيداً».

«يفترض بك تقديم النتائج السنوية للشركة خلال اجتماع مجلس الإدارة في الشهر المقبل. ورغم أننا عانينا من خسارة كبيرة هذا العام، إلا أنه يفترض بالعقد الجديد أن يضمن لنا الربح في السنة المقبلة».

عندها، قال له هوغو وهو يلوّح برسالة الوزير: «ولخمس سنوات متتالية. لماذا لا تحضّر جدول أعمال مجلس الإدارة، ولكن من دون إدراج العقد مع الوزارة. فأنا أفضّل إعلان الخبر بنفسي».

فما كان من كومبتون إلا أن قال: «مثلما ترغب يا حضرة رئيس مجلس الإدارة. سأضع كل الأوراق المناسبة على مكتبك ظهر غد». ثم غادر الغرفة.

قرأ هوغو رسالة الوزير للمرة الرابعة، ثم قال بصوت عالٍ: «ثلاثون ألفاً في السنة». وفي تلك اللحظة، رنّ الهاتف على مكتبه.

وقالت الآنسة بوتس: «السيد فوستر من سافيلز، وكالة عقارات، على الخط».

«صليني به».

«صباح الخير يا سيد هوغو. اسمي فوستر، وأنا الشريك الأساسي في سافيلز. رأيت أنه يجدر بنا مناقشة توجيهاتك بشأن بيع بارينغتون هول. هل يمكننا تناول الغداء في النادي عندي؟».

فأجاب هوغو: «لا داعي لكي تزعج نفسك يا سيد فوستر، فقد بدّلت رأيي. لم يعد بارينغتون هول معروضاً للبيع». ثم أنهى المكالمة.

أمضى هوغو بقية فترة بعد الظهر في توقيع كدسة من الأوراق والشيكات التي وضعتها سكرتيرته أمامه. وكانت الساعة قد تجاوزت السادسة عندما أعاد الغطاء إلى قلمه.

وحين جاءت الآنسة بوتس لأخذ الأوراق، قال لها هوغو: «أريد رؤية تانكوك الآن».

فقالت الآنسة بوتس بشيء من الانزعاج: «نعم، سيدي».

وفيما انتظر هوغو وصول تانكوك، ركع على ركبتيه وفتح الحقيبة. حدّق إلى المال فيها الذي كان سيتيح له الصمود في أميركا ريثما يتم بيع بارينغتون هول. أما الآن، فسيتم استعمال المبلغ نفسه لجني ثروة من برود ستريت.

وعندما سمع طرقاً على الباب، أغلق الحقيبة، ثم عاد إلى مكتبه بسرعة.

قالت الآنسة بوتس قبل إغلاق الباب خلفها: «تانكوك هنا لرؤيتك».

وسرعان ما دخل عامل أحواض السفن الغرفة بكل ثقة، واقترب من مكتب رئيس مجلس الإدارة.

فسأله هوغو: «ما الخبر الذي لا يستطيع الانتظار؟».

أجاب تانكوك: «جئت لاستلام الباوندات الخمسة الأخرى التي تدين لي بها». وبدت نظرة انتصار في عينيه.

فقال هوغو: «لا أدين لك بأي شيء».

«لكنني أقنعت أختي ببيع الأرض التي تريدها، أليس كذلك؟».

«كنّا قد اتفقنا على مبلغ مئتي باوند، غير أن الأمر انتهى بي بدفع خمسة أضعاف هذا المبلغ. لذا، كما قلت لك، لا أدين لك بأي شيء. اخرج من مكتبي، وعد إلى عملك».

إلا أن ستان لم يتحرّك من مكانه، وقال: «وقد أحضرت لك أيضاً تلك الرسالة التي أردتها».

«أية رسالة؟».

«الرسالة التي استلمتها مايزي من طبيب السفينة الأميركية».

وكان هوغو قد نسي تماماً أمر رسالة التعزية من رفيق هاري كليفتون، ولم يتخيل أهميتها بعد أن وافقت مايزي الآن على بيع الأرض، لذا قال له: «سأعطيك باونداً واحداً مقابلها».

«ولكنك قلت إنك ستعطيني خمسة باوندات».

«أقترح عليك مغادرة مكتبي وأنت لا تزال تحتفظ بوظيفتك يا تانكوك».

عندها، قال ستان بعد أن تراجع إلى الخلف: «حسناً، حسناً، يمكنك الحصول عليها مقابل باوند واحد. فما فائدتها بالنسبة إلي؟». وبعد ذلك، أخرج مغلفاً مجعداً من جيبه الخلفي، وأعطاه لرئيس مجلس الإدارة. سحب هوغو ورقة عشرة شلنات من محفظته، ووضعها على المكتب أمامه.

بقي ستان واقفاً في مكانه فيما أعاد هوغو محفظته إلى جيبه الداخلي وحدق إليه بتحدٍّ.

«يمكنك أخذ الرسالة أو الشلنات العشرة. الأمر يعود إليك».

فما كان من ستان إلا أن أمسك بورقة الشلنات العشرة وغادر الغرفة غاضباً.

عندها، وضع هوغو المغلف جانباً، واتكأ إلى الخلف على كرسيه، وراح يفكّر في كيفية إنفاقه الربح الذي سيجنيه من صفقة برود ستريت. بعد أن يذهب إلى المصرف ويوقّع على كل المستندات الضرورية، سيجتاز الطريق للوصول إلى معرض السيارات؛ فقد وضع عينيه على سيارة أستون مارتن موديل 1937 بأربعة مقاعد. وبعد ذلك، سيقود السيارة للذهاب إلى خياطه- فهو لم يشترِ بذلة جديدة منذ زمن بعيد جداً- وبعد الانتهاء من القياس، سيتناول الغداء في النادي، وسيسدد الفاتورة التي أصبحت كبيرة جداً. وبعد الظهر، سيعيد ملء قبو الشراب في بارينغتون

هول، وقد يسدد بعض الديون لمكتب الرهن لاسترداد بعض المجوهرات التي اشتاقت أمه إليها كثيراً.

عند المساء، سمع طرقاً خفيفاً على الباب.

ثم قالت الآنسة بوتس: «سأغادر الآن، فأنا أريد الذهاب إلى مكتب البريد قبل السابعة لاستلام آخر الرسائل. هل تحتاج إلى أي شيء آخر سيدي؟».

«لا، آنسة بوتس. قد أتأخر في الوصول غداً لأنني على موعد مع السيد برندرغاست في تمام الساعة التاسعة».

فقالت الآنسة بوتس: «طبعاً يا حضرة رئيس مجلس الإدارة».

وبعد أن أغلقت الباب خلفها، وقع نظره على المغلف المجعد، فرفع فتاحة الرسائل الفضية، وفتح المغلف، وأخرج منه ورقة واحدة. تأمّلت عيناه الصفحة بسرعة، بحثاً عن أي عبارات مهمة.

نيويورك

8 سبتمبر 1939

أمي الحبيبة

... لم أمت عندما غرقت سفينة ديفونيان... تم انتشالي من البحر... أمل أن أتمكن في مرحلة ما من المستقبل من الإثبات لها أن آرثر كليفتون وليس هوغو بارينغتون كان والدي... أطلب منك إبقاء سرّي دفيناً مثلما أبقيت سرك دفيناً لأعوام عديدة.

ابنك الحبيب

هاري

فجأة، تجمّد الدم في عروق هوغو، وتبخّرت كل انتصارات النهار في لحظة. ليست هذه هي الرسالة التي يريد قراءتها مجدداً، والأهم من ذلك، لم يكن يريد أن يعرف بأمرها أي كان.

فتح الدرج العلوي في مكتبه وأخرج علبة كبريت، ثم أشعل عود الكبريت وأمسك بالرسالة فوق سلة المهملات، ولم يفلتها إلا بعد أن تبخر الرماد الأسود في الهواء. إنها أفضل عشرة شلنات أنفقها في حياته.

كان هوغو واثقاً من أنه الشخص الوحيد الذي عرف أن هاري كليفتون لا يزال على قيد الحياة، وأراد إبقاء الأمر سراً. ففي النهاية، إذا التزم كليفتون بكلمته واستمر في استعمال اسم توم برادشو، فكيف سيعرف أي كان الحقيقة؟

فجأة، أحس بالغثيان عندما تذكر أن إيما لا تزال في أميركا. ترى، هل اكتشفت بطريقة ما أن كليفتون لا يزال على قيد الحياة؟ لكنّ هذا غير ممكن إذا لم تقرأ الرسالة. عليه أن يعرف سبب سفرها إلى أميركا.

رفع سماعة الهاتف، وبدأ يطلب رقم ميتشيل عندما سمع صوت خطوات في الرواق، فأعاد السماعة إلى مكانها، وافترض أن الحارس الليلي قد جاء ليتحقق من سبب بقاء مكتبه مضاء.

وما إن فتح الباب، حتّى حدّق إلى امرأة تمنى ألا يراها في حياته مجدداً.

سألها: «كيف اجتزت الحارس عند البوابة؟».

«قلت له إننا على موعد مع رئيس مجلس الإدارة؛ موعد مستحق منذ وقت طويل».

فقال هوغو: «من أنتم؟!».

«نعم، أحضرت لك هدية صغيرة. في الواقع، لا يمكنك إعطاء شيء ما لشخص إذا كان أصلاً ملكه». ووضعت سلة قش على مكتب هوغو، ورفعت عنها غطاء من الموسلين الناعم كاشفة عن طفلة نائمة فيها، ثم قالت: «شعرت أن الوقت قد حان لتتعرف إلى ابنتك». ووقفت جانباً للسماح لهوغو بتأملها.

«ما الذي يجعلك تظنين أنني مهتم أساساً بلقيطتك؟».

فأجابت أولغا بهدوء: «لأنها أيضاً لقيطتك. ولذلك، افترضت أنك تريد منحها الانطلاقة نفسها في الحياة التي منحتها لإيما وغرايس».

«ولماذا سأفكر في مثل هذا الأمر السخيف؟».

فقالت: «لأنك يا هوغو طعنتني في الصميم، وقد حان الوقت الآن لتتحمل مسؤولياتك. لا يمكنك افتراض أنك تستطيع دوماً الفرار بفعلتك».

فقال هوغو مكشّراً: «الشيء الوحيد الذي فررت منه هو أنت. لذا، يمكنك المغادرة ومعك هذه السلة، لأنني لن أساعدها البتة».

«إذاً، عليّ اللجوء إلى شخص قد يرغب في مساعدتها».

فصرخ هوغو: «مثل من؟».

«قد تكون أمك بداية جيدة؛ رغم أنها آخر شخص ربما في هذا العالم يصدق كلمة مما تقوله».

عندها، نهض هوغو من مكانه، ولكن أولغا لم تتحرك، بل تابعت كلامها: «وإذا لم أستطع إقناعها، فستكون محطتي التالية مانور هاوس، حيث سأشرب شاي بعد الظهر مع زوجتك السابقة، وسنتحدث عن طلاقها منك قبل زمن طويل من لقائنا».

مشى هوغو من خلف مكتبه، ولكنّ هذا لم يمنع أولغا من متابعة الكلام: «وإذا لم تكن إليزابيت في المنزل، فبإمكاني زيارة قصر مولجلري وتعريف اللورد واللايدي هارفي على ولد جديد من أولادك».

«وما الذي يجعلك تعتقدين أنهم سيصدقونك؟».

«وما الذي يجعلك تعتقد أنهم لن يصدقوا؟».

عندها، تحرك هوغو نحوها، وتوقّف على مسافة بضعة إنشات منها، لكنّ أولغا لم تكن قد أنهت كلامها بعد.

«وأخيراً، أشعر أنه من واجبي زيارة مايزي كليفتون؛ تلك السيدة التي تعجبني كثيراً، لأنه إذا كان كل ما سمعته عنها...»

فما كان من هوغو إلا أن أمسك بكتفَي أولغا وبدأ يهزها، وتفاجأ لأنها لم تحاول قط الدفاع عن نفسها.

صرخ: «والآن، اسمعيني. إذا قلت أمام أي كان إنني والد هذه الطفلة، فسأجعل حياتك تعيسة جداً؛ حيث تتمنين لو أن البوليس السري النازي قد أخذك مع أهلك».

عندها قالت أولغا: «لم تعد تخيفني يا هوغو. بقي لديّ اهتمام واحد فقط في هذه الحياة، وهو التأكد من عدم هروبك بفعلتك مجدداً».

كرر هوغو: «مجدداً!».

«هل تظن أنني لا أعرف عن هاري كليفتون، وعن حقه في اسم العائلة؟».

فأفلتها هوغو، وتراجع خطوة إلى الخلف، وبدا جلياً أنه مصدوم، ثم قال: «كليفتون مات ودفن في البحر، والجميع يعرفون ذلك».

«تعرف جيّداً أنه ما زال على قيد الحياة يا هوغو؛ مهما أردت أن يصدق الجميع أنه مات».

«لكن، كيف تعرفين...»

فقاطعته قائلة: «لأنني تعلمت التفكير مثلك. والأهم من ذلك، تعلّمت التصرف مثلك، ولهذا السبب قررت استئجار تحرٍّ خاص بي».

بدأ هوغو بالقول: «ولكنك بحاجة إلى أعوام...»

«ليس إذا صادفت شخصاً عاطلاً عن العمل، هرب زبونه الوحيد مجدداً، ولم يدفع له أجرته طوال ستة أشهر». وابتسمت أولغا عندما أطبق هوغو قبضتَي يديه؛ فهذا دليل واضح على أن كلماتها قد أصابته في الصميم. وعندما رفع ذراعه، لم تجفل قط، بل بقيت واقفة مكانها.

عندما تلقّت الصفعة الأولى على وجهها تراجعت إلى الخلف، وأمسكت بأنفها المكسور، فيما أصابتها ضربة ثانية في معدتها؛ ما جعلها تتلوى ألماً.

عندها، تراجع هوغو إلى الخلف، وضحك فيما تمايلت من جانب إلى آخر محاولة الوقوف على قدميها. كان على وشك ضربها للمرة الثالثة عندما خانتها ساقاها وانهارت أرضاً؛ مثل الدمية التي قُطِعت حبالها.

فصرخ هوغو فيما وقف فوقها: «أنت الآن تعرفين ما يمكن توقعه مني إذا تجرأت على إزعاجي مجدداً. وإذا كنت لا تريدين التعرض للضرب مجدداً، فعليك أن تخرجي الآن فيما الفرصة لا تزال لديك، واحرصي على أخذ هذه اللقيطة معك إلى لندن».

رفعت أولغا نفسها عن الأرض ببطء، وجثمت على ركبتيها فيما الدم يتقطر من فمها. حاولت الوقوف، ولكنها كانت ضعيفة جداً حيث وقعت إلى الأمام. غير أنّها تشبّثت بحافة المكتب قبل أن ترتطم أرضاً. وقفت قليلاً، وأخذت نفساً عميقاً عدة مرات فيما حاولت استعادة عافيتها. وعندما رفعت رأسها أخيراً، لفتها شيء فضي طويل ورفيع يتلألأ تحت دائرة الضوء المنبعث من مصباح المكتب.

صرخ هوغو فيما تقدم الى الأمام، وأمسك بشعرها وأرجع رأسها إلى الخلف: «ألم تسمعي ما قلته؟».

بكل القوة الباقية لديها، أرجعت أولغا قدمها إلى الخلف، ثم ضربت المنفرج بين ساقيه بكعب حذائها.

فصرخ هوغو: «أيتها العاهرة»، فيما أفلت شعرها ووقع إلى الخلف، مانحاً بذلك أولغا الفرصة للإمساك بفتاحة الرسائل وإخفائها تحت كم فستانها. بعد ذلك، استدارت لمواجهة معذبها. وعندما التقط هوغو أنفاسه، تقدّم صوبها مجدداً. وحين مرّ من أمام الطاولة الصغيرة، أمسك

بمنفضة زجاجية كبيرة ورفعها فوق رأسه، مصمماً على ضربها بها؛ حيث لا تتعافى من الضربة بسهولة.

غير أنه عندما أصبح على مسافة خطوة واحدة منها فقط، رفعت كمها، وأمسكت فتاحة الرسائل بكلتا يديها، ووجّهت النصل إلى قلبه. وفيما كان على وشك تحطيم المنفضة فوق رأسها، لمح النصل للمرة الأولى، فحاول إبعاده عنه، ولكنه تعثّر وفقد توازنه، ووقع فوقها.

سادت فترة صمت قصيرة قبل أن ينهار على ركبتيه ببطء، ويطلق صرخة كفيلة بإيقاظ الأموات. راقبته أولغا فيما أمسك بمقبض فتاحة الرسائل، وتجمّدت في مكانها كما لو أنها تشاهد مقطعاً بطيء الحركة في فيلم. لا بد أن لحظة واحدة فقط قد مرّت- رغم أنها بدت لا متناهية بالنسبة إلى أولغا- قبل أن ينهار هوغو أخيراً ويجثم أرضاً أمام قدميها.

حدّقت إلى نصل فتاحة الرسائل، فرأت طرفه خارجاً من الجهة الخلفية لعنقه، والدم يسيل في كل الاتجاهات، مثل مطفأة الحريق الخارجة عن السيطرة.

همس هوغو محاولاً رفع يده: «ساعديني».

فركعت أولغا قربه، وأمسكت بيد الرجل الذي أحبّته ذات مرة قائلة: «لا يسعني فعل أي شيء لمساعدتك يا حبيبي، ولم يكن بوسعي يوماً».

وشيئاً فشيئاً، أصبح تنفّسه أقل انتظاماً؛ رغم أنه أمسك بيدها بشدة. عندها، ركعت قربه للتأكد من قدرته على سماع كل كلمة تتفوّه بها وهمست: «بقيت لديك بضع لحظات في هذه الحياة، ولا أريد أن تذهب إلى القبر من دون أن تعرف تفاصيل التقرير الأخير لميتشيل».

بذل هوغو جهداً أخيراً للتكلم، وتحركت شفتاه، ولكن لم تخرج من فمه أي كلمات.

فتابعت أولغا: «وجدت إيما هاري، وأعرف أنك ستسرّ لدى سماعك أنه حيّ وبصحة جيدة». لم تبتعد عينا هوغو عنها إطلاقاً فيما اقتربت منه أكثر فأكثر، إلى أن لامست شفتاها أذنيه تقريباً، وتابعت قائلة: «وهو الآن في طريقه إلى إنكلترا للمطالبة بحقه في الإرث».

وعندما أصبحت يد هوغو جامدة أضافت: «أوه، لكنني نسيت إخبارك أنني تعلمت أيضاً كيف أكذب مثلك».

كتبت جريدة أخبار بريستول المسائية، وجريدة بريستول في المساء عناوين مختلفة في الصفحة الأولى من عدد اليوم التالي.

السير هوغو بارينغتون مطعون حتى الموت

كان ذلك هو العنوان العريض في جريدة بريستول في المساء، فيما عنونت جريدة أخبار بريستول المسائية

امرأة مجهولة الهوية ترمي بنفسها أمام قطار لندن إكسبرس

وحده التحري بلايكمور؛ رئيس مركز الشرطة المحلية استطاع الربط بين الأمرين.

إيما بارينغتون

1942

قال سيفتون جيلكس فيما وقف خلف مكتبه: «صباح الخير يا سيد غوينزبورغ. إنه لشرف لي أن ألتقي الرجل الذي نشر دوروثي باركر وغراهام غرين».

فأحنى غوينزبورغ رأسه قليلاً قبل أن يصافح جيلكس.

وتابع جيلكس كلامه فيما استدار نحو إيما: «والآنسة بارينغتون، سررت برؤيتك مجدداً. لم أعد أمثّل السيد لويد، وأتمنى أن نصبح صديقين».

عندها، عبست إيما، وجلست من دون أن تصافح يده الممدودة إليها.

وبعد أن جلس الثلاثة، تابع جيلكس قائلاً: «يمكنني ربما افتتاح هذا اللقاء بالقول إنه من الأفضل لنا نحن الثلاثة أن نجلس ونناقش الأمور بصراحة، لنرى ما إذا كان بوسعنا التوصل إلى حل مناسب لمشكلتنا».

فقالت له إيما: «مشكلتك».

زمّ السيد غوينزبورغ شفتيه، وإنما لم يقل أي شيء.

فتابع جيلكس كلامه، ووجّه انتباهه إلى غوينزبورغ قائلاً: «أنا واثق من أنك تريد الأفضل لجميع الفرقاء المعنيين».

عندها، سألته إيما: «وهل يشمل ذلك هاري كليفتون هذه المرة؟».

في تلك اللحظة، استدار غوينزبورغ نحو إيما، ووجّه إليها تكشيرة استياء.

فيما أجاب جيلكس: «نعم يا آنسة بارينغتون. يفترض بأي اتفاق نتوصل إليه أن يشمل السيد كليفتون».

«أتعني مثلما حصل في المرة الماضية يا سيد جيلكس، عندما خذلته في الوقت الذي احتاج فيه إليك!».

قال غوينزبورغ: «إيما!».

«آنسة بارينغتون، عليّ الإشارة إلى أنني كنت أنفذ تعليمات موكلي. فقد أكد لي السيد والسيدة برادشو أن الرجل الذي أمثله هو ابنهما، ولم يكن يفترض بي الاعتقاد بغير ذلك. وقد منعت توم طبعاً من...»

«ثم تركت هاري يدافع عن نفسه».

«يا آنسة بارينغتون، عندما اكتشفت أخيراً أن توم برادشو هو في الواقع هاري كليفتون، توسل إليّ لإبقاء السر طيّ الكتمان لأنه لم يشأ أن تكتشفي أنت تحديداً أنه ما زال على قيد الحياة».

فقالت إيما: «ولكنّ هذه ليست رواية هاري لما حصل». ثم ندمت فوراً على كلماتها.

ولم يحاول غوينزبورغ إخفاء امتعاضه، وبدا مثل رجل أدرك أنه تم استعمال ورقة الجوكر الخاصة به في مرحلة مبكرة جداً.

قال جيلكس: «فهمت. أرى أنكما قد قرأتكما كلاكما الدفتر السابق لليوميات؟».

فقالت إيما: «كل كلمة منه. ولذلك، توقف عن الادعاء بأنك فعلت فقط ما هو لمصلحة هاري».

عندها، تدخّل غوينزبورغ للمرة الأولى وقال بصرامة: «إيما، عليك أن تتعلمي عدم أخذ الأمور بطريقة شخصية، وحاولي رؤية الصورة بطريقة أكثر شمولية».

فقالت إيما من دون أن تُبعِد عينيها عن جيلكس: «هل تقصد الصورة التي ينتهي فيها محامٍ مشهور من نيويورك في السجن بسبب تزييفه الأدلة وتضليله مسار العدالة؟».

قال غوينزبورغ: «أعتذر يا سيد جيلكس، فصديقتي الشابة منفعلة جداً في ما يتعلق...»

غير أن إيما قاطعته قائلة بصوت أشبه بالصراخ الآن: «أنت تعتقد ذلك لأنني أقول لك بالضبط ما كان سيفعله هذا الرجل»- وأشارت إلى جيلكس- «لو تم إرسال هاري إلى الكرسي الكهربائي. كان سيرفع المخل بنفسه إذا رأى أن هذا سينقذه من الورطة».

عندها، قال جيلكس وهو ينهض عن كرسيه: «هذا مهين! لقد حضّرت مرافعة تجعل القضاة متأكدين من أن الشرطة قد ألقت القبض على الرجل الخطأ».

فقالت إيما فيما تراجعت على كرسيها: «إذاً، لطالما عرفت أنه هاري».

عندها، ذُهل جيلكس من كلماتها، فاستفادت من صمته.

«دعني أخبرك بما سيحصل يا سيد جيلكس. عندما تنشر دار فايكينغ دفتر اليوميات الأول لهاري في الربيع، سوف تتهدم سمعتك وتتحطم مهنتك. وتماماً مثل هاري، سوف تكتشف طعم الحياة في لافنهام».

فما كان من جيلكس إلا أن استدار صوب غوينزبورغ يائساً وقال: «اعتقدت أنه من مصلحة الطرفين التوصل إلى تسوية قبل أن تخرج كل هذه القضية عن السيطرة».

عندها، سأله غوينزبورغ وهو يحاول أن يبدو معتدلاً: «بمَ تفكر يا سيد جيلكس؟».

وقالت إيما: «لن تعطي هذا الدجال فرصة! أليس كذلك؟».

فرفع غوينزبورغ يده وقال: «أقل ما يمكننا فعله يا إيما هو سماعه».

«أتعني تماماً مثلما سمع هاري؟!».

استدار جيلكس نحو غوينزبورغ وقال: «إذا شعرتم أنكم قادرون على عدم نشر دفتر اليوميات الأول، فأنا أؤكد لكم أنني أستطيع تقديم عرض مغرٍ لكم».

قالت إيما: «لا أصدق أنك تأخذ الأمر على محمل الجد».

غير أن جيلكس تابع كلامه مع غوينزبورغ كما لو أن إيما غير موجودة في الغرفة: «أفهم طبعاً أنكم قد تخسرون مبلغاً كبيراً من المال إذا لم تمضوا قدماً».

فقال غوينزبورغ: «يمكنني القول إن كتاب مذكرات سجين يساوي أكثر من مئة ألف دولار».

يبدو أن الرقم قد فاجأ جيلكس لأنه لم يجب.

فتابع غوينزبورغ كلامه: «وهناك أيضاً المبلغ الذي تم دفعه للويد مسبقاً والبالغ عشرين ألف دولار. يجب إعادة دفع كل هذا المبلغ إلى السيد كليفتون».

«لو كان هاري هنا، لقال لك حتماً إنه غير مهتم بالمال يا سيد غوينزبورغ، وإنما يريد التأكد فقط من وضع هذا الرجل في السجن».

عندها، بدا غوينزبورغ مذهولاً، وقال لها: «اعلمي يا إيما أن شركتي لم تؤسس سمعتها على أساس الفضائح، ولذلك قبل أن نتّخذ قراراً نهائياً بشأن نشر دفتر اليوميات أو لا، أريد معرفة ردة فعل المؤلفين المميزين حيال هذا النوع من المنشورات».

فقال جيلكس: «أنت محق يا سيد غوينزبورغ، فالسمعة هي كل شيء».

سألته إيما: «وكيف تعرف ذلك؟».

غير أن جيلكس تابع كلامه، متجاهلاً مقاطعة إيما له: «بخصوص موضوع المؤلفين المميزين، إنك تعلم ربما أن شركتي تنشر مؤلفات إف. سكوت فيتزجيرالد». ثم تراجع على كرسيه إلى الخلف، وتابع: «أذكر جيداً حين أخبرني سكوتي أنه إذا توجّب عليه تغيير الناشر، فسينتقل إلى فايكينغ».

قالت إيما: «لن تقع في هذا الفخ أيضاً، أليس كذلك؟».

«عزيزتي إيما، من الأفضل أحياناً التفكير في المدى البعيد».

«وكم هو هذا المدى برأيك؟ أهو ست سنوات؟».

«إيما، أنا أفعل ما هو في مصلحة الجميع».

فقالت: «يبدو لي أنك تفعل ما هو في مصلحتك فقط. لأنه حين يتعلق الأمر بالمال، لا أجدك أفضل منه». وأشارت إلى جيلكس.

عندها، بدا غوينزبورغ مستاء من اتهام إيما له، ولكنه تجاوز الأمر بسرعة، ثم استدار صوب المحامي وسأله: «بماذا تفكر يا سيد جيلكس؟».

«إذا وافقتم على عدم نشر الدفتر الأول بأي شكل من الأشكال، فأنا مستعد لدفع تعويض موازٍ للمبلغ الذي تم جنيه من مذكرات سجين، وسأدفع أيضاً المبلغ الذي تم دفعه مسبقاً للسيد لويد والبالغ عشرين ألف دولار».

قالت إيما ساخرة: «لماذا لا تصافحه يا سيد غوينزبورغ وتوافق على عرضه، فيُعرف حينها أنك خائن أيضاً؟».

غير أن غوينزبورغ قال متجاهلاً كلامها: «وماذا عن فيتزجيرالد؟».

«أمنحك حقوق نشر مؤلفات إف سكوت فيتزجيرالد لمدة خمسين سنة، وفق الشروط نفسها للناشر الحالي».

وأخيراً، ابتسم غوينزبورغ وقال: «حضِّر عقداً يا سيد جيلكس، وسأكون مستعداً للتوقيع عليه».

فسألته إيما: «وما هو الاسم المستعار الذي ستستخدمه أثناء التوقيع؟».

فهزّ غوينزبورغ كتفيه وأجاب: «العمل عمل يا عزيزتي. ولن تبقي أنت وهاري من دون مكافأة».

وقال جيلكس: «أنا مسرور لذكرك هذا الأمر يا سيد غوينزبورغ، لأنني أحمل منذ بعض الوقت شيكاً بقيمة عشرة آلاف دولار يدفع لوالدة هاري كليفتون. لكن بسبب اندلاع الحرب، لم تكن لدي وسيلة لإيصاله إليها. لذا، هل يمكنك يا آنسة بارينغتون تسليمه للسيدة كليفتون عند عودتك إلى لندن؟». ومرر لها الشيك من فوق الطاولة.

غير أن إيما تجاهلته وقالت: «لم تكن لتتذكر ذلك الشيك لو لم تقرأ عنه في دفتر اليوميات الأول، عندما قلت لهاري إنك سترسل إلى السيدة كليفتون مبلغ عشرة آلاف دولار إذا وافق على انتحال هوية توم براد شو». ثم وقفت إيما وأضافت: «أنتما مقرفان، وأتمنى ألا أصادف أياً منكما مجدداً في حياتي».

ثمّ خرجت من المكتب مسرعة من دون أية كلمة أخرى، تاركة الشيك على المكتب.

فقال غوينزبورغ: «فتاة عنيدة، لكنني واثق من أنني سأتمكن من إقناعها مع مرور الوقت بأننا اتخذنا القرار الصحيح».

وقال جيلكس: «أنا واثق يا هارولد من أنك ستعالج هذه الحادثة البسيطة بكل البراعة والدبلوماسية اللتين تطغيان على شركتك المميزة».

عندها قال غوينزبورغ وهو ينهض عن كرسيه ويأخذ الشيك: «هذا لطف منك يا سيفتون. وسأحرص على إيصال هذا الشيك إلى السيدة كليفتون». قبل أن يضعه في محفظته.

«أعرف أنني أستطيع الاعتماد عليك يا هارولد».

«من دون شك يا سيفتون، وأتطلع مجدداً إلى رؤيتك عند إعداد العقد».

فقال جيلكس فيما غادرا الغرفة معاً ومشيا في الرواق: «سيكون حاضراً في نهاية الأسبوع. غريب أننا لم نعمل معاً من قبل».

قال غوينزبورغ: «أوافقك الرأي. لكنني أشعر أن هذه بداية علاقة مثمرة وطويلة الأمد».

فقال جيلكس عندما وصلا إلى المصعد: «أتمنى ذلك. سأتصل بك ما إن يصبح العقد جاهزاً للتوقيع». وضغط على زر المصعد.

قال غوينزبورغ: «أتطلع إلى ذلك يا سيفتون». ثم صافح جيلكس بحرارة قبل أن يدخل المصعد.

وعندما وصل المصعد إلى الطابق الأرضي، خرج منه غوينزبورغ، فرأى إيما تتجه صوبه مباشرة.

قال لها: «كنت بارعة يا عزيزتي. أعترف أنني قد تساءلت لهنيهة إن كنت قد بالغت في كلامك عن الكرسي الكهربائي، ولكنك في الواقع أصبت هذا الرجل تماماً». وخرجا من المبنى معاً، ممسكين بذراعَي بعضهما.

أمضت إيما معظم فترة بعد الظهر جالسة في غرفتها بمفردها وهي تعيد قراءة دفتر اليوميات الأول الذي تحدّث فيه هاري عن الوقت الذي أمضاه قبل إرساله إلى لافنهام.

وفيما قلّبت الصفحات، أدركت جيداً ما أراد هاري تحمله من أجل تحريرها من أي واجب قد تشعر به تجاهه، وقررت أنها إذا وجدت ذلك الرجل الأحمق مجدداً، فلن تدعه يفلت منها.

وبفضل دعم السيد غوينزبورغ، اهتمت إيما بكل جوانب نشر النسخة المنقّحة من مذكرات سجين، أو الإصدار الأول مثلما كانت تشير إليه دوماً. لذا، حضرت اجتماعات التحرير، وناقشت شكل الغلاف مع رئيس القسم الفني، واختارت الصورة التي سيتم وضعها على الغلاف الخلفي، وكتبت نبذة عن هاري للطية الداخلية للغلاف، ونظمت أيضاً اجتماعاً من أجل المبيعات.

وبعد ستة أسابيع، تم نقل صناديق الكتب من المطبعة بواسطة القطارات والشاحنات والطائرات إلى مستودعات في كل أنحاء أميركا.

يوم النشر، كانت إيما واقفة على الرصيف خارج مكتبة دابلدايز تنتظر أن تفتح المكتبة أبوابها. وذلك المساء، استطاعت إخبار العمة فيليس وابنها أليستاير بأن نسخ الكتاب كلها قد نفدت من المكتبة. وجاء التأكيد على ذلك ضمن لائحة الكتب الأكثر مبيعاً وفق جريدة نيويورك تايمز يوم الأحد التالي، حيث ظهر عنوان كتاب مذكرات سجين في لائحة الكتب العشرة الأولى بعد أسبوع واحد فقط على بدء المبيعات.

أراد صحافيون ومحررون من كل أنحاء البلاد إجراء مقابلة مع هاري كليفتون وماكس لويد. لكن لم يتم العثور على هاري في أي سجن من سجون أميركا، فيما كان لويد غير مستعد للتعليق؛ وفق جريدة تايمز. وكانت جريدة نيويورك تايمز أكثر إثارة عندما كتبت العنوان: لويد الهارب.

يوم النشر، أصدر مكتب سيفتون جيلكس بياناً رسمياً أوضح فيه أن الشركة لم تعد تمثل ماكس لويد. ورغم احتلال كتاب مذكرات سجين المرتبة الأولى في لائحة الكتب الأكثر مبيعاً وفق جريدة نيويورك تايمز طوال الأسابيع الخمسة التالية، وفى غوينزبورغ بوعده لجيلكس، ولم ينشر أي مقتطفات من الدفتر الأول.

غير أن جيلكس وقّع عقداً منح فيه دار فايكينغ الحق الحصري لنشر كل مؤلفات إف سكوت فيتزجيرالد طوال السنوات الخمسين القادمة. اعتبر جيلكس أنه التزم بدوره في الصفقة، وأنه مع مرور الوقت سوف تسأم الصحافة من القصة وتنساها. وقد يكون محقاً لو لم تنشر مجلة تايم مقابلة مع التحري كارل كولوسكي المتقاعد حديثاً من مركز شرطة نيويورك.

إذ قال كولوسكي في المقابلة: «أؤكد لك أنهم نشروا لغاية الآن الأجزاء المملة فقط. انتظر حتى تقرأ ما حصل لهاري كليفتون قبل وصوله إلى لافنهام».

انتشرت المقالة قرابة الساعة السادسة مساء بالتوقيت المحلي، وتلقى السيد غوينزبورغ أكثر من مئة اتصال هاتفي قبل دخوله مكتبه في صباح اليوم التالي.

قرأ جيلكس المقالة في مجلة تايم فيما كان في طريقه إلى وال ستريت. وعندما خرج من المصعد في الطابق الثاني والعشرين، وجد ثلاثة من شركائه بانتظاره خارج مكتبه.

سألت فيليس إيما وهي تحمل رسالتين: «أي واحدة تريدينها أولاً؟ الأخبار الجيدة أو الأخبار السيئة؟».

فأجابت إيما من دون تردد: «الأخبار الجيدة»، فيما وضعت الزبدة فوق شريحة أخرى من الخبز.

عندها، وضعت فيليس إحدى الرسالتين على الطاولة، وعدّلت نظارتها، وبدأت تقرأ الرسالة الأخرى.

عزيزتي السيدة ستيوارت،

أنهيت للتو قراءة مذكرات سجين للمؤلف هاري كليفتون. ثمة مقالة ممتازة عن الكتاب في واشنطن بوست اليوم، وتسأل في النهاية عما حصل للسيد كليفتون بعدما غادر سجن لافنهام قبل سبعة أشهر، وقد أنهى ثلث فترة حكمه فقط.

لأسباب متعلقة بالأمن القومي، أنا واثق من أنك تفهمين عدم قدرتي على الدخول في أي تفاصيل في هذه الرسالة.

ولكن، إذا كانت الآنسة بارينغتون- التي عرفتُ أنها تقيم معك- راغبة في معرفة المزيد من المعلومات المتعلقة بالملازم كليفتون، فبإمكانها الاتصال بهذا المكتب، وسأسرّ بإعطائها موعداً لمقابلتي.

وبما أن الأمر لا يخرق قانون الأسرار المهنية، أودّ إخبارك بأنني استمتعت بقراءة دفتر يوميات الملازم كليفتون. وإذا صحّت الشائعات المذكورة في عدد اليوم من جريدة نيويورك بوست، فأنا أتحرق شوقاً لمعرفة ما حصل له قبل نقله إلى سجن لافنهام.

مع تحياتي

الكولونيل جون كليفردون

نظرت العمة فيليس إلى الأعلى، فرأت إيما تقفز صعوداً ونزولاً مثل فتاة مراهقة في حفل موسيقي ليسناترا. سكب باركر للسيدة ستيوارت فنجاناً ثانياً من القهوة، كما لو أنه لم يحصل أي شيء غير اعتيادي على مسافة بضع أقدام منه.

فجأة، تجمّدت إيما في مكانها وسألتها: «وما هو الخبر السيئ؟». فيما جلست إلى الطاولة.

فرفعت فيليس الرسالة الأخرى وقالت: «إنها من روبير هارفي، وهو قريب لنا؛ بفارق جيل واحد». قمعت إيما ضحكتها، فيما راقبتها فيليس جيداً من فوق نظارتها وقالت: «لا تسخري أيتها الفتاة. فالانتماء إلى عائلة كبيرة له مزاياه، مثلما ستكتشفين». وبعد ذلك، حوّلت انتباهها مجدداً إلى الرسالة.

عزيزتي فيليس،

كم سررت لسماعي أخبارك بعد مضيّ كل هذا الوقت. لطف منك أن تلفتي انتباهي إلى كتاب مذكرات سجين من تأليف هاري كليفتون، فقد استمتعت به كثيراً. ولا شك في أن الشابة إيما مذهلة فعلاً.

نظرت فيليس إلى الأعلى، ثم قالت قبل أن تعود إلى الرسالة: «فارق جيلين بالنسبة إليك».

تسرّني مساعدة إيما في معضلتها الحالية. ولتحقيق هذه الغاية، تملك السفارة طائرة ستسافر إلى لندن يوم الخميس المقبل، وقد وافق السفير على انضمام الآنسة بارينغتون إليه وإلى موظفيه في الرحلة.

إذا كان بوسع إيما المجيء إلى مكتبي صباح يوم الخميس، فسأتأكد من إنجاز كل المعاملات الضرورية. ذكّريها من فضلك بأن تحضر معها جواز سفرها.

مع كل محبتي

روبير

ملاحظة: هل الآنسة جميلة فعلاً بقدر ما أوحى السيد كليفتون في هذا الكتاب؟

طوت فيليس الرسالة وأعادتها إلى المغلف.

فسألت إيما: «وأين الأخبار السيئة؟».

عندها، أخفضت فيليس رأسها، كما لو أنها غير موافقة على عرض عواطفها، وقالت بهدوء: «لا تعرفين يا صغيرتي كم سأشتاق إليك؛ فأنت الابنة التي لم أنجبها قط».

قال غوينزبورغ رافعاً كأسه: «وقّعت على العقد هذا الصباح».

فقال أليستاير: «تهانينا». فيما رفع جميع الجالسين حول مائدة الطعام كؤوسهم.

عندها، قالت فيليس: «اعذروني، لكن يبدو أنني الوحيدة هنا التي لا تفهم ما يحصل. إذا كنت قد وقعت على عقد يمنع شركتك من نشر العمل السابق لهاري كليفتون، فبمَ نحتفل بالضبط؟».

أجاب غوينزبورغ: «نحن نحتفل بوضع مئة ألف دولار من مال سيفتون جيلكس في الحساب المصرفي الخاص بشركتي هذا الصباح».

وقالت إيما: «وأنا حصلت على شيك بقيمة عشرين ألف دولار من المصدر نفسه. الدفعة الأولى للويد عن كتاب هاري».

قال غوينزبورغ: «ولا تنسي الشيك الذي تبلغ قيمته عشرة آلاف دولار والخاص بالسيدة كليفتون، فقد أصبح معي. بصراحة، أحرزنا نتائج جيدة. والآن، بعد توقيع العقد، سيكون هناك المزيد من الإيجابيات طوال السنوات الخمسين التالية».

قالت فيليس: «ربما، لكنني منزعجة كثيراً لأنكم سمحتم لجيلكس بالإفلات من جريمة ارتكبها».

قال غوينزبورغ: «أعتقد أنه لا يزال في طابور الإعدام يا سيدة ستيوارت، ولكنّنا منحناه فترة ثلاثة أشهر قبل التنفيذ».

عندها قالت فيليس محتارة: «لا أفهم شيئاً».

فقال غوينزبورغ: «دعيني أشرح لك الأمر. العقد الذي وقّعناه هذا الصباح لم يكن مع سيفتون جيلكس، وإنما مع دار بوكيت بوكس للنشر؛ وهي شركة اشترت حقوق نشر كل مذكرات هاري على شكل كتب ورقية».

قالت فيليس: «وهل لي أن أسأل ما تعنيه الكتب الورقية؟».

فقال أليستاير: «ماما، الكتب الورقية موجودة منذ أعوام عدة».

«ربما، لكنني لم أرَ واحداً بعد».

عندها قال غوينزبورغ: «أمك محقة في هذا الموضوع. وهذا يفسّر ربما السبب الذي جعل جيلكس يقع في الفخ؛ لأن السيدة ستيوارت تمثل جيلاً كاملاً لن يستوعب أبداً الكتب المنشورة بغلافات ورقية، ويفكر فقط في قراءة الكتب ذات الأغلفة الجلدية».

سألت فيليس: «ما الذي يجعلك تظن أن جيلكس غير مستوعب تماماً لفكرة الكتب الورقية؟».

فأجاب أليستاير: «يعود الفضل إلى إف. سكوت فيتزجيرالد».

فما كان من فيليس إلا أن قالت: «أتمنى لو تبعد الأحجيات عن مائدة العشاء».

عندها قالت إيما: «قال لنا أليستاير إنه إذا أراد جيلكس عقد اجتماع في مكتبه من دون حضور مساعده القانوني، فذلك يعني أنه لم يبلِّغ شركاءه بحقيقة وجود دفتر يوميات ناقص، وأنه في حال نُشر ذلك الدفتر، فسيكون لعنة بالنسبة إلى سمعة الشركة أكثر من مذكرات سجين».

قالت فيليس: «إذاً، لماذا لم يحضر أليستاير الاجتماع ويسجّل كل ما قاله جيلكس؟ ففي النهاية، هذا الرجل هو أحد أكثر المحامين المراوغين في نيويورك».

«لهذا السبب تحديداً لم أحضر الاجتماع يا أمي. إذ لم نشأ تسجيل أي شيء، وكنت مقتنعاً بأن جيلكس سيكون مغروراً كفاية للاعتقاد بأنه فقط في مواجهة فتاة من إنكلترا وناشر يثق تماماً في إمكانية رشوته؛ ويعني ذلك أننا أحكمنا السيطرة عليه تماماً».

«أليستاير».

غير أن أليستاير تابع كلامه: «لكن، مباشرة بعد خروج إيما غاضبة من الاجتماع، كشف السيد غوينزبورغ عن عبقريته الحقيقية». وهنا بدت إيما مذهولة وهي تسمع: «فقد قال لجيلكس، أتطلع إلى رؤيتك مجدداً عند إعداد العقد».

قال غوينزبورغ: «وهذا ما فعله جيلكس بالضبط؛ لأنني بعد أن راجعت عقده، أدركت أنه تمت صياغته على أساس عقد جرى إعداده أساساً للكاتب إف. سكوت فيتزجيرالد؛ وهو رجل نشر كل كتبه بأغلفة جلدية قاسية. إذاً، ما من شيء في ذلك العقد يشير إلى عدم قدرتنا على نشر الكتب بأغلفة ورقية. لذا، إن العقد الفرعي الذي وقّعته هذا

الصباح يسمح لدار بوكيت بوكس بنشر دفتر اليوميات السابق لهاري، من دون أي خرق لاتفاقي مع جيلكس».

وسمح غوينزبورغ لباركر بإعادة ملء كأسه بالشراب.

سألت إيما: «ما هو الرقم الذي حددته؟».

«يمكنك في بعض الأحيان توقع الكثير من الحظ الجيد».

سألت فيليس: «كم ربحت؟».

اعترف غوينزبورغ: «ربحت مئتي ألف دولار».

قالت فيليس: «سوف تحتاج إلى كل قرش من هذا المال. فبعد بيع ذلك الكتاب، سوف تمضي أنت وأليستير السنتين المقبلتين في المحكمة للدفاع عن نفسيكما في مواجهة نصف دزينة من الناشرين».

فقال أليستاير بعدما سكب له باركر بعض الشراب: «لا أعتقد ذلك. وأؤكد لك يا أمي أن سيفتون جيلكس سيمضي الآن آخر ثلاثة أشهر بصفته الشريك الأساسي في مكتب جيلكس ومايرز وأبيرناثي للمحاماة».

«وما الذي يجعلك واثقاً هكذا؟».

«أشعر أن جيلكس لم يخبر شركاءه عن دفتر اليوميات الأول. ولذلك، حين تنشر دار بوكيت بوكس ذلك الدفتر، لن يبقى لديه أي خيار سوى تقديم استقالته».

«وإذا لم يفعل».

فقال أليستاير: «سوف يرمونه في الخارج. فالشركة التي لا ترحم زبائنها، لن تصبح فجأة حنوناً مع شركائها. ولا تنسي أنه يوجد دوماً

شخص يرغب في أن يكون الشريك الأساسي... لذا، عليّ الاعتراف يا إيما بأن قضيّتك أكثر إثارة من قضية شركة «أمالغايتد واير...»

فتابع الآخرون: «... ضد شركة «نيويورك إلكتريك»». ورفعوا كؤوسهم جميعاً لشرب نخب إيما.

قال غوينزبورغ: «وإذا بدّلت رأيك وأردت البقاء في نيويورك أيتها الشابة الجميلة، فإن وظيفتك موجودة في دار فايكينغ للنشر».

قالت إيما: «شكراً لك يا سيد غوينزبورغ، ولكن السبب الوحيد الذي جاء بي إلى أميركا هو العثور على هاري، وقد اكتشفت الآن أنه في أوروبا فيما أنا موجودة في نيويورك. لذا، بعد أن أعقد اجتماعي مع الكولونيل كليفردون، سأعود إلى بريطانيا لأكون مع ابننا».

عندها، قال أليستاير بمرارة: «لا شك في أن هاري كليفتون محظوظ لوجودك معه».

«إذا التقيتَه يوماً يا أليستاير، فسوف تدرك أنني المحظوظة».

مكتبة الرمحي أحمد

في صباح اليوم التالي، استيقظت إيما باكراً، وتحدّثت مع فيليس بمرح خلال الفطور، وأعربت لها عن سعادتها بلقاء سيباستيان وعائلتها مجدداً. فأومأت فيليس برأسها، غير أنها لم تقل الكثير.

أخرج باركر حقائب إيما من غرفتها، وأنزلها في المصعد ووضعها في الردهة. وكانت قد اشترت حقيبتين إضافيتين بعد وصولها إلى نيويورك. فتساءلت عمّا إذا كان هناك شخص يعود إلى منزله بأغراض أقل من تلك التي غادر بها.

قالت فيليس بعد محاولات عدة للقول وداعاً: «لن أنزل إلى الأسفل، لأنني سأبدو حمقاء. من الأفضل أن تتذكري ببساطة امرأة عجوزاً لا تحب أن يزعجها أحد خلال حفلات البريدج. وعندما تأتين لزيارتي في المرة التالية يا عزيزتي، أحضري معك هاري وسيباستيان. فأنا أريد التعرف إلى الرجل الذي أسر قلبك».

صدح بوق سيارة أجرة في الشارع، فقالت فيليس: «حان وقت الذهاب. انطلقي بسرعة».

وهكذا، عانقتها إيما للمرة الأخيرة، ولم تنظر إلى الخلف مجدداً.

وعندما خرجت من المصعد، كان باركر واقفاً قرب الباب الأمامي بانتظارها، وقد نقل مسبقاً الحقائب إلى صندوق سيارة الأجرة. وما إن رآها حتى خرج إلى الرصيف، وفتح لها الباب الخلفي لسيارة الأجرة.

قالت إيما: «إلى اللقاء باركر، وشكراً لك على كل شيء».

فأجاب: «من دواعي سروري يا سيدتي». وفيما كانت على وشك الركوب في سيارة الأجرة، أضاف: «إذا لم يكن كلامي مزعجاً يا سيدتي، فأنا أتساءل عمّا إذا كان بوسعي إبداء ملاحظة».

عندها، تراجعت إيما إلى الخلف محاولةً إخفاء دهشتها وقالت: «طبعاً، تفضل».

فقال: «لقد استمتعت كثيراً بمذكرات السيد كليفتون، ولذلك أتمنى ألا يمضي وقت طويل جداً قبل أن تعودي إلى نيويورك بصحبة زوجك».

لم يمضِ وقت طويل قبل أن ينطلق القطار بسرعة في الأرياف متّجهاً صوب العاصمة. وجدت إيما أنها عاجزة عن القراءة أو النوم لأكثر من بضع دقائق متتالية. وفكرت في كل من العمة فيليس، والسيد غوينزبورغ، والمحامي أليستاير، والسيد جيلكس، والتحري كولوسكي، وباركر.

فكرت في ما يجدر بها فعله بعد وصولها إلى واشنطن. فعليها أولاً الذهاب إلى السفارة البريطانية، والتوقيع على بعض الاستمارات للتمكن من الانضمام إلى السفير في رحلته إلى لندن؛ وفق ترتيبات روبير هارفي، قريبها بفارق جيلين. «لا تسخري أيتها الفتاة»، سمعت العمة فيليس تقول لها، ثم خلدت إلى النوم. رأت هاري في أحلامها؛ رأته هذه المرة مرتدياً البذلة العسكرية، ومبتسماً، وضاحكاً. ثم استيقظت مذعورة، متوقعة رؤيته في القطار معها.

وعندما وصل القطار إلى محطة «يونيون» بعد خمس ساعات، واجهت إيما صعوبة في إنزال حقائبها إلى الرصيف؛ إلى أن جاء حمّال لإنقاذها، وهو جندي سابق بذراع واحدة. وجد لها سيارة أجرة، وشكرها على البقشيش، وقدم لها التحية بالذراع الأخرى. إنه شخص آخر اختار له القدر شيئاً نتيجة حرب لم يعلنها.

قالت إيما فيما ركبت في سيارة الأجرة: «السفارة البريطانية».

تم إنزالها في جادة ماساتشوستس، أمام بوابات حديدية مزخرفة عليها الشعار الملكي. وعلى الفور، ركض جنديان شابان نحوها لمساعدتها في حقائبها.

«من تريدين يا سيدتي؟». لكنة إنكليزية، أسلوب أميركي.

فأجابت: «السيد روبير هارفي».

قال الرقيب الذي حمل حقائبها: «الضابط هارفي. طبعاً». ورافقها إلى مكتب في الجهة الخلفية للمبنى.

دخلت إيما غرفة كبيرة يتحرك فيها الموظفون في كل اتجاه، وقد ارتدى معظمهم البذلات العسكرية. برز وجه بينهم وألقى عليها التحية مع ابتسامة كبيرة.

قال: «أنا روبير هارفي. آسف بشأن الفوضى المنظمة، لكنّ هذه هي الحال دوماً عند عودة السفير إلى إنكلترا. والأمر أسوأ هذه المرة؛ لأن وزيراً جاء لزيارتنا خلال الأسبوع الماضي. تم تحضير كل أوراقك، وأحتاج إلى جواز سفرك فقط».

وبعد أن قلّب الأوراق الموضوعة على مكتبه، طلب منها التوقيع هنا وهناك، ثم قال لها: «ستنطلق حافلة من أمام السفارة متوجهة إلى المطار في تمام الساعة السادسة مساء. لذا، كوني موجودة في هذا الوقت من فضلك، إذ يفترض أن يكون الجميع على متن الطائرة قبل وصول السفير».

قالت إيما: «سأكون هنا في الوقت المحدد. هل يمكنني ترك حقائبي هنا فيما أذهب لاستكشاف المدينة».

فقال روبير: «لا مشكلة. سأطلب من أحدهم وضعها في الحافلة».

قالت إيما: «شكراً لك».

وكانت على وشك المغادرة حين أضاف: «بالمناسبة، أحببت الكتاب. وأريد تحذيرك بأن الوزير يرغب في التكلم معك في الطائرة على انفراد. أعتقد أنه كان ناشراً قبل أن يعمل في السياسة».

سألته إيما: «ما اسمه؟».

«هارولد مكميلان».

تذكّرت إيما نصيحة السيد غوينزبورغ حين قال لها: «سيُريد الجميع هذا الكتاب. وما من ناشر لن يفتح لك أبوابه، ولذلك لا تنغري بسهولة. حاولي أن تقابلي بيلي كولنز وألن لاين أوف بنغوين». غير أنّه لم يذكر هارولد مكميلان إطلاقاً.

قال لها قريبها بفارق جيلين: «إذاً، أراك في الحافلة قرابة الساعة السادسة». ثم اختفى مجدداً وسط المجموعة.

غادرت إيما السفارة، وخرجت إلى جادة ماساتشوستس وتحققت من ساعتها. لديها ساعتان تقريباً قبل موعدها مع الكولونيل كليفردون. أوقفت سيارة أجرة.

«إلى أين آنستي؟».

فقالت: «أريد رؤية كل ما هو جميل في المدينة؟».

«كم لديك من الوقت؟ ألديك عامان؟».

فأجابت إيما: «لا. مجرد ساعتين. دعنا ننطلق».

انطلقت سيارة الأجرة بسرعة. كانت المحطة الأولى هي البيت الأبيض- 15 دقيقة. بعدها إلى الكابيتول- 20 دقيقة. ثم قامت بجولة حول تماثيل واشنطن وجيفرسون ولينوكولن- 25 دقيقة. وبعد ذلك زارت المعرض الوطني- 25 دقيقة أخرى. وكانت المحطة الأخيرة في سميثسونيان. لكنّ الوقت المتبقي لديها كان 30 دقيقة فقط قبل موعدها، ولذلك لم تزر سوى الطابق الأول.

وعندما ركبت سيارة الأجرة مجدداً، سألها السائق: «إلى أين الآن يا آنستي؟».

تحققت إيما من العنوان المسجّل على رسالة الكولونيل كليفردون وأجابت: «3022 شارع أدام».

وحين توقّفت سيارة الأجرة أمام مبنى رخامي أبيض ضخم، أعطت إيما سائق سيارة الأجرة آخر ورقة خمسة دولارات كانت معها. لذا، بعد لقائها الكولونيل عليها العودة إلى السفارة سيراً على الأقدام. قالت له: «أنت تستحق كل سنت منها».

فلمس السائق حافة قبعته، وقال مبتسماً ابتسامة عريضة: «اعتقدت أننا وحدنا الأميركيين من نفعل هذا الشيء».

صعدت إيما الدرج، ومرّت أمام حارسين حدقا إليها مباشرة، ثم دخلت المبنى. لاحظت أن الجميع تقريباً يرتدون تدرجات مختلفة من اللون الكاكي؛ رغم أن البعض منهم وضعوا أشرطة حرب. ثمة امرأة شابة خلف مكتب الاستقبال أرشدتها إلى الغرفة 9197. انضمّت إيما إلى مجموعة من البذلات كاكية اللون فيما توجهوا نحو المصاعد. وعندما خرجت من المصعد في الطابق التاسع، وجدت سكرتيرة الكولونيل كليفردون تنتظرها لإلقاء التحية عليها.

وقالت لها فيما كانت ترافقها في الرواق: «أخشى أن يكون الكولونيل منهمكاً في اجتماع، ولكن يُفترَض أن يقابلك خلال دقائق قليلة».

أدخلت السكرتيرة إيما مكتب الكولونيل. وبعد أن جلست، حدّقت إلى ملف سميك موضوع في وسط المكتب. وكما هي حالة رسالة مايزي على المدفأة، ودفتر اليوميات على مكتب جيلكس، تساءلت كم يتوجب عليها الانتظار قبل الكشف عن محتوياته.

الجواب هو عشرون دقيقة. وعندما فُتِح الباب أخيراً، دخل الغرفة رجل طويل ورياضي المظهر، بعمر والدها تقريباً، مع سيجار راح يتحرك صعوداً ونزولاً في فمه.

قال لها وهو يصافحها: «آسف لأنك انتظرت، ولكن لا توجد ساعات كافية في اليوم». ثم جلس خلف طاولة مكتبه وابتسم لها وتابع: «أنا جون كليفردون، وكنت سأتعرف إليك أينما كنت». فبدت إيما متفاجئة

إلى أن شرح لها قائلاً: «أنت تبدين تماماً مثلما وصفك هاري في كتابه. هل تودّين شرب فنجان من القهوة؟».

قالت إيما: «لا، شكراً». وحاولت ألّا تبدو متململة فيما نظرت إلى الملف الموضوع على مكتب الكولونيل.

فقال فيما نقر على الملف: «لا داعي لكي أفتح هذا. فقد كتبتُ معظمه بنفسي، ولذلك أستطيع أن أخبرك بكل ما حصل مع هاري منذ أن غادر لافنهام. والآن، بفضل مذكراته اليومية، نعرف جميعاً أنه لم يكن يفترض به المجيء إلى هنا أساساً. أتحرّق شوقاً لقراءة الكتاب الثاني ومعرفة ما حصل له قبل إرساله إلى لافنهام».

قالت إيما: «وأتحرق شوقاً لمعرفة ما حصل له بعد أن غادر لافنهام». وأملت ألا تبدو متململة.

عندها قال الكولونيل: «إذاً، فلنبدأ. تطوّع هاري للانضمام إلى وحدة القوات الخاصة التي أقودها شخصياً مقابل الإفراج عنه من السجن. وبما أن حياته في الجيش الأميركي بدأت بصفته جندياً عادياً، تم نقله مؤخراً إلى ساحة المعركة، وهو يعمل هناك حالياً بصفته ملازماً. إنه خلف خطوط العدو منذ أشهر عدة. وهو يعمل مع مجموعات المقاومة في الدول المحتلة، ويساعد في التحضير لإنزالنا في أوروبا».

لم تحبّ إيما ما سمعته، وسألته: «ما الذي تعنيه فعلياً بقولك خلف خطوط العدو؟».

«لا أستطيع إخبارك بالضبط؛ لأنه لا يسهل تعقبه دوماً عندما يكون في مهمة. إذ يقطع اتصاله غالباً مع العالم الخارجي لعدة أيام متتالية. ولكنني أستطيع أن أؤكد لك أنه وسائقه، الرقيب بات كوين- وهو سجين

آخر في لافنهام- من أفضل الجنود في مجموعتي. إنهما مثل تلميذَي مدرسة تم إعطاؤهما عدّة كيمياء عملاقة، وطُلِب منهما التجربة فيها على شبكة اتصالات العدو. وبالفعل، لقد أمضيا معظم وقتهما في نسف الجسور، وتخريب السكك الحديدية، وهدم الأعمدة الكهربائية. اختصاص هاري هو عرقلة حركة الفرق الألمانية، وكاد الألمان يأسرونه مرة أو مرتين. ولكنه أثبت أنه عصيّ عليهم؛ لدرجة أنهم خصصوا جائزة مالية لمن يلقي القبض عليه، وترتفع هذه الجائزة كل شهر على ما يبدو. وقد كانت ثلاثون ألف فرنك عندما تحققت منها آخر مرة».

وفي تلك اللحظة، لاحظ الكولونيل أن وجه إيما بات شاحباً كثيراً فقال: «أنا آسف جداً. لم أقصد إخافتك، ولكنني أنسى أحياناً حين أكون جالساً خلف مكتب، مقدار الخطر الذي يواجهه رجالي كل يوم».

سألت إيما بهدوء: «هل سيتم إطلاق سراح هاري؟».

فأجاب الكولونيل: «أخشى أنه مضطر إلى إتمام فترة سجنه».

«لكنك تعلم الآن أنه بريء. لذا، ألا يمكنك إعادته إلى إنكلترا؟».

«لا أعتقد أن هذا قد يُحدِث فرقاً كبيراً يا آنسة بارينغتون؛ لأنني إذا كنت أعرف هاري جيداً كما أظن، فأعتقد أنّه سيبدّل بذلته العسكرية بأخرى لحظة تطأ قدماه أرض وطنه».

«ليس إذا كانت لي علاقة بالأمر».

فابتسم الكولونيل وقال: «سأرى ما يمكنني فعله». قبل أن ينهض من خلف مكتبه. ثم فتح الباب وقدّم لها التحية: «أتمنى لك رحلة

موفقة إلى إنكلترا يا آنسة بارينغتون. وأتمنى ألا يمضي وقت طويل قبل أن تجتمعا أنتما الاثنان في مكان واحد، في الوقت نفسه».

هاري كليفتون

1945

41

قال هاري: «سأخبرك يا سيدي فور تحديد موقعهم». قبل أن يغلق سماعة الهاتف الميداني.

سأله كوين: «تحديد موقع من؟».

فأجاب: «جيش كيرتل. إذ يعتقد الكولونيل بنسون على ما يبدو أنهم في الوادي في الجهة الأخرى من ذلك الجبل». وأشار إلى أعلى الهضبة.

فقال كوين: «ثمة طريقة واحدة فقط لمعرفة ذلك». فيما حرّك مبدّل السرعة في سيارة الجيب مصدراً ضجيجاً.

عندها قال له هاري: «رويدك، فإذا كانوا هناك لا يجدر بنا إنذارهم بوجودنا».

حافظ كوين على سرعة بطيئة فيما تقدّما ببطء متّجهين إلى الهضبة.

وقال هاري عندما أصبحا على بعد أقل من خمسين ياردة من أسفل الهضبة: «هذا يكفي». فأوقف كوين السيارة وأطفأ المحرك، ثم قفزا من السيارة وركضا على الهضبة. وعندما أصبحا على مسافة بضع ياردات من أعلى الهضبة، انبطحا على بطنيهما، ثم زحفا مثل سلطعونين في البحر إلى أن توقفا مباشرة تحت القمة.

نظر هاري إلى الأعلى وحبس أنفاسه. لم يكن بحاجة إلى منظار ليرى ما هو أمامه. إذ يتّضح جلياً أن الجنود المصفحين للمارشال الأسطوري

كيرتيل يستعدون لمعركة في الوادي في الأسفل. كانت الدبابات مصطفة في أرتال طويلة، فيما جنود الدعم كفيلون بملء ملعب كامل لكرة القدم. اعتقد هاري أن أعدادهم تساوي ثلاثة أضعاف أعداد الفرقة الثانية من فوج تكساس للمشاة.

همس كوين: «إذا نجحنا في الخروج من هنا، فقد يكون لدينا الوقت الكافي للحؤول دون حصول كارثة كاستر ثانية».

غير أن هاري قال رداً على كلامه: «ليس بهذه السرعة. فقد نتمكّن من قلب الأمور لصالحنا».

«ألا تعتقد أننا استنفدنا حيواتنا التسع خلال العام الماضي؟».

قال هاري: «أحصيت ثماني لغاية الآن. لذلك، أعتقد أننا نستطيع المجازفة بحياة أخرى». وبدأ يزحف نزولاً على الهضبة قبل أن يعطي كوين رأيه. سأل هاري: «هل لديك منديلاً؟». فيما جلس كوين خلف المقود.

أجاب: «نعم سيدي». وأخرج منديلاً من جيبه، وأعطاه إلى هاري الذي ربطه إلى عمود هوائي راديو السيارة.

«سوف...»

قال هاري: «... أستسلم؟ نعم، إنها فرصتنا الوحيدة. لذا، تقدم بالسيارة ببطء إلى أعلى الهضبة أيها الرقيب، ثم انزل إلى الوادي». لم يكن هاري ينادي صديقه بات «بالرقيب» إلا حين لا يكون راغباً في إطالة النقاش.

فقال كوين: «إلى وادي الموت».

فردّ هاري: «ليست مقارنة عادلة. فهناك ستمئة جندي في الوادي، ونحن اثنان فقط. لذا، أرى نفسي هوراسيوس وليس اللورد كارديغان».

«أما أنا فأرى نفسي مثل إنسان جبان».

قال هاري: «لأنك إيرلندي». فيما بدآ ينزلان إلى الجهة الأخرى ببطء. وتابع هاري: «لا تتخطَّ السرعة القصوى». محاولاً المزاح قليلاً. توقّع استقبالهما بوابل من الرصاص بسبب وصولهما المفاجئ، ولكن على ما يبدو سيطر الفضول على الألمان.

قال هاري بصرامة: «مهما فعلت يا بات، فلا تفتح فمك، وحاول أن تتصرف كما لو أن كل شيء مخطط له مسبقاً».

إذا كان لدى كوين رأي آخر فهو لم يعبّر عنه؛ وهذا ليس من عاداته. قاد الرقيب السيارة بسرعة مطردة، ولم يدس على المكابح إلا عند وصولهما إلى الخط الأمامي للدبابات.

حدّق رجال كيرتل إلى سيارة الجيب غير مصدقين، لكن لم يتحرك أي منهم إلا عندما شق رائد طريقه بين الجنود وتوجّه نحوهما مباشرة. نزل هاري من السيارة، ووقف متأهّباً، وألقى التحية على أمل أن يستوعبه الألمان.

سأل الرائد: «ماذا تظن أنك تفعل هنا؟!».

رأى هاري أن هذه فرصته، فحافظ على هدوئه الخارجي وقال:

«لديّ رسالة للمارشال كيرتل من الجنرال آيزنهاور؛ القائد الأعلى للحلفاء في أوروبا». إذ عرف هاري أنه حين يسمع الرائد باسم آيزنهاور، فلن يجازف بالتصعيد أبداً.

ومن دون أي كلمة أخرى، صعد الرائد إلى المقعد الخلفي لسيارة الجيب، ونقر على كتف كوين بعصاه، وأشار في اتجاه خيمة كبيرة مموهة موجودة إلى جانب حشود الجنود.

عندما وصلوا إلى الخيمة، قفز الرائد من السيارة وقال: «انتظرا هنا». قبل أن يدخل الخيمة.

جلس كوين وهاري هناك، محاطَين بآلاف العيون الحذرة.

فهمس كوين: «لو كانت النظرات تقتل...». غير أنّ هاري تجاهله.

مرت دقائق عدة قبل عودة الرائد.

تمتم كوين: «هل سيرسل لنا فرقة الإعدام يا سيدي، أم سيدعوك لتشرب معه كأساً من الشراب؟».

قال الرائد من دون أن يُخفي دهشته: «وافق المارشال على رؤيتك».

فقال هاري: «شكراً لك سيدي». فيما نزل من سيارة الجيب، ولحق به إلى الخيمة.

نهض المارشال كيرتل من خلف طاولة طويلة مغطاة بخريطة تعرّف إليها هاري على الفور. لكن على هذه الخريطة وُضِعت نماذج دبابات وجنود مصغّرة، وكانت متجهة نحوه. كان محاطاً بدزينة من الضباط الميدانيين؛ أصغرهم برتبة كولونيل.

وقف هاري متأهباً وألقى التحية العسكرية.

فسأله المارشال بعد أن ردّ له التحية العسكرية: «الاسم والرتبة؟».

«كليفتون سيدي. الملازم كليفتون. أنا مساعد الجنرال آيزنهاور». لمح هاري نسخة من الكتاب المقدّس على طاولة صغيرة قرب السرير الميداني للمارشال، وثمة علم ألماني يغطي قماش إحدى جهات الخيمة. هناك شيء ناقص.

«ولماذا أرسل الجنرال آيزنهاور مساعده لرؤيتي؟».

راقب هاري الرجل ملياً قبل الإجابة عن سؤاله. فعلى عكس جيوبل أو جيورينغ، أكّد وجه كيرتل المنهك من جراء الحرب أنه انخرط في معارك على خطوط الجبهة الأمامية مرات عدة. وكانت الميدالية الوحيدة التي وضعها كانت ميدالية حديدية على شكل صليب مع مشبك برونزي من أوراق السنديان، وعرف هاري أنه نالها حين كان ملازماً في معركة المارن عام 1918.

«يريد منك الجنرال آيزنهاور أن تعلم أنه في القسم البعيد من كليمنصو لديه ثلاثة أفواج كاملة من ثلاثين ألف رجل، مع اثنين وعشرين ألف دبابة. وإلى يمينه، هناك الفرقة الثانية من مشاة تكساس. وفي الوسط، توجد الفرقة الثالثة من ذوي السترات الخضراء. وإلى يسارهم، فرقة المشاة الأوسترالية».

لا شك في أن المارشال الميداني لاعب بوكر ممتاز، لأنه لم يفضح أي شيء يفكّر فيه. وقد عرف أن الأرقام دقيقة؛ على افتراض أن هذه الفرق موجودة فعلاً في الأماكن التي تم ذكرها.

«إذاً، يُفترض أن تكون معركة ممتعة جداً أيها الملازم. وإذا كان هدفك إخافتي، فقد فشلت».

عندها، قال هاري فيما نظر إلى الخريطة: «ليس هذا هو الهدف من زيارتي يا سيدي؛ لأنني أعتقد أنني لم أخبرك أي شيء لا تعرفه أصلاً، بما في ذلك سيطرة الحلفاء أخيراً على مطار ويلهيلمسبرغ». وكانت تلك حقيقة أكدها علم أميركي صغير مثبت في الخريطة على المطار. «لكنّ ما لا تعرفه ربما يا سيدي هو أنه توجد على المدرّج مجموعة من طائرات لانكاستر التي تنتظر أمراً من الجنرال آيزنهاور لتدمير دباباتكم، فيما تتقدم فرقه إلى قلب المعركة».

وكان هاري يعرف جيداً أن الطائرات الوحيدة الموجودة في المطار هي بضع طائرات حربية قديمة نفد منها الوقود.

عندها قال كيرتل: «انطق بالخلاصة أيها الملازم. لماذا أرسلك الجنرال آيزنهاور لرؤيتي؟».

«أحاول تذكر كلمات الجنرال بدقة». وحاول هاري أن يبدو كما لو أنه يتلو رسالة. «لا شك في أن هذه الحرب المريعة قد شارفت على النهاية، ووحده رجل مجنون من دون خبرة يمكنه أن يصدق أن النصر ما زال ممكناً».

لم يخفَ على الضباط المحيطين بالمارشال الميداني التلميح إلى هتلر في كلام هاري. عندئذ، أدرك هاري أن هناك شيئاً ينقص؛ فما من علم نازي أو صور لهتلر في خيمة المارشال الميداني.

لذا، تابع قائلاً: «يكنّ الجنرال آيزنهاور الكثير من الاحترام لك وللفرقة التاسعة عشرة. وهو لا يشك أبداً في أن رجالك مستعدون للتضحية بحياتهم من أجلك. ولكنه يسألك عن الهدف من ذلك؟ فهذه الحرب ستلحق خسائر فادحة بجنودك، وفي المقابل سنخسر عدداً كبيراً

من رجالنا. يعلم الجميع أن نهاية الحرب باتت على مسافة بضعة أسابيع، فلماذا نتكبد خسائر غير ضرورية؟ قرأ الجنرال آيزنهاور كتابك، الجندي المحترف عندما كان في ويست بوينت يا سيدي، ولا تزال جملة منه عالقة في ذاكرته طوال مهنته العسكرية».

وصودف أن هاري قرأ مذكرات كيرتل قبل أسبوعين تقريباً، حين أدرك أنهم قد يواجهونه، ولذلك استطاع تكرار الجملة حرفياً.

«إن إرسال الرجال الشباب إلى موت غير ضروري ليس عملاً قيادياً البتة، وإنما هو مجد باطل وغير جدير بجندي محترف. وهذا أمر تتشاركه يا سيدي مع الجنرال آيزنهاور. لهذا السبب، يضمن لك الجنرال معاملة رجالك بكل احترام وكرامة في حال تخلّيت عن أسلحتك؛ مثلما هو منصوص في اتفاقية جنيف الثالثة».

توقّع هاري أن يكون جواب المارشال: «محاولة جيدة أيها الشاب، ولكنك تستطيع القول لمن يأمر فرقتك التافهة في الجهة الأخرى من الهضبة إنني أريد محوهم عن وجه الأرض». لكنّ كيرتل قال: «سأناقش اقتراحات الجنرال مع ضباطي. لذا، يمكنك الانتظار في الخارج من فضلك».

«طبعاً سيدي». وألقى هاري التحية العسكرية، ثم غادر الخيمة وعاد إلى سيارة الجيب. لم يتحدث كوين عندما جلس هاري على المقعد الأمامي قربه.

بدا جلياً أن ضباط كيرتل لم يُبدوا جميعاً الرأي نفسه؛ لأنه استطاع سماع أصوات مرتفعة تصدر من داخل الخيمة. استطاع هاري تخيل

تبادل كلمات الشرف، والتفكير المنطقي، والواجب، والواقعية، والذل، والتضحية. ولكنه خشي كثيراً من اعتقاد أولئك الرجال أنه «يخادع».

مضت ساعة تقريباً قبل أن يستدعي الجنرال هاري إلى الخيمة مجدداً. كان كيرتل واقفاً بعيداً عن معظم مستشاريه الموثوقين، وهناك نظرة قلق على وجهه. لقد اتخذ قراره؛ وحتى لو لم يوافقه بعض ضباطه، فقد أعطى الأمر حيث لا يناقشه أحد. ولا داعي لأن يقول لهاري ما هو القرار.

«هل أستطيع يا سيدي الاتصال بالجنرال آيزنهاور وإطلاعه على قرارك؟».

فأومأ المارشال برأسه بتهذيب، وغادر ضباطه الخيمة للتأكد من تنفيذ أوامره.

عاد هاري إلى سيارة الجيب بصحبة الرائد، وراقب 23 ألف رجل وهم يلقون أسلحتهم أرضاً، وينزلون من دباباتهم ويصطفون في ثلاثة أرتال وهم يستعدون للاستسلام. لقد نجح في خداع المارشال الميداني، ولكنه خشي ألا يتمكن من اعتماد الحيلة نفسها مع قائده الميداني. رفع سمّاعة الهاتف الميداني وانتظر لحظات قليلة قبل أن يُجيب الكولونيل بنسون على الاتصال. أمل هاري ألا يلاحظ الرائد قطرات العرق التي راحت تتشكل على أنفه.

«هل اكتشفت عددهم؟». كانت تلك أولى كلمات الكولونيل.

«هل يمكنك إيصالي بالجنرال آيزنهاور أيها الكولونيل. أنا الملازم كليفتون، مساعده الخاص».

«هل فقدت صوابك يا كليفتون؟».

«نعم سيدي، سأنتظر فيما تبحث عنه». وراح قلبه يخفق بسرعة كبيرة كما لو أنه ركض مسافة مئة ياردة، وبدأ يتساءل عن الوقت الذي سيمضي قبل أن يكتشف الكولونيل خطته. أومأ برأسه إلى الرائد، لكن هذا الأخير لم يردّ. هل يقف هنا على أمل اكتشاف هفوة صغيرة؟ وفيما انتظر، راقب هاري آلاف المحاربين- الذين كان بعضهم مذهولين، وبعضهم الآخر مرتاحين- وهم ينضمّون إلى صفوف أولئك الذين تخلوا عن دباباتهم وألقوا أسلحتهم أرضاً.

قال الكولونيل بنسون، فيما عاد إلى الخط: «أنا الجنرال آيزنهاور، هل هذا أنت يا كليفتون؟».

«نعم سيدي. أنا مع المارشال الميداني كيرتل، وقد وافق على اقتراحك بأن يسلم جنود الفرقة التاسعة عشرة أسلحتهم، ويستسلموا وفقاً لشروط اتفاقية جنيف بهدف تفادي مذبحة غير ضرورية، على حد قولك يا سيدي. حبّذا لو تطلب من إحدى فرقنا الخمس التقدم إلى الأمام، حيث ينجزون العملية بطريقة مرتبة. أتوقع عبور جسور كليمنصو بصحبة الفرقة التاسعة عشرة قرابة الساعة الخامسة عصراً». ونظر إلى ساعته.

«سنكون في انتظارك حضرة الملازم».

«شكراً لك سيدي».

بعد خمسين دقيقة، اجتاز هاري جسر كليمنصو للمرة الثانية هذا اليوم، ولحقت به الفرقة الألمانية فوق الهضبة وصولاً إلى فرقة تكساس للمشاة كما لو أنه عازف المزمار. وعند استسلام 700 رجل و 214 دبابة

بصحبة الفرقة التاسعة عشرة، أدرك كيرتل أنه وقع في فخ رجل إنكليزي ورجل إيرلندي اقتصرت أسلحتهما على سيارة جيب ومنديل أبيض.

سحب المارشال الميداني مسدساً من داخل سترته، فظن هاري للحظة أنه سيقتله. غير أن كيرتل وقف متأهباً، وألقى التحية العسكرية، ثم وضع المسدس على صدغه وضغط على الزناد.

لم يفرح هاري بموته.

بعد تجمّع الألمان، طلب الكولونيل بنسون من هاري قيادة الجنود غير المسلحين من الفرقة التاسعة عشرة إلى الثكنة. وفيما انطلقت سيارة الجيب أمام الرتل الطويل، ارتسمت ابتسامة على وجه بات كوين.

لا بد أنهم كانوا قد اجتازوا مسافة ميل تقريباً عندما داست سيارة الجيب فوق لغم أرضي ألماني. سمع هاري انفجاراً قوياً، وتذكر كلمات بات: ألا تعتقد أننا استنفدنا حيواتنا التسع خلال العام الماضي؟ فيما طارت سيارة الجيب في الهواء قبل أن تنفجر.

بعدها، لا شيء.

هل تعرف إذا كنت ميتاً؟

هل يحصل ذلك في هنيهة، وفجأة لا تعود موجوداً؟

كل ما يعرفه هاري هو أن الصور التي ظهرت أمامه كانت مثل صور ممثلين في مسرحية لشكسبير، دخلوا وخرجوا باستمرار. لكنه لم يعرف ما إذا كانت مسرحية كوميدية أو تراجيدية أو تاريخية.

إلا أن الشخصية الأساسية لم تتبدل، وهي امرأة ذات أداء مميز، فيما تحرك الآخرون على المسرح وفق مشيئتها على ما يبدو. ثم فتح عينيه، وكانت إيما واقفة إلى جانبه.

عندما ابتسم هاري، أشرق كل وجهها. انحنت وقبلته برفق على شفتيه قائلة له: «أهلاً بك».

وفي تلك اللحظة، أدرك كم يحبها، وأن شيئاً لا يستطيع تفريقهما عن بعضهما. أمسك بيدها برفق. وبدأ القول: «سوف تساعدينني. أين أنا؟ وكم مضى على وجودي هنا؟».

«أنت في مستشفى بريستول الحكومي، منذ أكثر من شهر. كان وضعك حرجاً لبعض الوقت، ولكنني قررت ألا أخسرك مجدداً».

عندها، أمسك هاري بيدها وابتسم، غير أنه أحس بالإرهاق فعاد إلى النوم العميق مجدداً.

وعندما استيقظ مجدداً، كان المكان معتماً، وأحس أنه بمفرده. حاول تخيّل ما حصل لكل أولئك الأشخاص خلال الأعوام الخمسة الماضية؛ لأنهم كما في مسرحية الليلة الثانية عشرة يعتقدون على الأرجح أنه مات في البحر.

هل قرأت أمه الرسالة التي كتبها لها؟ هل استخدم جيل عمى الألوان بمثابة عذر لعدم التطوع في الجيش؟ هل عاد هوغو إلى بريستول بعدما اقتنع أن هاري لم يعد يشكل خطراً؟ هل لا يزال السير والتر بارينغتون واللورد هارفي على قيد الحياة؟ وثمة فكرة أخرى راودته مراراً وتكراراً. هل تنتظر إيما اللحظة المناسبة لإخباره بوجود شخص آخر في حياتها؟

فجأة، فُتح باب غرفته، ودخل صبي صغير مسرعاً وصارخاً: «بابا، بابا، بابا». قبل أن يقفز على سريره ويطوّقه بذراعيه.

وبعد لحظات قليلة، ظهرت إيما وراقبت أول لقاء بين رجلَي حياتها.

تذكر هاري صورته حين كان ولداً صغيراً، تلك الصورة التي تضعها أمه على المدفأة في ستيل هاوس لاين. لا داعي لأن يخبره أحد بأن هذا ابنه، وأحس بحماسة لم يتخيلها من قبل قط. تأمل الصبي عن كثب أكثر، فيما قفز الصغير صعوداً ونزولاً على السرير. شعره أشقر، عيناه زرقاوان، وفكه مربع؛ تماماً مثل والد هاري.

قال هاري: «يا إلهي». ثم خلد إلى نوم عميق.

وعندما استيقظ مجدداً، كانت إيما جالسة على السرير قربه، فابتسم وأمسك بيدها.

سألها: «والآن بعد أن التقيت ابني، هل هناك مفاجآت أخرى؟». ترددت إيما قبل أن تضيف بابتسامة خجول: «لا أدري من أين أبدأ».

فقال هاري: «من البداية إذا أمكن، مثل أية قصة جميلة. تذكري أنني رأيتك لآخر مرة يوم زفافنا».

بدأت إيما بسرد قصة رحلتها إلى اسكوتلندا، وولادة ابنهما سيباستيان. وحين وصلت في سردها إلى الوقت الذي ضغطت فيه على جرس شقة كريستين في مانهاتن، خلد هاري إلى النوم.

عندما استيقظ مجدداً، كانت لا تزال معه.

أحب هاري حكاية العمة فيليس وابنها أليستاير. ورغم أنه بالكاد تذكر التحري كولوسكي، إلا أنه لم يستطع نسيان سيفتون جيلكس قط. وعندما وصلت إيما إلى نهاية قصتها، كانت على متن الطائرة التي تعبر المحيط الأطلسي عائدة إلى إنكلترا بجانب السيد هارولد ماكميلان.

قدّمت إيما لهاري نسخة من مذكرات سجين. غير أن كل ما قاله هاري كان: «عليّ أن أحاول معرفة ما حصل لبات كوين».

وجدت إيما صعوبة في اختيار الكلمات الصحيحة.

فسألها هاري بهدوء: «هل قُتل في اللغم الأرضي؟».

فأخفضت إيما رأسها، ولم يتحدث هاري مجدداً تلك الليلة.

ظهرت مفاجآت جديدة كل يوم؛ لأن حياة الجميع تبدلت خلال الأعوام الخمسة التي غاب فيها هاري.

وعندما جاءت أمه لزيارته في اليوم التالي، كانت بمفردها. فرح كثيراً لمعرفته أنها تبرع في القراءة والكتابة، وأنها نائب مدير الفندق، ولكنه حزن عندما اعترفت له أنها لم تفتح الرسالة التي أعطاها إياها الدكتور والاس، وأن الرسالة قد اختفت لاحقاً.

شرحت قائلة: «اعتقدت أنها من توم برادشو».

عندها، بدّل هاري الموضوع: «ألاحظ أنك تضعين خاتم خطوبة، وخاتم زواج».

فتورّدت أمه خجلاً وقالت: «أوه، أردت رؤيتك بمفردي قبل أن أعرفك على زوجي».

قال هاري: «زوجك! هل أعرفه؟».

قالت: «أوه نعم». وأرادت إخباره باسم الرجل الذي تزوّجته لو لم يخلد إلى النوم.

وعندما استيقظ هاري في المرة التالية، كان ذلك في منتصف الليل. أضاء المصباح قرب سريره وبدأ يقرأ مذكرات سجين. ابتسم مرات عدة قبل أن يصل إلى الصفحة الأخيرة.

لم يتفاجأ بكل ما قالته إيما عن ماكس لويد، ولاسيما بعدما عاود سيفتون جيلكس الظهور. ولكنه تفاجأ حين أخبرته إيما أن الكتاب قد حقق مبيعات هائلة، وأن الجزء الثاني منه يحقق مبيعات أفضل.

سأل هاري: «هل قلت الجزء الثاني؟».

«دفتر اليوميات الأول الذي كتبته؛ بشأن ما حصل لك قبل إرسالك إلى لافنهام. فقد تم نشره في إنكلترا للتو. وهو يحقق مبيعات هائلة هنا؛ تماماً مثلما فعل في أميركا. بالمناسبة، يسألني السيد غوينزبورغ دوماً عن موعد صدور روايتك الأولى؛ تلك التي ألمحت إليها في مذكرات سجين».

فأجاب هاري: «لديّ أفكار لنصف دزينة من الروايات».

سألت إيما: «إذاً، لماذا لا تبدأ؟».

عندما استيقظ هاري بعد الظهر، كانت أمه والسيد هولكومب واقفين قربه، وقد أمسكا بيدَي بعضهما كما لو أنهما في موعد غرامي. لم يرَ أمه سعيدة هكذا من قبل.

قال هاري معترضاً فيما تصافحا: «لا يمكن أن تكون زوج أمي».

فقال السيد هولكومب: «في الحقيقة، بلى. وكان يجدر بي طلب الزواج من أمك قبل عشرين عاماً، ولكنني اعتقدت أنني لست جديراً بها كفاية».

عندها، قال هاري مبتسماً ابتسامة عريضة: «ولا تزال غير جدير بها كفاية يا سيدي. لكن، لن يكون أي منا جديراً بها».

«في الحقيقة، لقد تزوجت أمك من أجل مالها».

قال هاري: «أي مال؟».

«النقود التي أرسلها السيد جيلكس والبالغة عشرة آلاف دولار، ما أتاح لنا شراء منزل في الريف».

قالت مايزي: «وسنكون ممتنين لذلك طوال العمر».

قال هاري: «لا تشكراني، بل أشكرا إيما».

تفاجأ هاري كثيراً حين اكتشف أن أمه قد تزوجت السيد هولكومب. لكنّ هذه المفاجأة لم تكن شيئاً مقارنة مع الصدمة التي شعر بها عندما دخل جيل الغرفة مرتدياً بذلة ملازم في فوج ويسيكس. وكأن هذا لا يكفي، كان صدره مغطى بالميداليات الحربية، ومنها ميدالية الصليب العسكري. لكن عندما سأله هاري عن كيفية حصوله عليها، بدّل جيل الموضوع وقال: «أنوي الترشح للبرلمان في الانتخابات المقبلة».

سأله هاري: «عن أي مقعد؟».

«بريستول دوكلاندس».

«لكن هذا المقعد لحزب العمال».

«وأنا أنوي أن أكون مرشح حزب العمال».

لم يحاول هاري إخفاء دهشته وسأله: «ما سبب هذا التحول الكبير؟».

«رقيب خدمت معه على الجبهة واسمه بايتس...»

فقال هاري: «لا تقل لي تيري بايتس؟».

«بلى. هل تعرفه؟».

«طبعاً. كان أذكى ولد في صفي في مدرسة ميريوود الابتدائية، وأفضل رياضي. غادر المدرسة حين كان في الثانية عشرة من عمره للعمل مع والده في ملحمة بايتس».

قال جيل: «لهذا السبب، سأترشح عن حزب العمال. كان يحق لتيري أن يكون طالباً في أوكسفورد تماماً مثلك ومثلي».

في اليوم التالي، عادت إيما مع سيباستيان، حاملين العديد من أقلام الحبر، وأقلام الرصاص، والدفاتر وممحاة. قالت لهاري إن الوقت قد حان بالنسبة إليه للتوقف عن التفكير والشروع في الكتابة.

لذا، خلال الساعات الطويلة التي عجز فيها عن النوم، أو كان فيها بمفرده، عادت أفكار هاري إلى الرواية التي أراد تأليفها لو لم يهرب من لافنهام.

بدأ يضع الخطوط العريضة للشخصيات الرئيسة في القصة. يفترض أن يكون التحري رجلاً فريداً من نوعه، أمل في أن يصبح جزءاً من الحياة اليومية لقرائه، مثل بوارو أو هولمس أو ميغريه.

واستقر أخيراً على اسم ويليام واورويك. سيكون ويليام الابن الثاني لإيرل وارويك، وقد رفض فرصة الذهاب إلى أوكسفورد- ما أثار استياء والده- لأنه أراد الانضمام إلى الشرطة. ستكون شخصيته مرتكزة نوعاً ما على صديقه جيل. بعد ثلاثة أعوام من التجول في شوارع بريستول، أصبح

بيل- مثلما يناديه زملاؤه- تحرياً في الشرطة البريطانية، وتم تعيينه مع التحري المسؤول بلايكمور، الرجل الذي تدخل عند اعتقال ستان خال هاري، بسبب اتهامه زوراً بسرقة المال من خزنة هوغو بارينغتون.

اللايدي واريك، والدة بيل، ستكون على نموذج إليزابيت بارينغتون. ولدى بيل صديقة تدعى إيما، وسيظهر جداه اللورد هارفي والسير والتر بارينغتون في بعض الصفحات، لمجرد تقديم النصيحة الحكيمة.

في كل ليلة، كان هاري يقرأ الصفحات التي كتبها خلال النهار. وفي كل صباح، كانت تبرز الحاجة إلى إفراغ سلة المهملات من الأوراق الممزقة.

تطلع هاري دوماً إلى زيارات سيباستيان. فابنه الصغير مليء بالطاقة، وكثير الأسئلة، ووسيم المظهر؛ تماماً مثل أمه.

طرح سيباستيان غالباً أسئلة لا يجرؤ أحد آخر على طرحها: كيف هي الحياة في السجن؟ ما هو عدد الألمان الذين قتلتهم؟ لماذا لم تتزوج أنت وماما؟ تفادى هاري الإجابة عن معظم تلك الأسئلة، ولكنه عرف أن سيباستيان ذكي جداً؛ حيث سيكتشف حتماً حقيقة والده، وخشي ألا يمضي وقت طويل قبل أن يفضحه الصبي.

كلما كان هاري بمفرده عمل على تأليف روايته.

كان قرأ أكثر من مئة قصة بوليسية حين عمل نائباً للمسؤول عن المكتبة في سجن لافنهام، وأحس أن بعض الشخصيات التي صادفها في

السجن والجيش يمكن أن تكون مادة دسمة لدزينة من الروايات: ماكس لويد، سيفتون جيلكس، آمر السجن سوانسون، الضابط هيسلر، الكولونيل كليفردون، النقيب هافنز، توم برادشو، وبات كوين؛ وخصوصاً بات كوين.

خلال الأسابيع القليلة التالية، تاه هاري في عالمه الخاص، وتوجّب عليه الاعتراف بأن الطريقة التي أمضى فيها بعض زواره الأعوام الخمسة الماضية هي فعلاً أغرب من الخيال.

عندما زارته غرايس- شقيقة إيما- لم يعلّق على مظهرها الذي بدا مختلفاً تماماً عما كانت عليه عندما رآها لآخر مرة. لكنها كانت يومها مجرد تلميذة في المدرسة، أما الآن فقد أصبحت في سنتها الأخيرة في كامبريدج، وعلى وشك الخضوع لامتحاناتها. أخبرته بفخر أنها عملت في مزرعة طوال عامين، ولم تعد إلى كامبريدج إلا بعد اقتناعها بانتهاء الحرب.

حزن هاري عندما علم من اللايدي بارينغتون أن زوجها السير والتر قد توفي، لاسيما وأن هاري قد أُعجب كثيراً بذلك الرجل؛ تماماً مثل العجوز جاك.

خاله ستان لم يزره قط.

مع مرور الأيام، فكر هاري في التطرق إلى موضوع والد إيما، ولكنه أحس بأن مجرد ذكره غير مقبول.

ذات مساء، بعدما قال الطبيب لهاري إنه لن يمضي وقت طويل قبل خروجه من المستشفى، استلقت إيما قربه على السرير، وأخبرته أن والدها قد مات.

عندما وصلت إلى نهاية قصتها، قال لها هاري: «لم تبرعي يوماً في إخفاء الحقيقة يا عزيزتي، ولذلك حان الوقت ربما لتخبريني عن سبب توتر العائلة كلها».

43

استيقظ هاري في صباح اليوم التالي ليجد أمه وكل أفراد عائلة بارينغتون جالسين حول سريره.

الغائبان الوحيدان كانا سيباستيان وخاله ستان؛ علماً أن أياً منهما لن يسهم كثيراً في أية مناقشة.

قالت إيما: «أعلن الطبيب أنه يمكنك الذهاب إلى المنزل».

قال هاري: «رائع. لكن، أين المنزل؟ إذا كان ذلك يعني العودة إلى ستيل هاوس لاين والعيش مع الخال ستان، فأنا أفضل البقاء في المستشفى، أو حتى العودة إلى السجن». لم يضحك أحد.

قال جيل: «أنا أعيش الآن في بارينغتون هول. فلماذا لا تأتي للعيش معي؟ الله يعلم كم عدد الغرف الموجودة هناك».

قالت إيما: «وتوجد هناك مكتبة أيضاً. وهكذا، لن يكون لديك عذر لعدم متابعة تأليف روايتك».

فأضافت إليزابيث بارينغتون: «يمكنك المجيء وزيارة إيما وسيباستيان ساعة تشاء».

هذه المرة، بقي هاري صامتاً لبعض الوقت.

ثم قال أخيراً: «أنتم جميعاً لطفاء. واعلموا أنني أشعر بالامتنان، ولكنني لا أصدق أنني احتجت إلى العائلة كلها لتقرير المكان الذي سأعيش فيه».

فقال اللورد هارفي: «ثمة سبب آخر أردنا التحدث معك بشأنه. وقد طلبت مني العائلة التحدث بالنيابة عن الجميع».

عندها، جلس هاري منتصباً، ووجه كل انتباهه إلى جد إيما.

بدأ اللورد هارفي كلامه بالقول: «برزت مسألة مهمة متعلقة بمستقبل عقارات بارينغتون. فقد تبيّن أن شروط وصية جوشوا بارينغتون بمثابة كابوس قانوني، ويمكن أن تفضي إلى انهيار اقتصادي».

قال هاري: «لكنني لست مهتماً باللقب ولا بالعقارات. ورغبتي الوحيدة هي الإثبات أن هوغو بارينغتون ليس والدي كي أتزوج إيما».

فقال اللورد هارفي: «نسأل الله ذلك. لكن، برزت تعقيدات عليّ إطلاعك عليها».

«هيّا من فضلك، لأنني لا أرى أنه توجد أية مشكلة».

«سأحاول أن أشرح. بعد الموت غير المتوقع لهوغو، نصحت اللايدي بارينغتون بأن تتحد شركتانا، أي شركة بارينغتون وشركة هارفي؛ لاسيما وأن السيدة بارينغتون اضطرت مرتين إلى دفع ضرائب كبيرة على الميراث، وأصبحت أنا فوق السبعين. وقد حصل ذلك في وقت الذي كنا لا نزال نعتقد فيه أنك ميت. وبالتالي، لم تكن هناك أية مشكلة لناحية من سيرث اللقب والعقارات، وسيصبح جيل على رأس العائلة».

قال هاري: «ولا يزال بوسعه فعل ذلك برأيي».

«المشكلة هي أن فرقاً أخرى دخلت على الخط، وباتت المضاعفات تتخطى الآن الأشخاص الموجودين في هذه الغرفة. فبعد قتل هوغو، أصبحتُ رئيس مجلس إدارة الشركة الجديدة المندمجة، وطلبتُ من بيل لوكوود أن يعود مديراً تنفيذياً للشركة. ومن دون مبالغة، دفعت شركة بارينغتون هارفي للمساهمين فيها مبلغاً كبيراً من المال خلال العامين الماضيين؛ بالرغم من وجود هتلر. وبعد أن أدركنا أنك لا تزال على قيد الحياة، أخذنا نصيحة قانونية من السير دانفيرز باركر للتأكد من عدم خرقنا لشروط وصية جوشوا بارينغتون».

عندها قالت مايزي كما لو أنها تتكلم مع نفسها: «ليتني فتحت تلك الرسالة».

غير أن اللورد هارفي تابع كلامه وقال: «أكّد لنا السير دانفيرز أنك إن تنازلت عن حصتك في اللقب أو العقارات، فبإمكاننا الاستمرار في العمل مثلما فعلنا خلال العامين الماضيين. وقد أعدّ مستنداً لهذه الغاية».

قال هاري: «إذا أعطاني أحدكم قلماً، فسأوقع على المستند فوراً».

عندها قال اللورد هارفي: «ليت الأمر بهذه السهولة. ولكان الأمر سهلاً ربما لو لم تطّلع صحيفة دايلي إكسبرس على الموضوع».

فقاطعته إيما قائلة: «أخشى أن أكون المسؤولة عن ذلك. فبعد نجاح كتابك في جانبَي الأطلسي، أصبحت الصحافة مهووسة في معرفة من سيرث لقب بارينغتون؛ هل سيكون السير هاري أو السير جيل؟».

قال جيل: «ثمة رسم كرتوني اليوم في صحيفة نيوز كرونيكل هذا الصباح يصوّرُنا نحن الاثنين على متن حصانين ونحن نتعارك، فيما إيما

جالسة بين الحشود تعطيك منديلها، والرجال والنساء يهتفون بصوت عالٍ».

سأل هاري: «إلامَ يلمّحون؟».

فقال اللورد هارفي: «البلاد في الوقت الحاضر منقسمة إلى قسمين. يبدو أن الرجال مهتمون فقط في من سيرث اللقب والعقارات، فيما النساء يرغبن في رؤية إيما تقف أمام المذبح مجدداً. وفي الواقع، إن أخباركم قد أبعدت كاري غرانت وإنغريد بيرغمان عن الصفحات الأولى».

«لكن، بعد أن أوقّع على المستند وأتنازل فيه عن أي حق قد يكون لي في اللقب أو العقار، سوف يفقد الجمهور الاهتمام بالموضوع وسيحوّل انتباهه إلى أمر آخر».

«قد يكون هذا صحيحاً لولا تدخل غارتر مساعد الملك».

فسأل هاري: «ومن يكون؟».

«»إنه ممثل الملك في ما يتعلق بتحديد وارث أي لقب. في تسعة وتسعين في المئة من الحالات، يرسل الرسائل ببساطة إلى الشخص الأكثر أحقية. وفي أحيانٍ نادرة، عند حصول خلاف بين الفريقين، يوصي بنقل القضية إلى المحاكم».

قال هاري: «لا تقل لي إننا وصلنا إلى هذه المرحلة».

«أخشى أن أقول بلى. وقد حكم القاضي شاوكروس لصالح جيل؛ شرط أن توقّع على ورقة تنازل- وأنت في كامل قواك العقلية- تتخلى فيها

عن حقوقك باللقب والعقارات، ما يسمح بعملية الانتقال من الأب إلى الابن».

«حسناً، أنا الآن في كامل قواي العقلية. فلنأخذ موعداً لرؤية القاضي، ولننهِ هذه المسألة للمرة الأخيرة».

فقال اللورد هارفي: «أود ذلك فعلاً، لكنّ القرار أصبح خارج أيدينا».

سأل هاري: «بسبب من هذه المرة؟».

أجاب جيل: «زميل في حزب العمال يدعى اللورد برستون. فقد نقل القصة إلى الصحافة، ووجّه سؤالاً خطياً إلى وزير الداخلية طالباً منه تحديد المخوّل بيننا لوراثة اللقب. ثمّ عقد مؤتمراً صحافياً زعم فيه أنه لا يحق لي بوراثة اللقب لأن المرشح الحقيقي فاقد الوعي في مستشفى بريستول، وعاجز عن تقديم قضيته».

«ولماذا يهتم شخص من حزب العمال بما إذا كنت أنا أو جيل من سيرث اللقب؟».

قال اللورد هارفي: «عندما طرحت عليه الصحافة هذا السؤال نفسه، قال لهم إنه إذا ورث جيل اللقب، فسيكون ذلك مثالاً كلاسيكياً على التحيز الطبقي، وإنه يفترض بابن عامل السفن أن يدافع عن نفسه».

قال هاري: «لكنّ هذا ينافي المنطق؛ لأنني لو كنت ابن عامل السفن، لورث جيل اللقب على الفور».

فردّ اللورد هارفي: «تحدث العديد من الأشخاص عن هذه النقطة تحديداً في مجلة «ذا تايمز». لكن بما أننا على مقربة من الانتخابات النيابية، تجنب وزير الداخلية هذه القضية، وقال لصديقه إنه سيحيل

المسألة إلى مكتب قاضي القضاة. وقد قام هذا الأخير بإحالة القضية إلى لوردات القانون، فأخذ سبعة رجال مطلعون كل وقتهم في المناقشة، ثم لجأوا إلى التصويت. وقد كانت أربعة أصوات لصالحك يا هاري مقابل ثلاثة لصالح جيل».

«لكنّ هذا جنون. لماذا لم تتم استشارتي؟».

فذكّره اللورد هارفي: «كنت فاقد الوعي. وعلى أية حال، كانوا يناقشون مسألة قانونية ولا يناقشون رأيك. وبالتالي، الحكم سينفذ، إلا إذا رفضه مجلس اللوردات».

عندها، عجز هاري عن الكلام.

تابع اللورد هارفي كلامه: «وفق سير الأمور، يمكننا الآن القول إنك السير هاري، وصاحب الحصة الكبرى في شركة بارينغتون هارفي، وكذلك مالك عقارات بارينغتون، وكل ما ينطوي عليه ذلك وفق ما جاء في الوصية الأصلية».

قال هاري: «إذاً، سأتقدم بطلب استئناف ضد حكم لوردات القانون، وسأوضح جلياً أنني أرغب في التنازل عن اللقب».

قال جيل: «هذا ما يثير السخرية. لا يمكنك فعل ذلك. فأنا وحدي القادر على استئناف الحكم، ولكنني لا أنوي فعل ذلك ما لم أحصل على موافقتك».

عندها، ردّ هاري: «طبعاً لديك موافقتي. ولكنني أفكر في حل أكثر سهولة».

فنظر إليه الجميع.

«أستطيع الانتحار».

عندها قالت إيما الجالسة على السرير قربه: «لا أعتقد ذلك؛ لأنك جربت هذا مرتين، وانظر إلى أين وصلت».

دخلت إيما المكتبة مسرعة وهي تمسك برسالة. وكانت نادراً ما تقاطع هاري حين يكتب، ولذلك عرف أن الأمر مهم من دون شك. لذا وضع قلمه جانباً.

قالت له فيما سحبت كرسياً: «عفواً حبيبي، ولكنني أحمل لك أخباراً مهمة عرفتها للتو، وأود مشاركتها معك».

ابتسم هاري للمرأة التي يعشقها. فالمهم عندها يمكن أن يبدأ بمحاولة سيباستيان سكب الماء فوق الهرة، وينتهي بـ «اتصلوا من مكتب قاضي القضاة ويريدون التحدث معك على الفور». فتراجع إلى الخلف على كرسيه، وانتظر الفئة التي ينتمي إليها هذا الخبر الملح.

قالت: «تلقيت للتو رسالة من العمة فيليس».

فمازحها هاري قائلاً: «التي نحبها جميعاً».

قالت إيما: «لا تسخر أيها الولد، فقد تطرّقت إلى نقطة يمكنها أن تساعدنا في إثبات أن بابا ليس والدك».

لم يسخر هاري.

فتابعت إيما كلامها: «نعرف أن فئة دمك أنت وأمك سلبية. لذا، إذا كانت فئة دم والدي إيجابية، فلا يمكن أن يكون والدك».

عندها قال هاري: «ناقشنا هذه المسألة عدة مرات».

«لكن إذا استطعنا أن نثبت أنّ فئة دم والدي ليست مطابقة لفئة دمك فبإمكاننا أن نتزوج؛ هذا على افتراض أنك لا تزال راغباً في الزواج بي».

فقال هاري متظاهراً بالملل: «ليس هذا الصباح يا حبيبتي. فأنا الآن وسط جريمة». وابتسم ثم تابع كلامه: «على أية حال، لا نعرف أبداً فئة دم والدك؛ لأنه بالرغم من إلحاح أمك والسير والتر، رفض دوماً الخضوع لتحليل دم. لذا، يجدر بك ربما الكتابة إلى العمة فيليس، والقول لها إن هذا الأمر لا يزال غامضاً».

فأجابت إيما: «ليس بالضرورة. لأن العمة فيليس تتابع القضية عن كثب، وتعتقد أنها توصلت إلى حل لم يفكر فيه أي منا».

«إنها تشتري نسخة من أخبار بريستول المسائية كل صباح من الكشك الموجود في زاوية الشارع أربعة وستين، أليس كذلك؟».

فقالت إيما: «لا، ولكنها تقرأ مجلة «ذا تايمز» حتى لو مضى أسبوع كامل على صدورها».

قال هاري راغباً في العودة إلى جريمته: «وما الذي توصّلت إليه؟».

«تقول إنه بوسع العلماء الآن تحليل فئات الدم بعد مضيّ وقت طويل على وفاة الشخص».

«أنت تفكرين في نبش جثة والدك، أليس كذلك يا حبيبتي!؟».

فأجابت إيما: «لا. ولكنها قالت أيضاً إنه عند مقتل والدي، انفجر شريان في عنقه، وتناثر الكثير من الدم على السجادة والملابس التي كان يرتديها وقتها».

وعلى الفور، نهض هاري من مكانه ومشى في الغرفة، ثم رفع سماعة الهاتف.

سألته إيما: «بمن تتصل؟».

«بالتحري بلايكمور الذي كان مسؤولاً عن القضية. صحيح أن الاحتمال بعيد، ولكنني أقسم إنني لن أسخر منك أبداً أو من العمة فيليس مجدداً».

«هل تمانع إذا دخنت يا سير هاري؟».

«على الإطلاق حضرة التحري».

فما كان من بلايكمور إلا أن أشعل سيجارة ثم قال: «إنها عادة مريعة، وأنا ألوم السير والتر».

فقال هاري: «السير والتر!».

«راليغ وليس بارينغتون».

عندها ضحك هاري فيما جلس على الكرسي قبالة التحري.

«كيف أستطيع مساعدتك يا سير هاري؟».

«أفضل السيد كليفتون».

«مثلما تريد يا سيدي».

«كنت آمل أن تزوّدني ببعض المعلومات المتعلقة بموت هوغو بارينغتون».

«أخشى أن الأمر يرتبط بالشخص الذي أتحدث إليه، لأنني أستطيع مناقشة هذه المسألة مع السير هاري بارينغتون، ولكن ليس مع السيد هاري كليفتون».

«ولماذا ليس مع السيد كليفتون؟».

«لأنني لا أستطيع مناقشة تفاصيل قضية كهذه إلا مع فرد من العائلة».

«إذاً في هذه الحالة، أقبل أن أكون السير هاري».

«كيف أستطيع المساعدة، سير هاري؟».

«عند قتل بارينغتون...»

فقال التحري: «لم يقتل».

«لكن التقارير الصحافية جعلتني أعتقد...»

«الأمور المهمة لم تذكرها الصحف. لكن، لكي أكون عادلاً، لم يتمكن المراسلون الصحفيون من زيارة موقع الجريمة. ولو حصل ذلك، للاحظ الجميع الزاوية التي دخلت فيها فتاحة الرسائل في عنق السير هوغو وقطعت شريانه».

«ولِمَ هذا الأمر مهم؟».

«عندما فحصت الجثة، لاحظت أن نصل فتاحة الرسائل متجه إلى الأعلى، وليس إلى الأسفل. إذا أردتُ أن أقتل شخصاً...» وتوقّف بلايكمور عن الكلام قليلاً فيما نهض عن كرسيه وحمل مسطرة، ثم تابع شارحاً: «وكنت أطول من ذلك الشخص وأثقل منه، لرفعت ذراعي وغرزت

النصل في عنقه، هكذا. لكن، إذا كنت أقصر وأخف وزناً منه، والأهم من ذلك، إذا كنت أدافع عن نفسي...» وركع بلايكمور أمام هاري، ونظر إليه موجّهاً المسطرة نحو عنقه، ثم تابع: «فإن هذا يبرر الزاوية التي دخل فيها النصل في عنق السير هوغو. ثمة احتمال أيضاً بأن يكون قد وقع على النصل، الأمر الذي جعلني أستنتج أنه قتل على الأرجح بسب الدفاع عن النفس وليس بدافع الجريمة».

فكّر هاري في كلمات التحري قبل أن يقول: «استخدمت كلمتَي «أقصر وأخف»، حضرة التحري، وكذلك عبارة «الدفاع عن النفس». فهل توحي بأن امرأة هي المسؤولة عن موت بارينغتون؟».

أجاب بلايكمور: «أنت تحرٍّ من الطراز الأول».

سأله هاري: «وهل تعرف من هي تلك المرأة؟».

فاعترف بلايكمور: «لدي شكوكي».

«ولماذا لم يتم توقيفها؟».

«لأنه يصعب كثيراً توقيف امرأة رمت بنفسها تحت قطار لندن السريع».

قال هاري: «يا إلهي! لم أربط قطّ بين هاتين الحادثتين».

«ولِمَ يجدر بك فعل ذلك؟ فأنت لم تكن في إنكلترا في ذلك الوقت».

«صحيح. لكن بعد خروجي من المستشفى، تصفحت كل الجرائد التي تحدثت عن موت السير هوغو. هل عرفتم من تكون تلك المرأة؟».

«لا، لم يكن بالإمكان التعرف إلى الجثة. لكن زميلاً لي في اسكوتلاند يارد كان يحقق في قضية أخرى في ذلك الوقت أبلغني أن السير هوغو قد عاش مع امرأة في لندن لأكثر من عام، وقد أنجبت تلك المرأة طفلة بعد فترة وجيزة من عودته إلى بريستول».

«وهل تم العثور على الطفلة في مكتب بارينغتون؟».

أجاب بلايكمور: «أجل».

«وأين الطفلة الآن؟».

«لا أعرف».

«على الأقل، هل يمكنك إطلاعي على اسم المرأة التي كان بارينغتون يعيش معها؟».

فأجاب بلايكمور فيما أطفأ سيجارته في منفضة مليئة بأعقاب السجائر: «لا يحق لي فعل ذلك. لكن، لا يخفى على أحد أن السير هوغو قد استخدم تحرياً خاصاً بات الآن من دون عمل، وقد يكون راغباً في الكلام مقابل أجر متواضع».

قال هاري: «أنت تعني الرجل الأعرج».

«ديريك ميتشيل، شرطي سابق بارع أُجبِر على ترك العمل».

«لكن، ثمة سؤال لن يستطيع ميتشيل الإجابة عنه، فيما أنت قادر على ذلك. قلت إن فتاحة الرسائل قد قطعت شرياناً، وبالتالي تناثر الكثير من الدم».

فأجاب التحري: «نعم، هذا صحيح. عندما وصلت، كان السير هوغو غارقاً في بركة من الدم».

«هل تعرف ماذا حصل للبذلة التي كان السير هوغو يرتديها آنذاك، أو حتى السجادة؟».

«لا يا سيدي. بعد إغلاق قضية الجريمة، تتم إعادة كل الأغراض الشخصية الخاصة بالمتوفّى إلى أقرب الأشخاص في العائلة. وبالنسبة إلى السجادة، كانت لا تزال في المكتب عندما أنهيت تحقيقي».

«هذا مفيد جداً حضرة التحري. أنا ممتن لك».

«هذا من دواعي سروري يا سير هاري». ثم وقف بلايكمور ورافق هاري إلى الباب وقال له: «هل يمكنني القول إنني استمتعت كثيراً بقراءة مذكرات سجين. ورغم أنني لا أصدق الشائعات عادة، إلا أنني قرأت أنك تؤلف رواية بوليسية. وبعد حديثنا اليوم، أنا متشوّق لقراءتها».

«هل تمانع الحصول على نسخة مبكرة وإعطائي رأيك المهني فيها؟».

«في الماضي يا سير هاري، لم تهتم عائلتك برأيي المهني كثيراً».

فأجاب هاري: «دعني أؤكد لك يا حضرة التحري أن السيد كليفتون يهتم».

وبعد أن غادر هاري مركز الشرطة، توجّه إلى مانور هاوس لإطلاع إيما على ما حصل معه. أصغت إيما إلى كلامه بانتباه، وعندما وصل إلى النهاية، فاجأته بسؤالها الأول.

«هل أخبرك التحري بلايكمور بما حصل للفتاة الصغيرة؟».

«لا، لم يكن مهتماً كثيراً. ولكن لماذا سيفعل ذلك؟».

«لأنها قد تكون من آل بارينغتون، وبالتالي أختي غير الشقيقة!».

فقال هاري فيما أخذ إيما بين ذراعيه: «كم أنا مغفل! لم يخطر الأمر في بالي».

سألته إيما: «ولمَ سيخطر؟ فلديك ما يكفي من المشاكل والهموم. لماذا لا تتصل بجدي وتسأله إذا كان يعرف ما حصل للسجادة، وتدعني أقلق بشأن الفتاة الصغيرة».

فأفلتها هاري على مضض وهو يقول: «أنا رجل محظوظ جداً».

قالت إيما: «هيا».

وعندما اتصل هاري باللورد هارفي لسؤاله عن السجادة، تفاجأ مجدداً.

«تم استبدالها بعد أيام قليلة من انتهاء الشرطة من التحقيق».

سأل هاري: «وماذا حصل للسجادة القديمة؟».

أجاب اللورد هارفي بشيء من التأثر: «رميتها شخصياً في أحد أفران أحواض السفن، وراقبتها وهي تحترق إلى أن اختفى كل أثر منها».

أراد هاري القول: «اللعنة»، ولكنه تحكّم بلسانه بصعوبة.

وعندما انضم إلى إيما لتناول الغداء، سأل السيدة بارينغتون إذا كانت تعرف ما حلّ بملابس السير هوغو.

فأخبرته إليزابيت أنها طلبت من الشرطة التخلص منها بالطريقة التي تراها ملائمة.

بعد الغداء، عاد هاري إلى بارينغتون هول واتصل بمركز الشرطة، ثم سأل الرقيب إذا كان يتذكر ما حلّ بملابس السير هوغو بارينغتون بعد إغلاق التحقيق.

«تمّ تدوين كل شيء في سجل يا سير هاري. وسوف أتحقق من ذلك إذا أمهلتني لحظة».

مرّت لحظات عدة قبل أن يعود الرقيب إلى الخط ويقول: «كم يمرّ الوقت بسرعة. نسيت كم مضى من وقت على هذه القضية. ولكنني نجحت في تعقب التفاصيل التي تريدها». فحبس هاري أنفاسه. «رمينا القميص والملابس الداخلية والجوارب. ولكننا أعطينا المعطف الرمادي، والقبعة المصنوعة من اللباد البني، وبذلة التويد الخضراء، وزوج أحذية بروغ من الجلد البني إلى الآنسة بينهاليغنون التي توزع الأغراض التي لا تخص أحداً بالنيابة عن الجيش. وهي ليست امرأة سهلة». أضاف الرقيب من دون شرح إضافي.

كُتِب على اللافتة الموضوعة على الرف «الآنسة بينهاليغنون».

قالت المرأة الواقفة خلف الاسم: «هذا مخالف للقواعد يا سير هاري. مخالف جداً للقواعد».

عندها، فرح هاري لأنه أحضر إيما معه، وقال لها وقد أمسك بيد إيما: «لكن الأمر مهم جداً لكلينا».

«لا أشك في ذلك يا سير هاري، لكن الأمر مخالف للقواعد. لا أتخيل ما سيفعله مديري حين يعلم».

ولم يكن هاري ليتخيل أن للآنسة بينهاليغنون مديراً. أدارت لهما ظهرها، وبدأت تتأمل صناديق الملفات الموضوعة على رف لم يستقر الغبار عليه قط. وأخيراً، سحبت ملفاً كتب عليه الرقم 1943 ووضعته على الرف أمامها، ثم فتحته وقلّبت عدة صفحات قبل أن تصل إلى ما تبحث عنه.

قالت: «يبدو أن أحداً لم يرغب في الحصول على القبعة اللبادية البنية. في الواقع، تظهر سجلاتي أنها لا تزال موجودة في المتجر. فيما تم إعطاء المعطف للسيد سيتفنسون، والبذلة لشخص يدعى العجوز جوي، وحذاء البروغ البني للسيد واتسون».

سألتها إيما: «هل تعرفين أين يمكننا إيجاد هؤلاء الرجال؟».

فأجابت الآنسة بينهاليغنون: «هم نادراً ما يفترقون عن بعضهم. في الصيف، لا يبتعدون أبداً عن الحديقة العامة. وفي الشتاء، نضعهم في فندقنا المتواضع. أنا واثقة من أنه يمكن إيجادهم في الحديقة العامة في هذا الوقت من السنة».

عندها، قال لها هاري مبتسماً ابتسامة دافئة: «شكراً لك يا آنسة بينهاليغنون. لقد ساعدتنا كثيراً».

فابتسمت الآنسة بينهاليغنون ابتسامة عريضة وقالت: «هذا من دواعي سروري يا سير هاري».

وفيما كانا يخرجان من المبنى قال لإيما: «بدأت أعتاد على مناداتي بلقب السير هاري».

فردّت عليه: «ليس إذا كنت تأمل في الزواج مني، لأنني لا أرغب أبداً في أن أكون اللايدي بارينغتون».

لمحه هاري مستلقياً على مقعد خشبي في الحديقة العامة، وظهره لهما. كان يرتدي معطفاً رمادياً.

قال هاري فيما لمسه من كتفه برفق: «آسف لإزعاجك يا سيد ستيفنسون، ولكننا نحتاج إلى مساعدتك».

تحركت يد إلى الأعلى، لكن الجسم لم يتحرك. عندها، وضع هاري قطعة نقود معدنية في راحة اليد الممدودة. أخفى السيد ستيفنسون قطعة النقود قبل أن يدير رأسه للنظر إلى هاري عن كثب وسأله: «ماذا تريد؟».

فقالت إيما بهدوء: «نحن نبحث عن العجوز جوي».

«حصل الرقيب على المقعد الخشبي رقم واحد؛ نظراً إلى عمره ومكانته. وهذا هو المقعد رقم اثنين، وسوف أحصل على المقعد رقم واحد عندما يموت العجوز جوي. ويفترض أن يحصل ذلك بعد فترة وجيزة من الآن. أما السيد واتسون فحصل على المقعد رقم ثلاثة، وبالتالي سيحصل على المقعد رقم اثنين عندما أحصل على المقعد رقم واحد. ولكنني حذرته من أنه سيضطر إلى الانتظار لوقت طويل».

سأله هاري: «وهل تعرف بالصدفة ما إذا كان العجوز جوي لا يزال محتفظاً ببذلة التويد الخضراء؟».

فأجاب السيد ستيفنسون: «إنه لا يخلعها أبداً. فقد أصبح متعلقاً بها؛ إذا صح القول». ثم قهقه قليلاً. «لقد حصل على البذلة، وأنا حصلت على المعطف، فيما حصل السيد واتسون على الحذاء. يقول إن الحذاء ضيق قليلاً، ولكنه لا يتذمر أبداً. لم يرغب أي منا في القبعة».

سألت إيما: «أين نجد المقعد الخشبي رقم واحد؟».

«إنه حيث كان دوماً، تحت الخيمة. يقول جوي إنه قصره، ولكنه مختلّ قليلاً في عقله؛ لأنه لا يزال يعاني من الصدمة». ثم أدار لهما السيد ستيفنسون ظهره؛ على اعتبار أنه تكلم بما يساوي قطعة النقود التي حصل عليها.

لم يصعب على هاري وإيما إيجاد الخيمة، أو العجوز جوي الذي تبيّن أنه الوحيد الموجود هناك. فقد كان جالساً وسط المقعد الخشبي رقم واحد منتصباً، كما لو أنه جالس على عرش. ولم تكن إيما بحاجة إلى رؤية البقع البنية للتعرف إلى بذلة التويد القديمة الخاصة بوالدها، ولكنها تساءلت عن كيفية تمكنهما من إقناعه بخلعها.

سألهما العجوز جوي بنبرة متشككة فيما صعدا درج مملكته: «ماذا تريدان؟ إذا كنتما تريدان مقعدي فانسيا الأمر؛ لأنه ملكي مثلما أذكّر السيد ستيفنسون دوماً».

عندها قالت إيما برفق: «لا، لا نريد مقعدك أيها العجوز جوي. ولكننا تساءلنا إذا كنت تريد بذلة جديدة».

«لا، شكراً لك يا آنستي. أنا مسرور جداً بالبذلة التي لديّ. فهي تشعرني بالدفء، ولا أحتاج إلى بذلة أخرى».

فقال هاري: «لكننا نودّ منحك بذلة جديدة تشعرك بالدفء أيضاً».

عندها قال العجوز: «لم يرتكب العجوز جوي أي خطأ». واستدار لمواجهة هاري.

حدّق هاري إلى صف الميداليات المعلقة على صدره؛ نجمة المونس، وميدالية الخدمة الطويلة، وميدالية النصر، وشريط واحد مدروز على كمه، ثم قال له: «أنا أحتاج إلى مساعدتك أيها الرقيب».

عندها، تأهب العجوز جوي، وقدم له التحية العسكرية ثم قال: «تم إصلاح البندقية يا سيدي. أعطِ الأوامر وسيكون الرفاق مستعدين للصعود إلى الأعلى».

فشعر هاري بالخجل.

وفي اليوم التالي، عاد هاري وإيما إلى الحديقة مع معطف صوفي، وبذلة تويد جديدة، وحذاء جديد للعجوز جوي. اختال السيد ستيفنسون في الحديقة العامة مرتدياً سترته الجديدة وسرواله الرمادي، فيما سرّ السيد واتسون- صاحب المقعد رقم ثلاثة- بسترته الرياضية ذات الصفين من الأزرار، والسروال المتناسق معها. لكن بما أنه لا يحتاج إلى حذاء جديد، فقد طلب من إيما منحه للسيد ستيفنسون. تمّت إعادة بقية أغراض السير هوغو إلى الآنسة بنهاليغون، فيما غادر هاري الحديقة العامة حاملاً بذلة التويد الخضراء الملطخة بدم السير هوغو بارينغتون.

تأمّل البروفيسور إنشكايب بقع الدم تحت المجهر لبعض الوقت قبل أن يعطي رأيه.

«أحتاج إلى إجراء العديد من التحاليل الإضافية قبل إعطاء التقييم النهائي. لكن وفق الفحص الأولي، أنا واثق تماماً من أنني أستطيع إطلاعكم على فئة الدم الموجودة في هذه العينات».

فقال هاري: «الحمد لله. لكن، ما هو الوقت الذي تحتاج إليه لمعرفة النتائج؟».

فأجاب البروفيسور: «أحتاج إلى يومين حسب تقديري، أو ثلاثة أيام على الأكثر. سأتصل بك ما إن أعرف النتيجة يا سير هاري».

«فلنأمل أن تجري الاتصال بالسيد كليفتون».

قال اللورد هارفي: «اتصلت بمكتب قاضي القضاة، وأبلغته أن تحاليل الدم تنجز على ملابس هوغو. وإذا كان عامل الريزوس لديه إيجابياً، فأنا واثق من أنه سيطلب من القضاة إعادة النظر في الحكم على ضوء الأدلة الجديدة».

قال هاري: «لكن، إذا لم نحصل على النتيجة التي نأملها، فماذا سيحصل؟».

«سوف يحدد قاضي القضاة موعداً للمناقشة في روزنامة مجلس النواب عند التئام المجلس الجديد بعد الانتخابات العامة. لكن، فلنأمل

أن يكون كل ذلك غير ضروري بعد نتائج البروفيسور إنشكايب. بالمناسبة، هل يعرف جيل بما أنت في صدد القيام به؟».

«لا يا سيدي. ولكنني سأمضي بعد ظهر اليوم معه، وسأطلعه على كل شيء».

«لا تقل لي إنه يحاول إقناعك من أجل الانتخابات؟».

«أخشى ذلك؛ رغم أنه مدرك تماماً بأنني سأصوّت لتوري في الانتخابات. ولكنني أكدت له أن أمي والخال ستان سيصوتان له».

«لا تدع الصحافة تكتشف بأنك لن تصوت له، لأنها تبحث عن فرصة لحدوث شرخ بينكما. إذ لا تفهم الصحافة مفهوم الصداقة المقربة».

«وهذا سبب إضافي لنأمل بأن يحصل البروفيسور على النتيجة الصحيحة التي تخرجنا جميعاً من هذا الوضع التعيس».

فقال اللورد هارفي: «أرجو ذلك».

كان ويليام وارويك على وشك حلّ لغز الجريمة عندما رنّ الهاتف. وفيما كان هاري لا يزال يمسك بالمسدس في يده، مشى في المكتبة ورفع سماعة الهاتف.

«أنا البروفيسور إنشكايب. هل أستطيع التكلم مع السير هاري؟».

تحوّل الخيال إلى حقيقة في لحظة قاسية. لا داعي لكي يخبره أحد بنتائج تحاليل الدم. قال هاري: «إنه يتكلم».

عندها قال البروفيسور: «أخشى القول لك إن نتائجي ليست مثلما كنت تأمل. فقد تبيّن أن فئة دم السير هوغو سلبية أيضاً. وبالتالي، لا يمكن نفي احتمال أن يكون والدك على هذا الأساس».

عندها اتصل هاري بأشكومب هول.

قال الصوت الذي يعرفه جيداً: «هارفي يتكلم».

«أنا هاري يا سيدي. أخشى القول لك إنك مضطر إلى الاتصال بقاضي القضاة والطلب منه أن يمضي قدماً في مناقشة قضيتنا».

45

أصبح جيل منهمكاً جداً في انتخابات مجلس العموم ليصبح عضواً في البرلمان عن مقعد بريستول دوكلاندكس، فيما كان هاري منهمكاً جداً في نشر كتاب ويليام وارويك وقضية الشاهد الأعمى، حيث افترضا أن الدعوة التي تلقياها للانضمام إلى اللورد هارفي في منزله الريفي لتناول الغداء يوم الأحد مجرد لقاء عائلي. ولكنهما عندما وصلا إلى أشكومب هول، لم يكن أي فرد آخر من أفراد العائلة هناك.

لم يرافقهما لاوسون إلى غرفة الرسم، أو حتى إلى غرفة الطعام، وإنما رافقهما إلى مكتب سيده، حيث وجدا اللورد هارفي جالساً وراء طاولة مكتبه، فيما الكرسيان الجلديان قبالته شاغران.

لم يبدّد اللورد هارفي وقته في الترحيب بهما، بل قال فوراً: «أبلغني مكتب قاضي القضاة أنه تم حجز يوم الخميس في السادس من سبتمبر في روزنامة البرلمان لمناقشة من منكما سيرث لقب العائلة. لذا، لدينا شهران للتحضير. سوف أفتتح المناقشة من المقعد الأمامي، وأتوقع أن يواجهني اللورد برستون».

فسأل هاري: «وما الذي يأمله؟».

«يريد الحطّ من أهمية النظام الوراثي، وقد أعلن ذلك بكل صراحة».

قال هاري: «إذا استطعت ربما الحصول على موعد لرؤيته، وإطلاعه على رأيي...»

غير أن اللورد هارفي قاطعه قائلاً: «إنه ليس مهتماً بك أو بآرائك. فهو بكل بساطة يستخدم هذه المناقشة بمثابة وسيلة للتعبير عن آرائه المعروفة بشأن النظام الوراثي».

«لكن، إذا استطعت الكتابة له...»

فقال جيل: «فعلت ذلك أصلاً. ورغم أننا في الحزب نفسه، إلا أنه لم يتكبد عناء الردّ على رسالتي».

عندها قال اللورد هارفي: «برأيه، القضية أكثر أهمية من أن تكون قضية فردية».

وسأل هاري: «ألن يؤثر هذا الموقف العنيد سلباً في مقام لورداياتهم؟».

أجاب اللورد هارفي: «ليس بالضرورة. فقد اعتاد ريغ برستون أن يكون مثيراً للفتنة في الاتحاد العمالي إلى أن عرض عليه رامساي ماكدونالد مقعداً في مجلس اللوردات. لطالما كان خطيباً مذهلاً، وبعد انضمامه إلينا في المقاعد الحمراء، بات شخصاً لا يمكن التقليل من أهميته أبداً».

سأل جيل: «هل لديك أي فكرة عن كيفية انقسام مجلس اللوردات؟».

«أخبرني مسؤولون في الحكومة أن النتيجة ستكون متقاربة. سوف يؤيد حزب العمال رأي ريغ لأنهم لا يستطيعون الدفاع عن النظام الوراثي».

سأل هاري: «وماذا عن حزب توري؟».

«سوف يدعمني الأغلبية، لأنهم لا يريدون أبداً أن يروا النظام الوراثي يتلقى صفعة كبيرة أمامهم؛ رغم أنه ما زال عليّ إقناع واحد أو اثنين من المترددين».

سأل جيل: «وماذا عن أعضاء الحزب الليبرالي؟».

«وحده الله يعلم رأيهم، رغم أنهم أعلنوا أنهم سيصوتون بحرية».

سأل هاري: «ماذا تعني بقولك بحرية؟».

فشرح جيل: «يعني أنه لن تكون هناك توجيهات من الحزب. إذ يستطيع كل فرد اتخاذ خياره الخاص وفق مبادئه».

تابع اللورد هارفي كلامه: «وأخيراً، هناك فريق المستقلين. وأعضاء هذا الفريق سوف يصغون إلى نقاشات كلا الجانبين، ومن ثم سيقررون ما تمليه عليهم ضمائرهم. لذا، لن نكتشف كيفية تصويتهم إلا بعد انعقاد الجلسة».

سأل هاري: «ما الذي يمكننا فعله للمساعدة؟».

«أنت يا هاري بما أنك كاتب، وأنت يا جيل بما أنك سياسي، يمكنكما الشروع في مساعدتي على إعداد كلمتي. فأي إسهام منكما سيكون محطّ ترحيب. لذا، فلنبدأ بإعداد مخطط توجيهي خلال الغداء».

لم يفكّر جيل أو هاري في التحدث أمام مضيفهما عن مسائل تافهة مثل الانتخابات العامة المقبلة أو مواعيد النشر، فيما توجّه الثلاثة إلى قاعة الطعام.

سأل جيل فيما انطلق مع هاري بعيداً عن أشكومب هول في وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم: «متى سيتم نشر كتابك؟».

فأجاب هاري: «في العشرين من يوليو. لن يصدر إلا بعد الانتخابات. يريد مني الناشرون أن أقوم بجولة في أنحاء البلاد، والقيام بحفلات توقيع، وإجراء بعض المقابلات الصحافية».

قال جيل: «كن حذراً؛ لأن الصحافيين لن يسألوك عن أي شيء له علاقة بالكتاب، وإنما فقط عن رأيك في من يستحق وراثة اللقب».

عندها، سأل هاري وهو يحاول ألا يبدو يائساً: «كم مرة يجدر بي أن أقول لهم إن اهتمامي الوحيد هو إيما، وسوف أضحّي بأي شيء لكي أتمكن من قضاء ما تبقى من حياتي معها؟ يمكنك أخذ اللقب والعقارات وكل ما ينطوي عليه ذلك، إذا استطعت الحصول على إيما».

حظي كتاب ويليام وارويك وقضية الشاهد الأعمى باهتمام جيد من قبل النقاد، لكن تبين أن جيل كان محقاً. فالصحافة لم تهتم بالتحري الشاب الطموح من بريستول، وإنما فقط بأنانية الكاتب، وجيل بارينغتون، واحتمال استعادته لقب العائلة. وكلما قال هاري أمام الصحافة إنه غير مهتم أبداً باللقب، ازدادوا اقتناعاً بأنه مهتم به فعلاً.

وفي ما اعتبره الصحافيون معركة على وراثة لقب آل بارينغتون، قامت كل الصحافة- باستثناء الدايلي تلغراف- بدعم تلميذ المدرسة الوسيم، والشجاع، والعصامي، والذكي الذي ترعرع في شوارع بريستول الفقيرة.

انتهز هاري كل فرصة ممكنة لتذكير الصحافيين أنفسهم بأن جيل كان رفيقه في مدرسة بريستول للقواعد، وأنه الآن مرشح حزب العمال عن مقعد بريستول دوكلاندس، وأنه ربح الميدالية العسكرية ذات شكل الصليب في معركة توبروك، وميدالية الكريكيت الزرقاء في سنته الأولى في أوكسفورد، وأنه ليس مسؤولاً حتماً عن العائلة التي ولد فيها. إلا أن دعم هاري الوفي لصديقه جعله أكثر شعبية؛ لدى الصحافة والرأي العام على حد سواء.

ورغم انتخاب جيل في مجلس العموم وحصوله على أكثر من ثلاثة آلاف صوت، ووصوله إلى البرلمان، عرف أن جدالاً كبيراً سيحصل في الجهة الأخرى من الرواق بعد نحو شهر تقريباً، وسيتقرر في نهايته مستقبله ومستقبل هاري.

46

اعتاد هاري على أن يستيقظ على أصوات الطيور المغردة بسعادة على أغصان الأشجار المحيطة ببارينغتون هول، كما اعتاد على اقتحام سيباستيان غرفة المكتبة من دون إعلان أو إنذار مسبق، وعلى صوت إيما وهي تناديه لتناول الفطور بعد امتطائها الخيل في الصباح الباكر.

لكنّ اليوم مختلف.

استيقظ على أضواء الشوارع، وضجيج السيارات، وساعة بيغ بين التي ترنّ كل خمس عشرة دقيقة؛ مُذكّرةً إيّاه بعدد الساعات الباقية قبل أن يقف اللورد هارفي لافتتاح مناقشة سيُحدّد فيها رجال لم يلتقهم هاري من قبل قط، مستقبله ومستقبل جيل، لألف سنة مقبلة.

أخذ وقته في الاستحمام لأن الوقت لا يزال مبكراً جداً للنزول إلى الأسفل وتناول الفطور. وبعد أن ارتدى ملابسه، اتصل ببارينغتون هول، فأخبره كبير الخدم أن الآنسة بارينغتون قد غادرت في طريقها إلى المحطة، فشعر هاري بالذهول، وراح يتساءل عن سبب استقلال إيما القطار الصباحي فيما اتفقا على اللقاء عند الغداء. وعندما دخل هاري قاعة الفطور مباشرة بعد الساعة السابعة، لم يتفاجأ لدى رؤيته جيل جالساً هناك وهو يقرأ الصحف الصباحية.

سأله هاري: «هل استيقظ جدك؟».

«أعتقد أنه فعل ذلك قبلنا بوقت طويل. فعندما نزلت مباشرة بعد الساعة السادسة، كان مكتبه مضاء. حين ننتهي من هذه المسألة المريعة، وأياً تكن نتيجتها، علينا إقناعه بقضاء بضعة أيام في قصر مولجلري وأخذ قسط من الراحة».

فقال هاري: «فكرة جيدة». ثم جلس على أقرب كرسي. وبعد برهة، نهض واقفاً عندما دخل اللورد هارفي الغرفة.

«إنه وقت الفطور. لا يستحسن أبداً الذهاب إلى المحكمة فيما المعدة فارغة».

لكن بالرغم من نصيحة اللورد هارفي، لم يتناول الثلاثة كمية كبيرة من الطعام؛ لأنهم كانوا يفكرون في اليوم الذي ينتظرهم. تمرّن اللورد هارفي على بعض العبارات الأساسية، فيما أجرى هاري وجيل بعض التعديلات الأخيرة على النص.

وأخيراً، قال الرجل العجوز بعد أن أضاف جملتين إلى خطابه: «أتمنى لو كان بوسعي إخبار القضاة عن الإسهام الكبير الذي قمتما به. حسناً أيها البطلان، حان الوقت للانطلاق».

شعرا كلاهما بالتوتر.

وقالت إيما وهي عاجزة عن النظر إلى عينيه مباشرة: «كنت أتساءل إذا كان بوسعك مساعدتي».

فقال: «سأفعل إذا كان ذلك بوسعي يا آنستي».

نظرت إيما إلى الرجل حليق الذقن الذي انتعل حذاء بدا وكأنه جرى تلميعه هذا الصباح، وارتدى قميصاً بياقة منسلّة وسروالاً مهترئاً وفضفاضاً.

«عندما مات والدي»- ولم تستطع قول «قتل»- «وجدت الشرطة فتاة صغيرة في مكتبه. هل لديك أي فكرة عما حصل لها؟».

فقال الرجل: «لا. لكن، بما أن الشرطة قد عجزت عن الاتصال بأقربائها، فقد تم وضعها على الأرجح في ميتم تابع لدار العبادة بهدف العناية بها».

سألته إيما: «وهل تعرف في أي ميتم أصبحت؟».

«لا، لكنني أستطيع الاستفسار إذا...»

«بكم كان والدي يدين لك؟».

فأجاب التحري الخاص: «بسبعة وثلاثين باونداً وأحد عشر شلناً». فيما أخرج بعض الفواتير من جيبه الداخلي.

فلوّحت إيما بيدها، وفتحت محفظتها، وأخرجت منها ورقتين من فئة خمسة باوندات وأعطته إياهما قائلة: «سأنهي الحساب عندما نلتقي في المرة التالية».

قال ميتشيل: «شكراً لك يا آنسة بارينغتون». ثم نهض من مكانه، مفترضاً أن الاجتماع قد انتهى الآن، وتابع: «سأتصل بك ما إن تتوافر لديّ أي أخبار».

قالت إيما فيما نظرت إليه: «لديّ سؤال إضافي. هل تعرف اسم الفتاة؟».

فأجاب: «جيسيكا سميث».

«لماذا سميث؟».

«إنه الاسم الذي يُمنح لطفل لا يريده أحد».

حبس اللورد هارفي نفسه في مكتبه في الطابق الثالث من برج كوين طوال فترة قبل الظهر. ولم يترك غرفته للانضمام إلى هاري وجيل وإيما لتناول الغداء، وفضّل تناول شطيرة أثناء مراجعته كلمته مجدداً.

جلس جيل وهاري على مقعدين أخضرين في الردهة المركزية في مجلس العموم، وتحدثا معاً بمودة في انتظار انضمام إيما إليهما. أمل هاري أن يستوعب أي شخص يراهما معاً- سواء أكان من الرفاق أو النواب أو الصحافة- الصداقة القوية التي تجمع بينهما.

تحقّق هاري من ساعته مرات عدة؛ إذ عرف أنه عليه التواجد في ردهة الزوار في مجلس اللوردات قبل جلوس قاضي القضاة على كرسيه في تمام الساعة الثانية.

ابتسم هاري عندما رأى إيما تدخل الردهة المركزية مسرعة؛ مباشرة قبل الساعة الواحدة. ولوّح جيل لأخته، فيما نهض الرجلان لإلقاء التحية عليها.

سألها هاري قبل أن ينحني لتقبيلها: «ماذا كنت تفعلين؟».

فأجابت إيما فيما شبكت ذراعَيها بذراع كل من الرجلين: «سأخبرك خلال الغداء، ولكنني أريد أن أعرف أخباركما أولاً».

عندها، قال جيل فيما رافق ضيفيه إلى غرفة طعام الزوار: «من المستحيل معرفة النتيجة مسبقاً. لكن، لن يمضي وقت طويل قبل أن نعرف جميعاً أقدارنا».

كانت قاعة مجلس اللوردات ممتلئة قبل أن تعلن ساعة بيغ بين أنها الساعة الثانية. وعندما دخل قاضي القضاة في بريطانيا القاعة، لم يكن هناك أي مقعد فارغ، وكانت القاعة مزدحمة. في الواقع، وقف العديد من الأشخاص في المساحة الفاصلة بين القاضي والحاضرين. ألقى اللورد هارفي نظرة على الجهة الأخرى من القاعة، فرأى ريغ برستون يبتسم له مثل أسد عثر على غدائه للتو.

نهض القضاة جميعاً عندما دخل قاضي القضاة وتوّجه إلى كرسيه. انحنى احتراماً للحشود، فردّوا تحيّته بالمثل قبل أن يجلسوا على مقاعدهم مجدداً.

فتح قاضي القضاة ملفاً جلدياً أحمر اللون ذا شرابة ذهبية وقال:

«لقد اجتمعنا يا أعزائي لإصدار الحكم في ما إذا كان السيد جيل بارينغتون أو السيد هاري كليفتون من سيرث اللقب والعقارات والممتلكات الخاصة بالمرحوم السير هوغو بارينغتون».

نظر اللورد هارفي إلى الأعلى، فرأى هاري وإيما وجيل جالسين في الصف الأمامي في قاعة الزوار. وجّهت له حفيدته ابتسامة حنوناً وهمست له: «بالتوفيق يا جدي!».

قال قاضي القضاة: «أطلب من اللورد هارفي استهلال المناقشة». ثم جلس على كرسيه.

نهض اللورد هارفي من مكانه على المقعد الأمامي، وأمسك بجانبَي صندوق خشبي لمساعدته على تثبيت أعصابه، فيما قام زملاؤه الجالسون على المقاعد خلفه بالهتاف لصديقهم النبيل والشهم: «اسمعوا، اسمعوا». وجال بناظريه في أرجاء القاعة، مدركاً أنه على وشك إلقاء أهم خطاب في حياته.

بدأ خطابه بالقول: «أيها اللوردات، أقف أمامكم اليوم لتمثيل حفيدي، السيد جيل بارينغتون، في قضيته القانونية للحصول على لقب آل بارينغتون وكل الممتلكات الخاصة المترتبة عن ذلك اللقب. اسمحوا لي أيها اللوردات أن أطلعكم على الظروف التي أفضت إلى وصول هذه القضية إلى حضراتكم. في العام 1877، تم إعلان جوشوا بارينغتون باروناً من قبل الملكة فيكتوريا، تقديراً للخدمات التي أنجزها في صناعة الشحن البحري، ومن ضمنها شركة بارينغتون للشحن البحري التي تضم أسطولاً من البواخر، ولا تزال حتى اليوم تتخذ من مرفأ بريستول مركزاً لها.

كان جوشوا الولد الخامس في عائلة مؤلفة من تسعة أولاد. وقد ترك المدرسة في عمر السابعة؛ عاجزاً عن القراءة أو الكتابة، قبل أن يبدأ حياته كمتدرب صغير في شركة كولدواتر للشحن البحري، حيث اتضح سريعاً لجميع الذين كانوا معه أن هذا الصبي ليس ولداً عادياً.

وفي عمر الثلاثين، حصل على شهادة الماجستير. وفي عمر الثانية والأربعين، طُلب منه الانضمام إلى مجلس إدارة شركة كولدواتر التي كانت تواجه أوقاتاً عصيبة آنذاك. وخلال السنوات العشر التالية، أنقذ الشركة بمفرده تقريباً، وخلال السنوات العشرين التالية، أصبح رئيس مجلس إدارتها.

لكن، أيها اللوردات، عليكم أن تتعرفوا أكثر على السير جوشوا الرجل لفهم سبب اجتماعنا اليوم؛ لأنه ما كان ليخطر على باله حتماً. كان السير جوشوا رجلاً تقياً، يعتبر كلمته بمثابة وعد. وكانت المصافحة كافية بالنسبة إليه للقبول بتوقيع عقد. أين أمثال ذلك الرجل اليوم أيها اللوردات؟».

صدحت كلمتا «اسمعوا اسمعوا» في أرجاء الغرفة.

«لكن، على عكس العديد من الرجال الناجحين أيها اللوردات، فكّر السير جوشوا أكثر منا جميعاً في موته». سمع بعض الضحك بعد هذه العبارة. «لذا، عندما حان الوقت ليكتب وصيته الأولى والوحيدة، كان قد بلغ السبعين من عمره. إلا أن هذا لم يمنعه من إنجاز المهمة برؤيته الثاقبة المعتادة. ولهذه الغاية، طلب من السير إيزايا والدغرايب- أهم مستشار للملكة آنذاك- أن يمثله، وهو محامٍ أصبح مثلك يا سيدي»- واستدار لمواجهة قاضي القضاة- «قاضي القضاة في آخر أيامه القضائية. أتحدث عن هذا أيها اللوردات للتأكيد على أن وصية السير جوشوا تحمل وزناً قانونياً، وسلطة لا تتيح لورثته التشكيك فيها إطلاقاً.

في هذه الوصية، ترك كل شيء لولده الأول، والتر بارينغتون، صديقي الكبير والعزيز. وقد انطوى ذلك على اللقب، وشركة الشحن والعقارات. ووفقاً لما جاء في كلمات الوصية، «وكل ما ينطوي عليه ذلك». أيها اللوردات، إن هذه المناقشة لا تهدف إلى التشكيك في صدق الوصية الأخيرة للسير جواشوا، وإنما تهدف إلى التحدث عن الشخص الذي يستحق فعلاً أن يكون وريثه. ولهذه الغاية، أريدكم أن تأخذوا في عين الاعتبار أنه لم يخطر في بال السير جوشوا التقيّ قط أن يُنجب أحد ورثته ولداً غير شرعي.

أصبح هوغو بارينغتون الوريث بعدما قُتل أخوه نيكولاس خلال الحرب في إيبر عام 1918. وقد حصل هوغو على اللقب عام 1942 إثر موت والده، السير والتر. ويجتمع المجلس اليوم، أيها اللوردات، ليقرر ما إذا كان الوريث الجديد هو حفيدي؛ السيد جيل بارينغتون، الابن الشرعي للمرحوم السير هوغو بارينغتون وابنتي الوحيدة إليزابيت هارفي بعد زواجهما، أو السيد هاري كليفتون الذي أقول إنه الابن الشرعي للسيدة مايزي كليفتون والمرحوم آرثر كليفتون.

أطلب منكم أيها اللوردات السماح لي بالتحدث قليلاً عن حفيدي، جيل بارينغتون. لقد تعلم في مدرسة بريستول للقواعد، ثم فاز بمنحة في كلية برازينوزي في أوكسفورد. إلا أنه لم يكمل تعليمه؛ إذ فضل التخلي عن الحياة الجامعية والانضمام إلى فوج ويسيكس بعد فترة وجيزة من اندلاع الحرب. وحين كان يخدم في توبروك بصفته ملازماً شاباً، فاز بميدالية عسكرية تقديراً لدفاعه عن المكان ضد جيش روميل. تم أسره لاحقاً ونقله إلى سجن واينزبرغ في معسكر حرب في ألمانيا، حيث نجح في الهرب منه والعودة إلى إنكلترا والانضمام إلى فوجه مجدداً. وفي الانتخابات العامة التي ترشح إليها، فاو بمقعد عن بريستول دوكلاندس».

صدحت كلمتا «اسمعوا اسمعوا» بأصوات عالية من المقاعد المقابلة.

«بعد موت والده، ورث اللقب من دون أية مشكلة؛ إذ قيل يومها إن هاري كليفتون قد دفن في البحر بعد فترة وجيزة من إعلان الحرب. ولسخرية القدر أيها اللوردات، إن حفيدتي إيما هي التي اكتشفت أن هاري لا يزال على قيد الحياة؛ بفضل ذكائها وعزمها، وعملت على تحريك عجلة الأحداث التي أفضت أخيراً إلى اجتماعكم هنا». وفي تلك

اللحظة، نظر اللورد هارفي عبر القاعة، ووجّه ابتسامة حنوناً لحفيدته قبل أن يتابع:

«أيها اللوردات، لا يمكن أبداً إنكار أن هاري كليفتون قد ولد قبل جيل بارينغتون. ولكنني أريد أن أؤكد عدم وجود دليل حاسم أو نهائي يشير إلى أن هاري كليفتون قد وُلِد نتيجة علاقة حصلت بين السير هوغو بارينغتون والآنسة مايزي تانكوك التي أصبحت لاحقاً زوجة السيد آرثر كليفتون.

لا تنكر السيدة كليفتون أنها أقامت علاقة جنسية مع هوغو بارينغتون ذات مرة عام 1919، ولمرة واحدة فقط. ولكنها بعد أسابيع قليلة تزوجت من السيد آرثر كليفتون، وولد لاحقاً صبي سُجِّل اسمه في سجل الولادات على أنه هاري آرثر كليفتون.

لذا، أيها اللوردات، لديكم من جهة السيد جيل بارينغتون؛ الابن الشرعي للسير هوغو بارينغتون، ومن جهة أخرى السيد هاري كليفتون؛ الذي يمكن أن يكون ابن السير هوغو ربما، فيما لا يوجد أدنى شك في أن جيل بارينغتون هو ابنه فعلاً. فهل ترغبون في مثل هذه المجازفة أيها اللوردات؟ إذا كان الجواب نعم، فاسمحوا لي بأن أضيف أيضاً عاملاً يمكن أن يساعد حضراتكم على تحديد لمصلحة من سيكون اللقب. فقد أوضح هاري كليفتون الجالس الآن في قاعة الزوار رأيه مراراً وتكراراً. فهو لا يهتم أبداً في تحمل عبء- وأشدد على كلمة عبء- اللقب، ويفضّل أن يرثه صديقه المقرب جيل بارينغتون».

عندها، نظر العديد من الأشخاص إلى قاعة الزوار لرؤية جيل وإيما بارينغتون جالسين إلى جانبَي هاري كليفتون الذي أومأ برأسه. لم يتابع اللورد هارفي كلامه إلا بعد أن استعاد انتباه كل الحاضرين في القاعة.

«لذا، أيها اللوردات، عندما تدلون بأصواتكم لاحقاً هذه الليلة، ألحّ عليكم أن تأخذوا في عين الاعتبار أمنية السيد هاري كليفتون، ونوايا السير جوشوا بارينغتون، وآمل أن تحسموا قراركم لصالح حفيدي جيل بارينغتون. أنا ممتن لكم على انتباهكم».

وما إن جلس اللورد هارفي على مقعده، حتّى تعالت الهتافات، وبدأ الحاضرون يلوّحون بالأوراق. كان هاري واثقاً من أنه حقق نجاحاً هائلاً اليوم.

وبعد أن استعاد مجلس اللوردات هدوءه، نهض قاضي القضاة من مكانه وقال: «أطلب من اللورد برستون الرد».

عندها، نظر هاري إلى القاعة، وراقب رجلاً لم يره من قبل قط ينهض ببطء عن أحد المقاعد المقابلة. كان اللورد برستون رجلاً قصيراً لا يتجاوز طوله خمس أقدام، ذا جسم ممتلئ ووجه مليء بالتجاعيد، ما يؤكد أن الرجل قد عمل بكدّ طوال حياته، لكنّ تعبيره الشرس أوحى أنه لا يخاف من أي كان.

راقب ريغ برستون لفترة من الزمن المقاعد المقابلة له، مثل جندي وضع رأسه فوق المتراس للنظر إلى العدو عن كثب.

«أيها اللوردات، أريد بدء كلامي بتهنئة اللورد هارفي على كلامه المؤثر الذي يدلّ على الذكاء. ولكنني أعتقد أن هذا الكلام نفسه كان نقطة ضعفه ويتحمل الخرق. لا شك في أن كلام اللورد النبيل مؤثر،

ولكن مع تقدّم الخطاب، بدا أكثر فأكثر مثل محامٍ مدرك تماماً بأنه يدافع عن قضية ضعيفة». فجأة، ساد في القاعة صمت لم ينجح اللورد هارفي في توليده.

«دعوني أيها اللوردات أذكر بعض الحقائق التي وثقها اللورد النبيل هارفي. لا يختلف أحد على أن الشاب هوغو بارينغتون أقام علاقة جنسية مع مايزي تانكوك قبل ستة أسابيع من زواجها من آرثر كليفتون. وبعد تسعة أشهر فقط، أنجبت صبياً تم تسجيله في سجل الولادات باسم هاري آرثر كليفتون. حسناً، هذا يحلّ مشكلة صغيرة، أليس كذلك أيها اللوردات؟ فلو حملت السيدة كليفتون بذلك الصبي يوم زواجها، لوُلِد إذاً بعد سبعة أشهر واثني عشر يوماً.

والآن أيها اللوردات، أودّ اعتبار هذا الأمر محتملاً. ولكن، لو تمّ تخييري بين تسعة أشهر وسبعة أشهر واثني عشر يوماً، لعرفت حتماً ماذا أختار. ولا أعتقد أن التردد سيكون سيد الموقف».

سُمع ضحك خفيف من مقاعد حزب العمال.

«وأودّ الإضافة أيها اللوردات أن وزن الطفل كان تسعة باوندات وأربع أونصات. وبرأيي، هذا ليس وزن طفل ولد قبل أوانه».

وكان الضحك أعلى هذه المرة.

«دعونا نذكر أيضاً أمراً سقط سهواً ربما من اللورد هارفي. فقد عانى هوغو بارينغتون- تماماً مثل والده وجده قبله- من مشكلة وراثية تعرف بعمى الألوان. وقد ورثها ابنه جيل، وكذلك هاري كليفتون. الخيارات تضيق أيها اللوردات».

تلا ذلك المزيد من الضحك، وسُمِع الكثير من الهمس في جهتَي القاعة. وبدا اللورد هارفي حزيناً فيما انتظر اللكمة التالية.

«دعوني أحصر تلك الخيارات أكثر فأكثر أيها اللوردات. فقد كان الدكتور العظيم ميلن من مستشفى سان توماس من اكتشف أنه إذا تشارك الأهل فئة الدم السلبية نفسها، فسيكون أولادهم أيضاً ذوي فئة دم سلبية. والواقع أن فئة دم السير هوغو بارينغتون كانت سلبية، وفئة دم السيدة كليفتون سلبية. والمفاجئ أيضاً أن فئة دم هاري كليفتون سلبية؛ وهي فئة يتشاركها 12 في المئة فقط من الشعب البريطاني. أعتقد أن الخيارات تضيق أيها اللوردات، لأن المنافس الآخر الوحيد لم يصل بعد إلى نقطة البداية».

تلا ذلك المزيد من الضحك، وانهار اللورد هارفي أكثر فأكثر على مقعده، غاضباً لأنه لم يذكر أن فئة دم آرثر كليفتون كانت سلبية أيضاً.

«والآن أيها اللوردات، اسمحوا لي بالقول إنني أوافق تماماً على قول اللورد هارفي. لا يحق لأحد التشكيك في وصية السير جوشوا بارينغتون من الناحية القانونية. لذا، كل ما علينا تقريره هو معنى عبارتَي «المولود الأول» و«أقرب الأقرباء».

يدرك معظم الموجودين هنا آرائي الصارمة بشأن مبدأ الوراثة». وابتسم برستون قبل أن يضيف: «أعتبره من دون مبدأ».

هذه المرة، جاء الضحك من جهة واحدة فقط من القاعة، فيما ساد الصمت المطبق في الجهة الأخرى من المقاعد.

«أيها اللوردات، إذا قررتم تجاهل القوانين، وتعديل التقليد التاريخي لمجرد أن نتيجته تلائمكم، فإنكم تشوّهون سمعة المفهوم

الوراثي. وهذه المرة، سوف يتحطم الصرح بكامله على رؤوسكم أيها اللوردات». وأشار إلى المقاعد المقابلة.

«إذاً، دعونا نفكر في الشابين المذكورين في هذا النزاع الحزين، وأستطيع القول إنهما غير مسؤولين عنه. قيل لنا إن هاري كليفتون يرغب في أن يرث صديقه جيل بارينغتون اللقب. يا لهذا النبل من قبله! لا شك في أن هاري كليفتون رجل محترم. لكن أيها اللوردات، إذا وافقنا على خياره، فإن كل صاحب إرث في هذا العالم سيتمكن في المستقبل من تحديد من يفضّل أن يرثه من أبنائه، وهذه طريق مسدودة أيها اللوردات».

عندها، ساد الصمت في القاعة كلها، واستطاع اللورد برستون خفض صوته ليصبح مثل الهمس.

«هل يملك هذا الشاب المحترم، هاري كليفتون، أي حافز جعله يخبر العالم كله أنه يريد اعتبار صديقه جيل بارينغتون بمثابة المولود الأول؟».

تركّزت العيون كلّهاعلى اللورد برستون.

«كما تعرفون أيها اللوردات، لم تسمح دار العبادة لهاري كليفتون بأن يتزوج المرأة التي أحبها، وهي إيما بارينغتون، شقيقة جيل بارينغتون، لأنها عرفت أنهما يتشاركان الوالد نفسه».

لم يكره هاري رجلاً في حياته مثلما كره برستون في تلك اللحظة.

وتابع برستون كلامه متوجّهاً إلى رجال الدين: «أرى أن مقاعد رجال الدين ممتلئة اليوم أيها اللوردات. وأودّ كثيراً معرفة رأي الدين في هذه القضية، لأنه لا بد من الحسم بين الاثنين». بدا واحد أو اثنان من رجال

الدين منزعجين. «وفيما أتحدث عن موضوع نسب هاري كليفتون، أودّ الإشارة إلى أنه متساوٍ تماماً مع جيل بارينغتون في كل النواحي. فقد ترعرع في شوارع بريستول، وفاز بمقعد في مدرسة بريستول للقواعد، وانتقل بعد خمسة أعوام إلى كلية برازينوزي في أوكسفورد. لم ينتظر الشاب هاري إعلان الحرب، بل غادر الجامعة بهدف الالتحاق بالجيش، ولكنه مُنع من ذلك عندما غرقت سفينته نتيجة إصابتها بصاروخ أطلقته عليها غواصة ألمانية، ما دفع اللورد هارفي وبقية أفراد عائلة بارينغتون إلى الاعتقاد بأنه دفن في البحر.

ومن يقرأ الكلمات المؤثرة للسيد كليفتون، يعرف تماماً كيف خدم في الجيش الأميركي، حيث فاز بالميدالية الفضية قبل أن يصاب بجروح بالغة نتيجة لغم أرضي ألماني قبل أسابيع قليلة من إعلان السلام. لكنّ الألمان لم يستطيعوا قتل هاري كليفتون بهذه السهولة أيها اللوردات، ولا يجدر بنا فعل ذلك أيضاً».

وقف جميع الجالسين على مقاعد حزب العمال دفعة واحدة، وانتظر اللورد برستون عودة الصمت إلى القاعة مجدداً قبل أن يتابع كلامه:

«وأخيراً أيها اللوردات، علينا أن نسأل أنفسنا: لماذا اجتمعنا هنا اليوم؟ سأقول لكم السبب. لأن جيل بارينغتون يستأنف حكماً صادراً عن سبعة قضاة كبار في هذا البلد؛ وهذا أمر آخر أغفله اللورد هارفي في خطابه المؤثر. ولكنني سأذكّركم بأن القضاة قد صوّتوا لصالح هاري كليفتون في وراثة اللقب والممتلكات. وإذا كنتم تفكرون في نقض هذا الحكم أيها اللوردات، فعليكم قبل ذلك التأكد من أنهم ارتكبوا خطأً فادحاً في حكمهم».

وصمت برستون قليلاً، ثم تابع القسم الأخير من خطابه: «وهكذا أيها اللوردات، عندما تصوّتون لتقرروا أياً من هذين الرجلين سيرث لقب آل بارينغتون، لا تجعلوا حكمكم مرتكزاً على الملاءمة، وإنما على الاحتمال القوي. وفي هذه الحالة أيها اللوردات، سوف تمنحون فائدة الشك لهاري كليفتون، وليس لجيل بارينغتون؛ لأن الاحتمالات تميل كلها لصالحه». ثم نظر بتحدٍّ إلى المقاعد المقابلة وقال: «أود الختام أيها اللوردات بالاقتراح عليكم حين تدخلون قاعة القرار، أن تأخذوا ضمائركم معكم، وتتركوا السياسة في مجلس النواب».

جلس اللورد برستون وسط تصفيق حارٍّ صادر من مقاعد مؤيديه، فيما أومأ العديد من الزملاء في الجهة القابلة من المقاعد برؤوسهم.

دوّن اللورد هارفي رسالة لخصمه هنّأه فيها على خطابه القوي الذي بدا أكثر إقناعاً نتيجة اقتناعه البدهي. ووفقاً لتقليد المحكمة، بقي الخطيبان في مكانيهما للإصغاء إلى آراء الزملاء الذين تكلموا لاحقاً.

وتبيّن أن هناك العديد من الإسهامات غير المتوقعة من كلا الفريقين في المحكمة؛ ما جعل اللورد هارفي غير واثق إطلاقاً مما ستكون عليه النتيجة عند الإدلاء بالأصوات النهائية. وثمة كلمة تم الإصغاء إليها بانتباه كبير من كل الموجودين في القاعة ألقاها رجل الدين الأكبر في بريستول، ودعمها بوضوح العديد من أصدقائه الذين جلسوا على المقاعد قربه.

فقد قال رجل الدين: «حضرة اللوردات، إذا صوّتم الليلة لصالح السيد جيل بارينغتون في وراثة اللقب، فلن يبقى أمامي وأمام أصدقائي أي خيار سوى سحب اعتراض دار العبادة على الزواج القانوني بين السيد هاري كليفتون والآنسة إيما بارينغتون. فإذا قررتهم أيها اللوردات أن

هاري ليس ابن هوغو بارينغتون، فلن يكون هناك أي عائق أمام مثل هذا الزواج».

عندها، همس اللورد هارفي لزميل جالس قربه على المقعد الأمامي: «لكن، كيف سيصوّتون؟».

«لن نصوّت أنا وزملائي لأي فريق عند استدعائنا إلى التصويت؛ لأننا نشعر أننا غير مؤهلين لاتخاذ أي قرار سياسي أو قانوني في هذا الشأن».

فقال اللورد برستون بصوت عالٍ كفاية ليسمعه رجال الدين: «وماذا عن الحكم الأخلاقي؟!». وأخيراً، وجد اللورد هارفي شيئاً اتفقا عليه معاً.

ثمة كلمة أخرى فاجأت قاعة المحكمة ألقاها اللورد هوغس، وهو لورد مستقل، ورئيس سابق للجمعية الطبية البريطانية.

«حضرة اللوردات، عليّ إبلاغ المحكمة أن الأبحاث الطبية الأخيرة التي أنجزت في مستشفى مورفيلدز أظهرت أن عمى الألوان ينتقل فقط من جهة الأم».

ففتح قاضي القضاة ملفه الأحمر ودوّن إضافة إلى ملاحظاته السابقة.

«وإذا كان اللورد برستون يوحي بأن السير هوغو بارينغتون كان مصاباً بعمى الألوان، ولذلك يحتمل كثيراً أن يكون هاري كليفتون ابنه، فإن هذا غير صحيح، ويجب اعتبار الأمر مجرد صدفة».

عندما دقّت ساعة بيغ بين عشر مرات، كان لا يزال هناك العديد من اللوردات الراغبين في الكلام أمام قاضي القضاة. وبفضل حكمته الكبيرة، قرر قاضي القضاة السماح بأن تأخذ المناقشة مجراها الطبيعي.

وهكذا، جلس آخر متحدث عند بداية اليوم التالي؛ أي بعد دقائق قليلة من الساعة الثالثة من بعد منتصف الليل.

وعندما رنّ جرس التصويت أخيراً، خرجت صفوف من القضاة المرهقين والمتعبين من القاعة، وتوجهوا إلى غرفة التصويت. وقد لاحظ هاري- الذي كان لا يزال جالساً في الردهة- أن اللورد هارفي نام بسرعة. غير أن أحداً لم يعلّق. ففي النهاية، لم يغادر مكانه طوال الساعات الثلاث عشرة الماضية.

قال جيل ضاحكاً: «فلنأمل أن يستيقظ في الوقت المناسب للتصويت». فيما استغرق جده في النوم أكثر فأكثر وهو جالس على المقعد.

بعد قليل، غادر موظف قاعة المحكمة بسرعة واستدعى سيارة إسعاف، فيما أسرع رجلان إلى قاعة المحكمة، ووضعا اللورد النبيل برفق على حمالة.

وعلى الفور، غادر هاري وجيل وإيما قاعة الزوار، ونزلوا السلالم مسرعين، ووصلوا إلى ردهة القضاة فيما أخرج الرجال الحمّالة من القاعة. رافق الثلاثة اللورد هارفي إلى خارج المبنى، وركبوا في سيارة إسعاف كانت تنتظر هناك.

وبعد أن أدلى اللوردات بأصواتهم وفق خياراتهم، عادوا إلى قاعة المحكمة ببطء. غير أن أياً منهم لم يشأ المغادرة قبل أن يسمع النتيجة النهائية. وتعجّب اللوردات من كلا الجانبين في القاعة حين لم يروا اللورد هارفي في مكانه على المقعد الأمامي.

وشيئاً فشيئاً، بدأت الإشاعات تسري في قاعة المحكمة. وعندما سمع اللورد برستون بما جرى، أصبح شاحباً جداً.

مرّت عدة دقائق قبل أن يعود أربعة من حاملي السوط إلى قاعة المحكمة لإبلاغ الجميع بنتيجة التصويت. ساروا بخطى منتظمة في الممر الوسطي، وتوقفوا أمام قاضي القضاة.

عندها، خيّم السكون على قاعة المحكمة.

رفع حامل السوط الكبير ورقة التصويت وأعلن عن النتيجة بصوت عالٍ: «الأصوات في اليمين مئتان وثلاثة وسبعون صوتاً. والأصوات في اليسار مئتان وثلاثة وسبعون صوتاً».

وعلى الفور، عمّت الفوضى في قاعة المحكمة وفي ردهة الطابق العلوي، فيما استفسر اللوردات والزوار عما سيحصل لاحقاً. وأدرك المخضرمون أن قاضي القضاة هو الذي سيحسم نتيجة التصويت. وكان قاضي القضاة قد جلس على كرسيه، غير متأثر إطلاقاً بالضجيج والفوضى حوله، فيما انتظر بهدوء عودة الصمت إلى القاعة.

وبعد سكون آخر الهمسات، نهض قاضي القضاة عن كرسيه ببطء، وعدّل شعره المستعار على رأسه، ثمّ سوّى طية ردائه الأسود المزين بضفائر ذهبية، قبل أن يتوجّه إلى منصة المحكمة، فشخصت إليه كل العيون. وفي ردهة الزوار المزدحمة والمطلة على قاعة المحكمة، اتكأ أولئك الأشخاص الذين استطاعوا الحصول على تذاكر للدخول على الدرابزين. بقيت ثلاثة مقاعد فارغة في ردهة الزوار المميزين؛ إنها مقاعد الأشخاص الثلاثة الذين سيحدّد قاضي القضاة مصيرهم.

بدأ قاضي القضاة كلامه: «أيها اللوردات، لقد أصغيت باهتمام إلى كل كلمة قالها كل واحد من اللوردات خلال هذه المناقشة الطويلة والمذهلة. وقد فكّرت ملياً في الحجج المقدمة ببراعة كبيرة وشغف كبير من كل الأفرقاء في المحكمة، ووجدت نفسي فعلاً أمام معضلة. وأودّ مشاركتكم جميعاً ما يقلقني.

في الظروف العادية، وحين تكون نتيجتا التصويت متساويتين هكذا، لا أتردد أبداً في تأييد الحكم الأول للقضاة؛ والذي جاء في هذه الحالة لمصلحة هاري كليفتون في وراثة لقب بارينغتون بأربع أصوات ضد ثلاثة. وسأكون غير مسؤول إذا لم أفعل ذلك. ولكنكم أيها اللوردات لا تدركون ربما أنه مباشرة بعد استدعائكم للتصويت، أصيب اللورد هارفي بوعكة صحية، وبالتالي عجز عن الإدلاء بصوته. ولا يشك أي منا في الخيار الذي كان سيصوّت له، ما سيمنحه فوزاً ولو بهامش بسيط، وبالتالي سينتقل اللقب إلى حفيده جيل بارينغتون.

حضرة اللوردات، أنا واثق من أن المحكمة ستوافق على أن قراري النهائي يحتاج إلى حكمة كبيرة نظراً للظروف الراهنة».

سُمِعت همسات خفيفة من جهتَي المحكمة.

غير أن قاضي القضاة تابع كلامه وقال: «لكن، عليّ القول للمحكمة إنني لم أقرر بعد أي ابن سأقطعه إلى نصفين، وأي ابن سأعيده إلى عائلته».

سُمِعت بعض الضحكات بعد هذه الملاحظة، ما ساعد على كسر التوتر الذي ساد في المحكمة.

وبعد قليل، تابع قاضي القضاة كلامه بعد أن استعاد انتباه كل الموجودين في المحكمة: «لذا، أيها اللوردات، سأعلن حكمي في قضية بارينغتون وكليفتون في تمام العاشرة من هذا الصباح». وأخيراً، جلس على كرسيه من دون التفوه بأية كلمة أخرى. طرق كاتب المحكمة بمطرقته ثلاث مرات، لكن الصوت بالكاد كان مسموعاً نتيجة الجلبة التي سادت في القاعة.

ثمّ صرخ كاتب المحكمة: «سوف تلتئم المحكمة مجدداً عند الساعة العاشرة صباحاً ليصدر قاضي القضاة حكمه في قضية بارينغتون وكليفتون. رفعت الجلسة!».

عندها، نهض قاضي القضاة من مكانه، وانحنى احتراماً أمام الحشود المجتمعة، فبادله اللوردات التحية بالمثل.

وأخيراً، طرق كاتب المحكمة بمطرقته ثلاث مرات مجدداً، ثم صاح قائلاً:

«رفعت الجلسة!».

مكتبة الكندل العربية

مكتبة الرمحي أحمد